عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الساحل البشري

تأليف: جون آر. غيليس
ترجمة: د. ابتهال الخطيب



عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

الساحل البشري

تأليف: جون آر. غيليس
ترجمة: د. ابتهال الخطيب



نوفمبر 2015
430


المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب



سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي :
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص . ب : 28613 – الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون : 22431704 (965)
فاكس : 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 465 - 8

رقم الإيداع (2015/893)

العنوان الأصلي للكتاب

The Human Shore:
Seacoasts In History

By

John R. Gillis

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

المحرم 1437 هـ ـ نوفمبر 2015

المحتوى

مقدمة المترجمة

«لـكي تحكم الطبيعة يجـب أن تطيعها»، ذاك هو الاقتباس القديـم الذي ينهي به جون غيليس كتابه المثير «الساحل البشري». وفي حين أنه يمكـن وصف الكتاب بصفات متعددة، فإن كلمة «مثير» تأتي أكثر قربا لما يستشعره القارئ ليس فقط مـن خلال المعلومات المقدمة ولكن كذلك من خلال أسـلوب عرضها. يقدم الكتاب استعراضا علميا بيئيا لسواحل العالم وللتغيرات المهمـة التـي أصابـت بعضهـا بشـكل جلي، تغييرات في معظمها سـلبية موعـزة لتدخلات الإنسـان الأنانيـة في النظـام الدقيـق للبيئات الانتقالية الحساسـة بين الأرض والبحر، غير أن «المثـير» في التنـاول هو أن الكتـاب لا يتوقف عند المنطق العلمي، بل لربما هو لا يبني عليه. يستعرض الكتاب الطبيعة الاجتماعية والثقافية للسـواحل والكيفية التي أثرت بها وتأثرت من خلال هذه الجوانب الذهنية البعيدة عن علوم البيئة والآثار. يستعرض الكتاب علاقات الجذب والطرد بين الإنسان والسواحل والبيئات المائية،

«أمـا أكثر مـا في التناول مـن إثارة في كتـاب غيليـس فهو مـا انصَبّ على الربط الإنسـاني بين فكرة جنة عدن، كجنة أرضية، وعلاقة الإنسان القديمة مع الأرض والساحل»

حيث بدأ الإنســان القديم حياته قربا من السواحل ليبتعد بعدها عنها متوغلا على اليابســة ومكونا علاقة سلبية شبه عدائية تجاه الساحل، ليعود مجددا بحنين شديد إلى الســواحل، عودة اقتصادية ترفيهية ســياحية هذه المرة، عــودة مدمرة للعيش «على» وليس «مع» الساحل.

أمــا أكثر مــا في التناول من إثــارة في كتاب غيليس فهو مــا انْصَبَّ على الربط الإنســاني بين فكرة جنة عدن، كجنة أرضية تماما، وعلاقة الإنسان القديمة مع الأرض والساحل. يعتقد الكاتب أن الأنظمة الفكرية والثيولوجية التي أتت لتؤكد «أرضية» الجنة قد أســهمت في تثبيت الفكرة العدائية للسواحل على أنها خطوط فاصلة بين أمان الأرض وتهديدات المياه. يســتعرض الكاتب تاريخا طويلا للتعامل الإنساني مع ميــاه الأرض كلها على أنهــا «بحر كبير»، وأن العالم بأكملــه «جزيرة صغيرة» خالقا عوالم رعب غامضة في أعماق المياه، حيث بدت الأعماق، التي كان الإنســان يتجنبها دوما مفضلا الإبحار بالقرب من الساحل، أماكن تسكنها الشياطين والأرواح الشريرة، أماكن يقطعها الإنسان بخوف ليصل إلى بر الأمان، إلى يابسة أخرى.

استعرض الكاتب كذلك تاريخ إقامة الإنسان على السواحل، أنواع البيوت التي شــيدها هناك، أنواع الحيــاة، التغذية، والعمل التي وفرتها هــذه البيئة الانتقالية. تحــدث الكاتب عــن الكيفية التي انتقلت بها الســواحل من كونها أماكن كســب للقوت إلى أماكن دفاعية حربية حيث اســتخدمها الإنســان كواجهات قتالية لفترة طويلــة وصــولا إلى كونها أماكن اصطيــاف ترفيهية يعيش عليها الإنســان لحظات التأمــل وأحلام اليقظة مــن دون أن ينتبه فعليا إلى حقيقتها أو تأثير اختياراته فيها. يــأتي الكاتب كذلــك على علاقة الإنســان بالمخلوقات الســاحلية والتي في حين بدأ الإنســان نظرته إليها على أنها جزء من الحيــاة المتوازنة وإضافة غذائية مكملة له، أصبح إنســان اليوم ينظر إليها على أنها طفيليات تجب إزالتها ليبقى له الســاحل النظيف القاحل يصطاف عليه من دون أن يستشعره.

وفي هذا المجال يســتعرض الكاتب علاقة الإنسان بالطحالب المائية، الأصداف، الأســماك، الحيتــان، بيد أن أكثر الأمثلــة إثارة وتجاوبا مع تجاربنا هو مثال ســمك القرش الذي لطالما كان مخلوقا مسالما يعيش بتوازن في بيئته حتى حوله الإنسان إلى وحش مرعب فتاك من خلال الفيلم الأكثر شهرة «الفك المفترس». يستعرض الكاتب

عددا من الأعمال الأدبية الأخرى التي أسهمت إما في تشويه صورة الحيوانات المائية وخلق الأساطير المرعبة حولها أو في تعزيز أهميتها ووعيها بمحيطها، مثل رواية هيرمان ميلفيل التي حاولت تقديم الحوت على أنه ضحية للإنسان، والتي استُقبلت في وقت نشرها أسوأ استقبال على أنها هلوسة أدبية لكاتب مجنون.

يستمر غيليس في استعراض تاريخ الساحل وكائناته ليس فقط علميا ولا زمنيا ولا طبيعيا، بل إنه يتعدى هذه الأبعاد، كما ذكرت أعلاه، إلى تلك الاجتماعية، الثقافية، الذهنية، الثيولوجية، بل والأدبية الفنية كذلك. يستعرض الكتاب عددا من الأعمال الفنية التي تعاملت مع الساحل وكائناته في محاولة لتبيان النفسية الإنسانية المتباينة عبر العصور في معتقداتها وتعاملها مع هذا الساحل. ينتهي الكاتب إلى استعراض التعامل التقني الصناعي الحالي الذي في حين أنه قرب الإنسان من الساحل في صورة سياحية ترفيهية مكانيا، بيد أنه أبعده عنه كما لم يسبق له البعد ذهنيا ونفسيا. تزور أعداد هائلة من البشر المنتجعات الساحلية سنويا من دون أن تلقي نظرة على المياه أو تستمتع بها وأن تتعامل معها بأي شكل. ينظر البشر اليوم إلى المياه من بُعد، يتعاملون معها ومع سواحلها الفاصلة على أنها أماكن خطر يمكن لهم أن يستمتعوا بالنظر إليها من دون أن يقتربوا فعليا من روائحها ومخلفاتها.

أخيرا، يدرس الكاتب الساحل من خلال المنظور الطبقي، فيبين علاقة الطبقات المختلفة مع هذا الساحل والكيفية التي غير بها البشر، وفق طبقاتهم الاجتماعية، مفاهيمهم تجاه الساحل وأساليب تعايشهم معه. يبين الكاتب أنه في حين كان الساحل مكانا منبوذا بالنسبة إلى الأغنياء إبان العقود الوسطى والمتأخرة من القرن التاسع عشر، حيث كان مكانا يسكنه ـ وفق مفهوم الأغنياء ـ والفقراء واللصوص وممارسو البغاء والمهربون وتجار المخدرات، وحيث كان ينظر إليه على أنه مكان قذر غير مريح مملوء بالمخاطر والأوبئة، تحول الوضع في أواخر ذلك القرن إلى عكسه تماما. سعى الأغنياء إلى طرد الفقراء من مناطقهم الساحلية طمعا في العقارات المرتفعة على الساحل ورغبة في صنع أماكن ترفيهية في المناطق التي يكسب منها الفقراء قوتهم. يستعرض الكاتب هذه العلاقة الطبقية الاجتماعية استعراضا مفصلا في فصول كتابه، مؤكدا أن هذه الرغبة الطبقية في تحويل الساحل من مقر للبائسين

إلى مراكــز ترفيهية للأغنياء هي التي ابتدأت هذه العلاقــة الجديدة الأخيرة والتي تبدو مدمرة بين البشر والساحل.

لا يتوانى الكاتب في تقديم تحذيراته من طريقة التعامل البشري مع الســاحل بل وحتى من طريقة التفكير البشري في هذا الساحل. يدفع بنا الكاتب إلى أن نعيد التفكير بشــكل عميق وحقيقي في الساحل وكائناته، لأن نجد وسيلة كي نعيش معه وليس فقط عليه، لأن نتفهمه ليس بوصفه خطا فاصلا بين الأرض والماء ولكن كجزء منساب لا يتجزأ من الكينونة الحيوية المستمرة للأرض والماء.

يدفع كتاب «الساحل البشري» بذهنية القراء إلى آفاق جديدة مجبرا إيانا على إعادة النظر فيما نعتقد أنه مســلمات، مؤكدا التســاؤل الذي بدأه في أول كتابه، لِمَ يــا ترى تركز البشرية على تاريخها الأرضي من دون أن تبدي اهتماما كبيرا بتاريخها الساحلي والمائي؟ ما الدوافع تجاه هذا التجاهل؟ وما الذي يفوتنا من تاريخنا وبالتالي من إمكانيات صنع مســتقبلنا نتاج هذا التجاهــل؟ لِمَ الجنة أرضية فقط؟ أين هي الجنة المائية من الوعي الإنســاني؟ يأخذ «الســاحل البشري» القراء في رحلة طويلة وعميقة محاولا تبين حقيقة التاريخ الإنســاني الأرضي المائي الذي يعتقد الكاتب أنه لا مستقبل واضح مضمون من دون تبيانه وفهمه التامّين.

د. ابتهال الخطيب

مقدمة

السواحل. هناك أنماط مختلفة
من السواحل. كل إنسان يولد في
هذا العالم له ساحل، له حافة، حد،
منطقة انتقالية بين نفسه والعالم.

جون أ. موري[1]

هناك اندفاع غير مسبوق حول العالم باتجاه البحر. نصف سكان العالم يعيشون الآن على بعد مائة ميل من محيط ما. في الولايات المتحدة ارتفع التعداد السكاني الساحلي بنسبة 30 في المائة تقريبا خلال ثلاثين سنة. اليوم، أصبح ما كان يسمى بالنطاق الساحلي، والذي يشكل 15 في المائة من المساحة الأرضية للولايات المتحدة، مأهولا بما نسبته 53 في المائة من التعداد السكاني للولايات المتحدة. وبطرق مشابهة، ارتكست أستراليا، جنوب أمريكا، آسيا وأوروبا إلا أفريقيا لم تُفَرّغ، وحتى هناك، فإن الأعداد السكانية الساحلية ، خصوصا من سكان المدن، آخذة في الانفجار. كلنا اليوم مخلوقات

«يجب علينا أن نتعلم العيش مع سواحلنا، وليس فقط عليها، فبقاؤنا وبقاؤها يعتمدان على ذلك»

«الحواف» نفسيا وكذلك جسديا. وباختبارنا واحدة من أعظم الهجرات الجسدية في التاريخ الإنساني، فإننا اليوم نعيش في خضم حالة إعادة ترتيب ثقافي ذات دلالات بالغة الأهمية[2].

خلال حياتي، تغيرت السواحل بشكل يفوق تغير أي معلم طبيعي آخر. ليس فقط أن استعمار الشعوب الداخلية للسواحل قد غير البيئة البحرية بشكل جذري، ولكن كذلك غير هذا الاستعمار وبشكل تام طبيعة المجتمعات الساحلية. اكتسبت السواحل في حد ذاتها معنى ثقافيا جديدا كليا، ليس فقط لمن يعيشون عليها، ولكن كذلك بالنسبة إلى السكان الداخليين الذين يُدفع بهم وبشكل متزايد باتجاه البحر. واليوم، فإننا جميعا، بصورة أو بأخرى، ساحليون. ليس فقط إننا نعيش على السواحل، نحن نفكر من خلالها كذلك، فالسواحل جزء من جغرافيتنا الأسطورية كما الطبيعية.

تمثل حياتي، بإيجاز، هذه العودة الملحمية للبحر. وُلِدت في نيوجيرسي وجرى اصطحابي إلى شاطئها كطفل صغير. بيد أن معظم طفولتي وصباي قد قضيتهما في الداخل الأمريكي، ولم يكن إلا عندما تزوجت وأصبحت أبا لولدين أن ملكت منزلا موسميا على جزيرة صغيرة تطل على ساحل ماين(*). وعلى الرغم من أنني لم أدرك الوضع في وقتها، فإنه يبدو بنظرة استذكارية، أنني كنت في الواقع أشارك فيما يبدو تحولا تاريخيا عظيم الدلالة. اليوم، أنا عضو في هذا التعداد السكاني الذي يسمى شبه ساحلي، حيث أعيش في المنطقة الشاطئية معظم السنة وفي ماين خلال الصيف.

لقد استغرقت نصف قرن لكي أصبح محيطا تماما بما يعنيه ذلك بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى المجتمع بشكل أكثر عموميةً. حتى الآن، مازلت أستكشف الطرق المختلفة الممكنة لأصبح ساحليا. كل صيف، أراني مدفوعا بقسوة إلى إدراك مدى اختلاف علاقتي بالبحر عن تلك التي لجيراني في ماين والذين يعتاشون من المحيط. لقد توصلت إلى تقدير الاختلاف بين العيش على السواحل والعيش مع

(*) تقع ولاية ماين في الجزء الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة مطلة بجزأيها الشرقي والجنوبي على المحيط الأطلنطي. تمتد سواحلها لما يزيد على ثلاثة آلاف ميل، حيث بُني على هذه السواحل، خصوصا الجنوبية منها، عدد كبير من المجتمعات الساحلية. [المترجمة].

السـواحل، كما تعلمت تمييز الفرق الحاد بين الأشـخاص المقيمين على السواحل والأشخاص السـاحليين الذين تتعدى علاقتهم التاريخية بالبيئة الساحلية مجرد السـكن. المابنيون يحبـون أن يذكرونا، نحـن «القادمين من بعيـد»، كم نحن مختلفون عن هؤلاء السكان الأصليين لسواحلهم. أنا الآن أقبل حكمهم[3].

في العمل الكلاسـيكي لراتشيل كارسـون «البحر من حولنا»[*]، يُقدم المحيط عـلى أنه بداية كل الحياة. بمرور الوقت، تعلمت المخلوقات العيش على الأرض، وقلـة، مثل الحوت والفقمة، اتخذت طريقها عـودة إلى البحر. «تدريجيا، حتى الإنسـان وجد طريقه عائدا إلى البحر»، لم يكن عائدا جسديا بل «عاود الدخول ذهنيـا وخياليا». هذا تحديدا ما فعلته كارسـون ببراعة كعالمـة وكاتبة عظيمة الموهبـة. لقد جلبت كارسـون الملايين من القراء إلى حافـة البحر، حيث أعادت تعريفهم بالبيئة الغنية التي تقع على جهتي الحد المائي. وذلك هو أيضا ما أطمح إلى تحقيقه كمؤرخ، بيد أن مهمتي هي عبور الحاجز الزمني الذي يفصل الحاضر الساحلي عن الماضي الساحلي[4].

لقد كانت الكتابة عن السـواحل والأشخاص الساحليين رحلة ذهنية رائعة، ممتلئـة بالمفاجآت والاكتشـافات. لقد جاء العديد منهم مـن جزيرتنا الصغيرة والتـي هي على مرمى النظـر من حديقة أكاديا العامة[**]، حيث أجد سـهولة في تخطـي حـد التيار المائي وحد الزمـن أكثر من أي مكان آخر. تسـجل مقبرة هـذه الجزيرة مائتي سـنة من الحياة والموت عليها. إننـا في بيت قبطان بحري من القرن التاسـع عشر والذي كان ذات يوم مِلك أحد أشـهر كتاب ماين، روث مور[***]، والتي كانت تعرف وضع الأرض والبحر تماما كما يعرفه الآخرون. تصور قصائدها ملامح الساحل الثابتة وكذلك التغييرات الشاسعة التي أصابت الساحل عبر القرون[5].

(*) The Sea around Us: كتاب نشر في 1951 عن دار أكسفورد للنشر، ويدور حول تاريخ البحر علميا وعاطفيا. [المترجمة].

(**) تقع حديقة أكاديا العامة في ولاية ماين، وهي من أجمل الحدائق الواقعة على السـاحل الشرقي بما تحتويه من نباتات وحيوانات وأعلى قمة جبل على الساحل الأطلنطي الشرقي للولايات المتحدة. [المترجمة].

(***) تعتبر روث مور أحد أهم «الكتاب الإقليميين» لولاية ماين في القرن العشرين. كانت مور فخر نيو إنغلاند حيث كانت تعد بمقام الكاتب فولكنر هناك. توفيت مور في العام 1989. [المترجمة].

الصيف الأول كان الناس فيه هنودا
لما يقرب من خمسة آلاف سنة
بنوا حد الساحل بأكوام المحار قبل أن
يخسروا معركتهم أمام السابقين

وعهدهم كان زمن التاريخ
حيث تشهد السجلات المكتوبة
بأن سيطرتهم على جزر الساحل بدأت
منذ أقل من أربعمائة سنة محسوبة

الآن أَقْبَلَ زمن العقار
زمن قسائم المائة ألف دولار
زمن الشقق السكنية المتراصة
على طول الساحل [مقتبسة كما هي] بقع للاختيار

ما سيلحق بزمن المطورين
أمر لا يمكن لصوت إنساني أن يَبُتَّ فيه
لكن جزر الساحل الصامتة تعرف
وتتعامل مع الخبايا بحكمة وعقل تقتدي به

على ساحل مور، الماضي حاضرٌ دائما. لم يغادر الأمريكيون الأصليون فعليا قط. أحفاد هؤلاء الذين تركوا أكوام المحار منذ زمن المسيح يعودون سنويا لتجميع حلزون البحر واصطياد الغزلان. ينضم إلى هؤلاء ورثة المستوطنين الأوروبيين الأوائل، والذين لايزالون يصطادون السمك ويصنعون المراكب بطرق كانت مألوفة لأي بحار قديم. على هذا الساحل، حتى المصطافون من ضواحي المدينة يعرفون كيف يصطادون، يجمعون، ويزرعون الحدائق بطرق لا تختلف كثيرا عن تلك التي كانت لشعوب العصر الحجري.

إن الأدلة على هذه الاستمرارية موجودة في كل مكان على شواطئ ماين، غير أن النسيج الذي يربط بينها خفي إلى حد كبير. لقد أقمت هناك ما يقرب من نصف قرن قبل أن أدرك ضحالة ما أعرفه عن تاريخها الطبيعي والإنساني. من جانب، كان تدريبي كمؤرخ هو ما ضيق أفق فهمي، حيث إننا تعلمنا معاملة السواحل على أنها أماكن يبدأ عندها التاريخ وينتهي، أهميتها تنحصر فقط في كونها عتبات. تعلم المؤرخون تفضيل الأرض على الماء، الشعوب الداخلية عن تلك الساحلية. ونحن لسنا الوحيدين في قصورنا هذا. فعلى الرغم من استكشاف كارسون الرائد لأطراف البحر، فإن مختصي البيئة كانوا بطيئين في قبول تحديها لسكنى هذه الأطراف «ذهنيا وخياليا»، لمزج السواحل مع منظورهم التاريخي. يظهر هؤلاء اهتماما عميقا بمصير الحياة النباتية والحيوانية الساحلية، بيد أنهم يبدون لا مبالين تجاه العامل الإنساني للبيئة البحرية الساحلية، والذي يسمى Homo littoralis(*)، والذي لا ينفصل تاريخه عن تاريخ الساحل في حد ذاته. نحن جميعا نعاني فقدان ذاكرة معيقا، حيث ننسى أن السواحل هي مناطق خاصة جدا، تسمى ecotones(**)، وهي مناطق يتداخل فيها نظامان بيئيان، هي المواطن الطبيعية لمخلوق Homo sapiens(***) وهي مواقع للكثير من التاريخ الإنساني اللاحق[6].

في وقت ما، كانت السواحل مواطن لأعداد مهمة من البشرية، عندما، وكأي موطن، كانت هذه السواحل مواقع انتماء، مراكز للعالم عوضا عن مجرد حدود له. الآن، وعندما أصبحت السواحل حوافٍ لشيء آخر، لقارات أو جزر، أصبحنا لا نعيش فيها ولكن عليها. إن العلاقة الحالية للإنسانية بالساحل هي علاقة الغريب، فبعد آلاف السنوات من الوجود الساحلي، نسيت الإنسانية كيف تتعايش مع السواحل والمحيطات. لم يكن استيطان السواحل أمرا سهلا في وقت ما، فارتفاع منسوب البحر، والتعسف في صيد السمك، والتلوث، كلها حدثت في الماضي، حيث كان على بشر السواحل دوما أن يتعاملوا مع الكوارث الطبيعية والإنسانية. من خلال التجربة

(*) «بشر السواحل» أو البشر المقيمون على السواحل. [المترجمة].

(**) الكلمة تشير إلى المساحة الانتقالية بين مجتمعين متشابهين في ظروفهما المناخية والجغرافية. [المترجمة].

(***) الاسم العلمي للنوع الإنساني، في إشارة إلى المخلوق العاقل. [المترجمة].

والخطأ تكيف هؤلاء في تعاملهم جسديا وثقافيا مع هذه البيئة الممتلئة بالتحديات. بيد أنه لم يحدث سابقا أن كانت درجة تواتر التحديات بعظمة الوقت الحاضر، حيث تعاظمت هذه الدرجة بسبب حقيقة أن الكثير ممن يحيا على السواحل ليست لديهم فكرة عن كيفية الحياة هناك بطريقة مستقرة. هناك حاجة ملحة ليس فقط إلى فهم ديناميكية التغيرات المناخية بل هناك حاجة مستوجبة كذلك إلى الاستفادة من إستراتيجيات التكيف المحفوظة في السجلات التاريخية من أزمنة كانت فيها السواحل «هنا» وليست «هناك»، أماكن للعيش وليس للزيارة فقط[7].

جيمس هاميلتون - باترسون، مؤلف كتاب Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds، والذي يعرف البحار والسواحل عن ظهر قلب، يعتقد «أننا أضعنا مكاننا، ولا نعرف كيف نعود». لست في الواقع بهذا التشاؤم، وإلا ما كنت بدأت رحلة عَبَرت المئات من آلاف السنوات، رحلة أخذتني ليس فقط إلى سواحل شمال أمريكا وأوروبا بل إلى أفريقيا، وأستراليا، ونيوزيلندا، واليابان، وتازمينيا كذلك. تحذرنا كارسون من أن «طرف البحر يبقى حدا مراوغا وغائما». ليس فقط أن الصفات الطبيعية للسواحل تتغير باستمرار، بل تتعدد كذلك طرق أن يكون الإنسان ساحليا بتعدد الشعوب الساحلية. نحن نحتاج إلى أن نصل إلى شيء من الفهم المنطقي لكل الطرق التي عاش من خلالها البشر مع السواحل، قصة امتدت إلى ما لا يقل عن 200 ألف سنة. هناك دروس مهمة لنتعلمها من أسلافنا الساحليين، سواء كانوا صيادي ما قبل التاريخ، ملاحين قدماء في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، معماريين هولنديين للأراضي المستصلحة من البحر، أو بحارة لونغ آيلند [8].

لم أتوقع، وأنا أنطلق في رحلتي هذه إلى أزمنة سحيقة ومساحات بعيدة، أنني سأنتهي إلى كتابة قصة بديلة للتاريخ العالمي. لقد حضرني اكتشاف أنه ليس في الواقع الداخل ولكن الساحل هو الذي كان جنة عدن الأصلية وأن الوصف الأفضل لـ Homo Sapiens هو أنهم كائنات الأطراف التي ازدهر وجودها باستمرار على المناطق الانتقالية الساحلية حيث يلتقي نظاما اليابسة والبحر الإيكولوجيان، حضرني ذلك كنوع من المفاجأة. منذ العصر الحجري وإلى عصر عولمتنا هذا، كانت شعوب السواحل دوما في المقدمة. لقد اتضح أن التغيير كان يولد باستمرار على الأطراف وليس على المناطق الداخلية، لذلك فإن علينا أن نقلب تاريخ أراضينا

الداخليـــة عـــلى أعقابها. هذه العملية تـــأتي بتحدٍّ ليس فقط لتاريخ مركز اليابســـة التقليـــدي، بل كذلك للاهتمام الســـابق لعلوم أعماق البحار بالدراســـات التقليدية البحرية. فيما يلي، ســـأتفحص ستة أزمنة رئيسة في التاريخ الساحلي ابتداءً باللحظة الأولى التي عادت فيها البشرية إلى البحر قدوما من الداخل الأفريقي، حيث سأؤكد كل الظواهر المستمرة، ولكن كذلك سأبين التغييرات التي حدثت حول العالم.



لافتة على جرف عند منطقة «سي رانش»، كاليفورنيا. الصورة للمؤلف.

ترحب اللافتة المبينة في الشـــكل رقم 1 بالزوار المتجولين هبوطا إلى تلال منطقة «سي رانش» في كاليفورنيا، وهي عبارة عن امتداد ســـاحلي خلاب في شـــمال ســـان فرانسيسكو. استوقفت هذه اللافتة مساري ذات عصر ساطع في أبريل 2007، حيث لم أســـتطع أن أبعدها عن تفكيري أسابيع عدة بعد ذلك اليوم. بمرور الوقت، بدأت أرى جملـــة «لا تـــدر ظهرك للمحيط أبـــدا»(*) كدعوة بمقدار ما هـــي تحذير. لقد دفعتني هذه الجملة في رحلة لفهم علاقتنا المعقدة مع البحر، والتي أخذتني حول العالم وإلى أعماق زمن قليل من المؤرخين الذين قاموا بزيارته.

(*) تلك الجملة هي الثالثة والأخيرة على اللافتة الظاهرة في (الشكل رقم 1). [المترجمة].

وفي طــور كتابة هذا الكتاب، كان لي أن أتعلم أن الســاحل هو الموطن الأصلي للإنســان العاقل Homo Sapiens. لقد تغيرت علاقتنا بهذا الساحل بشكل ملحوظ خلال الـ 200 ألف سنة الماضية، بيد أننا بقينا غير منفصلين عنه من البداية ومازلنا كذلك إلى اليوم. لقد أدت السواحل دورا حيويا في جعلنا إنسانيين، ونحن، بدورنا، قد صنعنا من الســواحل ما هي عليه. أنا أدعو هذه الدراسة «الساحل البشري» لأشدد على هذا الاعتماد المتبادل. هذه قصة تطور مشــترك، قصة خلق مشــترك. في عصرنا هذا، عصر الأزمة البيئية، من المهم جدا أن نعود مجددا إلى موطننا في المكان الذي تلتقــي فيه الأرض بالميــاه. يجب علينا أن نتعلم العيش مع ســواحلنا، وليس فقط عليها، فبقاؤنا وبقاؤها يعتمدان على ذلك.

بديل لجنّة عدن

إن ساحل البحر حافة... وهو يتحدى الفكرة المعتادة للحدود عبر كونه غير ثابت، متقلبا، وغير قابل للنفاد.

ريبيكا سولنت[1]

إن الحضارة الغربية حضارة مرتبطة بالأرض، ومسجونة داخلها ذهنيا، إن لم يكن فعليا. وعلى الرغم من أن لهذه الحضارة تاريخا طويلا من الإنجازات المائية، فإن هذه الإنجازات لا تشكل هويتها الرئيسية. في العالم الغربي، نحن نتخيل التاريخ الإنساني مبتدئا ومنتهيا على اليابسة. إن فهمنا لجذورنا، العلمية والدينية، هو قطعا بري، حيث إننا واجهنا صعوبات عظيمة في إيجاد مكان للماء في كل من تواريخنا أو جغرافياتنا. نحن نتذكر لوسي التي وجدت بقاياها ذات الثلاثة ملايين سنة في العام 1974 في ممر أولدوفاي الجاف

«في التقاليد الغربية، كان البحر دائما بيئة غريبة»

تمامــا، ولكننا ننسى أنه إبان حياتها، كان الممر عبارة عن بحيرة، وأنها في الغالب كانت من ســكان الســواحل. فقط منذ وقت قريب بدأ علم الآثار لتحت الماء يتحدى الاعتقادات المبنية على التنقيب البري، حيث يشير هذا العلم إلى المدى الذي كانت عليه البشرية شــبه بحريــة، تبحث عن طعامها ليس فقط في المياه العذبة ولكن، وبصورة أكثر أهمية، على أطراف البحار كذلك.

«إن عدم المقدرة على النظر إلى المكان على أنه أي شيء سوى بري، هذا الاعتقاد الأبدي أن المجتمعات ما هي إلا كيانات مرســومة الحدود، مركزية، محاطة وثابتة، مــا هو إلا تشــويه للمنظور الماضي»، كتب إيريك ليد أنــه «منظور للتاريخ مغربل من خلال نتائج التاريخ». وبدعــم من التقاليد الدينية كما الدنيوية، أصبح لمركزية اليابســة مكانة أســطورية في الثقافة الغربية. إن أقدم الآلهة الإغريقية كانت جايا، الأرض الأم: «أم للجميع، أقدم من الجميع، صلبة، رائعة كما الصخر». إن الشــعوب التــي عرفناهم على أنهم العبريون القدماء كانوا قد بدأوا من فورهم في الاســتقرار في وضع شــبه زراعي عندما اســتحوذتهم فكرة جنة عدن. هذه المركزية لليابســة جرى تمريرها إلى المسيحية، وبتدعيم من المفاهيم الإغريقية والرومانية حول الأرض والماء، أصبحت الفكرة أساســية للحضارة الغربية. ومادامت جموع البشرية بقيت مرتبطة باليابســة، فإن الوضع منطقي، ولكن بمــا أن هذا الوضع ليس هو الحقيقة حاليا، فلا بد من المساءلة حوله[2].

في التقاليــد الغربيــة، كان البحر دائما بيئة غريبة. هنــاك مجتمعات أخرى لطالما شــعرت بالارتياح مع مسَــطحاتها المائية والانتماء إليها، وذلك على الرغم من أنه، ووفق علمي، لا توجد شعوب تنفي بالكامل ارتباطاتها باليابسة. فحتى شــعوب الموكين(*) وغيرها من الشــعوب التي تســمى بغجر البحار، في جنوب شرق آســيا، لا يعيشون بالكامل في البحر. فالفيجيون(**) يعتقدون أن جزيرتهم قــد أتت إلى الوجــود عن طريق روكوموتو الذي غــاص في البحر ليجلب تربته الخصبة إلى الســطح. إن قصة الغواص الأرضي شــائعة بين الشعوب التي تعيش بجانب البحر أو تعتاش منه. إن شــعب الهيدا القادم من جزر الملكة شــارلوت

(*) مجموعة جنوب شرق آسيوية تعيش بالقرب من البحر، وترتبط به وثيقا في حياتها. [المترجمة].

(**) شعوب أتت من جزر فيجي، وهي جزر في جنوب المحيط الهادي. [المترجمة].

الواقعة على الساحل الكندي الشمال غربي يحكي قصة «غراب» طائر فوق البحر، والذي يرى جزيرة صغيرة فيحولها إلى الأرض. لاحقا، وبينما يستكشف «غراب» هذا العالم الجديد، يصل إلى مسمعه صوت قادم من قوقعة حلزون صغيرة؛ ليكتشف خمسة آدميين بالغي الصغر، ليصبحوا كما يشير إليهم شعب الهيدا على أنهم «أهل سطح الأرض»[3].

بالنسبة إلى الشعوب الساحلية وأهل الجزر، لم تكن سوى حافة البحر التي كانت جنة عدن الأبدية بالنسبة إليهم، فهي بالنسبة إليهم ليست الهامش ولكن مركز عالمهم. وعلى خلاف العبرانيين، الذين كان التاريخ بالنسبة إليهم عبارة عن سلسلة طويلة من النفي، فإن هيدا، الشعب الساحلي، لا ذاكرة لديهم حول قدومهم من أي مكان آخر. في القصص التي يسردونها لأنفسهم، لطالما كانت سواحل شمال غرب الهادي هي موطنهم. هم يعيشون في بيئة واسعة وفي رغد ووفرة، في حاضر لا يتغير، حيث لا يثير لديهم أي حنين إلى ماض مفقود أو أحلام بمستقبل تعويضي. فلم يكن حتى وصل الأوروبيون المسيحيون وأخبروهم بأن كل البشرية توزعت من منطقة أرضية واحدة تسمى جنة عدن، ليجعلوا منهم إحدى قبائل إسرائيل التائهة، أن جعلوهم حتى يبدأوا بالأخذ في الاعتبار احتمالية كونهم غرباء على أرضهم، أو أن البحر يشكل خطرا عليهم. وحتى عندها، فإنهم رفضوا هذه النظرية التراجيدية للتاريخ على أنها غير محتملة كونها متضادة مع شعورهم بكونهم دوما شعوب xhaaydla، وهو المصطلح الذي يستخدمونه للساحل، حيث لا ينتمون كليا إلى الأرض أو إلى البحر، نوع مختلف من الأماكن يعيشون عليها في نوع مختلف من الزمن، مكان ما لا يمكن العثور عليه عادة على خريطة المستطلع أو صفحات المؤرخ[4].

في الغالب، لاتزال السواحل فئة غير معرفة في كل من التاريخ والجغرافيا. حتى اليوم، فإننا بصعوبة نلتفت إلى هذا الـ 95 في المائة من التاريخ الإنساني الذي جرت وقائعه قبل قيام الحضارات الزراعية. في العصر ما بعد الصناعي هذا، لايزال تصورنا للجنة على أنها حديقة عدن وللإنسان المثالي على أنه المزارع. يدفع كتاب سفر التكوين إلى إقناعنا بأن بداياتنا كانت بأكملها محددة أرضيا، غير أن هذا الكتاب كان قد كتب في الوقت الذي كان العبرانيون فيه يستقرون

في حياة زراعية. خدمت قصة عدن كأساس أسطوري للمجتمع الزراعي على نحو رائع، بيد أنها لا علاقة لها بتاريخ وجغرافيا البشرية، بما في ذلك تاريخ وجغرافيا اليهود اللذان تحققا قبل أن يكتبا منذ نحو 8 آلاف عام. إن قصة الإنسان العاقل الحديث Homo sapiens والتي تهمني هنا، تبدأ منذ 164 ألف سنة مضت. لمعظم مدة وجودنا، كنا مخلوقات متنقلة تبحث عن الطعام، كما أن معظم التطور الإنساني كان قد حدث ليس في المواقع المغلقة أرضيا، ولكن حيث تلتقي اليابسة بالماء. لا تزيف فكرة جنة عدن ماضينا فقط، لكنها الآن، وحيث للمرة الأولى يحيا مزيد من البشر في المدن عوضا عن اليابسة، هي تزيف مستقبلنا تماما.

نحن نحتاج إلى إعادة اكتشاف شعوب الساحل xhaaydla لإيجاد سرد تاريخي أقل تركيزا على اليابسة، سرد يتبين العلاقة الطويلة للإنسانية بالبحر ككائن ساحلي يحتل البيئات الانتقالية ecotones، حيث تلتقي اليابسة بالماء. نحن نحتاج إلى أن نتعرف على أنفسنا ككائنات متنقلة مائية، كحراس للطرائد كما نحن مزارعون. يعمد المزارعون إلى التحكم في الطبيعة فيما يقبلها حراس الطرائد ويتكيفون مع ظروفها. كما سنرى، على السواحل، كانت الزراعة مصحوبة في الغالب بالصيد والحصاد. والآن حيث ثبتت بشدة محدودية قدرة البشر على التحكم في الطبيعة، تتزايد الحاجة إلى استعادة عامل التكيف هذا الذي كان موجودا عندما كانت للبشر علاقة عمل مع البحر كما مع اليابسة. باختصار، نحن نحتاج إلى سرد جديد، سرد فيه، كما يقترح ستيف مينتز، «حدائق أقل، ومزيد من حطام السفن»، سرد أكثر انسجاما مع الطبيعة المتغيرة للسواحل في عصر التغير المناخي الهائل هذا[5].

أسطورة الحديقة

يقال إن العبرانيين كانوا «أول شعب فهموا أن أنفسهم تحيا حياة يعرف معناها بعيدا عن الطبيعة». كان إلههم مزارعا والذي زود آدم وحواء بثراء جاهز، والذي منع أي حاجة إلى العمل ووعد بحياة أبدية. في البداية لم تكن هناك طبيعة مقفرة. هذا القفر كان نتاج عصيان آدم وحواء، والذي دمر الجنة

الأصليــة، وحكم على البشرية بالكــدح والموت. كانت تلك هي قصة البدء التي اشترك فيها العبرانيون مع الحضارات الزراعية الأخرى في الشرق الأوسط القديم، قصة كانت غير مفهومة مطلقا للشــعوب التي تعتمد الصيد والحصاد، والذين كانت آلهتهم حراس طرائد عوضا عن مزارعين، والذين كانوا يشــعرون بأنهم في موطنهم في الأماكن التي كان يعتبرها اليهود والمسيحيون قفارا وحشية.

تبدأ أســطورة الخلق في الكتــاب المقدس بإعــلان أن «الأرض حينها كانت فوضى وبورا وظلاما في الأعماق، وأنفاس الرب تحوم فوق المياه». كان من أوائل أفعالــه أن يــروض المياه الثائرة. خلق الرب الســماوات، قائــلا: «لتجتمع المياه أسفل الســماوات في مكان واحد حتى تظهر اليابسة الجافة، وهكذا كان. ودعا الرب اليابســة الجافة بالأرض، والمياه المتجمعة أسماها البحار، وارتأى الرب أنها جيــدة». أنتجت الأرض الزرع والأشــجار، بينما امتلأت المياه بالســمك، والهواء بالطيــور. «وخلق الرب وحوش البحر العظيمة وكل كائن حي يزحف...»، فقط حينها خلق الرب الرجل والمرأة «على صورتنا، شبيهين لنا، ليحكما سيطرتهما على سمك البحر وعلى طيور السماء»، آمرا إياهما بأن «كونا مثمرين وتضاعفا واملآ الأرض وسيطرا عليها»[6].

الأرض هــي اللاعــب الرئيــسي في جغرافية الكتاب المقــدس، فكما بين ألين كوربن «لا يوجد بحر في جنة عدن»، فبعد الســقوط، يظهر البحر كبيئة غريبة، تهديد أبدي للبشرية. لقد كان من التربة أن خلق الرب الإنســان، حيث أعطاه الاســم آدم، والمشــتق من الكلمة العبرية adama[*] التي تعني الأرض. في هذه القصة يلد الرجل امرأة. لا يوجد في أي جزء من سفر التكوين فكرة الأرض الأم، حيث إن الأرض نفســها هي قوى أبوية عوضا عن أمومية. إنها خلق الرب الأب الذي يستخدمها ليصنع آدم، ومن ضلع آدم ليصنع حواء. وعليه، فإن البيولوجية الطبيعية، في هذا التوصيف للخلق، تصبح معكوسة. الأرض تولد لإله أبوي[7].

الــرب المــزارع خلق عالما بوفــرة لا محدودة، واعدا بحيــاة أبدية من دون كدح، أو وباء، أو موت. كان لآدم وحواء أن يعيشــا إلى الأبد تعايشــا سلميا مع

(*) في اللغة العربية، أَدَمَةُ الأرضِ: باطنها، وأديمها: ظاهرها. والأُدمة السُّــمرة، والآدَم من الناس الأســمر؛ وكل تلك معانٍ يشتمل عليها الجذر العبري א ד ם (ألف - دال - ميم). [المحرر].

المخلوقات الأخـرى لولا أنهما عصيا إرادة الـرب. كان عقابهما لأكلهما الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة ليس فقط فقدان الحياة الأبدية، ولكن تحويل الأرض نفسـها إلى قفار من «الشـوك والزعرور»، حيث يمكن الحصول على لقمة اليوم فقط بالعمل الشاق.

في لحظة السـقوط، توقفت الأرض كلها عن كونها جنة، وأُزيلت جنة عدن إلى الشرق، حيث سـيبقى متعـذرا بلوغها حتى ينتهي الزمـان. الحياة الأبدية استسـلمت للمحنة الأبدية للإنتاج ولإعادة الإنتاج، حيث حمل الرب حواء وكل النسـاء الـلائي أتين من بعدها آلام الـولادة. كان بكريُّها، قابيـل، المزارع الأول، وهابيـل، الراعي الأول، كلاهما ملعونا كذلـك. غضب قابيل عندما ازدرى الرب قربانـه من فاكهة الأرض لمصلحة عطاء أخيه من الحيوانات. قتل قابيل هابيل، وهـذا أدى إلى نفي ثان إلى أراضٍ أكثر قحالة هي أراضي Nod(*) في شرق عدن، حيث بدأ قابيل هناك في تكوين عائلة، والتي ستصبح في النهاية شعب إسرائيل، الذين خلطوا بين الزراعة المستقرة وأنشطة الرعي، وعليه أصبح مصيرهم مرتبطا بقوة بتقلبات نشـاط الزراعة. بكل تأكيد، فـإن قصة الطرد من جنة عدن، وما تبعهـا من النفـي المرتبط بالمجاعة، والمسرودة روايتـه في العهد القديم، كانت مرتبطـة بوضوح بالكـوارث البيئية التي نعرف الآن أنهـا قطعت الطريق على التاريخ الزراعي في الشرق الأوسط القديم. كانت قصة الجنة المفقودة نتاج ثورة العـصر الحجري الحديث، حيث كانت الطريقة التي منطق بها اليهود تاريخهم التراجيدي، من حيث عبوديتهم لمآسي الوجود الأرضي.

هامت سلالة آدم في أراضٍ هاجمتها الفيضانات والقحط باستمرار. أصبحت وصية «انطلق وتكاثر» عبئا آخر لأنه، على عكس الصيادين الرحل الذين خفضت حركتهم من نسبة مواليدهم نسـبيا، كانت مجتمعات الإنتاج الزراعي المستقر تميـل إلى الأسر الكبـيرة، والتـي أدت إلى تزايد عدد البـشر في المناطق القاحلة الضعيفة من الشرق الأوسـط. لقد كان المزارعون، وليس الصيادين الرحل، هم من أجبروا على تبني إسـتراتيجيات التنقل والشتات من أجل البقاء. وكما يقول عـالم الأنثروبولوجيا هيو برودي: «سـفر التكوين هو قصـة الخلق التي يجري

(*) ذكرت هذه المنطقة في سفر التكوين على أنها الأرض التي نفي إليها قابيل بعد قتله أخاه هابيل. [المترجمة].

تفسير البيئة الزراعية العنيفة وغير المستقرة من خلالها، والتي قدمت على أنها حتميــة». المجتمعات الباحثة عن الطعام صادفت كذلك معاناة دورية على يد الطبيعة، غير أن القصة التي يروونها ليســت موسومة بالأحداث الكارثية، ولكن بدورات من التحدي ومقاومة هذا التحدي والتي من خلالها تتفوق الاستمرارية على التغيير. فلقد زارت الفيضانات شــعب الهيدا كذلك، غير أن قصصهم تروي كيف أن الزوارق كانت تأتي لإنقاذهم باستمرار[8].

لقد زود ســفر التكوين العبرانيــين القدماء، ولاحقا المســيحيين المضطربين بالقدر نفســه، بتفسير تاريخهم التوسعي، وبذريعة للاستيلاء على الأراضي التي تشــاركوا فيها ذات يوم مع جيرانهم من الصيادين الرّحل. إن الثورة الزراعية في العــصر الحجري الحديث لم تخفف من عبء توفير القوت بل كثفته في الواقع. لقد ظل الصيادون الرحل الجزء الأكثر صحة والأقل توترا بين الجنس الإنســاني. لم تكن لديهم حاجة ليسردوا لأنفســهم قصصا مأســاوية عن الفقد والاسترداد، فبالنسبة إليهم كان العالم دائما جنة عدن[9].

عندما أثار الشــعب المختار لإله العبريين اســتياءه مــرة أخرى، تدخل الماء كوســيلة عقاب إلهية. يرســل الإله طوفانا عظيما، وهو حريص على أن يشــهد نوح وعائلته هذا الفعل كدرس للأجيال المســتقبلية. فبينما تفجرت السيول من أعــماق الأرض وبدأت الأمطــار في الانهمار، اختفت الأرض اليابســة لمدة 150 يوما. هنا، يؤدي الماء مرة أخرى دورا مدمرا، في حين أن الأرض هي المزود الأول بالحيــاة. مرة أخرى، إنه الذكر الذي هو الخالق. نوح هو آدم ثان، غير أنه هذه المــرة لن يولد لفردوس. فعندما تراجعت المياه واســتقرت الســفينة على أرض صلبة، وجد نوح وأبناؤه أنفســهم قد اســتقروا في عالم هو حتــى أكثر عدائية. فــالأرض التي كانت ذات يوم ممهدة هي الآن خراب، مقســمة داخليا بالجبال المرتفعــة والأنهار الثائرة، محاطة مــن كل الجوانب بالبحار التي تهدد باجتياح الأرض عبر كل الســواحل. وبينما تتكشــف أحداث قصــة العهد القديم، يصبح البحر قوة أكثر خطرا من أي وقت مضى[10].

لم تكن الشــعوب الزراعية هــي الوحيدة التي تخاف البحر، فبالنســبة إلى الإغريقيــين والرومــان، كان البحر فراغا من عدم، شــيئا يقطعونه بأقصى سرعة

ممكنــة للرجــوع إلى الديار حيــث الموطن الوحيــد الحقيقي للبــشر: الأرض. المســيحية، تباعا للتقاليد اليهودية، ســتنظر إلى المحيط بسلبية كذلك. إنه ليس نوح البحار بل نوح المزارع الذي هو الشــخصية الرئيسية في قصة الطوفان. وفي لحظة عودته إلى الأرض الجافة ســيصبح الخمار الأول في العالم، غير أن بضاعته ستقوده ليخزي نفسه وأبناءه. مرة أخرى، ستخذل الأرض العبرانيين، وسيجبرون مجــددا على النفي، «ومنهم ســتتفرع الشــعوب على الأرض بعــد الطوفان». تشتتت ذرية نوح في أفريقيا، وآســيا، والأجزاء الأوروبية لجزيرة أرضية عملاقة أصبحت تدعى تاليــا Orbis Terrarum [الكرة الأرضية] محاطة بنهر لا يمكن عبوره يعرف باســم Oceanus [المحيط]. في مكان ما في عمق اليابســة، بعيدا باتجــاه الشرق، جنة عدن لاتزال موجودة، لكنها الآن أصبحت مســورة، متعذر الوصول إليها بالنسبة إلى بني البشر، وذلك إلى نهاية الزمن[11].

إن مــا يجعل العهد القديم والحديث، معا، رواية قوية هو ليس فقط معقولية أحداث الرواية حول سقوط حضارة زراعية، ولكن كذلك في إعطائها الأمل في خلاص مســتقبلي. في العهد القديــم، تُضمن لليهود أرضهم الموعــودة. في العهد الحديث، المســيح هو آدم الجديد، غير أن موته ليس هو نهاية القصة: ســتكون هناك بداية جديدة، حيث ستشــمل الأرض الموعودة كل اليابســة، وتمتد إلى كل البشر. وبمجرد أن تتحول كل الشعوب إلى المسيحية، ستصبح الأرض مرة أخرى فردوسا. وكما جرى التنبؤ في سفر الرؤيا، فإنه مع القدوم الثاني للمسيح، ستصبح الأرض جنة مرة أخرى، وبما له مغزى، أنه «لن يكون هناك بحر بعد ذلك».

وصــولا إلى القرن الثامن عشر، فإن النســخة الإنجيليــة للجغرافيا والتاريخ أظهــرت أرض مــا بعد الطوفان عــلى أنها خراب، معرضة لسلســلة لا متناهية من الكــوارث المشرعة إلهيا، والمقصــود بها معاقبة ســكانها العصاة. كان عالما النبــات والحيوان كلاهما ملعونا منحلا. فقــط تدريجيا بدأت تحل محل رواية الانحــراف هذه رؤيــة متفائلة بالتغيير. ففي بداية القرن الســادس عشر، أدى اكتشــاف حقيقة أن الأرض ليســت جزيرة محاطة بنهر لا يمكن عبوره، ولكنها في الواقــع مجموعة من الجزر والقارات المتصلة عوضا عن كونها منفصلة مائيا، إلى أن يفقد البحر مواصفاته الشيطانية. غير أن الوضع سيستغرق قرنين آخرين

قبل أن ينظر إلى الجزر على أنها نقطة العبور نحو التطور، وأن السواحل التي كانت ينظر إليها سابقا على أنها عوائق، ستصبح معابر، مميزات وليست عوائق. وبحلول القرن الثامن عشر بدأت العلوم الأرضية الجديدة تسائل الترتيب الزمني الإنجيلي الذي حدد بداية العالم بمجرد ستة آلاف سنة سابقة. إن دلائل التغيير التي حدثت عبر ملايين السنين لم تتطلب فقط قصة جديدة للأصول، ولكنها تشير إلى نهايات بديلة كذلك، والتي لا تشمل تدخلا إلهيا لإنهاء العالم، ولكن تطورا ارتقائيا ثابتا[12].

بيد أن كلا من أوروبا وشمال أمريكا قد تمسك بأساطيره الزراعية دخولا إلى القرن التاسع عشر. ظل البحر، كما كان في سفر التكوين، فراغا يُعبر، عوضا عن أن يُستكشف، هو ليس مكان غريبا بالنسبة إلى البشرية. لقد شكل البحر محيطه الذاتي، متكونا بعيدا عن تحكم البشر. كان صيد البحر يعتبر «هبة» للبشر، ليس لهم سوى أقل القليل من التحكم فيها. لم يكن شيء ليوقف البحر من الاستيلاء على حياة إنسان. كمساحة لا مكانية ولا زمانية، كان المحيط خارج كل من جغرافيا وتاريخ البشر. إن علم المحيطات كان آخر العلوم الأرضية الوليدة، حيث إن الجغرافيين أعطوا أقل القليل من انتباههم لسبعة أعشار سطح الكوكب المغطى بالمياه. تجاهل المؤرخون كذلك المياه التي ربطت العالم ببعضه ببعض: فبالنسبة إليهم، الزمن يبدأ وينتهي على أطراف اليابسة. لقد استمر سرد قصة الشعوب من منطلق فقد واكتساب الأرض، بحيث إن علم الإنسان وعلم الآثار، كما التاريخ، حتى عندما أصبحت أوروبا وشمال أمريكا أكثر صناعية ومدنية، ظلت جميعها حبيسة الأرض، بالتركيز على الداخل على حساب الأطراف[13].

السواحل باعتبارها الموطن الحقيقي للبشرية

ظل الكتاب المقدس، حتى أواخر القرن الثامن عشر، النص الأساسي لكل من التاريخ والجغرافيا في المجتمعات الغربية. في القرن السابع عشر تحدد تاريخ بدايات الإنسانية بشكل حاسم عند العام 4004 ق. م عن طريق جيمس أشر، رئيس أساقفة أرماج، في مكان كان يعتقد أنه في بقعة من صحاري الشرق

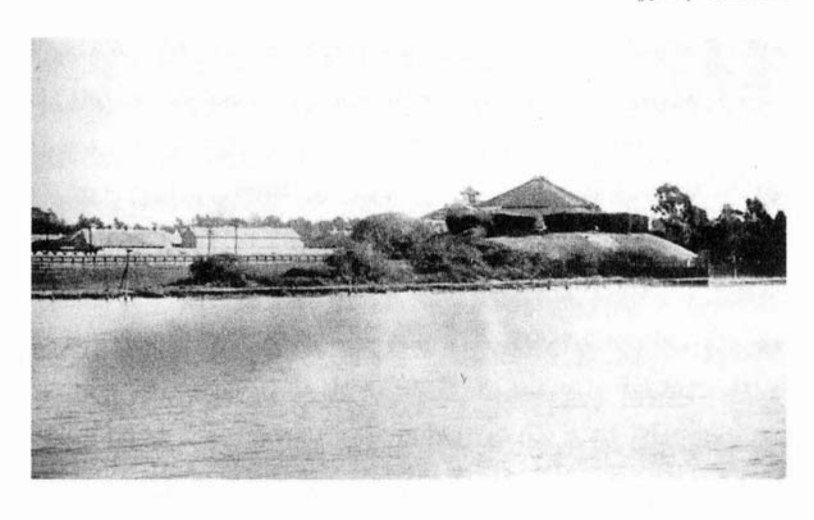
الأوسـط، غير أنها من المتعـذر الوصول إليها. وفقا لهذا المـيراث الفكري، فإنه مـن غـير المفاجئ أنه حينما تطور علم الآثار الإنسـاني في القرن التاسـع عشر، كان مرتكـزا على الإقليم ذاته. حتـى وقت قريب، مؤرخو حقبة ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون أن كل الأشياء كانت جذورها في الشرق الأوسط القديم ومنطقة دول المتوسـط، قبل أن يجري توزيعها تدريجيا مـن هناك إلى بقية العالم. فإلى أن اخترع الكيميائي ويلارد إف. ليبي طريقة التأريخ بواسـطة الكربون المشع في العـام 1949، فإن كل السـجلات الزمنية كانت تتمحور حول اكتشـافات الآثار الشرق أوسـطية. فرانسيس برايور يقول: «عبر النظر إلى الشرق من أجل تاريخ، كان كذلك طبيعيا النظر للشرق من أجل منشأ»[14].

لايزال شـائعا التمييز بين التاريخ وما قبل التاريخ، كأن هناك بعض الفروق الجوهرية بين البشر الذين عاشـوا قبل الثورة الزراعية وبعدها. كتب سـتيف ميـثن، أحد الرواد الباحثـين، يقول: «قليلة هي الأحـداث المؤثرة التي حصلت حتـى 20.000 ق. م، الناس ببسـاطة اسـتمروا في عيشـهم صيادين رحل، كما كان أسـلافهم يفعلون لملايين السـنين». فبالنسبة إليه، لم يحدث شيء مهم قبل بدايـة الزراعة. هذه المعلومة ببسـاطة غير صحيحة. بيد أنـه، حتى الباحثون الذين درسـوا الصيادين المرتحلين بشـكل متعمق اعتادوا على أن يضعوا هؤلاء في فئة «البدائيين». فعلى مسـافة قريبة من حيث أقطن في بيركلي، يحدد شارع شـيل موند موقعا ما كان في يوم تلة ضخمة من الصدف صنعها شعب الأهلون Ohlon people. أقنـع ألفـرد كريوبر، عالم آثار بيركلي الشـهير، شريكته فيبي هيرست بتمويل تحقيق حول الموقع الذي كانت قد جرت مقدما تسويته جزئيا من أجل حلبة سباق إميريفيل، ثم توج بصوان للرقص الشعبي. تم اختيار زميل كريوبر، ماكس أهل، ليقود عملية التنقيب التي نُشرت نتائجها في العام 1907. تعتبر دراسـة ماكس أهل نموذجا للدقة في علم الآثـار. قدر أهل أن هذه التلة تعـود حوالي ألف سـنة إلى الماضي، وأنها أُهملت أخيرا فقـط. من خلال موقع عمله، استطاع أهل أن يرى بسهولة الناس المحليين وهم يجمعون المحار في وقت الجزر. بيد أنه تخيلهم على أنهم ينتمون إلى المرحلة «البدائية» ذاتها من الحياة، والتي إليها أعاد هو السكان الأصليين، شعب الأهلون «في كل أنحاء العالم، وحتى

اليوم، يمكن رؤية الناس على الساحل وقت الجزر يجمعون الصدف الذي كشفه المد المتراجع للطعام»، و«هؤلاء الناس دوما ما ينتمون إلى الطبقات المتدنية من المجتمع، ويحيون بهذه الصورة حياة بدائية كما هي بسيطة»[15].

كانت المسافة بين تلة المحار وخط المد بضع ياردات فقط، بيد أن المسافة الزمنية التي فرضها أهل بينه وبين هؤلاء الصيادين الرحل الأكثر حداثة كانت عظيمــة. إن علماء الإنســان من هذا الجيل الذين تــم تدريبهم على التفكير في الزراعــة على أنها أعلى المراحــل الحضارية، وذلك قبل قــدوم زمنهم هم الصناعي - المدني، يصرون على أن الحياة على الساحل لا بد أنها كانت «الملجأ الأخير» للشعب الذي ما كان ليختار تلك كطريقة للحياة قط إذا لايزال لديهم طريقة للوصول إلى اليابســة. إن احتمالية أن المكان الذي تلتقي فيه اليابسة بالمــاء يمكــن أن يكون جنة عدن حقيقية حتى لم تخطــر على بال أهل، ذلك لأنــه، مثل كل هؤلاء الذين تعلقوا بأســطورة الخلق للحضــارة الغربية، بقي حبيس الأرض عقليا.

وكونهــم «بدائيين»، جرى نفــي الصيادين الرحــل أوتوماتيكيا من الحاضر إلى مــاض بعيد، ينظر إليهم عــلى أنهم من الناجين القدماء جــدا، الذين كانوا يعيشــون على زمن مستدان في عالم حديث حيث لا مكان لهم ولا مستقبل. إن الخطة التطورية التي كان يفضلها جيل أهل اعتمدت التفضيل للأرض على الماء، وافترضت أن الصياديــن الرحل البحارة لم يتغيروا منذ اللحظة التي قدمت فيها البشرية إلى الســاحل. فعلى الرغم من دلائــل التغيير، عبر الزمان والمكان، جرى الحكم فيهم بأنهم غير قادرين على التغيير. فوفقا لمبدأ التطوريين حول الارتقاء المتطور، أُهمل هؤلاء أولا من قبل صيادي الحيوانات الضخمة العظماء، ولاحقا من قبل المزارعين. نســبة إلى هذه القصة، فإنه فقط عندما استُهلكت كل المؤن من الحيوانات الكبيرة اتجه الإنسان الصياد إلى صيد السمك. لم يتنازل ذكر هذا الجنــس مطلقا (فعليا أو رمزيا) عــن أن يمارس مهنة جمع الطعام، وهو العمل الذي ربطه جيل أهل بالنساء والشعوب الأدنى مرتبة. إن المفهوم الذي يقول إن الحركة في اتجاه الساحل ليست سوى خطوة إلى الخلف هو مفهوم لايزال يحلق حول علم الآثار المعاصر[16].



صورة للتلة الضخمة للمحار في إيميرفيل، كاليفورنيا، في العام 1907، ثم توجت بصوان للرقص الشعبي، الصورة من ويكيبيديا.

أوضحت هذه القصة العنصريات الطبقية والجندرية للجيل الأول من نبلاء علماء الاجتماع الذين، في حين أنهم تركوا المجتمع الزراعي من وقت قريب فقط، كان لهم أقل القليل من التواصل مع صيادين مرتحلين حقيقيين. إن النظر إلى ما قبل التاريخ من خلال نظرة المزارعين المتعالية أدت بهم إلى فهم عدة أشياء بطريقة خاطئة. أولا وقبل كل شيء، فإن تدجين وترويض النباتات والحيوانات كان قد بدأ قبل قيام ما يدعى بالثورة الزراعية بزمن بعيد، وفي الأغلب، فإنه بدأ في المناطق التي تلتقي فيها اليابسة بالماء (البحيرات، والأنهار، والسواحل البحرية)، وذلك عوضا عن الأرض اليابسة. إن الفوائض المكتسبة عبر صيد الحيوانات وصيد السمك في الأغلب زودت الناس بدرجة من الراحة سمحت لهم بإجراء تجارب الترويض والتدجين على النباتات والحيوانات. كارل ساور كان من أوائل من أوضحوا أن المزارعين صيادي السمك هم من قادوا الطريق إلى تطور البشرية. لم يكونوا هم المتقاعسين، بل كانوا الرياديين بين البشر الأوائل. إن جداله حول أن الترويض بدأ على سواحل جنوب شرق آسيا جرى تأكيده جزئيا فقط، بيد أن مقاومته الأولية لأسطورة التطوريين حول

النشء المحصور على اليابسـة يسـتحق انتباهنا. لقد كان بزوغ مجتمع زراعي خالص معرضا دوريا لأنواع مختلفة من الأوبئة والمجاعات، لربما هو، على الأقل من وجهة نظر بيئية، الأول بين العديد من الزلات التي ارتكبتها البشرية[17].

ومادام علم الآثار وعلم الإنسان استمرا في الاعتقاد أن البحث هو «عمل ميداني»، سيبقى البحر خارج دائرة اهتماماتهم؛ فالسواحل والشعوب الساحلية كانت مبدئيا تثير القليل من اهتمام مؤرخي ما قبل التاريخ الذين ركزوا على الصياد الرجل الذي يجوب الأرض، موعزين صيد السمك وجمع المحار إلى فئة «آخر ملاذات» البشرية، أعـمال عمل بها البشر عندما انقرض أو شـح عدد الحيوانات. فبالنسـبة إلى علماء الآثار المحترفين، كل الأشـياء المهمة بدأت على الأرض، فالتطور من القرود العظيمة إلى أوائـل البشر كان ينظر إليـه تقليديا على أنه تم في غابات السـافانا الأفريقية، حيث، بعد أن تركت القرود أمان الحياة المعيشـة على الأشـجار، تطورت أولا فكرة الكائن ذي القدمين وانفصل البشر عن القردة[18].

بيد أن هذه النظرية لم تفسر بشكل كامل التغييرات التطورية الأخرى التي أدت إلى ظهور الجنس البشري المميز. لم يكن هناك أي تعليل لعدم وجود شعر على أجساد البشر أو لقدراتهم على السباحة، وذلك حتى أتى رجل إنجليزي، يدعى أليستر هاردي، بالفكـرة الجديدة غير المألوفـة، بأنه لم تكن هي غابات السـافانا بل كان البحر هو الذي حقق التفرع بين القردة والبشر. لقد اقترح هاردي أن الخوض في المياه، ومن ثم السباحة، هما اللذان شجعا، ليس فقط الوضعية المستقيمة للبشر، ولكن كذلك غياب الشعر عن أجسامهم وقدراتهم على السباحة والغوص. لم ينشر هاردي تساؤلاته حتى العـام 1960، عندما أعلن أنـه لربما جرى إجبار القردة على النزول إلى الماء بسـبب اختفـاء الغابات وغمر الفيضانات مواطنها السـابقة. لقد خمن هاردي أنها عاشـت عدة ملايين من السـنوات على سواحل الأنهار والبحيرات، حتى تحولت في النهاية إلى Homo habilis(*)، القادرين على استعمال الأدوات الحجرية لفتح المحار[19].

إن هـذه الفكـرة بأن الماء كان موردا للبشر القدمـاء عوضا عن كونه عائقا كانـت بطيئة اللحاق بدوائر علم الإنسـان؛ بيد أنها فكـرة تبناها الجغرافي من

(*) نوع من أنواع الجنس البشري المنقرض، يسمى الإنسان الماهر، عاش ربما منذ مليون ونصف المليون إلى مليونين ونصف المليون سنة مضت. [المترجمة].

بيركلي كارل ســاور في العام 1962. لقد حدس ســاور أن الســاحل لم يكن آخر اختيــارات البشرية ولكنه كان نقطــة البداية لأفراد الإنســان العاقل الحديثة. عندما أطلق ساور وصف «الموطن البدائي للإنسان» على الساحل، لم يكن يعني أن يربطه بالبدائية أو الركود. على العكس تماما، فبالنسبة إلى ساور «تطورنا أخذ منحى بعيــدا عن طريق الكائن الحيواني المعتاد بســبب الاتجاه نحو البحر. لا يوجد أي محيط أكثر جذبا لبداية البشرية. البحر، تحديدا ســواحل المد والجزر، قدمت أفضل الفرص للغذاء، والاستقرار، وللتكاثر والتعلم»[20].

كان ســاور ينتمــي إلى الغرب الأوســط الــذي أيقظ فضوله بســبب تلال الأصــداف الضخمة التي وجدها في باجا، كاليفورنيا خلال العام 1920. وبوصفه عضو هيئة تدريس في بيركلي، كان لا بد، وهو على علم باكتشافات ماكس أهل التــي تبعــد فقط أميالا قليلة عــن الحرم الجامعي، وذلك عــن طريق صديقه المقــرب ألفرد كروبر. ســاور كان أحد عظماء الأكاديميــين الفضوليين، والذي لم يقابــل حاجزا قط لم يرغب في تخطيه. كان مهتما، ومنذ زمن، بأصول الإنســان وانتشاره، وعندما تمت دعوته لتقديم محاضرة آيزيا بومان عن طريق الجمعية الجغرافية الأمريكية في العام 1952، كان مســتعدا لرمي قفازه في وجه مؤسسة علم الإنســان وعلم الآثــار، متحديا مفهوم التطور الإنســاني أحادي الخط: «لا يوجــد قانون عام للتطور تتبعــه كل البشرية، لم تكن هناك مراحل ثقافية يعبر من خلالها كل البشر»[21].

أعاد ســاور تحديد مكان جنة عدن من الداخل وإلى الســاحل: «ربما يكون، كــما كان يعتقد، أن نوعنا كانت أصوله وموطنه على اليابســة الداخلية. إلا أن اكتشاف البحر، أيا كان الوقت الذي حدث فيه ذلك، قد مكّن البشر من العيش في مواقع أبعد من تلك الداخلية». لقد كان على الساحل أن انفصل البشر ليس فقــط عن الكائنات الحيوانية ولكن كذلك مــع البشر الأقل تطورا hominids. هناك، طور أفراد الإنســان العاقل مميزات الحياة المتحضرة، بما في ذلك تكوين الوحدات العائلية، وقوانين القرابة، والشعور بالمركزية الأمومية في البيت. تسارع منحنى التعلم الإنســاني، مما مكن من اســتمرارية الأجيال وأسس لنظام ثقافي واجتماعي معقد ومســتمر. في النهاية، ستحسن القدرة على استخدام المياه من

القـدرة على التواصل عبر المسـافات المتباعدة، والتي سـينتج عنها أخيرا توزيع الثقافات الإنسـانية المتطورة من أفريقيا عبر السـاحل، وعلى امتداد السواحل الشرقيـة للمحيط الهندي، ثم إلى أسـتراليا، وإلى أوراسـيا، ثـم في النهاية حول الحافة الشمالية للمحيط الهادي وإلى الأمريكتين[22].

هنـا كان التحدي الواضح لقصة سِـفْر التكوين، حيـث إن القصة لا تطرح فقط جنـة عدن جديدة، بل إنهـا تطرح آدم جديدا وحـواء جديدة، واللذين تطـورا عبر التواصل مع البحـر عوضا عن الأرض الداخلية. إن ترحيل جنة عدن من الداخل إلى الساحل قوض مجد الإنسان الصياد والذي كان رائجا جدا في أيام سـاور. كذلك، فإنها قلبت العنصريات الطبقيـة والجندرية المنتصرة عبر إعطاء النسـاء دورا رئيسيا في عملية التطور الإنسـاني. لقد وضع ساور النساء في مركز الوحدة المنزلية، بيد أن نسـاءه لم يكن مجرد ربات منزل بأي صورة من الصور. على الساحل «الجنسان متساويان من حيث الإمكانيات، والقدرة على التحمل، وكفاءة الأداء في المياه، ويمكنهم أن يشـاركوا في أعمال الجمع وفي رياضات الماء على قدم المساواة». لقد عَكَس ساور حماس كاليفورنيا ما بعد الحرب لكل شيء ساحلي في الوقت الذي كانت فيه الولاية تغير طرازها لتصبح ساحل الأحلام. إن حياته هو بذاتها قد لخصت ما كان يعتقده مسـتقبل البشرية. فبينما هو يدير ظهره لجذوره الغرب أوسـطية الزراعية، كان يكتـب «عندما تمتلئ كل الأرض بالبشر والآلات، لربما سـيكون آخر احتياج وطقس للإنسان، كما كان في بداياته، هو الوصول إلى اختبار البحر»[23].

لقد اسـتغرقت توقعات سـاور أربعين سنة ليجري تأكيدها عبر مؤرخي ما قبل التاريخ، غير أن أسطورة الخلق الأرضية كانت تحت الهجوم مقدما من زاوية أخرى، والتي كان لها خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته جمهور شعبي أكبر بكثير من ذاك الذي كان لعلم الإنسان أو علم الآثار. راتشيل كارسون، التي ترعرعت في بنسـيلفانيا ولم تزر البحر كعالمـة بيولوجيا متدربة حتى 1929، لم تنشر كتابها «البحر من حولنا» The Sea Around US حتى 1951. غير أن هذا الكتاب نجح فوريا واستمر على قائمة أفضل مبيعات النيويورك تايمز لمدة ثمانية وعشرين أسـبوعا، حيث أوعز تأثيره لأسـلوب الكاتبة الشاعري الأسطوري كما

هو للمعلومات العلمية التي عرضها. قلبت كارســون العلاقة بين الأرض والبحر، معلنة أنه «كما بدأت الحياة نفسها في البحر، كذلك بدأ كل منا حياته المنفصلة في محيــط مصغر داخل رحم أمه، وفي مراحل تطــوره الجنيني يكرر الخطوات التي تطور بها جنســه، من مستوطنين لعالم مائي يتنفسون بزعانفهم وصولا إلى مخلوقات تستطيع أن تحيا على الأرض». ومثل ساور، كارسون توقعت أن تحفر البشرية طريقها «عودة إلى البحر»، حيث، وإن لم يستطع البشر أن يعودوا فعليا إلى المحيط بأجسادهم، فإنهم «سيعودون إلى دخوله ذهنيا وخياليا[24]».

وأخيرا يبلل علم الآثار قدميه

لم يكن كارسون وســاور وحيدين في رحلتهما الذهنية. في أمريكا وأوروبا ما بعد الحرب، الملايين من معاصريهما كانوا يصلون إلى اكتشــافاتهم الشخصية للسواحل في واحدة من أعظم الحركات الإنسانية والتي تستمر بتصاعد أعظم إلى اليوم. هؤلاء الآدم والحواء الجدد كانوا يبحثون عن نسختهم الخاصة من جنة عدن، غير أن تطلعاتهم لم تكن تلك التي للشعوب الزراعية. كمخلوقات تنتمي إلى الحقبة الصناعية، بل ربما إلى الحقبة ما بعد الصناعية، كانوا يســتهدفون نوعا جديدا من الفردوس. وخلال عملية العــودة إلى البحر، والتي هي رحلة خلال الزمــن كما هي خلال المكان، كانوا ملزمين بالتنقيب عن التاريخ المنسي لعلاقة البشرية مع البيئة البحرية.

على الرغم من معقولية هذه القصة البديلة للتطور الإنســاني، فإن مفهوم الأصول البحرية ظل، وإلى وقت قريب، هامشــيا. فبالنسبة إلى معظم المؤرخين، الزمن لايزال يبدأ وينتهي على اليابســة. وبالأسلوب نفسه، يستمر الجغرافيون في معاملــة المياه على أنها خارج حدود موضوعهم. هــذه الرؤية المنغلقة على الأرض تنطوي على عنصرية جندرية قوية. ففي زمن ما قبل التاريخ، كان التركيز تقريبا منحصرا على الرجل الصياد. فقد كان مفروغا منه، وعلى الرغم من الأدلة التي تشــير إلى مشاركة الإناث، فإن صيد السمك كان نشاطا ذكوريا حصريا[25]. نســتطيع أن نرى الآن أن تزييف النظرة الماضوية هذه كان معمولا به هنا كما في كل مكان آخر. ففكرة الرجل الصياد كانت في معظمها اختراع علماء الإنسان الفكتوريين من الرجال وهي تشــير إلى تشــابه لافت مع صياد الفرائس الكبيرة

الحديــث، والذي يســافر كذلك بعيدا عن موطنه باحثا عن فريســته. فالرجال المتعلمون جامعيا، والذين يتصرفون على أســاس المعتقدات المعاصرة لانفصال المجالات، لم يعطوا الكثير من الانتباه لنشاطات النساء البحريات، حيث يضعون هؤلاء النســاء في المكانــة المتدنية لوظيفة التجميع وبذلك يبخســون، وبصورة ضخمة، أهمية عملية التجميع بحد ذاتها بالنسبة إلى مسار تطور البشرية[26].

لطالمــا اعتمــدت الحياة عــلى الماء، ونحــن متأكدون مــن أن الجنس البشري hominids كانوا يســتخدمون ســواحل البحــيرات والأنهار قبــل أن يبدأوا في ترك الداخــل الأفريقــي بزمن طويل، منذ 1.5 مليون ســنة. بدأ جنــس hominids في الانفصال عن القردة منذ ســتة أو ســبعة ملايين ســنة مضت، حيث ظهر عدد من الأجناس المختلفة Homo erectus [الإنســان القائم]، Neanderthals [*]، Homo habilis بين عدة أخر وذلك قبل وصول الجنس البشري الحديث Homo sapiens، تقريبا منذ 200 ألف سنة مضت. هاجر أفراد جنس النياندرثال إلى أورسيا غير أنهم أخيرا انتهوا تماما. كان جنس الإنســان القائم هو الأول الذي يهاجر إلى جنوب غرب آســيا ومن ثم، وعبر جنوب شرق آســيا، إلى الصين، بيد أنهم انتهوا في تلك المنطقة ليفســحوا الطريق للجنس الأكثر تطورا وهو الإنســان العاقل، والذين تركوا أفريقيا بعد ذلك بزمن غير أنهم كانوا أفضل تجهيزا ليحتلوا العالم بأكمله في النهاية[27].

بدا أن أفراد جنس الإنســان العاقل، الذين نعتبر نحن سلالتهم المباشرة، قد هاجــروا من الداخل الأفريقي إلى حيث ســواحله الشرقية وذلك منذ 160 ألف ســنة مضت على الأقل. ولقد هاجروا خارج أفريقيا منذ 50 ألف ســنة مضت، وذلــك بعد أن طوروا حزمة مــن القدرات الإدراكية، والتــي جعلتهم متفوقين على بقيــة أفراد جنــس hominids، وذلك بمن فيهم مــن النياندرثال، والذين تعايشــوا معهم في أوروبا لمدة طويلة مــن الزمن قبل أن ينقرض الأخيرون. لقد كانت سيطرة جنس الإنسان العاقل القاطعة نتاج ليس فقط أي سمة تشريحية منفردة ولكن كانت نتاج تطوره العقلي، والذي كان في غاية الأهمية لاكتســاب اللغة والسلوك الرمزي، تلك السمات التي تميز جنس الإنسان العاقل ليس فقط عن القردة بل عن أشباه البشر الآخرين humanoids [28].

(*) أحد أقرب الأجناس البشرية المنقرضة للإنسان الحديث. [المترجمة].

يخبرنـا علماء البيئة بأن «الجنس البشري، منـذ البداية، كان مخلوق الحواف»، يزدهـر حيـث تتداخل الأنظمة البيئيـة، في الأماكن المعروفة باسـم ecotones أو المناطق البيئية الانتقالية. فمنذ أن هبط جنسـنا من على الأشـجار وأدار ظهره إلى الغابة وذلك ليتجول في السـافانا، أو السـهول الخضراء لأفريقيا، كان يجد المناطق البيئية الانتقالية تلك الأكثر جاذبية. في البداية كانت حواف الغابات ولاحقا شواطئ الأنهار والبحيرات حيث وجدنا أدلة على وجود أقدم جامعي محار ونباتات بحرية. هـذا العمل لابد أنه اسـتمر لمئـات الآلاف من السـنوات، غير أن نقطـة التحول الحقيقيـة جرى الوصول إليها على حافة البحر، حيث تعرف بيئات الماء المالح بأنها أكثر إنتاجية من تلك التي للماء العذب[29].

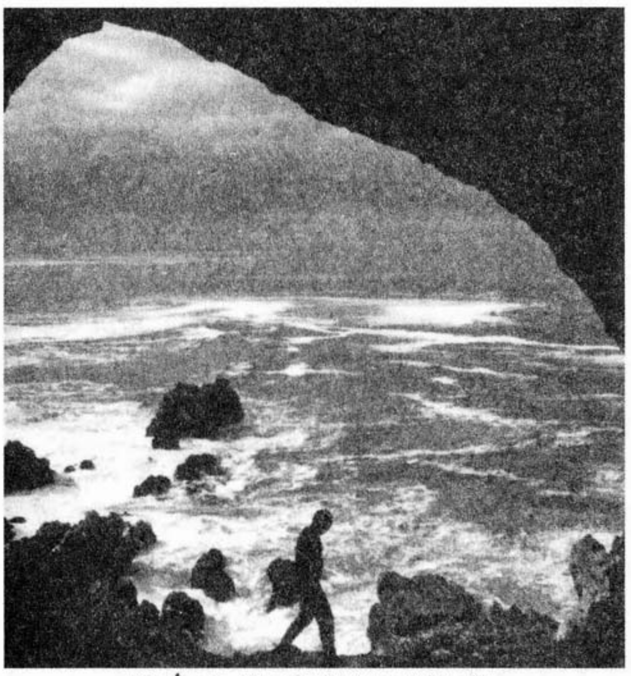
هناك أسباب منطقية تجعلنا نعتقد أنه في هذه البيئة أصبحنا نحن بشرا بشكل كامل، حيث تطورت نسـبة المخ الكبير بالنسبة إلى الجسم والتي أصبحت، كما هي في الدولفين وبعض الأنواع الأخرى من الثدييات البحرية، سـمتنا المميزة. يوعز عالم الكيميـاء العصبية مايكل كراوفورد هذه السـمة إلى وفرة أطعمة المحار والسـمك والتي تحتوي على أحماض دهنية (خصوصا DHA) المهمة لنمو المخ الكبير الحجم. إن بـشر أكلة العشـب وأكلة اللحوم الأولين لم تكن لديهـم طريقة وصول إلى مثل هذه الأطعمة، ولم يكن إلا عندما وصلت البشرية إلى البحر أن تطور المخ إلى أبعاده البشريـة الحالية. كان ذلك هو قاعدة الانطلاق لكل التغييرات الاجتماعية والثقافية التالية. لم تكن هناك لحظة أخرى، ولا حتى لحظة تأسيس المجتمعات الزراعية بعد ما يقرب من 155 ألف سنة لاحقة، بدا أنها أنتجت مثل هذا التحول الجوهري[30].

فقط عندما اجتمع عمل البستنة والزراعة مع الصيد تعلمت البشرية أن تتعايش مـع الطبيعـة بطرق يمكن لها أن تدوم لفترات طويلة جـدا. من هذا المنظور، تعتبر الرحلة إلى الساحل ليست آخر وإنما أول ملاذ للبشرية، فقد كان يعتقد ولمدة طويلة أن البشرية توقفت عن الصيد فقط عندما انقرضت هذه الحيوانات. الآن، يمكننا أن نقول بثقة إن البشر اسـتقروا على السواحل ليس بسبب نقص الأراضي الداخلية بل بسبب الغنى الذي قدمته السواحل البحرية. لقد كان على هذه السواحل أن طورت البشرية أوائل المجتمعات المسـتقرة وتعلمت كيفيـة التواصل والتقايض بعضها مع بعض— بمعنى آخر، تعلمت أن تحقق وجودا متحضرا. هناك، طورت البشرية كذلك

البستنة والتي هي سابقة للزراعة في حد ذاتها. كذلك، فإنه من الساحل بدأت الرحلة خارج أفريقيا، فمن دون البحر ما كان ليمكن تصور التطور البشري[31].

الجنة الحقيقية: نقطة القمة

لم يتوقــف البحث عن جنــة الكتاب المقدس عبر القرون مطلقــا، لم تترك عملية البحــث صخرة لم تقلبهــا أو مكانا لم تنقب فيه. في الولايــات المتحدة وحدها، المئات من الأماكن تحمل هذا الاســم. إنه الاســم المفضل لتجار العقارات ووكلاء الســياحة. على خليج موســل، عند أقصى الطرف الجنوبي لأفريقيا الجنوبية، يستقر شاطئ بيناكل بوينت Pinnacle Point ومنتجع الغولف المتسعين عاليا فوق بحر هائج. عندما رشح المتعهدون الماليون المكان على أنه «جنة عدن جديدة»، لم يكن في إمكانهم أن يعلموا أن الكهوف التي في الأجراف أســفل النقطة التاسعة في ملعب الغولف مباشرة ستقدم أقوى الإثباتات وإلى تاريخنا هذا على كونها مكان الأصول الحقيقية للبشرية[32].



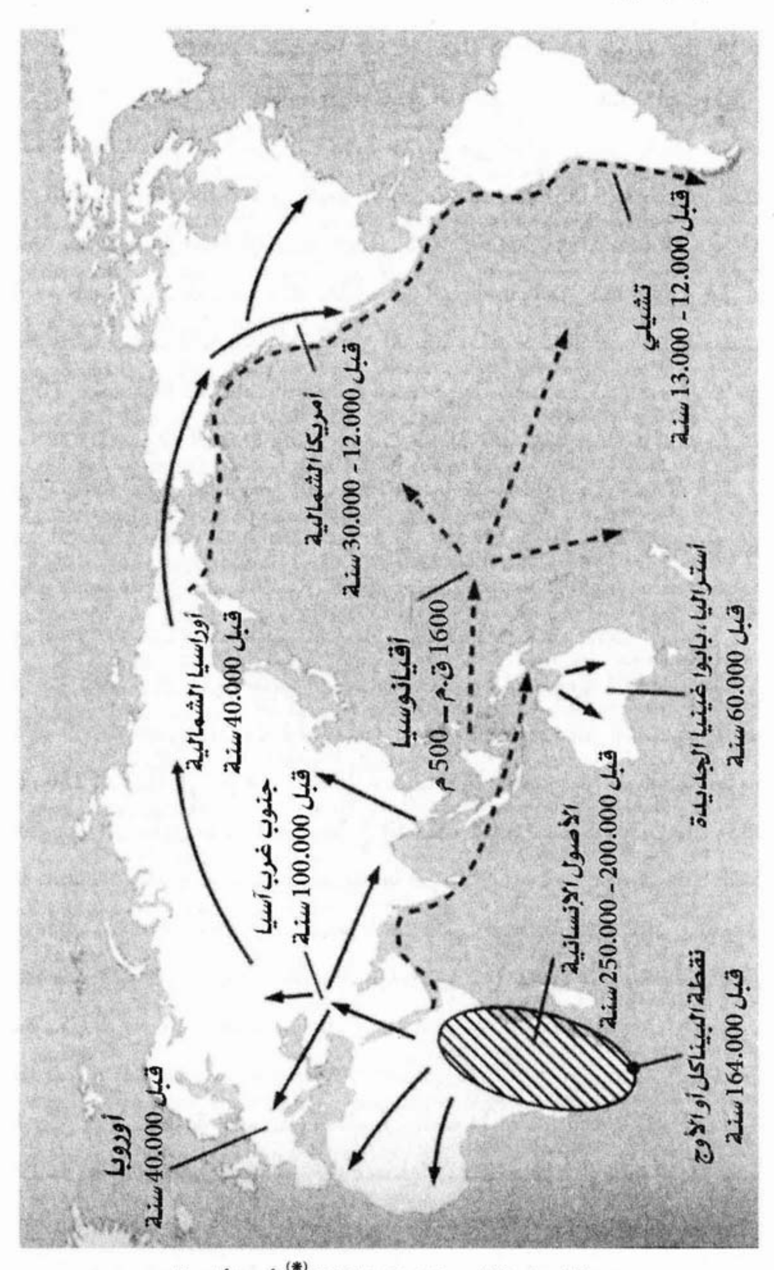
منظر من كهف عند Pinnacle Point، جنوب أفريقيا.
الصورة من مشروع علم الآثار لكيرتيس ماريان وخليج موسل.

إن اكتشـــاف الجنة الجديدة إنجاز لفريق علم آثار بقيادة كيرتيس ماريان من جامعة ولاية أريزوينا. حدس ماريان أنه في أوج فترات التجمد، عندما كان الداخــل الأفريقي باردا وجافا وغير صالــح للعيش البشري، انتقل البشر بحكم الضرورة إلى الســاحل، حيــث كان الجو أكثر دفئا ومصــادر الطعام أكثر وفرة. إن أعمال التنقيب في كهف أصبح يعرف باســم PP13B أثبتت أنها اكتشــاف عظيم. فخلال عشر ســنوات من الحفر المتأني اكتشــف فريقه ليس فقط دليلا عــلى أن المكان مأهول بل دليل أيضا على تطور ثقافي ومادي والذي صنع ثورة في فهمنــا لأصول الإنســان العاقل. فبفضل عمل ماريــان وآخرين، أعيد ضبط توقيت التطور كما أعيد توقيت الأصول من 125 ألف ســنة إلى 164 ألف سنة مضت. لقد ظهرت أدلة على أن سكان PP13B قد استغلوا كلا طرفي خط المد، حيث اعتمدوا بشــدة على المحار الذي كانــوا يجمعونه في وقت الجزر عندما كانت الحياة البحرية أســفل الكهوف، والتي تشمل الحيتان وحيوانات الفقمة المجروفة على الســاحل، مكشوفة وسهلة التجميع. تتوافر الأدلة على أن هؤلاء البشر كانوا بارعين منذ ذلك الوقت في تشــكيل السكاكين الحجرية، لكن كانت هناك أدلة أعمق لسلوكيات رمزية والموثقة في بقايا لمادة صبغية صفراء ochre يعتقد أنها أول دليل على تلوين الجسد جرى اكتشافه. لربما وصل سكان الجنة عند Pinnacle Point كمجموعة من البشر الرحل، غير أن غذاءهم الســاحلي مكنهم من العيش المستقر، والذي يقترب كثيرا مما تخيله ساور[33].

هنــا توافر الدليل عــلى أنه وفي فترة تغيير مناخــي مدمر محتمل أثبت البــشر، ولربما لأول مــرة، ليس فقط قدرتهم على التكيــف ولكن كذلك على الإبداع الشــديد. لقد كانت البيئة الســاحلية هي خلاصهــم، لكنهم، وحتى يســتغلوا مواردها، كانــوا يحتاجون إلى أن يتعلموا تفــادي مخاطرها. وفرت الكهــوف التي تَعلو خــط المياه مأوى، غــير أنهم، وحتى يحصــدوا الوليمة الموجودة أســفل خط المد، كانوا يحتاجون إلى توقيت نزولهم بحرص شــديد حتى يســتغلوا فترة انخفاض المياه. توقع ماريان أن ذلك لربما كان يحتاج إلى براعــة في فهم التقويم القمري، والذي يعد قفزة ذهنية ليســت بأقل أهمية من حساب الدورات الشمسية[34].

يبدو أن جنة Pinnacle Point كانت مأهولة لمدة زمنية طويلة، على الرغم مـن أن البشر كانوا قد انتقلـوا إلى المناطق الداخلية مجددا عندما أصبح المناخ أكثر احتمالية. غير أنه أخيرا، أتت دورة جديدة من التغير المناخي بالبشر مجددا إلى البحر، وفي تلك اللحظة إلى البحر الأحمر، وذلك منذ 125.000 سـنة مضت. نحن متأكدون أن أفراد الإنسـان العاقل كانوا موجودين في المنطقة التي نعرفها اليوم باسم فلسـطين بعد ذلك بقليل، غير أنوم اختفوا من هذا الإقليم قبل أن يخرجـوا خروجا ثانيا وأكثر أهمية من أفريقيا وذلك منذ 50 ألف سـنة مضت. والآن، بمسـاعدة العلامات الجينية لرسـم خريطة الأسلاف، نستطيع أن نلاحق سلالات المجموعة الصغيرة والتي خرجت من أفريقيا لتملأ العالم بأكمله بالبشر في زمن أكثر بقليل من أربعين ألف سنة. وبينما خرج آخرون من السلالة البشرية من أفريقيا في وقت أسبق بكثير عن طريق أخذ الطرق الشمالية والشرقية، فإن أهم مجموعة من جنس الإنسان العاقل خرجت عن طريق أقصى نقطة جنوبية في البحر الأحمر، تعرف اليوم باسم باب المندب Gate of Grief [35].

لم يعان أوائل أفراد جنس الإنسـان العاقـل الذين عبروا تلك المياه لأنه في ذلك الزمـن الذي ارتفعت فيه نسـبة تجمد الأنهار، انخفض منسـوب البحر إلى 230 قدمـا أقل مما هو عليه الآن، مـما صغر المضيق بين أفريقيا والجزيرة العربية أكثر. ما إن بدأت المجموعة في التحرك، فإنهم تمسـكوا بالساحل، وذلك ما دعاه سـبنسر ويلز باسـم «طريق ما قبل التاريـخ السريع». في هذه الفترة الزمنية، كانت السواحل أكثر اتساعا بشكل كبير، لربما بما يقدر بمائتي كيلومتر، مما هي عليه اليوم، موفرة نظاما غذائيا بحريا غنيا جدا. تحرك الإنسان العاقل بشـكل سريع على ضفاف سواحل الهند، متفرعين باتجاهي الشمال والجنوب، طاردين منافسـيهم من hominids والنياندرثال الذين سـبقوهم إلى المكان. لم يكن في اسـتطاعة الإنسـان القائم أن يقطع المياه مطلقـا، لذلك، فإن أفراد الإنسان العاقل حصلوا على أستراليا بمجملها لأنفسهم عندما وصلوا إليها. عندما انتقلوا إلى الشـمال داخل الهند وآسـيا، فإنهم فعلوا ذلك عن طريق السواحل التي استقروا عليها مبدئيا. يمكن القول حقيقة إن الساحل كان «محطة الإعداد للاستقرار في بقية العالم[36]».



خريطة لهجرات العالم من 100.000 2 [BCE] (*)، أعدها أدام دافيز.

(*) Before Common Era وهو مصطلح غير ديني لفترة ما قبل التاريخ. [المترجمة].

لقـد كان ذلك جِنْسـا قادرا على التحكم في أكثر البيئات قسـوة، بمـا فيها القطبية. منذ عشرين ألف سـنة مضت، وصل هؤلاء إلى الحدود الشرقية لسـيبيريا حيث وسعوا مـدى الصيد والتجميع إلى بيرنجيا، والتي كانت في حينها جسرا أرضيا بين آسـيا وأمريكا الشـمالية. تُشـجعنا الأبحاث الأخيرة على التفكير في أن تأهيل الأمريكتين هو عبارة عن امتـداد لعملية تأهيل السـاحل عوضا عـن تأهيل ذاك الأرضي الداخـلي. يخمن نوت فلادمارك وآخرون أن المهاجرين تحركوا بخفة على السـواحل، مسـتغلين الفوائد الغنية لكلا جانبي خط المد. في ذلك الوقت كان ارتفاع مستويات البحر يقدر بنحو 350 - 400 قـدم أقل مما هـو عليه الآن، جاعلا من قارة أمريكا الشـمالية أكبر حجما بزيادة تقدر بحجـم ولاية تكسـاس الحالية. لا بد للواحد منا أن يتخيـل أن ما يدعى أحيانا «طريق كيلب السريع» كان كتلة حيوية من الغنى والتنوع تشـابه الغابات الاسـتوائية الممتدة من اليابان وعبر السواحل الجنوبية لبرينجيا نزولا إلى باجا، كاليفورنيا، ثم تستمر بمحاذاة سـواحل الآنديان نزولا إلى طرف أمريكا الجنوبية. فكما لاحظ تشارلز داروين في 1834، هذه الغابات البحرية الشاسعة لم تحتضن فقط الثدييات البحرية، السمك، والطيور، بل احتضنت كذلك بشرا مثل الفيوجيين Fuegians [37].

إن طرق الهجرات من آسـيا إلى العالم الجديد اسـتمرت في كونها مثيرة للجدل، بيـد أنه اتضح لنا الآن وبشـكل كاف أن الهجـرة السـاحلية أدت دورا على الأقل بالأهمية نفسها في الأمريكتين كذلك الذي أدته في بقية أنحاء العالم. إلى تاريخنا هذا، كل الجهـود المبذولة للعثور على دليل على ممر مائي عبر المحيط الهادي أو المحيط الأطلنطـي باءت بالفشـل، وفي حين أنـه كان محتملا أن القوارب كانت تسـتخدم للتنقل عبر السـواحل، فإنه من غير المرجح أن هؤلاء الساحليين الأوائل كانوا بحارة يصلـون إلى أعـماق البحـار. ومع ذلك، فإن السرعة التي سـافروا بهـا عبر ضفاف السواحل كانت مذهلة. يسبق موقع مونت فيردي The Mont Verde في تشيلي بما لا يقل عن ألف سـنة أقدم موقع استقرار بشري موثق على الأرض الداخلية، والذي يدعى موقع كلوفيز Clovis Site. كانت مونت فيردي مستوطنة طويلة الأمد، تقع على نهر يبعد بما يزيد بقليل على.ثلاثين ميلا عن البحر فقط، وهي مسـتوطنة بدا أن لديها علاقات تجارية مع مجتمعات بحرية أخرى. إن الأدلة على استهلاك المحار والأعشاب البحرية هناك تشير وبقوة إلى وجود الصيادين الرحل البحريين عوضا عن

صيادي الحيوانات الضخمة الأرضية والذين كانوا ولزمن طويل هم أبطال النظريات التقليدية للهجرات القارية المركزية[38].

لِمَ بقيت قصة جنس الحواف البشري غاية في الغرابة؟ إن أحد الأسباب الجلية تتركــز في غياب نوعية الأدلــة المتوافرة بكثرة على المواقع الأرضيــة الداخلية. فعلى مــدى الــ 150 ألف ســنة الأخيرة تعرضت مســتويات البحــر إلى تذبذبات بالغة، ماســحة بشكل متكرر سجل الاســتيطان الإنساني على الساحل. في آخر فترة تجميد، والتي وصلت الذروة منذ 20 ألف ســنة مضت، وصلت ارتفاعات البحر، كما ذكرت أعــلاه، مــن 350 إلى 400 قدم أقل مما هي عليه الآن. اســتقر البشر في العديد من الأماكن التي اختفت منذ زمن طويل منذ ذلك الحين، إما أنها مســحت عن طريق المد المرتفع أو غرقت عميقا أســفل الأمواج التي اســتطعنا فقط اليوم، وبمســاعدة التكنولوجيا الحديثة لعلم الآثار المائي، أن نستكشــفها. في وقتنا هذا، كل ســنة تأتي باكتشــافات جديدة على الساحل والتي تكشــف التاريخ الخفي لجنسنا الساحلي، لبراعتــه في تحويل الســواحل إلى طرق ســفر وتجارة ليس لها مثيــل على الأراضي الداخليــة. حتى وقت قريــب، كان علماء الآثار مقتنعين بأنــه جرى دخول أمريكا الشــمالية عن طريق ممر داخلي غــير متجمد. الآن، يمكن إثبــات أن اتباع الطرق الأرضية عبر الحقول الكورديليرانية واللورينتايدية(*) الجليدية كان لربما سيكون أشد صعوبة بكثير من اتباع طريق كيلب السريع الهائل على ضفاف السواحل. ببساطة، ليس هناك تفســير آخــر لكيفية وصول البشر إلى أقاصي الجنــوب للقارة وفي وقت قصير جدا بعد دخولهم أمريكا الشمالية[39].

في البداية، بدا أن مهاجري الســاحل كانوا يســتخدمون الشــواطئ بشكل بسيط، يتنقلون عبرها عندما يســتهلكون مكان إقامتهم، حيث إنهم نادرا ما يستقرون لفترات زمنيــة طويلة. غير أنــه ومنذ عشرة آلاف ســنة، تحولت الطرق الســاحلية إلى جذور ســاحلية وذلك عندما أصبحت المســتوطنات أكثر ديمومة. كان ذلــك تقريبا في الوقت نفســه الذي بدأت فيه المجتمعات الزراعية المســتقرة. وبينما كان يعتقد ذات يوم أن تطور الساحل كان معتمدا على تطور الداخل، يبدو الآن أن الوضع، ربما، كان معكوسا

(*) Cordilleran and Laurentide Ice Sheets هــي مســاحات جليدية ضخمــة كانت تغطي أجزاء من أمريكا الشمالية وكندا. [المترجمة].

في الواقع، حيث تحققت بدايات المجتمع الزراعي على السواحل. لطالما كان الصيادون الرحل ماهريـن في الفلاحة، وفي العديد من البيئات الانتقالية حيث تتداخل اليابسة بالماء، لم يكن ممكنا التفريق بين صيادي السمك والمزارعين. كان يجب استكمال البروتين المتوافر من السمك والمحار بسعرات حرارية من لحوم الحيوانـات والنباتات القابلة للأكل، والتي كان من السهولة العثور عليها على الساحل كما في الداخل. والآن، أصبح مؤكدا أن التطور الإنسـاني لم يتبع تسلسلا بسيطا من الصيد والتجميع إلى الزراعة. لم يعـد في الإمكان النظـر إلى الزراعة على أنها قفزة عظيمة مفاجئـة للأمام، بل كامتداد للمهارات التقنية التي جرى تعلمها على طرف الماء[40].

لقـد تطور صيد السـمك والزراعة، صيد الطرائد والبسـتنة ترادفيـا منذ البداية، حيـث كان كل منهـا يتمم الأخرى. لا بد اليـوم من ترك مفاهيم القرن التاسـع عشر حـول «مراحل» التطور وذلك من أجل مفهوم التاريخ المسـتمر المتداخل والذي يدرك أن الأرض والمـاء جـزءان يعتمد أحدهما عـلى الآخر لنفس النظـام البيئي. لم يحدث هذا الانفصال حتى القرن التاسـع عشر عندما تحول نظاما الزراعة وصيد السـمك إلى مؤسسات تجارية في البداية في العالم الرأسمالي المتطور ولاحقا في أجزاء أخرى من العالم. غير أنه، ولأطول مدة من زمن وجودنا، شـكلت الأرض والبحر نظاما بيئيا أوحد، أحيانا يحتل شريطا ساحليا ضيقا فقط، ولكن وبشكل متزايد، وعبر التوسع في عمليتي التنقل والتجـارة، أصبح هذا النظام منطقة شاسـعة تمتد عميقا داخـل المناطق الأرضية كما داخل البحر عبر الساحل، أحيانا تتمدد عبر مساحات مائية لتربط الأراضي المتباعدة.

تطور جنسنا، جنس الحافة

بالنسـبة إلى العديد من مؤرخـي ما قبل التاريخ، يظل اخـتراع الزراعة نقطة التحـول الكبرى. يصر هؤلاء على رسـم حد واضح بـين الصيادين الرحل والمزارعين، متجاهلـين التداخل بين حراس الطرائد والمزارعين. إن مفهوم أن الصيادين الرحل لا قـدرة لديهم على الزراعة قد وضعهـم تلقائيا في رتبة أقل من الجنس البشري، رتبة تدعى «بدائية». إن مفهوم البدائية، وهو تشـويه آخر للنظرة الماضوية، الذي جرى اختراعه عن طريق الفيكتوريين المتلهفين لإبعاد أنفسـهم عن أسلافهم، هو مفهوم قد اسـتمر على الرغم من كل الأدلة على سـعة حيلة هؤلاء الصيادين الرحل. نحن

نعرف، على سبيل المثال، أن الصيادين الرحل في السواحل الشمالية الشرقية في أمريكا قد طوروا مجتمعا مائيا عبر زراعة المحار في أماكن محمية صناعيا على طول الساحل. غير أنه حتى فرانز بواس، والذي كان يعرف طرائقهم أفضل من أي باحث آخر بين جيله، قد تجاهل الأدلة التي تشير إلى حدائقهم المحارية[41].

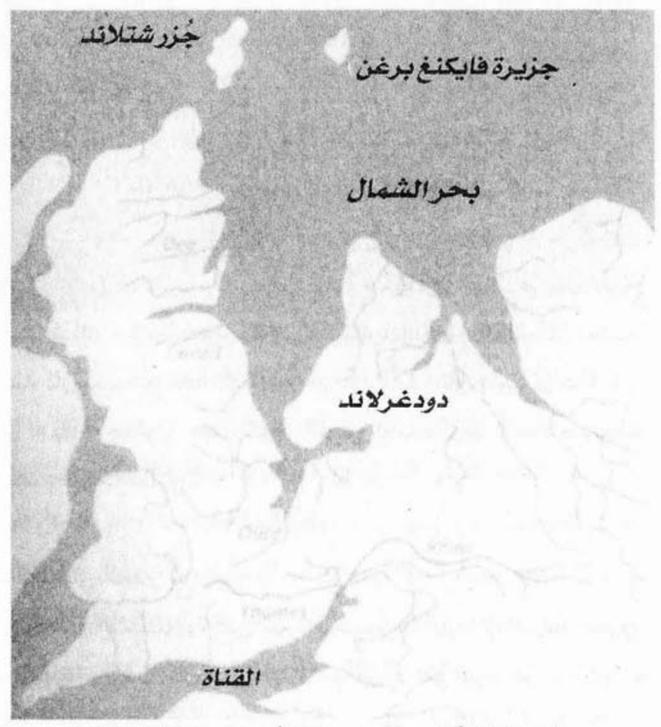
لطالما كان على علم الآثار أن يرضى بالتغريب المستشعر السابق للبحر. فحتى أواخر القرن الثامن عشر، كانت السواحل أماكن يجب تجنبها، سكانها كان ينظر إليهم على أنهم مخلوقات أقل من سكان الداخل. فالأماكن التي يلتقي فيها الماء اليابسة ويختلط بها هي «معبأة بالفهم الخاطئ والمخاوف». لم يبدأ الأوروبيون، حتى خمسينيات القرن التاسع عشر في الفحص الجاد لأجساد العصر الحجري المحفوظة جيدا والتي كانت تظهر في المستنقعات المجففة حديثا، أجساد كشفت عن المدى الذي احتل به البشر البحيرات والأقاليم الساحلية وذلك قبل أن يحتلوا الداخل، حيث عاشوا في ما بدا أنها بيوت متكلفة أو على هضاب كانت تسمى crannogs(*) في أيرلندا، أوterps(**) في هولندا وشمال ألمانيا[42].

في الوقت نفسه تقريبا، كان الفيلاديلفي كليرانس أتش مور يشرف على دراسة حول تلال المحار والسكان حول هذه الأكوام في السواحل الجنوب غربية.لفلوريدا، كاشفا عن عالم متواز على هذا الجانب من الأطلنطي. فقد كشف تنقيب فرانك كوشينغ في 1890 في منطقة كي ماركو عن مجتمع على مستوى عال غير متوقع مخفي فيما كان وقتها مستنقعا لشجر المانغروف الاستوائي. مع ذلك، كانت لاتزال هناك مقاومة لاعتبار سكان الأراضي الرطبة على أنهم أي شيء سوى زراعيين يعيشون على طرف المياه. «إنسان ما قبل التاريخ كان إنسانا وليس كائنا برمائيا»، هكذا استخلص أوسكار باريت في خلال الخمسينيات من القرن العشرين. ومع ذلك، فإن نصف قرن آخر من علم الآثار النشط حول المناطق البرمائية قد جلب سكان هذه المناطق إلى مقدمة الاهتمام العالمي. على ساحل تشيشاير في إنجلترا، كشف المد المنخفض ومنذ زمن عن منطقة تركيز مكثف لجذوع أشجار ولجذور كان المحليين يسمونها غابة نوح. لم يعط العلماء أي انتباه لذلك حتى نشر كليمنت ريد كتابه الصغير Submerged Forests في 1913، مخمنا أن تلك المنطقة قد تكون

(*) بيوت تبنى كأنها جزر صناعية تشيد في البحيرات والأنهار. [المترجمة].

(**) تلة صناعية يبنى عليها مكان العيش. [المترجمة].

حافة عالم ضائع مســتلق أسفل بحر الشمال بين بريطانيا والدنمارك. اكتسب تخمين ريــد مصداقية أكبر عندما جرى التقاط رمــح مصنوع من عظام قرن غزال من على ضفاف دودغر(*) عن طريق صيادي سمك في 1931. وقد أكد مزيد من الاستكشاف الصوتي بعد الحرب العالمية الثانية وجود منطقة بحجم بريطانيا في حد ذاتها والتي كانت موجودة ما بين عشرين ألف سنة وخمسة آلاف سنة مضت، مكان كان، على الأغلــب، موطنا للصيادين الرحل حتى أجبرهم فيضان العصر ما بعد الجليدي على الانتقال إلى ما يعتبر الآن ســواحل بريطانيا والقارة الأوروبية. في العام 1998 كانت تلــك هي أرض دودجر المعمدة، تنضم إلى المنطقة المغمورة بين ســيبيريا وألاســكا، بيرنجيا، ومناطق ما تحت البحر لبحار جنوب الصين والتي تعرف باســم ســندالاند، على اعتبار أنها الأراضي الرئيسية المفقودة للعصر الحجري الأوسط[43].



رسم لدودغرلاند، أرض موصّلة بين بريطانيا وأوروبا، نحو 3000 قبل الميلاد.

الرسم لآدم ديفز.

(*) ضفاف بحر الشمال، تبعد نحو 100 كلم عن ساحل إنجلترا الشرقي. [المترجمة].

هذه الأراضي، والتي كانت تعتبر مبدئيا «أراضي جسرية» عوضا عن كونها فقط أراضي عادية، كانت تفهم تدريجيا على أنها مواطن لشـعوب دائمة والذين اسـتعمروها بسبب ثـراء مواردها مـن النباتات والحيوانات. بقدرتهم على التنقل والتكيف، هذه الشـعوب في دودغرلاند، بيرنجيا وسـندلاند «عاشـت حيوات غنية واجتماعية في بيئة ربما توافرت لهـا الفرص». فبينما بقيت معظـم الأدلة مغمورة، فإن الاكتشـافات على طول الرفوف الصخرية لكل مـن أوروبا وأمريكا قد ألقت ضوءا جديدا على الصيادين الرحل المبدعين والمتكيفين، حيث تساويهم بالبشر الداخليين inlanders المعروفين بشكل أفضل، والذين لطالمـا كانت آثارهم أكـثر تطورا بكثير. الآن تـبرز قصة خلق جديدة بديلـة بينما تبدأ السواحل المغمورة بكشف أسرارها لتقنية السونار ولأجهزة الغوض المتقدمة[44].

إن أحد أكثر الاكتشـافات المثـيرة لعلم الآثار الحديث هو بيت سـتار كار Star Carr House، والذي اكتُشف بالقرب من سكاربورو في شمال يوركشاير. ويُعْتَبر هذا المكان أقدم مكان سكن في بريطانيا، والذي كان مأهولا منذ ما يقرب من 10500 سنة مضـت، في وقت كانت فيه بريطانيـا لاتزال متصلة بالقارة عبر دودجرلاند. في الوقت الذي كان فيه هذا المكان مأهولا، كان يقع على بحيرة، والتي كانت هي كذلك موقعا لقاعدة خشـبية ضخمة، ما يعتبر أقدم مشروع نجارة معروف للبشر في أوروبا. وُجد في الموقـع مجـداف قارب ولباس رأس مصنوع من قرن الغزال ما يدل على أن سـتار كار كانت كذلك مركزا للطقوس. فحتى اكتشافها في العام 2008، كان يعتقد أن هذه المنطقـة كان يسـكنها فقط الصيادون الرحل. الآن، يبدو جليـا أن هذا كان مجتمعا مستقرا له ثقافة متطورة، حيث تتوافر الفرص الجيدة كذلك لإيجاد مستوطنات أقدم فيما يتقدم البحث الأثري[45].

الغنى الساحلي للعصر الحجري

في القصص الأسـطورية التي تسردها شـعوب الهيدا في الشمال الغربي الكندي هناك تلميحات لوقت كان يمكن فيه المشي بين ما هو اليوم جزر مواجهة للشاطئ. تدريجيا، سـترتفع مناسـيب البحر حيث سـتأخذ الحافة بين الأرض والبحر الشكل الذي ظل حتى وقتنا هذا. وبتراجع المياه المتجمدة في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي أخذت الأنهار الرئيسـية ومصباتها مواقعها الحالية، سـامحة لسمك المياه

العذبـة باتخاذ أنمـاط هجرته الحاليـة. إن تكوين المسـتنقعات والأراضي الطينية السبخة قد يسر تكاثر المحار، ثبتت اتجاهات الهجرة للطيور، ووفرت مناطق تكاثر ثابتة لحيوانات الفقمة والألفظ وغيرهما من الثدييات المرتادة للبحر[46].



Tollundmannen، رجل يعيش على المستنقعات وُجد في الدنمارك.
الصورة من ويكيميديا كومونز.

إنه في هذا النظام البيئي الضيق بين الأرض والبحر طور الصيادون الرحل أوائل المجتمعات الساحلية التي كانت لها السمات الشائعة حول العالم نفسها. فلقد كانت هناك سمات معينة ميزت الساحليين عن سكان الأراضي الداخلية من البداية. فأولا، كان السـاحليون متنقلين بشكل كبير. وكان التنقل هو نمط الحياة الطبيعي، فالبقاء والتطـور المسـتمر اعتمدا على التنقل. فلم يكد السـاحليون يخرجون من أفريقيا، حتـى ملأوا هذا الكوكب بسرعةٍ لم يحققها أي جنس آخر. كانت للتنقل فوائد عدة مثل درجة أعلى من الصحة البدنية عن التي كانت للشعوب المستقرة، والذين كانوا غالبـا ما يلوثون بيئاتهم. وبالمثل، عندما يتعايش البشر مع الحيوانات عوضا عن أن

يصطادوها، فإنهم يجعلون أنفسـهم عرضة للأوبئـة التي تحملها الأجناس الأخرى. فبينـما من غير البين أن الصيادين الرحل كانوا يعيشـون حيـاة أطول، بيد أنهم في الغالب، كون أراضيهم أقل كثافة سكانية، كانوا أقل عرضة للأوبئة.

كـما أن الصيادين الرحل أبقوا على نسـبة تكاثر منخفضـة. فبينما تحملوا هم 95 في المائـة مـن وقت البشرية بمجمله على هذا الكوكب، فإنهم شـكلوا فقط 12 في المائة من كل البشرية التي عاشـت على هـذه الأرض. نحن نعرف أن الصيادين الرحل المعاصرين يسـتخدمون أنواعا مختلفة من أساليب تحديد النسل، ولا بد أن الصيادين الرحل القدماء قد فعلوا ذلك أيضا. ربما العامل الأهم بالنسبة إلى معدلات المواليد المنخفضة لديهم كان الدرجة المرتفعة لتحركهم والتي شجعت الأمهات على الإرضاع الطبيعـي لفترات أطول، ما أدى إلى إبعاد المسـافات الزمنية بين الولادات وبالتـالي الحد من العدد الكلي للمواليـد. في كل الأحوال، يمكننا أن نكون متأكدين بدرجة معقولة أنهم عاشوا في جماعات صغيرة جدا، أقرب إلى كونها عائلات ممتدة كبـيرة، والتي كانت تتحرك وتسـتغل المـوارد في المناطق التي تجمـع أنظمة بيئية مختلفة والتي ألفوها بشكل كبير[47].

مـن المتوقع أن الصيادين الرحل البحريين قد عرفوا كذلك كيف يتفادون أنواعا معينـة من الكـوارث الطبيعية. إن الخبرة الطويلة مع ظروف السـاحل قد علمت جنـس الحافـة البشري أن يعيش فوق مسـتويات البحر، عادة بعيدا بمسـافة عن خط المد، متفادين بذلك العواصف والتسـونامي. إن أسـاطير الشـعوب الساحلية للشـمال الغربي الكندي تشـير إلى فيضانات دورية لكنها تحـكي كذلك عن هروب ناجح باسـتخدام الـزوارق. إن البشر الذين يحتلون الحواف مـن بين كل الأنظمة البيئية عادة ما يظهرون قدرة سريعة على التغلب على المشاكل، كما يظهرون تكيفا أكـبر مع تأثـيرات الريح والنار كما هو تكيفهم مع الميـاه. تتوافر الدلائل على أنهم عرفوا كيف يسـتخدمون الماء ليحموا أنفسـهم من أعدائهم من الحيوانات والبشر. في إيرلندا وأسكتلندا، كانت الإقامة في جزر صغيرة صناعية تدعى crannogs تخدم هـذا الغرض. لم يقصد الفقراء فقط المكان من أجل المأوى. كانت تلك الجزر تؤوي الملوك والكهنة، الذين كانوا يعرفون كيف يستغلون القوى الماوراء طبيعية المرتبطة بالأماكن الحدودية حيث تلتقي اليابسة والماء[48].

مـع ذلك، لم تكن عوامل الجذب للبيئـات الانتقالية فقط مادية. فعلى ما يبدو أن الأماكـن التي تختلط فيها اليابسـة بالماء كانت منذ زمـن مصدرا ومحفزا رمزيا للتطـور الثقافي. لم تكن هناك فقط أعداد هائلة من الأرواح المقدسـة والآلهة التي يمكـن الالتقاء بها، ولكن كذلك القدرة على الوصول إلى عوالم أخرى، حيث يسـكن الأسـلاف الموتى. إن الطبيعـة التحويلية للماء، والتي تنعكـس إلى الآن في الطقوس الحديثـة للتعميد، كانت مفهومة عالميا. فالسـواحل لطالمـا كانت مواقع لطقوس العبور. فالممرات الخشـبية المذهلة التي اكتشفت حديثا في المستنقعات الساحلية الأوروبيـة تُرى الآن على أنها كانت لها قيمـة رمزية أكثر منها عملية. فمثل أرصفة الموانئ والممرات التي تشـبهها، كانت هذه الممرات الخشبية تيسر وصول أناس ما قبـل التاريخ إلى العـوالم المائية، ليس من أجل المتعة في هـذه الحالة، بل للتواصل مع الموتى. فكل نذور الأضحيات والأشياء المدفونة التي وُجدت في مثل تلك الأماكن كـوادي ويثام في إنجلترا تترك أقل الشـكوك حول التوالد الثقـافي في الأماكن حيث تلتقي اليابسة والماء. كانت المستنقعات من أول التضاريس التي جرى تعلم ثقافتها، حيـث تحولت عن طريق أداء الطقوس من طبيعة غير متميزة إلى أماكن مقدسـة مشـهودة. فمنذ بداية الزمن، لم تنتج البيئـات الانتقالية فقط حياة جيدة بل حياة لها معنى كذلك[49].

مـا هو مؤكد هو أن جنس الحافـة البشري قد تمتع بوفرة من الموارد، الثقافية كما المادية، والتي لم تتمتع بها الشعوب الأخرى. هؤلاء الأوروبيون الشماليون الذين احتلوا الأراضي المرتفعة التي تدعى terps، والواقعة على سـواحل بحر الشـمال كانوا يرعون الأغنام والماشـية، وكانوا قادرين على تبادل القمح مع سـكان اليابسـة الداخليين. كان يقال إن «حياة terp كانت حياة جيدة على الأغلب، حيث إن كثافة الاسـتيطان كانت أكثر من ضعف تلـك المعروفة للأراضي الترابية الداخليـة». كان هؤلاء أقصى الكائنات الآكلـة للحيوان والنبات، يقطعون خط المد ليشـبعوا حاجتهـم من البروتين، متحركين باتجـاه الأراضي الداخلية للحصول على الكاربوهيدرات الضرورية، مشـتغلين بالتجارة عبر المسـافات الطويلة للحصول على الكماليات والضروريات التي لم تكن سهلة المنال. سـيكون من الخطأ الاعتقاد أنه لم يكد الصيادون الرحل يسـتقرون على الشاطئ حتى أداروا ظهورهم إلى اليابسة. على العكس تماما، فالأدلة تشير إلى أنهم كانوا يؤدون رحلات

موسمية إلى الأراضي الداخلية للصيد والجمع. كانت الشعوب الأصلية للساحل الشمالي الغربي في كندا تحيك الثياب من شعر الماعز الجبلي، فيما كانت شعوب الجوماش Chumash لجزر القنال Channel Islands جنوب كاليفورنيا متصلين عبر التجارة بجماعات تبعد مئات الأميال في الأراضي الداخلية. لاحقا، وبتشجيع من تجار الفرو الأوروبيين، مددت الشعوب الساحلية الشرقية والغربية للعالم الجديد مدى ومواسم نشاط صيدهم، موسعين بالتالي حجم بيئاتهم الانتقالية[50].

قبل أن يصبحوا ماهرين في الصيد البحري بزمن، كان الصيادون الرحل ساحليين مهرة يسافرون على طول الساحل بحثا عن الموارد. أسهم ذلك بشدة في انتشارهم حول العالم، لكنه قاد كذلك إلى إنشاء القواعد البحرية التي منها كانوا ينطلقون يوميا أو موسميا، عائدين بمؤن تكفي المجتمعات تلك على مدار السنة، وتوفر فوائض للتجارة مع مجتمعات ساحلية أو داخلية أخرى. كان هؤلاء روادا كذلك في التبادل والتواصل عبر المسافات وذلك قبل ظهور طبقة التجار المتخصصة بزمن طويل. كونهم يعملون من دون نظام نقدي، كان هؤلاء ماهرين في المحافظة على التبادل طويل المسافة. وكونهم معتادين على التعامل مع الغرباء، كانت الشعوب الساحلية لشمال أمريكا، مثل نظرائهم حول العالم، ليسوا فقط مستعدين بل متحمسون لإدخال الأوروبيين في شبكات تجارتهم وذلك عندما ضل هؤلاء الطريق إلى عالم الساحليين منذ قرون مضت[51].

سافرت الشعوب الساحلية الأولية بخفة. فصناعة القوارب والطوف تبدو أنها واحدة من أقدم الإنجازات التكنولوجية البشرية، حيث لن توفر المواصلات الأرضية أي مميزات عن تلك المائية قبل الوصول إلى القرن التاسع عشر، فالحركة السريعة التي نعرف أنها كانت موجودة على السواحل لم تكن لتكافئها أي وسيلة تنقل أرضية. بكل تأكيد، كانت نسبة التغيير على السواحل أعظم بكثير من أي تغيير يمكن تخيله في الأراضي الداخلية. فمعدلات التطوير التي حدثت على امتداد الساحل منذ 100 ألف سنة ق. م تبدو أنها تجاوزت أي شيء حدث مسبقا، وذلك جزئيا بسبب المعدلات المرتفعة للتنوع الثقافي والذي أثبت أنه كان عاملا محفزا على تبادل الآراء. فكما نعرف الآن من الدراسات الحالية للحدود البيئية، هذه الحدود في الأغلب ستكون كذلك حدودا ثقافية، حيث ستكون نسب التبادل في أعلاها والتغيير أكثره حدوثا وتكرارا[52].

يؤرخ علـماء الآثار بداية الإبداع الإنسـاني مع صناعة النصـل الحجري وذلك تقريبا منذ 200 ألف سنة مضت. لحقت ذلك صناعة حجر الرحى والطرف المدبب بسرعـة كبيرة، بيـد أن التقدم الأعظم اللاحق كان في جمـع المحار والذي بدأ منذ 140 ألف سـنة مضت، متبوعـا بسرعة كبيرة بالتبادل عبر المسـافات الطويلة. إن أول عبور للبحر لجنس الإنسان العاقل إلى أستراليا يؤرخ حدوثه منذ 40 ألف سنة مضت، بيد أنه اكتُشـف الآن أن نوعا آخر من hominids، وهم الإنسـان القائم، كانوا يرتحلون في البحر المتوسـط منذ وقت مبكر في حدود 130 ألف سنة مضت. تشـير الاكتشـافات الأخيرة التي تمت على السواحل الجنوبية لجزيرة كريت إلى أن الشعب الذي ينتمي إلى ثقافة أتشـيوليان (Acheulean) في الشمال الأفريقي قد وصلوا إلى الجزيرة بمسـاعدة أدواتهم الحجرية، والتـي جرى حفظها في مرتفعات بلاكيـاس (Plakias) الصاعدة. في مناطق أخرى، تؤرخ صناعة السـنانير العظامية والحراب لنحو 100 ألف سـنة مضت، ثم تبعها على وجه الاحتمال الصيد البحري وفق التسلسل المتوقع[53].

إضافـة إلى ذلك كلـه، هناك عامـلان في مصلحة جنس الحافـة وهما التكيف والمرونة. لربما تحسـن هذان العامـلان بوجود المجموعات ذات النطاق الضيق من الصياديـن الرحل البحريين، معظمهم لا يزيـد على كونه عائلة ممتدة، غير معرضة لأي تدرج طبقي داخلي أو سـيطرة خارجية. لا يوجد سـوى أقل القليل من الدلائل على وجود تقسيم طبقي قبل اختراع الزراعة الداخلية. العلاقات بين الرجال والنساء، وبين المجموعات العمرية المختلفة، كانت تبدو غاية في المرونة، حيث خط النسـل الأمومي كان في أقل الأحوال يبدو شـائعا كما خط النسـل الأبوي. فحيث مارسـت المجتمعات جمع المحار، كان لكل من الصغار والكبار أن يقدموا مساهماتهم للخير العـام. على طول الحـدود الأرضية، التحكم في البيئـة كان يتطلب درجة أعلى من التعاون بين الشعوب الزراعية[54].

مما نعرفه من الاكتشـافات الأثرية الحديثة، كان الصيادون الرحل الساحليون يتمتعون بالوصف الشهير لمارشال ساهلينز «ثراء العصر الحجري»، وهو ثراء استفاد من السـبل الميسرة لنطاق واسـع من الموارد التي كانت متوافرة بشكل أعظم مما هـي لأي موقـع جغرافي آخر. فبينما تكـون الأراضي الرطبة السـاحلية أو المجاورة

للبحيرات ربما الأكثر تنوعا حيويا وإنتاجا بين كل مناطق الأرض، بيد أنها تختلف في خصوبتها على نطاق واسع. فالمستنقعات النباتية تقدم مصدرا للوقود لكنها غير خصبة. كما أنه ليس كل السواحل غنية بالأغذية البحرية كما هي تلك السواحل المعتدلة طقسيا والمباركة بالأمواج المتقلبة Upwelling(*) أو التيارات المتتابعة، والتي توفر أفضل بيئة لكل أنواع الأحياء المائية. إنه من الواضح أن المياه الساحلية كانت أكثر إنتاجا من المحيطات العميقة، حيث إن أغنى الأماكن بينها جميعا هي مناطق تلاقي المد والجزر(**) المعتدلة طقسيا وأماكن مصبات الأنهار في البحار، التي أنتجت ما يقرب من عشرة أضعاف الكتلة الحيوية للسواحل في العموم. ما كانت له أهمية خاصة في بداية الألفية الحالية هو المحار الذي كان يظهر مع كل جزر. كانت الأفواه النهرية مواقع مثالية، فهناك لم يكن على صيادي السمك أن يلاحقوا الفريسة، فقط كانوا يجهزون شباكهم وسياجهم للأسماك النهرية المولد التي تعيش في البحار كذلك والتي أتت بشكل منتظم بمجرد أن استقرت الخطوط الساحلية، وذلك بين 6000 و4000 ق. م. كانت هذه العملية ملاحظة في كل من العالمين القديم والجديد، وحيث التطورات في خطوط العرض العليا لنصف الكرة الأرضية الشمالي كانت متشابهة بشكل لافت للنظر حول العالم. ففي كل من أمريكا الشمالية وشمال غرب أوراسيا كانت نهاية العصر الجليدي تحويلية، صانعة بيئة كان لها تأثير حاسم ليس فقط في السواحل بحد ذاتها بل في الدواخل القارية كذلك. في هذه الأجزاء من العالم، ليس من المبالغ فيه القول إنه على مدى آلاف السنوات تكونت حياة جديدة عن طريق كل من اليابسة والبحر[55].

وفرت السواحل في كل مكان تنوعا حيويا عظيما. كانت السواحل الشمالية مواطن طبيعية ليس فقط للمحار ولكن كذلك لعدد متنوع من النباتات (اللفت البحري، الملفوف البحري، الطحالب البحرية) الغنية بالمواد المعدنية مثل اليود الذي، بالإضافة إلى الزيوت السمكية، قد حسن النظام الغذائي والصحة العامة بين البشر. كانت الشواطئ حيث توالدت حيوانات الفقمة والألفظ هبات إضافية من

(*) مصطلح يشير إلى ظاهرة محيطية تسبب من خلالها الرياح تقليب الماء بحيث تصعد الطبقة الأبرد والأكثر كثافة والغنية بالمواد المعدنية إلى سطح الماء لتحل محل المياه الأدفأ والأقل غنى معدنيا. [المترجمة].

(**) Intertidal zones: تلك هي المناطق التي تصعد فوق الماء وقت الجزر وتنغمر بالماء وقت المد. [المترجمة].

البحر، بيـد أن الأفضل بينها جميعا كانت هـي الأراضي الرطبة الجاذبة ليس فقط للأسـماك ولكن كذلك للحيوانات البرمائية، والحيوانـات الأرضية، والطيور المهاجرة التي كانت عششـها هبات إضافية. وحيث إنهم تكيفوا مع تنوع وموسـمية البيئة الانتقالية حيث تلتقي اليابسـة بالبحر، فإن هذه الشـعوب السـاحلية كانت أقل عرضة للمخاطر من هؤلاء الذين كانوا يعتمدون على مجال أضيق من الموارد. يقال إن الشـعوب الأرضية الداخلية كانت تتحرك كذلك بحثا عن غذائها، بيد أن شعوب السواحل كانت لديهم رفاهية القدرة على الاستقرار في مكان واحد، حيث يتحركون خروجا عبر الماء ليجلبوا المؤن إلى حيث موقع سكناهم[56].

بكل تأكيد، كانت مستويات الاستهلاك لدى أجناس الحافة القدماء منخفضة بمقاييسـنا، حيث كانت نسـب أعمارهم أقل من نصف نسـب أعمارنا. فإلى أن بدأوا بالاسـتقرار مع نهاية العصر الجليدي، كان هؤلاء يتحركون باستمرار حتى يسـتطيعوا جمـع أي كمية من ذلك المقـدار من الموارد الذي قد يشـكل ثراء بالنسـبة إلينا. في المقابل، لم يكن هؤلاء عرضة لأنواع الكوارث التي لطالما تركت آثارها على تاريخ الشـعوب الزراعية. ربما لم يعرف هؤلاء معنى الرفاهية، لكنهم كذلك كانـوا يعملون بمقدار أقل. فمن المقدر أن الصيادين الرحل البالغين كانوا قادرين على تأمين احتياجاتهم بجهد مبذول لمدة ما بين سـت وسبع ساعات في اليوم، فيما احتاج المزارعون نحو تسـع سـاعات. في مجتمعات اليوم الصناعية، لاتزال سـاعات العمل تدور في حدود ثماني سـاعات، وهي سـاعات أكثر إرهاقا ورتابة بكل تأكيد[57].

أولى الثقافات الساحلية

لقد وُجد مسـبقا منذ خمسة عشر ألف سنة مضت ما وصفه جيمس ديكسون بأنه «نظام بيئي سـاحلي بحري مسـتمر متداخل المد والجزر، يمتد بين شمال شرق آسيا وشمال غرب شـمال أمريكا ثم أبعد جنوبا إلى نصف الكرة الأرضية الجنوبي». لقـد وُجـدت حافة الهادي قبل أن تكوّن هناك حافة الأطلنطي بكثير، وهو سـبب جيد ليس فقط لمراجعة فكرتنـا المتمحورة أوروبيا في أن التاريخ يتحرك من الشرق إلى الغـرب ولكن كذلك للتسـاؤل عـن مركزيته الأرضية. ففي بعـض أكثر البيئات

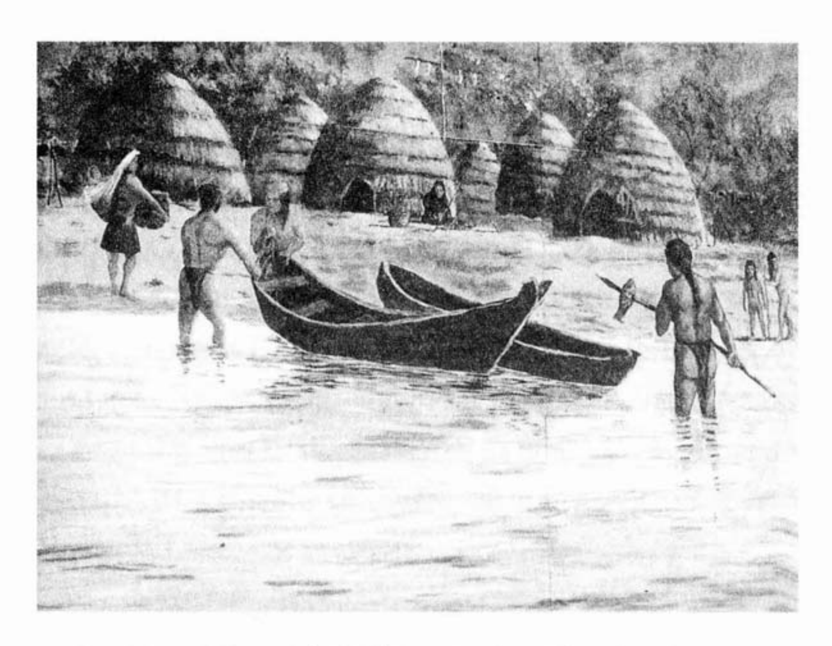
وعورة لساحل أمريكا الشمالي الغربي القاسي، أعطت وفرة البيئات الانتقالية الغنية مـا دعاه الكنديون فرصة الأمـم الأولى في الحصول على «وقت لتطوير أعظم ثقافة فنيـة في العالم الحديـث». ففي زمن مـا، تخيل علماء الآثار تمـدد الحضارات من الداخل إلى الخـارج. الآن، أصبح بالإمكان رؤية عدة نقـاط للبداية، حيث الأماكن التي كانت تعتقد هامشية أصبحت تتخذ دورا رئيسيا في عملية التطور الإنساني[58].

على خطوط العرض الأكثر ارتفاعا للعالم القديم كما في العالم الحديث، «شجعت نوعية ووفـرة أنظمة الغذاء البحرية الزيادة المتتابعة في الأعداد السـكانية، وأدت إلى نوعية حياة أكثر اسـتقرارا». الآن، أصبحت نوعية الحياة المستقرة ممكنة، ليس فقط في أماكن مثل الشرق الأوسـط حيث سـتتطور الزراعة، ولكن كذلك على طول السـواحل نفسـها. فمنذ تقريبا سبعة آلاف سـنة مضت، بدأت مرحلة جديدة في تاريـخ جنسـنا، جنس الحافة. لم يعد هـؤلاء مجرد جموع من الفـرق المتنقلة بل أصبحـوا الآن مجموعة من المجتمعات المسـتقرة، غالبا على اتصال بعضهم ببعض، يتبادلـون البضائـع وكذلك الأفكار واللغـات. في هذه المرحلة يمكـن الحديث عن حضارات الشـاطئ، كل منها تتشـكل وفق سـاحلها المعين، لكنها تشترك جميعا في سمات شائعة محددة. فالأساليب القديمة للاستغلال واسع النطاق للموارد أدت إلى تكثيف الصيد والجمع على كلا طرفي خط المد. فالصيد بعيدا عن الشـاطئ، والذي كان يمارس على الأقل لمدة مائة ألف سـنة كمكمل لمصائد الشاطئ والتقاط المحار، بدأ الآن في البزوغ بوصفه نشـاطا رئيسـيا. فالدلائل تشـير إلى تطور تقني متزايد، من حيث نماذج جديدة لشـبكات الصيد وللطعم ولأنواع جديدة من القوارب أكثر صلاحية للإبحار عما كان متوافرا سابقا[59].

إن العائـد الغذائي للصيد عادة ما يكون أعلى من ذلك الذي يكون للزراعة، بيد أن عائد صيد السمك لايزال أعلى. فبوجود منفذ على كمية ثراء أعظم للبحر، ارتخت الموانع أمام النمو السـكاني وأصبحت العديد من المجتمعات الساحلية ليست فقط أكبر ولكن أكثر تعقيدا بدرجة كبيرة. إن تجربة التشوماش Chumash الذين أسسوا أنفسهم على الجزر في حدود 7500 ق. م فيما يعرف لنا اليوم باسم قناة سانتا باربارا قد جرى توثيقها بتفاصيل دقيقة. لكونهم شـعبا انجذب من الداخل وإلى الساحل، هم الآن وجدوا أن الجزر توفر لهم منافذ أفضل بكثير للأسماك، بكلا نوعيها المحلية

والمهاجـرة. اختبر هؤلاء انفجارا إبداعيا في صنع معـدات الصيد والقوارب، والذي، بحلول العام 1500 ق. م.، شمل الزوارق الخشبية. إن درجة التعاون التي استلزمها صيد السـمك شـجعت تطور فكرة الهرمية، التي عادة ما تكون ذكورية السيطرة، والتـي جرى ربطها بالصيـد منذ ذلك الوقت. إن جمع المحار وغيره من الأنشـطة المتصلة بالقرب من الشـاطئ لم تفقد أهميتها الماديـة، ولكن عندما أصبحت هذه الأنشـطة ميادين للنساء، والأطفال، وكبار السـن، تقلصت مرتبتهم بشدة. فالصيد شـجع حيـاة متجذرة في مكان واحد، ومعها فهم جديـد لفكرة المنطقة، ما أدى في النهاية إلى الشـعور بأحقيـة التملك لأجزاء غنية بالموارد من السـاحل. وبينما كان من النادر التعبير عن الوضع بأسـلوب التملك هذا، فإن مفهوم استملاك البحر بدأ بالظهـور، مـا أدى إلى التنافس والخصومة، بل حتى الحـروب حول المياه المتنافس عليها. غير أن صيد السـمك شـجع كذلك التخصص وتطوير التجارة في السمك مع مجتمعات اليابسة، والتي وفرت الطعام في المقابل[60].

كان ذلك هو الواقع في شـمال أوروبا كذلك. بدأت الزراعة في الأقاليم الداخلية للشرق الأوسـط، بيد أنها وصلت إلى منطقة المتوسـط عبر البحر، حيث اسـتقرت أولا عـلى جزر إيجة قبل أن تتحـول إلى الأراضي الإغريقية، ثـم انتقلت أخيرا على طول الطرق السـاحلية الأطلنطية التي أسسها الصيادون الرحل البحريون لتصل إلى شـمال أوروبا بعـد 7000 ق. م. وكما قال باري كنليف «لقـد كان هو البحر الذي حدد السرعة». اتخذت الزراعة جذورها أولا عند مصبات الأنهار على طول الساحل الأيبـيري، متنقلة بتدرج فقـط إلى الأراضي الداخلية على طول الأنهار. ففي المنطقة التي تعرف على أنها هولندا اليوم، لم يبدأ تأهيل الأراضي الرطبة حتى تقريبا خمسة آلاف سـنة مضت. كان الناس هناك شـبه زراعيين، مركزيـن جهودهم على تزاوج العمـل بين الخنازير والماشـية. كان عالمهم يوصف بأنه «عالم ميـاه، مياه متنوعة، مقسـمة بخطوط الضفاف المرتفعـة الملتوية التي كانت تتبـع الأنهار والجداول». أظهرت المناطق الداخلية تأثير جيرانهم السـاحليين. إن تدوير محار البحر عميقا في الأراضي الداخلية يشير، بالنسبة إلى باري كنليف، إلى السيطرة التي كانت للبحر على الشعوب الزراعية الأوروبية القديمة، التي كانت جذورهم تمتد إليه[61].



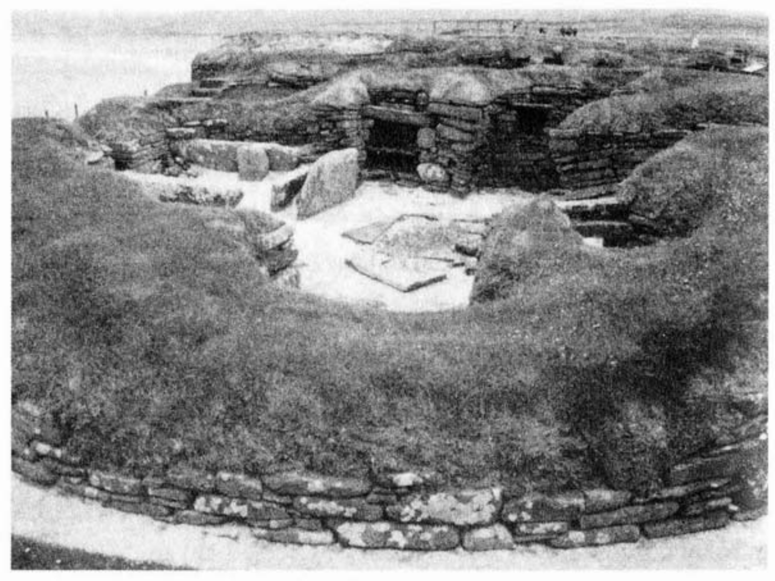
رسمة جدارية تبين قرية صيد تشيوماشية للفنان الكبير روبرت توماس، تصوير ديفيد جي. ماكلولين، الصورة من مركز إرسالية موارد كاليفورنيا.

سفح سكارا

تقع جزر أوركني Orkney Islands شمال أسكتلندا، وهو مكان شديد العرضة للرياح العاتية القادمة من بحر الشـمال، حتى إن هـذه الجزر لم تتمكن من دعم الغابات على أرضها. إلى اليوم، هو مكان لا يرجح أن تكون فيه أي حضارة ، بيد أنه عُثر على دلائل هناك تشـير إلى ثقافة مزدهرة سـبقت الستونهنج Stonehenge(*) والأهرامات في مصر. إن طبيعة أوركني زاخرة بحجرات القبور التي تعود إلى العصر الحجـري، ودوائـر للصخور المنتصبة، وأقـدم بيت أوروبي عرفتـه البشرية، Knap of Howar، عـلى جزيرة بابا ويسـتراي Papa Westray. بيـد أن أكثر البقايا إثارة للإعجاب سـفح سكارا، وهو قرية محمية من العصر الحجري، والتي تزودنا بأفضل

(*) موقع تاريخي في ولتشـاير، بإنجلترا. السـتونهنج هو أحد أشهر المواقع التاريخية في العالم، ويتكون من عدد من الصخور العملاقة المصفوفة بشـكل دائري. ليسـت هناك معلومة مؤكدة عن وظيفة الموقع، بيد أن هناك عددا من التكهنات حول كونه ساعة طبيعية، وتقويما شمسيا، أو مجرد ملتقى لكبار الجماعة الساكنة للموقع. [المترجمة].

لمحـات لمجتمع أطلنطي مكتمل التطور وُجد منذ خمسـة آلاف سـنة مضت. منذ العـام 1999، كان المكان، وعن اسـتحقاق، موقعا أثريا عالميـا، وحالة نادرة لتمييز مساهمة الساحل في التطور الإنساني.



قرية سفح سكارا المكتشفة من العصر الحجري، أوركاني، أسكتلندا. (التصوير للمؤلف)

بُنيت قرية سـفح سـكارا على مرحلتين، حيث بدأ العمل بها من 3100 ق. م، ثـم هُجـرت في 2500 ق. م. إن التجمع المتراص لعشرة بيـوت حجرية مرئية اليوم هي الآن على حدود خليج سـكايل Bay of Skaill على السـاحل الغربي لأكبر جزر أوركني والمعروفة باسـم ماينلاند Mainland. عندما بنيت القرية في البداية كانت متراجعة كثيرا عن البحر، ومحاطة بالمروج وبمنفذ لبحيرة مياه عذبة. عرف سـكانها الأصليون من العصر الحجري، والذين في الأغلب جاءوا عبر لسـان بينتلاند البحري Pentland Firth مـن الأراضي الأسـكتلندية، وذلك في الأغلب على الطوف، جالبين معهـم الماشـية، والخنازير، والخـراف، عرف هؤلاء كيف يزرعون الشـعير والقمح بيـد أنهم احتفظوا كذلك بمهارات أجدادهم في الصيد البري وصيد السـمك وجمع النباتـات. في البداية، غالبا ما تنقلوا من مـكان إلى آخر، متوقفين لمدة زمنية كافية

لتكوين تلال كبيرة من العظام، والصدف والفضلات. لاحقا، سَتُغمر بيوتهم الحجرية قوية الصنع أسـفل هذه التلال، حيث زودهم ذلـك بالحماية من الرياح والطقس وقدم لنـا معلومات لا تقدر بثمن حـول نظامهم الغذائي وطريقـة حياتهم. نحن نعرف أن لحوم حيواناتهم الداجنة كانت مُكملة بأنواع من قشريات البحر، وسمك القد، وسمك السـيث saithe، وكذلك الحيتان التي ترسو على الشاطئ بشكل عابر وغيرها من ثدييات البحر.

استـضاف سفح سـكارا مجموعة لا تزيد على 50 شخصا، والذين يبدو أنهم عاشـوا في مجموعات عائلية صغيرة، متسـاوين نسـبيا في المكانة. لم يكن هناك منزل أكبر من غيره. كل منزل كان معدا بالأثاث الحجري، والذي كان يشمل أسرة صندوقية، وخزائـن، وموقدا مركزيا، وأحواضا حجرية تسـتخدم لتنعيم صدف البطلينوس الذي كان يستخدم طعما للسمك. وعلى ما يبدو، فإن مساكنهم شبه المدفونة كانت مجهزة بقنوات صرف لإزالة النفايات الإنسانية. كان لديهم فخار، وأدوات حجرية (والتي تشـمل سكاكين سكايل الشهيرة[*])، وحليا مصنوعة من الأحجار أو العظام. كان شـعبا يمتلك وقت فراغ كافيا ليطور حياة ثقافية رفيعة. يشـير النحت إلى نشاط رمزي عالي المسـتوى، يقترب من الكتابة. كما أن وجود الصبغة الحمراء الشـبيهة بتلـك التي وُجدت في بيناكل بوينت تشـير إلى ذوق مشـابه في تلوين الجسـد. إن الأدلة على وجود غرف مقابر في كل أنحاء أوركاني تشـير إلى جهود مبذولة للتواصل مع الأسلاف وكذلك، ومن خلالهم، التواصل مع عالم الأرواح. إن العديد من المقابر المصنوعة على شكل غرف قد بنيت على قمم مرتفعات حيث تشـبه كثيرا بيوت الأحياء. وقد كان المكان حيث تلتقي اليابسة بالمـاء ومنذ البداية يعتبر مكانا مقدسـا، حيث الحياة والمـوت يندمجان كما لم يحدث في أي مكان آخر[62].

إن حالـة الحفظ الرائعة لسـفح سـكارا توعز إلى حقيقة أنـه لأكثر من أربعة آلاف سـنة كان الموقع مهجورا ومملوءا بالرمـال، ربما نتيجة لواحدة من العواصف العملاقـة المألوفة في المنطقة. لم يُكشـف عـن المنطقة إلا في العـام 1850، عندما كشـفت ريـاح عظيمة أخرى أجزاء منهـا لمالك الأرض المحلي، والـذي تصادف أن

(*) مأخوذة عن خليج سكايل Bay of Skaill. [المترجمة].

كان عـالم آثار هاويا. لقد أصابت الموقـع أضرار كثيرة قبل أن يقع تحت عناية عالم الآثار الشـهير في. جوردن تشـايلد في العام 1928. لقد فهم هذا العالم مباشرة سبب انجـذاب الأوركاديين الأوائل لهذا الموقع، وذلك على الرغم من كونه عرضة لظروف بحر الشـمال القاسـية. إن البيئة الانتقالية بجانب «الخليج المحمي رمليا ومنطقته النائية الغنية والمعشوشـبة (كانت) جاذبة لصياد السـمك، وراعي الغنم، والمزارع على حد سـواء». فبتحديد أولا موقع تلالهم، ولاحقا موقع قريتهم المتراجعة بمسافة عن الشـاطئ، ضمن هؤلاء لأنفسهم ما يقترب من 700 سنة لا بد أنها كانت حافلة بالسلام والوفرة. لم يُعْثر على أي أسلحة في سفح سكارا، ولا توجد أي أدلة على وجود مجاعة أو مرض وبائي. وكما أوضح تشـايلد، فإن شعب سفح سكارا ترك تراثا فكريا حـول طرق الحصول على الغذاء والعمارة المنزليـة والتي لايزال من الممكن العثور عليها في هذه الجزر. إن المنازل التي تدعى المسـاكن السـوداء التي كان يسـكنها المزارعون صيادو سمك جزيرة، وذلك حتى وقت متقدم من القرن العشرين، كانت مبنية بطريقة شـبيهة بمسـاكن العصر الحجري. لم تعد الأسرة مصنوعة من الحجر، بيد أنها كانت توضع على أي من جانبي المدخل كما كانت منذ خمسـة آلاف سـنة مضت. ليس هناك من مديح أعظم من التقليد، حيث إن اسـتمرارية هذه وغيرها من الحضارات السـاحلية تعتبر إعجازا حقيقيا عنـد مقارنتها بالمجتمعات الأرضية الداخلية والمعتمدة على نظام بيئي أوحد[63].

إن الحجم الصغير لهذه المجموعة منعها من استنزاف بيئتها الانتقالية. الزراعة، والرعي، وصيد السمك وجمع النباتات كلها قد كملت بعضها البعض بشكل مثالي، مانعة أي حاجة إلى التخصص أو للتقسـيم الطبقي. ولكن مع مرور الوقت، تراكم الفوائد أدى إلى عملية التبادل مع مجموعات أركيدية أخرى من العصر الحجري. بـدأت المقاييس الزمنية والمكانية لجنس الحافة الأركيدي بالاتسـاع، كما اتسـع كذلك تطورهـم الثقافي. وأدت الحاجة إلى شركاء الـزواج في الأغلب إلى تحالفات مع قرى أخرى من العصر الحجري، ومع مرور الزمن، دخل هؤلاء في مشاريع بناء مشتركة، مثل مشروعي الأحجار المنتصبة في دائرة برودجار Ring of Brodgar[*]

(*) تقـع الدائـرة في غرب مينلاند، وهي مكونة من أحجار ضخمة ملتفة في دائـرة حقيقية قطرها يبلغ 104 أمتار تقريبا. [المترجمة].

والغرفـة العظيمة في ميس هاوي (Maes Howe)[*]. ربما سـببت هذه العلاقات أخيرا ترك سـفح سـكارا بذاته، لكنها صنعت ثقافة جزيـرة مزدهرة متصلة بعالم يتسع باستمرار[64].

حتى منذ خمسـة آلاف سـنة مضت، كان الأوركيديون معززيـن بموارد عوالم خارجيـة والتي لم يكن من المحتمـل أبدا أنهم يعلمون بوجودهـا. فمن المعروف أن الأخشـاب الطافية القادمة من الغابات الشاسعة لشمال أمريكا تجرفها الأمواج إلى السـواحل الأوروبية، حيث تزودهم بالوقود وبخشـب الأسـقف التي لا يمكن لجزيرتهم معدومة الأشجار أن توفرها. لقد رأينا كيف أن، المرة تلو المرة، هذا البحر الـذي بدا معـزولا جدا قد أثبت أنه معطاء إلى درجة كبيرة عندما فشـلت في ذلك مـوارد الأرض الداخلية. لقد كانت السـواحل أول جنة عـدن للبشرية. لقد جاءت البسـاتين المغلقة أرضيـا في مرحلة لاحقة بعيدة، فبدايـة، الزراعة، والصيد، وجمع النباتات كانت كلها أنشـطة لا ينفصل بعضها عن بعـض. لقد هجر البشر البيئات الانتقاليـة من أجل المجتمعات الأحادية ببـطء وتردد. فحتى في زمن متأخر وصولا إلى 1500 ميلادي كان 15 في المائة من سـكان الأرض لايزالون صيادين رحلا. لم يكن المزارعون هم أسـلافنا بل كانـوا أبناء هؤلاء الذين وضعـوا بصمتهم الخضراء على الساحل أو على طول المجاري المائية. يذكرنا سفح سكارا مرة أخرى، كما يقول روان جاكوبسـن، «إننا مخلوقون من أجل وخلقنا بواسطة هذا العالم الرفيع حيث تلتقي الأرض بالبحر»[65].

(*) أحد أكبر المقابر في أوركاني، تقع أسفل تلة يمكن رؤيتها من مسافات بعيدة. [المترجمة].

2

سواحل البحّار القديم

« نعيش حول البحر مثل النمل
أو الضفادع حول مستنقع».

سقراط في محاورة فيدون لأفلاطون[1]

انطلق أفراد الإنسان العاقل Homo sapiens في رحلتهم الملحمية من سواحل أفريقيا، سائرين على طول سـواحل الجزيـرة العربية والهند قبل أن يتوزعوا ليملأوا بقية العالم. وللخمسـين ألف سـنة التي تلت، حتى أكثر البحـارة إقداما نادرا مـا أبحـروا بعيدا عن مرأى اليابسـة. بالنسـبة إلى الإغريـق القدمـاء، كان المتوسـط أقرب إلى أن يكـون بركة أكثر منه محيطـا. وصف فيرناند برودل شـعوبه بأنهـم «يتحركـون مثل سرطان البحـر من صخـرة إلى صخرة»، مـن جزيرة إلى جزيرة، ومن شـبه جزيرة إلى شبه جزيرة. أسمى الإيطاليون هذه الحركة costeggiare، في حين أن الإنجليز يعرفونها بأنها coasting، أما بالنسبة إلى البرتغاليين فهـي cabotage. حتى بعد أن جرى

«كان الإغريق مستقرين مع الساحل ولكنهم مترددون تجاه البحر»

عبور المحيطات، استمرت معظم السفن في احتضانها للسواحل، غير أن هذه الرحلات لم تحز ســوى أقل القليل من انتباه المؤرخين البحريين، والمهووســين بالداخل البحري العميق، وبأساطيل المياه الزرقاء عوضا عن سفن المياه البنية الأكثر وفرة[2].

إن جذورنا موجودة مع ما أسمته راتشيل كارسون «الأم العظيمة للحياة، البحر»، غــير أن تاريخنا اللاحق كان أكــثر برمائية من كونه مائيا. لقد تطورنا كبشر على طول الساحل عوضا عن الداخل البعيد عن الساحل، فالموطن الحقيقي للبشرية هو حيث تلتقي اليابســة والماء، موضــع ولادة الحضارة. في العادة، نحــن نربط هذه الحضارة بتطور الزراعة في الشرق الأوســط والهند منذ 10 آلاف ســنة مضت، بيد أن الأبحاث الحديثة تشــير إلى أن شــعوب العصر الحجــري كانوا يزرعــون المحاصيل ويزاوجون الحيوانــات منذ وقت أقدم بكثــير، وغالبا في أماكن حيث المزيج من اليابســة والماء يقدم أعظم إنتاج بأقل الجهود. وكما اتضح، فإن الرعي في البرية والزراعة كانا لا يمكن تمييز كل منهما عن الآخر لمدة ألف عام قبل وبعد ما يسمى بالثورة الزراعية. إضافة إلى ذلك، فإن ما عرفها فيليب فيرنانديز - أرميســتو صوابا على أنها حضارات الساحل seaboard civilizations قد تطورت باســتقلالية عن الحضارات الداخلية. إن تطور هذه الحضارات لايزال موضوعا تاريخيا وجغرافيا مهملا بشكل غريب[3].

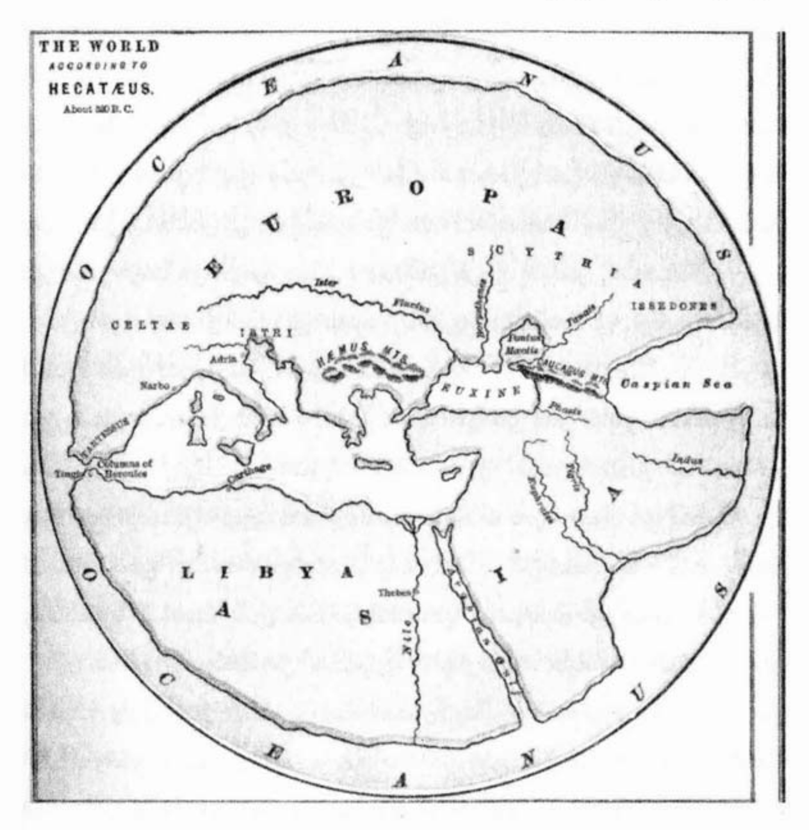
نســتعمل نحن وبســهولة مصطلح حضــارة civilization لوصــف أراض مثل مصر، والصين، وبلاد الرافدين لكننا نتردد وبشــكل غريب لنضفيها على شــعب مثل الفينيقيين، والإســكندنافيين، والسواحيليين، أو أي من الشعوب الساحلية أو شعوب الجزر الأقل شــهرة، والتي تشــمل الأليوتيــين Aleuts، والملاكائيــين Malaccans، والكاريبيــين Caribs، والتونغانيين Tongans، والذين هم مؤهلون تماما لأن يدعوا حضاريين كما هم جيرانهم في الأراضي الداخلية. فمجتمعات الساحل كانت مختلفة عن جيرانهم من مجتمعات اليابسة المغلقة، غير أنهم لم يكونوا أدنى منهم مطلقا في إنجازاتهم الاقتصادية وكذلك الثقافية على حد الســواء. إن ما يميز هؤلاء ويجب أن يضعهم موضع اهتمام عظيم هو ظروفهم البيئية على حافة اليابســة والماء. كونهم ليســوا زراعيين حصريا، هم ليســوا بحريين تماما كذلك. بالأحــرى، هم يعبرون عن قــدرة برمائية amphibiousness، وهي القدرة على اســتغلال كلا طرفي خط المد، للعيش ليس فقط بجانب البحر ولكن كذلك مع البحر في علاقة مستقرة[4].

لقد بزغت حضارات الســاحل عن مجتمعات الصيادين الرحل البحريين وهي الحضارات التي أهلت كل جزء من العالم في نهاية آخر عصر جليدي عظيم. تطورت هذه الحضارات ببطء وهدوء، تاركة خلفها القليل من النصب التذكارية والسجلات المكتوبــة التي جعلت دراســة الحضارات الأرضية أكثر ســهولة. بيــد أننا، والفضل لمصادر علم الآثار، نعرف، الآن، أن الشعوب التي احتلت بيئات انتقالية بحرية كان لديها منفذ لمصادر ثقافية ومادية غنية، والتي ســمحت لهم بتبني وجود مســتقر أسرع بكثير مما فعل الصيادون الرحل في الأراضي الداخلية. لقد ســمحت السواحل للشــعوب بأن تنمي وتطــور علاقات اقتصادية واجتماعية أكثر تعقيدا، بما يشــمل التجارة على امتداد الســواحل وبالقرب منها. وكما رأينا مسبقا، كان الساحل محفزا على التطور الثقافي الثمين. ومع مرور الوقت، ستتحصل السواحل كذلك على سلطة وغنى كبيرين، ما أدى إلى تكون ما يدعى Thalassocracies، وهي الدول المحكومة عبر البحر عوضا عن الأرض، بسيطرة تمتد أكثر من أي إمبراطورية أرضية[5].

في الغرب، بدءا من الفينيقيين، متبوعين بالإغريق، والإسكندنافيين، والقوات البحرية الحديثة الأولى لشــمال غرب أوروبا، أنشأت شعوب الساحل مقاطعات ومستعمرات تجارية على الســواحل البعيدة، لتنسخ نفسها أخيرا على مدى مناطق متسعة. وبينما مال المؤرخون إلى ربط الإمبراطوريات باليابســة، فإن أعظم الإمبراطوريات مســاحة في التاريخ الإنســاني، الهولندية والبريطانية، قد ولدت بحريا. اليوم، آخر أعظم الدول المحكومة بحريا thalassocracies، الولايات المتحدة، لاتزال تســتخدم قواعد جزرها ومقاطعاتها الساحلية لتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية حول العالم.

إن هناك درجة مذهلة من اســتمرارية الحضارات الساحلية خلال الـ15 ألف سنة الماضيــة، ولربما أقدم كذلــك. إن هذه الحضارات هي الحلقــة المفقودة في سرد تاريخ العــالم، والذي اســتمر في كونه منغلقا أرضيا لفترة أطول مما يجب. إن مســتقر البحار القديم كان غالبا المياه البنية عوضا عن المياه الزرقاء، لكن حتى عندما كانت الأنشــطة الســاحلية مؤمنة عبر الارتحال عــبر المحيطات، كما كان الوضــع في البداية في المحيط الهنــدي وبعــد ذلك في الهادي ولاحقــا في الأطلنطي، فإن الجزء الأعظم من الأنشــطة البحريــة ظــل أكثر قربا من الشــاطئ منه في عمــق البحر. تخيل الجغــرافي الإغريقي هيكاتيوس اليابســة أنها جزيرة عظيمــة، Orbis Terrarum (العالم)، محاطة بنهر لا

يمكــن عبــوره، Oceanus (محيط)، حيث كان لهذه الرؤية أن تســيطر على الجغرافيا حتــى القرن الخامس عشر. وكــما أوضح الإدريسي، الجغرافي الإســلامي العظيم للقرن الثاني عشر: «لا أحد يعرف ما يقع خلف البحر... بســبب المصاعب التي تعيق الإبحار، وعمق الظلام، وارتفاع الأمواج، وعنف الرياح... لا يجرؤ بحار على قطع أو اختراق البحر المفتوح. يكتفي هؤلاء بالسواحل». وحتى اليوم لاتزال معظم الأنشطة البحرية مكثفة على طول خطوط السواحل[6].



العالم كما صوره هيكاتيوس، 500 ق. م.

غير أنه لا يوجد ساحل يشبه آخر. تختلف السواحل جيولوجيا، وبيولوجيا، وجويا، وفي مجموعــة أخرى من الصفات. يمكن أن يكون لأي ســاحل تنوع كبير في المناخات المحليــة والبيئات والتي تجعل التعميم صعبا جدا. كما أنه لا يوجد شــعب ســاحلي

يشــبه الآخر تماما، ليس فقط بســبب الظروف المختلفة التــي يحيون فيها بل كذلك بسبب تنوع القدرات على التكيف والتي يتمكن منها البشر. لكل شعب ساحلي بناء اجتماعــي وثقافة مختلفان. إن تركيزي هنا هو على الثقافة الســاحلية المتميزة التي تطورت في أوروبا بداية من البحر المتوســط، بل وحتى أُبرز المميزات الخاصة، سأبدأ من سواحل بحرين مختلفين تماما، المحيط الهندي والمحيط الهادي.

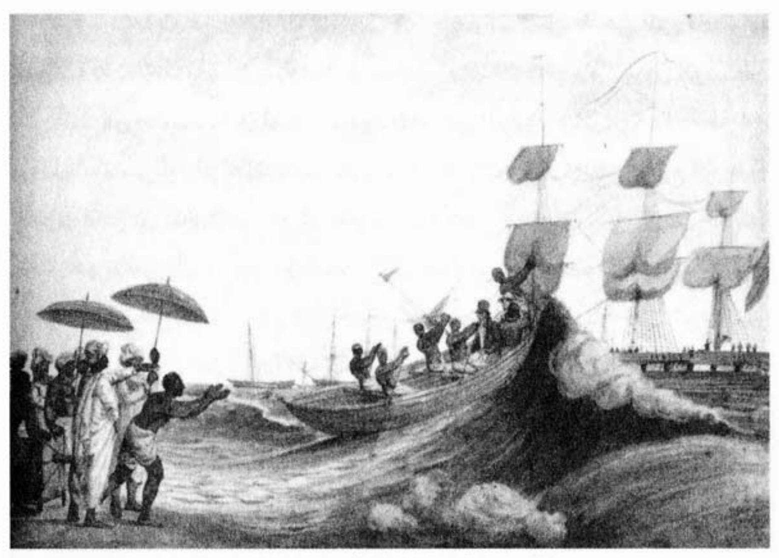
الساحل الأقدم: المحيط الهندي

عندما نتحدث عن حضارات الساحل، فإن حضارات المتوسط هي التي تحضر في عقولنــا ذات المركزية الأوروبية أولا. في خرائط العالم القديم وعالم القرون الوســطى التي أتت من الغرب، يكون المتوسط هو دائما محور التركيز، حيث إن معالجة فيرناند برودل الكلاســيكية له لطالما كانت هي المثال لكل المعالجات الجغرافية والتاريخية الأخرى لأحواض المحيطات. غير أن المتوســط حجمه صغير قياسا بالمقاييس العالمية وليس هو الأقدم بأي شــكل بين البحار الســبعة التي يمكــن جوبها. إن هذا الشرف يوعز إلى المحيط الهندي، وهو ثالث أضخم جســم مائي في العالم، والذي عبره البشر لمدة خمســة آلاف عام على الأقل، مقارنة بألفي ســنة للمحيط الهادي وخمســمائة ســنة قصار للمحيط الأطلنطي لمثل هذا العبور المســتمر. بالطبع، لا بد لنا من تمييز أن المحيطات لم تأخذ أشــكالها الحالية إلا منذ سبعة آلاف سنة مضت. عندما كانت البحــار منخفضــة بمقدار ثلاثمائة قدم عما هي عليــه الآن، كانت العديد من البحار أشبه بممرات مائية نهرية، يسهل عبورها على الطوف أو القوارب[7].

غــير أن المحيطات لا تحتــاج إلى أن تعبر حتى تكون مهمــة في تاريخ البشرية. لقد صنعنا أبطالا من الرحلات العابرة للمحيطات، متناسين الرحلات المذهلة الفذة التي أُنجزت على طول الساحل. إنها السواحل، وليست المياه المفتوحة، التي تشكل الخطــر الأكبر على البحارة، وهــي حقيقة ضاعت عند العديد مــن المعتادين على اليابســة، نحن نحتاج إلى أن نوجه انتباها أكثر إلى الأنشــطة الساحلية، والتي، حتى وقت قريب، شكلت القدر الأكبر من الحركة البحرية في العالم.

إذا ما ركزنا على حضارات السواحل، فإن ساحل المحيط الهندي يجب أن يكون نقطــة انطلاقنا، بداية من 125 ألف ســنة مضت عندما وصل الإنســان العاقل من

الداخل إلى ما يسمى الآن ساحل إرتيريا. لربما ستمر 75 ألف سنة أخرى قبل أن يعبر هؤلاء الأهالي الساحليون المياه عند النهاية الجنوبية للبحر الأحمر. وبينما هم يقطعون طريقهم إلى الهند وما بعدها، استمر هؤلاء في كونهم رحلا بحريين، يتحركون أفقيا على طول الساحل بحثا عن الموارد، ويتاجرون عبر المسافات القصيرة نسبيا. وقبل أن يصبح حوضا موحدا، كان المحيط الهندي عبارة عن مجموعة من البحار غير المترابطة - البحر الأحمر، خليج البنغال، بحر العرب - كل بسواحله الخاصة وحضاراته الساحلية المميزة[8].



قارب سفينة يصل إلى الشاطئ، مدراس، الهند.
الصورة من المتحف الوطني البحري، لندن.

عندما بدأت تجارة المسافات البعيدة، كان ذلك شكلا من أشكال النشاطات الساحلية إلى حد كبير، والتي أُطلقت، على الرغم من ذلك، من الحضارات الزراعية العظيمة، حضارة بلاد الرافدين والحضارة المصرية، والتي تقع في الشمال، غير أنها كانت تبحث عن البضائع المتوافرة عميقا باتجاه الجنوب في شرق أفريقيا وشبه الجزيرة الهندية. كانت الهند بحد ذاتها مكتفية ذاتيا، غير أنها مستعدة لاستقبال هذه المبادرات. رحب الأفريقيون كذلك بالتجار من الشمال غير أنهم نادرا ما ركبوا

البحر بأنفسـهم. بـدأت التجارة عبر البحـر الأحمر مبكرا منـذ 5000 ق.م. كانت العلاقات بين بلاد الرافدين ووادي السند مؤمنة بحلول 3000 ق.م، وقد أدى تكثيف مثل هذه التجارة في الداخل السـاحلي بالتجار إلى فك شفرة نظام الرياح بين 3000 و1000 ق.م، والذي أدى إلى تكوين أول ممرات منتظمة عابرة للمحيطات في العالم، بحيث تصبح الحركة عبرها بدلا من حول حوض المحيط الهندي[9].

أبحر البشر أولا في المحيط الهندي، غير أن ذلك لا يعني أن مجتمع المياه الزرقاء قـد تطور هناك. بقيت كل من الهند وأفريقيـا نظامين اقتصاديين زراعيين إلى زمن طويل، حيث كانت شـعوبهم السـاحلية أكثر ارتباطا باليابسـة عن البحر. لم تظهر دولهم الداخلية أي اهتمام في إبراز سيطرتهم باتجاه البحر أو حتى في التحكم المباشر في التجارة السـاحلية. كانت هذه الدول مكتفية بأن أجازت للشـعوب السـاحلية الربط بين اليابسة والماء، سامحة لهم بدرجة معينة من الاستقلالية الثقافية وكذلك السياسـية والاقتصاديـة. إن الوحدة التي كانت للمحيـط الهندي لم تكن مفروضة من الداخل لكنها «خُلقت عبر تحركات البشر، والعلاقات التي تتضمنها، والمسارات التي يتبعونها». عبر هذه المسـارات أتت شعوب جديدة وأديان جديدة - البوذية، الهندوسـية، اليانية، وأخيرا الإسـلام - حيث انتشرت على طول السـواحل بسهولة أكثر من اختراقها للداخل. اختلطت المعتقدات العالمية بسـهولة مع الأديان المحلية، لتخلق في النهاية ثقافات سـاحلية مميزة مثل السـواحيلية في شرق أفريقيا. بعض هذه الثقافات كانت أكثر إبحارا من غيرها. فقد اعتبر الهندوس المحيط مصدر تلوث، حيث لم تكن طبقاتهم الاجتماعية العليا لتغامر بعبور ما أسـموه «المياه السوداء». بيد أن هذه المخاوف لم تكبح شعوب الطبقات الدنيا، الذين كانوا يشكلون الأكثرية بين الصيادين والبحارة في الهند كما في الأماكن الأخرى[10].

كانت معظم الشعوب حول المحيط الهندي من الساحليين عوضا عن كونهم رحالة أعماق البحار. أتى شـعب البحارة الحقيقي الوحيد في المحيط الهندي من الشرق وليس من الشمال أو الغرب. في الغالب نشأ هذا الشعب في جنوب الصين أو تايوان منذ نحو ستة آلاف سنةٍ مضت، ليرتحلوا إلى جنوب شرق آسيا ومن ثم تحركوا حتى اسـتقروا في أوقيانوسـيا، ولكن ليس قبل أن يتحركوا باتجاه الغرب بحلول العام 1000 ق. م، ليعثروا على جزيرة مدغشقر المهجورة، والتي جعلوها

لهم اقتصاديا وثقافيا. من مدغشقر أبحر هؤلاء في زوارق ذات مجاديف، جالبين معهم الموز، وجوز الهند، والسكر إلى شرق أفريقيا ولأول مرة. ومع ذلك، فإن هذا الإبحار طويل المســافة والمذهل والبطولي لم يؤد إلى انفتاح مؤثر نحو المحيطات الأخرى. إن البحارة الذين قطعوا المحيط الهندي اســتمروا في احتضان سواحله. اســتمر المحيط الهندي في كونه مملكة لمجتمعات ساحلية صغيرة معزولة تقريبا والتــي لم تصل قط إلى مســتويات حضــارات الأراضي الداخلية من حيث القوة، والتمدن، أو الرقي الثقافي، غير أنها كانت، وبكل المقاييس، كاملة التحضر[11].

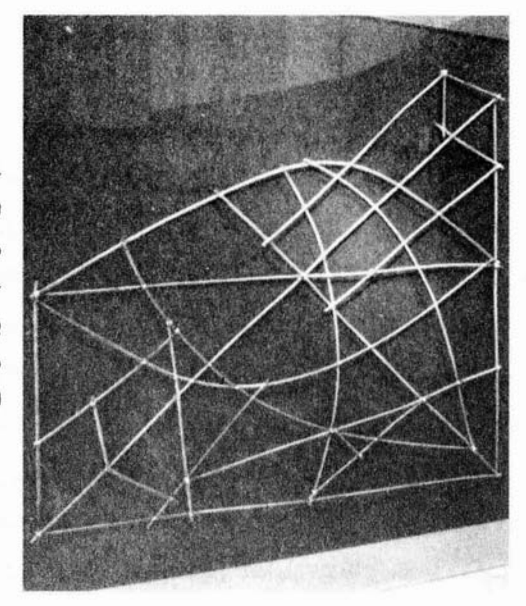
عندمــا حل الإغريق ومــن ثم الرومان محل الفينيقيين، والمصريين والفارســيين في تجارة المحيط الهندي، اســتخدموا ذات المسارات والموانئ، حيث لم يقدموا على عمل الكثير لتغيير طبيعة الهند أو أفريقيا الســاحليتين. وحتى وصول المســلمين في نحو العام 1000م لم يعطل هذا النمط المســتوعب. فكما يقول مايكل بيرسون، إن شــعوب المحيط الهندي لم تتحول إلى الإسلام بقدر ما هي تقبلته. ولم يحدث سوى عند وصول البرتغاليين في القرن الخامس عشر أن جرى تحدي اســتمراريات الألفية الماضيــة، وحتى عندها، فإن تطفل عامــل الملاحة الجديد هذا لم يحل بسرعة محل الثقافات الســاحلية القديمة التي يمكن العثور عليها إلى الآن في شرق أفريقيا وعلى طول سواحل الهند الشرقية[12].

حول حافة الهادي

وُجــدت ثقافة ســاحلية أخرى حول ما يعرف اليوم باســم بحر الصين الجنوبي. ولمدة ما يقرب من ألفي ســنة ربطت حافته بين الشــعوب الجنوب آســيوية. قبل وجود الــدول الإقليمية والقادرة على ربط هذه الشــبكات الضخمة والمتنوعة من الأنهار، ودلتا الأنهار، والأرخبيلات، والبحار، كانت المنطقة عبارة عن نوع من الأراضي الرطبــة المترابطة بعضها ببعض عن طريق التجارة والهجرات بين الأعداد الهائلة من المجموعة الإثنية. وكما رأينا، فإن شــعوب هذا الإقليــم تحركوا غربا باتجاه المحيط الهندي وجنوبا باتجاه المحيط الهادي، حيث سيصبحون البحارة الأسترونيزيين الذين أخيرا ســيبحرون شرقا عبر الهادي في أعظم عمل بطولي إبحاري رآه العالم قبل القرن الخامس عشر[13].

يعتبر المحيــط الهادي أضخم المحيطات، فهو ضعــف حجم الأطلنطي. على ما يبــدو، لم يكن لدى أوائــل من خاضوا المغامرة هناك اســم يطلقونــه عليه، ومثل الشــعوب القديمــة الأخرى، فقد اعتقدوا أنه سلســلة من البحــار - جنوب الصين، اليابان، جافا، باندا، ســيليبس، ســولو، تيمور - والمسماة بأســماء الأراضي المجاورة. ومثــل المحيطات الأخرى، جرت تســميته قبل أن يُتعرف عليه بشــكل كامل بزمن بعيد. ولقد عمده فيرديناند ماجلان البحر المســالم Mare Pacificum، دون معرفة أي شيء عن مداه وبتقدير شــديد البخس لعنفه. بالنســبة إلى البحارة البولينيزيين الذيــن وصلوا قبل ماجلان بكثير، فإن شســاعة الهادي الرائعــة قد تضاءلت بعض الشيء بوجود الـ10 آلاف من جزره، العديد منها متجمع في شــكل أرخبيلات، والتي بدت لســكانها كأنها شيء مثل أرض مائية متصلة عوضا عــن كونها منفصلة بالماء. ولأن هذا التشــكيل عُرف عــلى أنه بحر من الجزر وليس جــزرا في بحر بعيد، فإن هذه الأرخبيلات قد جعلت الهادي يبدو أســهل تحكما. عندما وصل المستكشفون الأوروبيــون في القرن الســادس عشر ركزوا انتباههم كذلــك على الأرخبيلي، حيث قسموا الهادي إلى ثلاث مناطق رئيسية، والتي أسموها بولينيزيا (بمعنى جزر كثيرة)، وميكرونيزيا (جزر صغيرة)، و ميلانيزيا (جزر ســوداء، والتي أسميت نسبة إلى ذوي البشرة الداكنة من سكانها)، بينما يتخيلون معظم الهادي على أنه فراغ عظيم[14].

قبــل العــام 1960 كان يعتقد أن الهادي الأرخبيلي قد تأهــل أصلا من الشرق إلى الغرب. لقد جرى دحض هذا المعتقد الآن تماما عن طريق أبحاث علم الآثار والأبحاث الجينية، والتي تقفت آثار التأهيل الســكاني في الهادي من جنوب غرب آســيا إلى غينيا الجديدة وأستراليا منذ أربعين ألف سنة مضت وصولا إلى العصر الجليدي، عندما كانت مناســيب البحر أكــثر انخفاضا بكثير وعندما كانت هناك ممــرات ضيقة فقط للإبحار فيها. اســتقر الصيادون الرحل والذين قطعوا هذه الرحلة إلى ســواحل أســتراليا وغينيا الجديدة حيث الموارد كانت أكثر غنى. بحلول العام 30.000 ق. م ارتحل هؤلاء مجددا، هذه المرة باتجاه سلســلة جزر ســليمان المقابلة لغينيا الجديدة. وقد احتفظوا بمعظم صفات أســلافهم من الصيادين الرحل، حيث إن الجزر هي الأكثر امتلاكا للسواحل بين كل أنواع اليابســة. غير أنه مع مرور الوقت، بدأ هؤلاء بزراعة البطاطا الحلوة وجذور القلقاس، وهو نشاط زراعي يضاهي الصيد والتجميع البحريين[15].



خارطة إبحار rebbelib لجزر المارشال، وهي خارطة مصنوعة من أعواد الحطب حيث الجزر فيها ممثلة بأصداف الودع، والأمواج ممثلة بالخطوط.
الصورة من ويكيبيديا

استؤنفت الهجرات في 2000 ق. م بوصول من يدعون بشعوب لابيتا من الشمال، والذين كان لديهم مستوى متقدم من المهارات في إنتاج المصنوعات الفخارية وبناء القوارب. بحلول العام 1000 ق. م أوصلتهم محاولات الإبحار الفذة إلى أقصى امتداد شرقي للهادي الجزري (المملوء بالجزر)، وصولا إلى جزر الهاواي، وجزيرة إيستر، وإلى ما يعرف اليوم باسم نيوزيلاندا. بحلول ذلك الوقت تطور هؤلاء لأبعد بكثير من معيشتهم كصيادين رحل، حاملين معهم ليس فقط النباتات والحيوانات ولكن كذلك أنظمة سياسية ودينية متطورة. لقد مثل هؤلاء لحظة نادرة لمجتمع بحري قادر على الارتحال عبر المحيطات ولكن لم يعتبر نفسه قط أكثر من مجموعة بحارة في بحر مملوء بالجزر. أحيانا ينسى هؤلاء المغامرون في الهادي مهاراتهم في الإبحار ويصبحون معزولين بشكل تام. أدار الأستراليون الأصليون ظهورهم إلى البحر وأصبحوا صيادين أرضيين، وأصبح سكان جزيرة إيستر شعبا معزولا تماما، محكومين بالفشل بسبب عدم قدرتهم على التواصل مع العالم الأكبر[16].

لا توجد أدلة قاطعة على وصول مغامري الهادي إلى سواحل العالم الجديد، غير أنه يجب عدم السماح لذلك بالتشويش على حقيقة أنه حتى القرن الخامس عشر

كان هؤلاء بحارة العالم الأفضل، حيث غطوا مســاحات شاسعة، واستعمروا سواحل بعيدة، وأسســوا أنظمة تجــارة إقليمية في غاية الغنى والتعقيــد. ولو أنهم وصلوا إلى الســواحل الغربية للأمريكتين، لكانوا قد وجدوا حضارة ســاحلية قديمة أخرى، غــير أنهــا حضارة مختلفة كثيرا عــن تلك التي لهم. فحتى وصــول كولومبوس كان ســكان الأمريكتين يعيشون في عزلة ربما لمدة 14 ألف سنة. لقد شكلت هذه القارة كائناتهــا الحية الخاصة بها في بيئتهم الوبائيــة الخاصة بهم كذلك، وعليه فلم يكن لدى الســكان مناعة ضد الأوبئة التــي كانت موجودة في مناطق العالم الأخرى. فلو أن مغامري الهادي وصلوا إلى السواحل الأمريكية، لكانوا من دون أدنى شك أطلقوا أوبئــة مدمرة على الأقل بقدر ذلــك الوباء الذي عاث دمارا في الســواحل الشرقية الأمريكية في القرن الســادس عشر. بالنســبة إلى شــعوب الســاحل الغربي، أتى يوم تصفية الحســاب بعد ثلاثمائة سنة. بحلول ذلك الوقت، كانت أرخبيلات الهادي قد دمرت مسبقا بسبب أوبئة جلبها معهم مستكشفون أوروبيون.

المتوسط: نمل وضفادع حول البِركة

لقد طورت شــعوب المحيطين الهندي والهادي توجهاتها تجاه البحر والتي هي مختلفة تماما عن تلك التي ســتظهر حول المتوسط وعلى الحافة الشرقية للأطلنطي. في جنوب شرق آســيا جرى تنصيب بعض الشــعوب الداخلية، والتي رُحلت بسبب جيرانها المعتدين إلى الســاحل ومن ثم إلى داخل البحر، على أنها «شــعب بحري». إن شــعب الموكن من تايلاند وبورما يطلق على نفســه لقــب «غرقى البحر» (sea drowned) حيــث يعيش أفــراده على متن kabangs(*) معظــم الوقت. غير أنهم يأتون اليابسة للتجارة وليحتموا من العواصف والتسونامي. يسمي هؤلاء التسونامي Laboon والتي تعني «الموجة التي تأكل الناس»، حيث طوروا أنظمتهم التحذيرية المبكرة الخاصة بهم والتي خدمتهم جيدا على مدى قرون. تعلمت بعض الشــعوب الساحلية الأخرى أن تبني مساكنها على ركائز مرتفعة أو أن تصنع مساكن برمائية. اســتمر هؤلاء الذين يعيشــون حول حافة المحيط الهنــدي في كونهم من بين أبرز ساحليي العالم[17].

(*) قوارب تقليدية كان يصنعها هذا الشعب ويعيش على متنها. [المترجمة].

لقد انطلقت شـعوب الهادي مسـافات أبعد عن السـاحل أكـثر مما تجرأ أن يفعل أي ممن كانوا قبلهم. لقد كانوا يشـعرون بأنهم في موطنهم الطبيعي أكثر في البحر، حيث استثمروه وهم ملمون بالزمان والمكان، واللذين شعر بهما الأوروبيون وأبقوهما لليابسـة فقط. بالنسـبة إلى الإغريق، كان البحر دائما غريبا ومثيرا، مكانا «يجلب الموت، يأخذ الأشـياء بعيدا، ويجعل الأشـياء تختفـي». بدأ هذا التوجه في البحر المتوسـط القديم، أو في الواقع، حول البحر المتوسط القديم، والذي اجتذبت سـواحله الصيادين الرحل من hominid لما يقرب من 125 ألف سـنة ولربما أكثر بكثـير. في البداية، كان هؤلاء السـاحليون كثـيري الحركة، لكن مـع مرور الوقت اسـتقر هؤلاء ليكونوا مجتمعات ذات أنظمة معقدة وأخيرا حضارات شاطئية مثيرة للإعجاب. لقد قال سـقراط إنهم كانـوا مثل «النمل والضفادع حـول بركة»، وهو توصيف لايزال يناسب شعوب البحر المتوسط اليوم[18].

إذا كان هناك شيء حول البحر المتوسـط يميـزه عن المحيطين الهندي والهادي، فهو ضيق سـواحله. فما بين 7000 و4000 ق. م ارتفعت مياهه لما يقرب من 150 مترا، لتفيض على ما كان وقتها سـهولا ساحلية واسـعة النطاق، صانعة من أجزائها الضحلة جزرا متعددة قريبة من السـاحل. في الشـمال والغرب، هبطت الجبال إلى البحر، في الجنوب والشرق، كانت السواحل مطوقة بصحار ذات وعورة. هؤلاء الذين استقروا على الساحل كانوا معزولين عن المدن النائية، غير أنهم في الشمال، كان لهم تواصـل مع الأرخبيلات المتعددة القريبة من السـاحل. وبخلاف الطريق من البحر الأسـود والبعض من الأنهار العظيمة التي جفت مياهها صبا في المتوسـط، لم يكن هناك تواصل سهل مع الداخل. لذلك السبب أطلق الإغريق عليه مسمى «بحر بين الأراضي». كان البحر هو المركز، واليابسـة كانت الحد الخارجي، والمياه هي الداخل واليابسـة هي الخارج. فبالنسبة إلى شعوبه «الأماكن المتصلة عن طريق البحر دائما «قريبة» فيما الجيران على اليابسة بدوا من حيث التواصل بعيدين جدا»[19].

لم تكن سـواحل المتوسط، خصوصا على الجوانب الشمالية والغربية من البركة، ضحلة فقط، لكنها كانت متغيرة جدا. امتدت أشباه الجزر الطويلة عميقا في البحر، منتميـة أكثر إلى البحر منها إلى اليابسـة. كونت أكبر أشـباه الجـزر هذه - إيطاليا وإسـبانيا - عـوالم خاصة بها، كأنها جزر أكـثر من كونها جزءا من اليابسـة. كانت

هاتـان الجزيرتان مترابطتين عن طريق المياه، وهي مياه غالبا ما شـكلت بحارهما المنفصلـة عوضا عن كونها جزءا من الجسـم المائي الأكبر الذي نعرفه اليوم على أنه البحر المتوسـط. كان الأدرياتيكي وإيجة من ضمن أوائـل البحار التي جرى فرزها، وقد جُزئت كذلك إلى أجسـام مائية أصغر حجما. هذان أخذا اسـميهما وهويتيهما من الأراضي التي تحوطهما. كانت للسواحل المتقابلة غالبا أشياء مشتركة بعضها مع بعض أكثر مما كان لها مع مدنها النائية. تعلم القدماء أن يعاملوا بحار اليابسة هذه كـما نعامل نحن أي منطقة، فقد ضم الرومان الأدرياتيكي كجزء من إمبراطوريتهم، حتى وهم يدعون أن بقية المتوسط كانت مفتوحة أمام الجميع[20].

فكـما يذكرنا فيليب فيرنانديز - آرميسـتو، «للحديث بشـكل دقيق، المحيطات غير موجودة: إنها تشـكيلات من أذهاننا، نسج من خيال رسام الخرائط، طرق ملاك الأراضي في تقسـيم المساحة البحرية وفق وضعية اليابسـة». فبالنسبة إلى بريدراج ماتفيجيفيك «المتوسـط ليس مجرد جغرافيا» بل في الواقع مجموعة من الممارسات الاجتماعية والآراء الثقافية المرتبطة بالجسم المائي. لقد جرب البحارة القدماء المتوسط بأجزائه المختلفة قبل أن يعرفوه بشـكل متكامل بزمن طويل. كان المتوسط معروفا مبدئيا لسـواحل الليفانت باسـم «البحر العظيم»، وهو المصطلح الذي كان غالبا ما يسـتخدم من قبل الإغريق. لم يبحر البحارة القدماء بواسـطة البوصلة أو رسومات الخرائـط، بل بمعرفتهم المحليـة التي تحصلوا عليها من التجربـة المباشرة ومرروها لمن بعدهم شـفهيا. وكما كان الوضع بالنسـبة إلى نظرائهم البولينيزيين والأمريكيين الأصليين، كان الماء بالنسـبة إليهم «مكانا، وليس مسـاحة، سـطحه المتحرك مملوء بالنـذر، وبمفاتيح الألغاز، وبالمعاني». كان البحارة القدمـاء يعرفون بحارهم المحلية كما يعرف سكان اليابسة أحياءهم. كانت معظم رحلاتهم تشبه تجول سكان اليابسة المتهادي، حيث يقومون بها دون جداول أو مقاصد ثابتة. ولأنهم كانوا يعرفون أنهم واقعـون تحت رحمة الرياح والتيار، فإنهم كانوا يعرجون طريقهم، حيث كانوا نادرا ما يبحرون بين نقاط ثابتة، ولكنهم يتجولون بتلوٍ على طول السـاحل، متوقفين مرارا وتكرارا للأكل والنوم والمتاجرة، وفي بعض الأحيان للنهب[21].

فحتى عصر البخار، كان الإبحار في خط مسـتقيم من ضرب المسـتحيل في كل الأحوال. يشـير تيـم إينغولد إلى أن فكرة الخط المسـتقيم أصلا هـي «رمز حداثي

افتراضي، إشـــارة إلى انتصار التصميم العقلاني الهادف على تقلبات العالم المادي». لم تظهر فكرة خط ســـاحلي مســـتمر إلا بحلول القرن الثامن عشر، حيث إن الســـاحل كان معروفـــا من التجربة الشـــخصية وليس من خلال ضربات قلم رســـام الخرائط. اكتُشفت السواحل القديمة أولا عن طريق البحر، ولاحقا فقط عن طريق اليابسة. لم تكن الســـواحل خطوطا بل سلاسل من نقاط محددة غير مترابطة والتي طالما كانت ذات أهميـــة عظمى بالنســـبة إلى البحارة، تحديدا الموانئ الآمنـــة ومواقع المخاطر الخفية. فقبل أن يرســـم خط على الجلد أو ورق البرشمان، كانت الخرائط الذهنية، التي كانت تنقل عبر الذاكرة من جيل إلى جيل، تحتوي على مجموعة من التفاصيل الحيويـــة للملاحة على طول الســـاحل. إن أولى رســـومات المتوســـط، periploi(*)، كانت أساســـا خرائط للمسارات، «سلســـلة من الموانئ والعلامات الطبيعية». هذه الرســـومات تجاهلت إلى حد كبير ما يقع بعيدا عن الساحل، فالبحر ما كان ليقطع ولكن ليتم الإبحار حوله. فلم يكن من قبيل المصادفة أن مصطلح periplous يعني «الإبحار حول»[22].

لم يكن للبحر المتوسط القديم خطوط ساحلية كما نفهمها اليوم. قبل أن يكون هناك ســـاحل، كانت هنـــاك فقط موانئ، وأجوان، ومواقع صيـــد، ومعالم أرضية. لم يكن البحار ليبحر باتجاه ساحل بكونه كذلك، ولكن باتجاه موانئ أو أراض محددة. كانت تلك أول ما جرى رســـمه ومنحه أســـماء. بيد أن ما يقـــع بينها بقي من دون اســـم، أو كانت تســـمى، كما هي الحال في اليوم، «ساحل المضيق»، والتي كانت بلا أي أهميـــة للبحارة القدماء. لقد كانت في الواقع الحاجات الملحة للبحار عوضا عن اهتمامات صاحب الأرض هي التي شكلت الصورة البشرية للسواحل أولا، وفي نظر القدماء، كان البحر هو الذي شـــكل الأرض. وكما بين الجغرافي الروماني سترابو: «إنه أساســـا البحر الذي يعطي الأرض تخطيطها وشكلها، حيث يشكل الخلجان، والبحار المرتفعة، والمضايق، وعلى القدر نفســـه، الأراضي البرية isthumuses(**)، وأشـــباه الجزر، وألسنة الأراضي الممتدة في البحار». كانت السواحل تنتمي إلى البحار، مطوقة الجزر المقابلة لها. في حالة اليونان القديمة، نجد حالات حيث كانت اليابسة معرفة

(*) كلمة إغريقية الأصل تشير إلى وثيقة تحدد الموانئ والنقاط الأرضية المهمة للبحارة. [المترجمة].

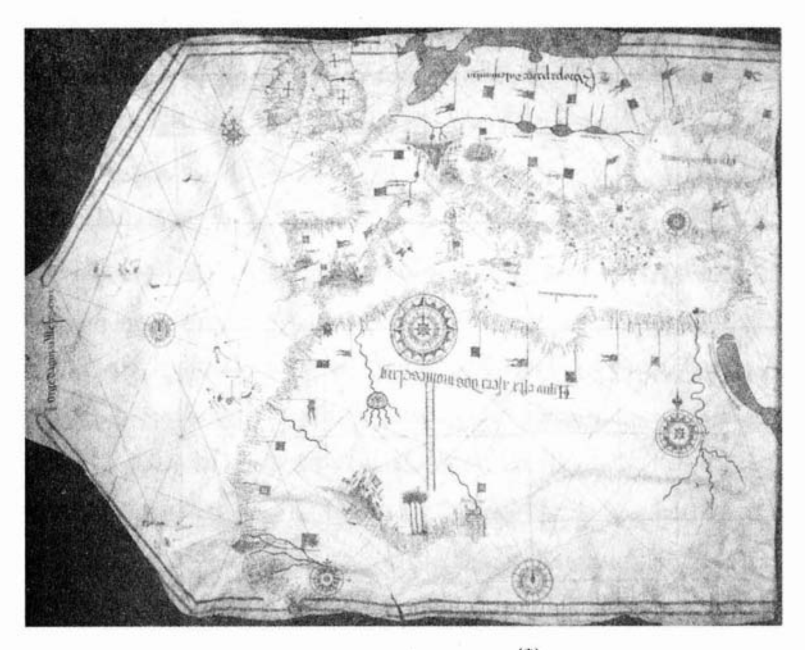
(**) تعني بشكل أكثر دقة الأرض البرزخية أو الخلاء الذي يربط بين كتلتين كبيرتين. [المترجمة].

«من حيث علاقتها بجزيرة ما مطلة على الساحل وليس العكس». لم يكن الساحل لا يابسة ولا بحرا ولكن مزيج من الاثنين، شيء أكبر بكثير مما يشير إليه فهمنا المعاصر لخط الساحل[23].

في العالم القديم، كان العالم البحري مفهوما على أنه مجموعة كبيرة من البحار الصغيرة وليس أجساما ضخمة نسميها اليوم محيطات. كان البشر يشعرون بالراحة مع فكرة البحار قبل أن يستوعبوا ضخامة المحيطات بزمن طويل. كان مفهوم البحر يطبق على أي جسـم مائي محدد بالأراضي. كما يطبق المفهوم كذلك على الأجسـام المائيـة المطوقة بالأراضي، المالحة أو العذبة، مثل بحر طبريا، وبحر قزوين، أو البحر الميت. لم يصنع القدماء فوارق أوضح بين الأجسام المائية عما صنعوه بين التضاريس الأرضيـة. لم يكونوا يميزون القـارات عن Insula أو الجزر، وهو المصطلح الذي كان يطبـق عـلى أي منطقة معزولة على الأرض وعبر السـاحل. ولم تعـرف الجزر على أنهـا أراض محاطة بالمياه حتى القرن السـادس عشر. البحـيرات، ومصبات الأنهار، والأنهـار، والبحار كلها كانت تمتزج أحدهـا بالآخر. فقد أظهرت الخرائط الإغريقية المتوسـط على أنه مثل النهر العظيم، يتدفق من البحر الأسـود وعبر أعمدة هرقل. لقـد تعمدوا تقليل تقديرهم لعرضه، ربما لتهدئة هؤلاء الذين يخشـون أن يفقدوا منظر السواحل[24].

إن مفهـوم البحار السـبعة مطبق اليـوم فقط على الميـاه التي هي بحجم المحيطات، ولكن في العالمين القديم والأوسـط، كان يمكن لهذا المفهوم أن يشـمل أي جسـد مائي، بداية من البحيرات الملحية وصولا إلى الأنظمة النهرية. في العصر الروماني، كانت مياه الساحل الغربي لإيطاليا والتي لها حدود مع كورسيكا، وصقلية، وسردينيا معروفة باسـم بحر التيرانين الذي أصبح سـكان اليابسة يسمونه Mare Nostrum أو بحرنا. إن البحر المسـتقل كان فكرة يمكن للعقل أن يستوعبها، هو وحدة إبحار يمكن التحكم فيها، حيث نادرا ما تخرج فيها الأرض عن منظر البحار. وكما يقول بروديل: «كانت أراضي المتوسط سلاسل من الأقاليم المعزولة بعضها عن بعـض، ولكنها تحاول أن تتواصل.بعضهـا مع بعض». لقد خلقت البحار المتعددة الحافز لتأسـيس شـبكات تجارة حيوية. وكونها مطوقـة بالجبال والصحاري، فإن هذه الحضارات السـاحلية سرعان ما أصبحت thalassocracies أو إمبراطوريات

بحرية، تسعى نحو الفتوحات والاستعمار من شبه جزيرة إلى أخرى، ومن جزيرة إلى أخرى، حتى امتدت الإمبراطوريات في كل الأنحاء ولكن ليس عبر البحار الداخلية بالضرورة[25].



خريطة بورتولان(*) بيد جورج دو أجولون، 1492. الصورة من ويكيبيديا.

في العالم القديم، كانت الأجسام المائية الضخمة معروفة بالمناطق التي تقع على حدودها. إن مصطلح atlantic أو الأطلنطي له جذوره في الأساطير الإغريقية حيث كان يعني في البداية المياه الأقرب إلى جبل أطلس في شمال أفريقيا. سيستغرق المصطلح قرونا عدة قبل أن يستخدم للإشارة إلى المياه خارج أعمدة هرقل. في البداية كانت هذه المياه تسمى Oceanus أو المحيط، وكانت تعرف بأنها أقرب للنهر الذي يحيط العالم المألوف. تدريجيا، فقدت هذه المياه تعريفها النهري حيث أصبحت تشبه بالمتوسط، أحيانا يسمى «البحر العظيم»، وبعد ذلك بالبحر الأعظم

(*) خرائط البورتولان هي، كما تصفها ويكيبيديا، خرائط إبحار تعتمد على اتجاهات البوصلة وتقديرات القبطان للمسافات في البحر. [المترجمة].

الخارجــي، وبعد ذلك بالبحر المحيطي أو المحيط البحــري، وأخيرا بالمحيط الغربي. إن مصطلح ocean أو محيط كان شــائعا اســتخدامه للإشارة إلى البحار التي كانت شديدة الضخامة ويتعذر الإحاطة بها. خلال العصور الوسطى، كان شائعا لما نعرفه على أنه الأطلنطي أن يســمى باســم الســاحل الأقرب له المحيــط الألماني، المحيط الإســباني، حيث لم يشع اســتخدام اســم الأطلنطي حتى القرن السابع عشر. عندما جوبه بالحجم غير المســبوق للهــادي، اختار فيرديناند ماجيلان أن يســميه محيطا وذلك إبان العشرينيات من القرن الســادس عشر. مع مــرور الوقت، هذه الأعداد الكبيرة من البحار سيجري استبدالها بالمحيطات السبعة[26].

إمبراطوريات التجارة الساحلية

تطورت الحضارات الســاحلية في منطقة المتوسط ببطء وذلك عن طريق تنقلها عــلى طول الســاحل أو انتقالها من جزيــرة إلى أخرى وليس عــن طريق الرحلات الطويلــة بعيــدا عن الســاحل. كانت الجزر مهمــة مقدما في منطقة المتوســط في فــترة ما قبل التاريخ. فقد وفرت هذه الجزر أماكــن للتجارة مع الأراضي الداخلية، وعندمــا ظهرت الزراعة في ليفانــت في 9600-6900 ق.م، انتقلــت أولا إلى جزيرة كريــت في نحــو 7000 ق.م، قبــل أن تنتقل إلى الأراضي الأوروبيــة بعد ذلك ببضع مئات من الســنوات. وهكذا دارت الزراعة حول المتوسط بأكمله. تنقل الساحليون الذيــن واجهتهم قحولة أو عدائيــة البيئة الداخلية بذات الطريقة عبر الجزر. احتل الفينيقيون، وهم شعب كنعاني أداروا ظهورهم لمنطقة ليفانت التي أزيلت غاباتها، شــمال أفريقيا حيث استُبدلوا لاحقا بالقرطاجيين، الذين انطلقوا أخيرا في الأطلنطي إلى حيث الأماكن المكتشــفة للتجارة على طول ساحله وعلى الجزر الصغيرة لشمال أفريقيــا وأيبيريا. فبينما كانوا كأقرب ما يصنع المتوســط القديم من شــعب بحري خالص، كانوا كذلك ساحليين، محتضنين ومستعمرين للساحل[27].

منــذ أن بدأت البشرية بالمتاجرة، فإنهــا اختارت أن تفعل على حدود الأراضي، حيــث كان ينظر لها على أنها مناطق محايــدة، حيث التبادل العادل مضمون. قبل أن تكون هناك أســواق دائمة في المــدن، كانت هناك مهرجانات تجارية موســمية تقام على حدود المقاطعات الملكية وعلى تقاطع الطرق. كانت الســواحل من ضمن

هذه الحواف الجلية التي كانت ترحب بالتبادل، وقبل أن تكون هناك موانئ ثابتة، كانت هناك أراض حيث كانت المقايضة تتم. يصف هيرودوت الطريقة التي كان القرطاجيون يتاجرون بها مع المحليين على ساحل أفريقيا الأطلنطي:

> كانوا يوصلون بضائعهم ويضعونها على الشاطئ قطعة قطعة. بعد أن يتم ذلك، يعود هؤلاء إلى متن سفنهم حيث يصنعون إشارات من الدخان. عندما يستقبل السكان الأصليون هذه الإشارات، ينطلقون إلى الشاطئ، حيث يودعون الذهب من أجل البضائع ويتراجعون إلى الداخل. عندئذ يرسو القرطاجيون مجددا على الساحل لينظروا في العرض. فإذا ما قدروا كمية الذهب كقيمة مناسبة للبضائع، فإنهم يجمعونه ويبحرون إلى موطنهم. ولكن إذا لم تكن القيمة مناسبة، فإنهم يصعدون إلى سفنهم مرة أخرى بانتظار الأحداث. بعد ذلك، يعود القرطاجيون للشاطئ ليضيفوا مزيدا من الذهب إلى عرضهم الأول، حتى يصبح هؤلاء القرطاجيون راضين عن العرض.

في أماكن أخرى، هذا النوع من التبادل من دون تواصل مباشر كان يسمى المقايضة الخرساء أو التجارة الصامتة[28].

لقد أسمى الإغريق أماكن التجارة باسم emporia، وذلك حتى لا يختلط أمرها مع المدينة polis. إن فصل الميناء المفتوح عن المدينة المحصنة سمح للإغريق باستغلال الأراضي الطبيعية، وعليه بالدفاع الأفضل عن المدينة ضد الأعداء الغرباء والطبيعة المعادية. اعتقد أفلاطون ضرورة إزالة المدن فعليا من جانب البحر، «فالبحر، على الرغم من لطفه، بيد أنه مرافق خطر، كما أنه طريق سريع للأخلاقيات والطبائع الغريبة كما هو طريق للتجارة»، والتي كان يعتقد أنها مفسدة لأخلاق المدينة. فالقدماء طالما حددوا مواقع الأسواق خارج أسوار المدينة، في موقع محايد سهّل عملية التبادل مع المدن الكبرى الأخرى. وهناك كذلك، كان يسمح للغرباء بأن يجتمعوا ويتسامروا. فالمدن الكبرى زودت التجار الغرباء بالامتيازات، والذين بالنسبة إليهم هذه emporium أو مركز التجارة كان مساحة تحكم نفسها ذاتيا، في الأغلب بتقاليدها ولغاتها الخاصة والمميزة عن تلك التي في المدينة. لاحقا، تلك المقاطعات التي تعرف باسم funduq أصبحت أكثر ديمومة حول المتوسط كله،

ولكــن في البدايــة، كما هي الحال مع أثينا، كان الســوق هو الســاحل ذاته، وهي ممارسة كانت متبعة كذلك في المحيط الهندي، ولاحقا، في شمال أوروبا. فقط عندما جرى ضم الأسواق داخل أسوار المدينة وانتقلت التجارة من الحافة إلى الداخل وحل الميناء الدائم محل الشــاطئ بشــكل كامل كموقع للتجارة. كان الرومان يعتمدون بشكل أقل على التضاريس الطبيعية من الإغريق، بيد أن مهاراتهم الهندسية جعلت موانئهــم المبنية لأغراض محددة عرضة للهجوم. فعندما شــيدوا ميناء أوســتيا على مصــب نهر التيبر، صادفوا مشــكلة القوائم التي ســتزعج بنــائي الموانئ الأوروبيين لقرون مقبلة[29].

كان الإغريق مستقرين مع الساحل ولكنهم مترددون تجاه البحر. كانت تسيطر عــلى رحلاتهم فكرة nostos، الأمــل في العودة. وكانوا يفضلون، إن أمكن، ألا يأكلوا وجباتهم أو يناموا على سطح السفن، كما أنهم خاضوا معاركهم البحرية أساسا على مرأى من اليابسة. كان الساحل موطنهم، وكما بيّن ألين كوربن: «في العصور القديمة، أبقى الساحل حلم المسكن الدائم الذي حددته الآلهة حيا، أو أنه زود الناس بركيزة للأمــل في العودة». لم يكــن البحر في حد ذاته هو هدف الوصــول لكنه كان فقط وســيلة للعودة إلى الوطن. لم يكن عند القدماء مفهوم الاستطلاع والاكتشاف، فيما عدا رســم خرائط الســواحل والجزر، فاهتمامهم بالبحر انحصر فقط في ملامســته لليابســة وفي ربطــه بين بقعة أرض وأخــرى. مثل عوليس، هــم لم يبحروا قط بأي شيء آخر يحتل ذهنهم ســوى ميناء موطنهم، حيث إنه لم تكن لديهم أي متعة مع البحر بحد ذاته، والذي كان بالنسبة إليهم مكانا مرعبا إلا إذا كان مملوءا بالجزر أو احتوى على خلجان محمية بأشــباه الجزر. كون البحر المتوسط كان محاطا من كل جانــب عدا واحد فقط، وكونه كان مفتوحا عــلى الأطلنطي فقط من خلال أعمدة هرقل الضيقة، كان ذلك مصدر راحة عظيمة للبحارة القدماء[30].

لقد اختار معظم الملاحين أن يبقوا قريبا من الســاحل، مطمئنين لوجود أعداد كبيرة من الأرخبيلات التي باركت الســواحل الشــمالية للبحر المتوسط. اليوم، نفكر نحــن في الجزر على أنهــا أماكنٍ معزولة، منتمية للبحر عوضا عن اليابســة، بيد أن الإغريق القدماء اعتبروا العالم terraqeous، متساوي الأجزاء بين اليابسة والماء. وكما رأينا مسـبقا، كان البحر بالنســبة إليهم جزءا من الداخل. نحن نقول إننا سنذهب

خارجا إلى البحر(*)، ولكن بالنسبة إليهم كانت المدن النائية هي الفضاء الخارجي. هذه الجغرافيا «المقلوبة» تتحدى مفاهيمنا الحديثة، بيد أنها ضرورية جدا لتقدير طبيعة السواحل والشعوب الساحلية القديمة[31].

علم الأحياء المائية المتوسطية

إن امتلاك أرخبيل كان مفتاحا للسلطتين الاقتصادية والسياسية في المتوسط وذلك حتى بداية العصر الحديث. احتل الساحليون هامشا ضيقا حيث الجبال أو الصحاري في المؤخرة، وفي حالة السواحل الشمالية، حيث بحر مملوء بالجزر على بابهم الأمامي. لقد عاشوا فيما يشبه الأرض المائية التي ليس لها نظير اليوم، لكنها كانت شائعة بما فيه الكفاية في الأزمنة الأقدم. أشباه الجزر المحاطة من أطرافها الثلاثة بالماء كان ينظر إليها على أنها «تقريبا جزر»، حيث إنها هي كذلك كانت تنتمي إلى الماء أكثر منها إلى اليابسة. في العديد من اللغات الأوروبية القديمة كان مصطلح جزيرة island يجمع بين مصطلحي ماء is والمصطلح الذي يشير إلى الأرض land، والذي يشير إلى حالة برمائية. كانت الأراضي المائية تشمل ليس فقط الجزر ولكن كذلك المستنقعات. كانت الجزر مناطق مثالية للتبادل، فإذا ما لم تكن موجودة، كانت الشعوب المتاجرة تصنعها. كان أوائل سكان ما يعرف اليوم باسم فينيسيا صيادين يحتلون بحيرة مستنقعية نشطة المد والجزر. مع مرور الوقت سيصنع هؤلاء مدينة مبنية على دعائم والتي بحلول القرن الثامن ستدخل ضمن مدار الإمبراطورية البيزنطية ولاحقا تؤسس مستعمراتها الخاصة حول البحر الأدرياتيكي[32].

إن مفهوم الأرخبيل كان قد ضم في أصوله اليابسة والماء كليهما. كان بحر إيجة، الذي يقع على حدود شبهي جزيرة البلقان والأناضول، يعرف مبدئيا على أنه أرخبيل. لاحقا، أصبح هذا المصطلح يطلق حصريا على الجزر، وأخيرا على أي مجموعة من الجزر. تدريجيا، أصبحت كلمة جزر islands تعني الأراضي المحاطة بالماء، بيد أنه ولزمن طويل كان المصطلح يطلق على أي منطقة معزولة، بما في ذلك الأراضي المغلقة (التي لا تجاور الماء) كليا[33].

(*) we are going out to sea.

كانــت الجزر تلوح ضخمة في الأفق في العالم القديم. في فهمنا الحديث القاري للمســاحات، تصغر الجزر وتنعزل، ولكن في العالم البرمائي للمتوسط القديم، كانت الجزر متصلة ومعززة مكانتها. عندما تحرر الفينيقيون خارج المتوسط إلى الأطلنطي، كان أول ما بحثوا عنه هو الجزر، حيث يســتطيعون إقامة محطات تجارية. كانت الجزر على الســواحل الأفريقية والأوروبيــة الغربية تمارس أدوارا متفاوتة في تطوير التبــادل الثقــافي كما الاقتصادي لقرون مقبلة، حيث كانــت هذه الجزر نقاط ربط في عالم من الحركة المســتمرة، والتي كانت ذات أهمية أساســية في حياة الصيادين الرحــل لما قبل التاريخ كما كانــت للبحارة القدماء. لقد كان ذلــك نظاما اقتصاديا وثقافيا اســتمر، مقارنة بالأنظمة الداخلية الزراعية، بسبب الحركة المستمرة وانتهى بســبب الركود. إن أفضل ما توصف به المجتمعات الســاحلية هي مساراتها عوضا عن جذورها، ربما هذا هو السبب في كون الشعوب الساحلية غير مرئية بالنسبة إلى المؤرخين، الذين يجدون صعوبة في التثبت من الشعوب المتحركة والتحقق منها[34].

مثل الجزر، واجهت المدن الإغريقية البحر، بحيث أصبحت أكثر ارتباطا به من أراضيها النائية. المثل كان صحيحا بالنســبة إلى فينيســيا ولمراكز التجارة الســاحلية الأخــرى. في المتوســط، تطور قالــب مميــز للإمبراطوريــة، thalassocracy وهي الإمبراطورية التي تعتمد بشــكل أقل على الســيطرة على الأرض من اعتمادها على الســيادة على الممرات البحرية والمقاطعات الســاحلية. لهذه الإمبراطورية أهداف عدة، أكثر تجارية في حالة الفينيقيين، أكثر عســكرية في حالة الإغريق، لكنها جميعا اعتمدت على القوة البحرية عوضا عن تلك البرية. انتشرت الإمبراطوريات الإغريقية البحرية هذه من جزيرة إلى أخرى، ومن شــبه جزيرة إلى أخرى. كانت إســتراتيجية تدعى epiteichismos معنية بزراعة المقاطعات على الســواحل الغريبة وبطريقة ســمحت لشيشرون بأن يقول: «إن سواحل بلاد الإغريق تبدو مثل الحاشية المدرزة عــلى أراضي الشــعوب البربريــة». لقد كانت بــلاد الإغريق موجــودة حيث وجد الإغريقيون، وهي لم تكن مقاطعة بقدر كونها مجموعة من السواحل. كان الرومان بدرجة أكبر شــعبا داخليا زراعيا، بيد أن مدنهم كانت معزولة بذات الدرجة، حيث كانــت منفصلة عن الريف. كان مفهــوم الدولة الإقليمية المرتكزة على أراض داخل حدود ثابتــة معروفا لديهم كذلك. مثل الإغريق، كانوا بناة للإمبراطوريات، مهتمين

ليس فقط بالأراضي المتجاورة ولكن كذلك بشبكات من الأراضي المطوقة ذات القيمة العسكرية والتجارية. كانت الإمبراطورية الرومانية مكونة من مدن هي أشباه جزر متصلة، في هذه الحالة، بالطرق كما بالبحار، بيد أنها كانت مستمرة في الافتراض القديم أن العالم هو بطبيعته جزيري. كان حيزهم أرخبيليا بلا ريب عوضا عن كونه قاريا، وهذه الرؤية ستستمر لقرون عدة قبل أن تفسح المكان لما أسماه دينيس كوسغروف «رؤية إقليمية مرتكزة على اليابسة»، وذلك فقط في القرن التاسع عشر[35].

لقد كان الإغريق القدماء يفهمون أنفسهم على أنهم شعب معزول، على الأرض كما في البحر. ولقد قيل إن المدن الرئيسية الإغريقية كانت مثل «الجزر على الأرض اليابسة». كان الانعزال يعتبر قوة، وكان الماء فرصة وليس عائقا. كان طاليس، معاصرا في مدينة مالطة الواقعة على الساحل الأناضولي في القرن السابع ق.م، أول من عرف الماء على أنه العنصر الأساسي لكل أشكال الحياة، حيث اعتقد تلاميذه أن الأرض عبارة عن قرص يطفو على مياه أزلية. وقد كان مواطن آخر من مالطا، هيكاتيوس، هو الذي رسم أول خريطة للعالم في نحو 500 ق.م[36].

مع مرور الوقت، سيستكشف الإغريق والرومان الامتدادات الغربية لسواحل المتوسط والأطلنطي وصولا إلى الجزر البريطانية شمالا، التي أسموها جزر القصدير Tin Isles وذلك نسبة إلى المعدن الذي قايضوا من أجله هناك. لقد تخيل هيكاتيوس الأرض ذاتها على أنها جزيرة، Orbis Terrarum، محاطة بنهر ثائر والذي أسماه المحيط Oceanus. لم يكن لديه مفهوم القارات ولكن عِوَضا عن ذلك تخيل الأرض على أنها جزيرة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء والتي نستطيع تمييزها بسهولة على أنها أفريقيا، وآسيا، وأوروبا. وقد عين هيكاتيوس البحر المتوسط، بصحبة البحر الأسود، تحديدا في مركز جزيرة الأرض، ومثل كل رسامي الخرائط الجيدين، فقط عين موطنه، ميليتوس، في الوسط بالضبط.

لقد قطع الإغريق مسبقا مسافة في تحويل شرق المتوسط إلى بركة عظيمة موحدة، حيث أسموها «البحر الذي نعلوه» بيد أن الرومانيين سيذهبون إلى أبعد من ذلك. فبحلول العام 30 ق.م، امتدت إمبراطوريتهم إلى كل سواحلها، حيث أصبحوا مستعدين لتحويل مفهوم «بحرنا» Mare Nostrum من البحر التيراني إلى

البحر المتوسط بأكمله[37]. بيد أنه كان هناك تمييز حاد بين البحر الداخلي والمحيط الغــربي الخارجي. كان المتوســط معروفا ومحدودا، بيد أن المحيط كان كما أســماه الإغريــق aperion، لا نهائيا، غامضا، ومرعبا. إذا كان المتوســط هو موطن الرومان وكذلك الإغريق، فإن ما يقع خارج أعمدة هرقل كان موضوعا مختلفا برمته. ستبقى هذه المساحة كهاوية عميقة وعلى مدى قرون[38].

إن فكرة أن الماء يمثل الفوضى بينما الأرض تمثل النظام كانت مغروســة بعمق في الجغرافيا الأسطورية للشرق الأوسط القديم التي جرى تطويرها تاليا وتضخيمها أولا بواســطة اليهودية ولاحقا المسيحية. إن أهوال قصص الطوفان في العهد القديم ومعالجتــه لموضــوع البحر كعائق عوضا عن كونه فرصة قــد تعمقت جميعها عن طريق المســيحيين، الذيــن أضافوا إلى نظرة العالم الوثنــي للمحيط أنه فراغ مرعب وذلك عن طريق تقديم عامل فعال وهو الشخصية حديثة الاختراع للشيطان. فأبعد من حدود «بحرنا» لم يرَ الوثنيون كذلك سوى الموت والخراب، لا يهون عليهم سوى وجود الجنة Elysium، أو حديقة هيسبيرايدس، التي كانوا يعتقدون وجودها على الأطلنطي القريب على ما كان يعرف باسم جزر المباركين Isles of the Blest وجزر المحظوظين Fortunate Isles، وهــو مكان الأبطال الموتى، الذي يتعذر دخوله على الرجال العاديــين. وكما وصفهم هيزيود، على «جزر المباركين، محاطين بالمحيط ذي الدوامات العميقة، عاشوا من دون أن يعانوا التعب أو الأسى. بالنسبة إليهم الأرض المعطاءة للحبوب ثلاث مرات في السنة تثمر فواكه عذبة كالعسل»[39].

إذا ما تخيل المســيحيون أســلافهم إما في الجنة في الأعلى وإما في الجحيم في الأســفل، فإن الوثنيين قد صمموا مكانا لأســلافهم في البحر. بالنسبة إليهم كانت حافــة البحر تمثــل عتبة، أو حدا بين عالم الأحياء والأمــوات، ومكانا يحتوي على فــرص هائلة ولكن كذلك عــلى مخاطر عظيمة. هناك كان مــكان للتواصل مع الأســلاف لكنه كذلك مكان طبيعي مســكون بالأرواح. أحيانا، كانت الشــعوب الســاحلية للعصر الحجري والبرونزي تطلق موتاها من على الساحل أو تدفنهم على الجزر الســاحلية القريبة، حيث تضمن لهم حياة أبدية ولكن كذلك تمنعهم من العودة وإزعاج الأحياء. عندما كان يتعذر الدفن في البحر، كان الإسكندنافيون القدماء معتادين على الدفن في مقابر على السفن، وهو نوع آخر لذات الفكرة.

استمرت الجزر الأسطورية في مواساة الشعوب الساحلية في مواجهتها للموت وذلك حتى بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ق.م بوقت طويل[40].

على طول السواحل الأطلنطية الشمالية

يمثل الأطلنطي نقطة تناقض: لقد كان آخر المحيطات التي جرت السيطرة عليها ولكن يمكن القول إنه كان المحيط ذا التأثير الأكبر على مرور الزمن. لقد تأخر البشر في الوصول إلى كلا ساحليه الشمال الغربي والشمال الشرقي؛ وذلك بسبب الكميات الهائلة من الثلج والجليد التي غطت هذه السواحل حتى عشرة آلاف سنة مضت. لقد نتج عن كتل الجليد المتراجعة ومناسيب المياه المرتفعة سواحل متباينة استثنائية وذلك بأعظم نسب للسواحل نسبة إلى الأراضي الداخلية تقريبا عن أي مكان في العالم. لقد كانت الحافة الأطلنطية متميزة كذلك بكميات «الجزر المغمورة»، بأعداد أشباه الجزر والجزر القريبة من الساحل، وكذلك بعمق نقاط تجمع الأمطار التي جففتها الأنهار العظيمة والتي تدفقت في مصبات الأنهار البحرية العظيمة. فحتى بلغت البحار ارتفاعاتها الحالية في نحو 6500 ق.م، فإن المنطقة التي نعرفها اليوم باسم أوروبا كانت تمتد غربا لتشمل الجزر البريطانية، بما فيها إيرلندا. فيما بين أوروبا وبريطانيا كانت هناك غابات ومروج التي أسماها علماء الآثار Doggerland، وذلك على اسم ضفاف دودجر المغمورة الآن. كان بحر البلطيق أبطأ حتى في حصوله على شكله الخارجي الحالي، وذلك في نحو 5000 ق.م. فما ظهر أخيرا في أوروبا والذي يدعوه فيرناند بروديل الرأس الغربي لآسيا كان متميزا بتنوعات جيولوجية وبيئية عظيمة. لقد كان ذلك محفزا قويا على الحركة والتبادل التجاري، والتي هي صفة كل السواحل، لكنها كانت ملاحظة بقوة تحديدا على الساحل الأوروبي[41].

لقد وصل أول صيادي ما بعد العصر الجليدي الرحل الساحليين إلى الشمال الغربي لأوروبا فيما بين 9000 و7000 ق.م. هناك وجدوا تنوعا بيولوجيا أعظم من الموجود في المتوسط، كاملا بما في ذلك نباتات البحر الخضراء، واللفت البحري، والجزر الأبيض، والطحالب، وبالطبع وفرة من قشريات البحر. وفيما هم يتنقلون

على طول الســاحل، فقد اســتغلوا تحديدا مصبات الأنهار، حيث وجد علماء الآثار تلالا ضخمة من الصدف ولكن كذلك أدلة على ممارسة صيد السمك وصيد الطيور. لقــد كانــت الجزر الصغــيرة المقابلة للســاحل في الأغلب هي أوائــل الأماكن التي يســتخدمها الصيادون الرحل. ففي نمط يتكرر على طــول الحافة الأطلنطية، كانت جزيــرة غدير Gadir عند فم ريــو غواداليتي عند ما يعرف اليوم باســم الأندلس مأهولة مسبقا بالصياديــن الرحل البحريين وذلك عندما أصبحت مركز تبادل فينيقيا في القرن الثامن ق.م، في هولندا الحالية، كان الصيادون الرحل ينتقلون إلى الساحل في الصيــف، حيث يجمعون الأطعمــة المختلفة ويرعون الحيوانات على حشــائش المســتنقعات الغنيــة هناك قبل أن يتراجعــوا إلى الأراضي الأكثر ارتفاعا في الشــتاء. بحلول العام 800 ق.م كان هؤلاء قد استقروا على جزر من صنعهم، حيث يزرعون ويتاجرون انطلاقا مما يعرف اليوم باسم الأراضي المستصلحة من البحر[42].

عندمــا وصلت الزراعة إلى أوروبا الغربيــة في بداية 5000 ق.م، كذلك وصلت إلى حــد كبير عن طريق البحر، حيث انتشرت عن طريق الصيادين الرحل البحريين أنفســهم. وقــد تأهل جنوب شرقي إنجلــترا عن طريق البحر بحلــول العام 4300 ق.م تقريبــا بالصيادين الرحل الذين حملوا معهم مبادئ الصيد وتربية الحيوانات، وذلــك عــلى الرغم من أنهــم لم يصبحوا مبــاشرة مزارعين متفرغين. باســتخدامهم مهاراتهم الملاحية التي اكتســبوها عــبر الألف عام الماضيــة، كان هؤلاء الصيادون الرحل يتجولون على سواحل إيرلندا وغرب أسكتلندا، وصولا إلى جزر أوركني بحلول العام 3800 ق.م. في الأغلب تأهلت في البداية الأراضي البريطانية عن طريق الجزر. ولوقــت طويل جدا، بدا أن الصيد والجمع قد اختلطــا بالزراعة وتربية الحيوانات. لقــد أزال صيادو ما قبل التاريخ البريطانيون الغابــات وصنعوا حفر المياه ليجذبوا طرائدهــم إليهم. فقبل أن يكون هؤلاء مزارعين، كانوا حراس طرائد. الشيء نفســه ينطبق على الصيادين البحريين، الذين لم يشــعروا بأي حاجة إلى العودة إلى الزراعة مادامت البيئة الانتقالية الساحلية كانت معطاءة للغاية[43].

مثل الصيادين الرحل البحريين في كل مكان، فإن هؤلاء الأوروبيين الســاحليين الأوائل كانوا كثيري التنقل ويميلون إلى التبادل التجاري، وذلك في الأغلب على الجزر المقابلة تماما للساحل. وكما يوضح باري كانليف «يمكن لهذه أن تكون أماكن آمنة،

خــارج نطاق الدولة، حيث، وبالاتفاق، يمكن للغربــاء أن يتوقفوا فيها لصنع مراكز للتبادل التجاري». في حالة أوروبا الأطلنطية، ســبقت التجارة الاستيطان الدائم، بيد أن الوضــع كان أن الصيادين الرحل البحريين قد طوروا ترتيبا اجتماعيا أكثر تعقيدا عن ذاك الذي صنعه نظراؤهم على اليابســة. إضافــة إلى ذلك، وعلى ما يبدو عليه الوضــع مــن غرابة، فإن هؤلاء البــشر كثيري التنقل كانوا هــم أول من تبنوا أنماط الحياة الأكثر اســتقرارا، بينما اســتمر الصيادون الرحل في المناطق النائية في تنقلهم لمدة أطول بكثير[44].

وكما كان الوضع في المتوســط، اكتُشِــف الســاحل الأطلنطــي أولا من طريق البحر؛ حيث بقي هذا الســاحل، فترة طويلة جدا، مرتبطا بالبحر أكثر من ارتباطه بأراضيه الداخلية، فعلى الســواحل المتسعة لشمال غرب أوروبا، لم يكن الخط بين البحــر والأرض محفورا بقوة مطلقا، ومثل الثقافات الأرخبيلية في المتوســط، دمج الســاحل الجزر القريبة منه. ولكن وعلى خلاف المتوسط، كانت الحافة الأطلنطية حضارة شــاطئية ونهرية في الوقت ذاته، وذلك لأنها كانت أقل تطويقا بالجبال أو الصحاري، كما أنها امتدت من على بعد البحر، وصولا إلى أقصى مسافة عند الأنهار التــي يمكن للمــد أن يصلها وغالبا لأبعد من ذلــك. في بريطانيا، وهولندا، وأراضي البلطيق «امتد تأثير البحر في الماضي لمسافة أبعد في الأراضي الداخلية عن الحدود الســاحلية». فحينما كانت القوارب تســبح في المياه الضحلــة، كانت الموانئ على الأرجــح تقع على أعــلى نقطة من النهر، حيث تكون أكــثر أمانا وتحظى بتواصل أعظــم مع شــبكات التجارة الأرضية الداخلية. فكما رأينــا، لم ير الصيادون الرحل فرقا واضحا بين المياه العذبة والمالحة، متنقلين ذهابا وإيابا عبر خطوط المد، وذلك على أســاس تغير الفصول. سيســتمر هذا الوضع في أوروبا الأطلنطية حتى العصر الحديث تقريبا، حين قررت سفن الإبحار العميق في المحيط أن تُمْلي أماكن الموانئ على الساحل نفسه[45].

كان لأوروبــا الأطلنطية بحار عدة، مســماة على أســماء أقــرب الأراضي إليها، بطريقة مشــابهة لتسميتنا للخلجان أو المضايق عن تسمية المحيطات العظيمة. إن اكتشــاف القارب الكبير عند دوفر، والذي يتوقع أنه يعود إلى ألفي سنة قبل وصول الرومان، يشــير إلى سلســلة من «طرق البحر السريعة» التي لم تكن لها نظائر على

اليابسـة التي كانت لاتزال غير مخترقة. إن بحار البلطيـق الضحلة كان لها العديد من الأرخبيلات الساحلية المماثلة لتلك الموجودة في المتوسط. إن كلمة Aland التي تشير إلى اسم مجموعة من الجزر والتي تقع اليوم بين السويد وفنلندا، كانت تعني في الأصـل «أرضا رطبة»، وهي مشـهد طبيعي بحري منفصـل عن كل من الأراضي اليابسـة وعن البلطيق بحد ذاته. في شـمال أوروبا، كان المـاء كذلك يحدد الأرض، حيـث إنه مع سـقوط الإمبراطورية الرومانية، تفكك الداخل وتشـكلت الدويلات بالقرب من السواحل حول الماء عوضا عن اليابسة. لقد نشأ ما أسماه اتش سي داربي «الدويلات البحرية» للقرون الوسـطى، صانعة «إطارا من الدويلات التي، في أزمنة مختلفة، وظفت بحارها الثانوية كقواعد عدة لوحدات سياسية»[46].

كان للسواحل المتقابلة أشياء مشتركة بينها أكثر مما كان لها مع أراضيها الداخلية، بيد أن الإمبراطوريات البحرية، بما فيها تلك التي صنعها النورمان، امتدت على طول الساحل من الحافة الأطلنطية الشمالية وإلى المتوسط الغربي. لقد وحد الفينيسيون دولـة بحرية في الأدرياتيـكي كان قد بدأها الرومان، فيما تحكمت السـويد، خلال القرنـين الثاني عشر والثالث عشر، في الحافة الشـمالية للبلطيق. اسـتخدم إنجليز العصور الوسطى المتأخرة قوتهم البحرية ليسيطروا على غرب فرنسا، ليحولوا القناة التي بينهم إلى ما كان يعرف، لزمن طويل، باسم البحر الإنجليزي، فيما كانت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على جزر وسـواحل شرق المتوسط أقوى بكثير من سيطرتها على أراضيها النائية. إن عقيدة «البحر المشمول في دولة» Mare Claustrum التي كانـت بابوية العصور الوسـطى تؤيدها، قد شرعنت الدولـة البحرية حتى القرنين السـادس عشر والسابع عشر، وذلك عندما ترسخ أخيرا مفهوم السيادة حصريا على الأراضي، وتـم إعلان المحيطات على أنها «بحار حـرة» Mare Librum عن طريق هيوجو غروتيوس. وحتى عندها، مع ذلك، استمر مفهوم القطاعات البحرية، حيث وسعت الإمبراطوريات الأوروبية، بثبات واستمرار، قواها على طول الممرات البحرية، حتى عندما لم يدعوا السيادة على المحيط الأطلنطي بكليته[47].

إن الارتبـاط الذي كان للأوروبيين مع بحارهم السـاحلية لم يمتد إلى ما أسـماه القدمـاء المحيط Oceanus، هـذا النهر الثائر الذي أحاط بجزيـرة الأرض، والذي كانـت أوروبا حدا غربيا خلفيا فيه. لم يكن الأوروبيون الشـماليون أكثر تطلعا من

الإغريـق أو الرومان لتجربة تحذير الشـاعر بيندار بأن «ما يقـع أبعد لا يمكن أن يخوضه الحكيم أو غير الحكيم. فالإنسـان لا يمكن أن يعبر من غدير باتجاه الغرب المظلم ثم يعيد الإبحار مجددا في اتجاه الأراضي اليابسـة لأوروبا». قبل 1500 كان الأوروبيون، باسـتثناء الإسكندنافيين، أصحاب ثقافة سـاحلية وليست ثقافة البحار العميقة، حيث كانوا يفضلون الإبحار بمرأى من الأرض، آمنين بوجود الجزر وأشـباه الجـزر التي عملت مصدات لتحميهم من المحيط ذاته. إن أقدم الخرائط، المعروفة باسـم portolani، كانـت مثل تلك المعروفة باسـم periploi، تركز على العلامات الأرضية والموانئ، حيث تزود بالقليل من المعلومات عن المحيط في حد ذاته[48].

أصول إحدى الثقافات الساحلية

لقد ورث الأوروبيون الشـماليون الثقافة السـاحلية للبحر المتوسط، بما في ذلك جغرافيته الأسـطورية. لقد اسـتمر النظر إلى البحر والأرض ليـس فقط على أنهما عاملان مختلفان، ولكن كذلك على أنهما عالمان مختلفان. كانت الأرض تمثل النظام بينـما البحـر يعني الفوضى. لقـد ربط الوثنيـون الأرض بالحيـاة، والبحر بالموت، والسـاحل بأحداث فوق طبيعية غامضة. كانت المسيحية تخشى البحر بالقدر ذاته، حيث كانت تربط المحيط بمملكة الشـيطان. كان تأثير الرب أقوى على الأرض منه في البحر، حيث كان يعتقد أن المزارعين أكثر تقوى من البحارة. هذا الانشطار الحاد بين العالمين الأرضي والبحري جعل من الساحل – في حد ذاته - مكانا خاصا جدا مع ذلك، عتبة ليس لها مثيل. فكما قال باري كنليف: «فإذا كان في ذلك الوقت أن اعتُبر مجالا الأرض والبحر نظامين منفصلين، كل منهما معرض لقوى فوق طبيعية مختلفة خاصة به، فإن الوسيط بينهما كان مكانا انتقاليا حدوديا، ولذلك كان خطرا»[49].

لطالمـا كانـت العتبات أماكـن وقتية عارضة، بيـد أنها كذلك أماكـن مغرية، مشحونة بالرهبة، كما أنها مثمرة بآمال عظيمة. هذه الأماكن كانت مرتبطة بالعودة والمغادرة، وبدايات الحياة ونهايتها. فبينما كان العبور اليومي لخط المد طلبا للمؤن نادرا ما كانت له طقوس، كان الإبحار طويل المسـافة يُعامل على أنه مرور من عالم إلى عالم آخر مملوء بالمعاني الرمزية العظيمة. كانت الرحلات عبر المياه تعتبر محولة ومغيرة للحياة؛ فالمرتحلون النخبة كانوا ينعمون بوجاهة عظيمة، في حين كان يُعتقد

أن الأبطال المتوفين ينتقلون إلى حياة أبدية على جزر أسطورية مثل جزر المباركين، والتي كان يعتقد أنها تقع بعد أعمدة هرقل. تخيل السلتيون والإسكندنافيون أن الموتى يُوجَدون في البحر بعد الساحل، حيث ملأ هؤلاء البحر البعيد بجزر أسطورية كذلك، والتي أضاف إليها المسيحيون من مخزونهم الخاص من أشباح الجحيم والجنة في القرون التالية. كان البحر هو المكان الذي يفضلون أن يجدوا فيه أحلامهم بالسلام والوفرة، يجدونها عادة على جزر عدنية والتي إغراؤها سيتغلب أخيرا على الخوف من المياه المحيطية التي تحيط هذه الجزر. ولكن، وإلى ذلك الوقت، كان الماء مكان اللاعودة، مستودعا لكل ما هو غير مرغوب فيه على اليابسة، ليس فقط المخلفات الناتجة عن الحياة اليومية، ولكن أجساد المواليد المشوهة، والمنتحرين، والمنحرفين. وكونه كان مكان الوثنية للاعودة وملعب المسيحية للشيطان معا، كان البحر مملوءا بالمخاطر، وهي مخاطر صدرت روايات تحذيرية للبحارة السذج[50].

لقد كانت الجزر القريبة من السواحل - في حد ذاتها - عتبات؛ حيث يستطيع الغرباء أن يأتوا ويذهبوا من خلالها بحرية، ميسرين بذلك التجارة والتواصل بين الجماعات الأرضية والتي كانت، فيما عدا ذلك، عدائية بعضها تجاه بعض. وكونها عتبات limen، فقد وفرت هذه الجزر ممرات بين العوالم المختلفة. وحيث إنه كان يعتقد أنها موجودة خارج إطار الزمن، كانت هذه الجزر تستخدم كمدافن للمتوفين. لقد استخدم الفينيقيون والإغريق هذه الجزر بهذه الطريقة، وعلى مدى قرون عاملت المجتمعات البحرية في أوروبا هذه الجزر على أنها «أماكن حدودية، ليست تماما من الأرض ولا من البحر... مسبوغة بقوى غير عادية في عقول هؤلاء الذين عاشوا على الواجهة بين الأرض والمحيط». كانت السواحل القديمة متخمة بالمخلوقات المهجنة ذات الأشكال المتغيرة. في الفولكلور الخاص بشمال الأطلنطي، كان يعتقد أن الفقمة تفقد جلدها، وذلك حتى تتحول إلى بشر. هذه المخلوقات المعروفة باسم Selkies أو selchies على جزر أوركني وشتلاند، كان يعتقد أنها تكون علاقات رومانسية مع البشر، وتزاوج طالما انتهى بمأساة، وذلك عندما تقوم مخلوقات الفقمة بإعادة صياغة جلودها وتعود إلى البحر[51].

كانت مخلوقات السيلكي مشابهة، من أوجه عدة، لحورية البحر ولمخلوقات تعرف باسم السايرن sirens، وهي حيوانات سمكية مهجنة تعود أساطيرها على الأقل إلى

خمسة آلاف سنة مضت، حيث زمن الأساطير البابلية. لقد كان على السواحل، حيث يتداخل المائي والأرضي، أن كان يسهل تخيل التهجين. قبل أن يغامر الجنس البشري في المحيطات العميقة، ظهرت في البدء المخلوقات الأسطورية، حورية وحوري البحر mermaid وmerman، على العالم نصف المجهول للساحل. إن الأوصاف القريبة جدا من البشرية لبعض الحيوانات، مثل تلك التي لخروف البحر manatee، جعلت من هذه الحيوانات مادة مثيرة للاهتمام بشكل مستمر. عرفهم الإغريق باسم sirens، وذلك تيمنا بالاسم العلمي لهم Serranus. عندما صادف كولومبوس خراف البحر، خلال مهمته الاستكشافية في الكاريبي، فإنه ميزهم على أنهم مخلوقات من الأدب القديم[52].

لقد بين ريتشارد إليس كيف أن عددا متنوعا من الثدييات البحرية قد اكتسبت أبعادا أسطورية قبل أن يتم التعرف عليها أخيرا كحيوانات فعلية. ومع ذلك، لأن هذه المخلوقات تكونت في الخيال الإنساني، فإنها استمرت في الوجود مادامت استمرت المخاوف والرغبات التي صنعتها. ببساطة، انتقلت هذه المخلوقات من الفولكلور إلى الأفلام، ومن الدين إلى الأدب. كانت حورية وحوري البحر عبارة عن تعبيرات عن جاذبية البحر، ولكنها كانت كذلك تحذيرات تجاه مخاطره. فقبل القرن الثامن عشر شكلت السواحل أساسا ما أسماه يي فو توان مشاهد طبيعية مرعبة landscapes of fear [53].

إن الإيمان بحوريات البحر قد وصل إلى أعلى نغمة على ما يبدو خلال نهايات القرن الثامن عشر، وذلك عندما أغرقت الأجساد المزورة، المصنوعة من جثث القرود وذيول الأسماك، العديد منها صنع في آسيا، الأسواق الغربية. عرض مدير السيرك جي تي بارنم حوريته المسماة «حورية فيجي» في نيويورك خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، ولكن بحلول ذلك الوقت كانت جاذبية الموضوع قد بدأت تتلاشى، حيث إنه قد أصبح واضحا أن ما كان يُعتقد أنه جنية البحر siren كان في الواقع من خراف بحر manatee المحيط الأطلنطي وأطوم dugong المحيط الهادي. وقتها، كانت السواحل قد أصبحت معروفة بشكل أفضل، حيث غادرت عوالم الغموض والخوف بعيدا عن الساحل. لقد أصبحت وحوش البحر الجديدة، حية البحر، والحوت العملاق، والقرش القاتل، كلها مخلوقات المياه العميقة. في القرن العشرين، عندما استُكشفت الأعماق بشكل شامل، تحولت هذه الحيوانات من مادة خوف إلى أنواع مهددة بالانقراض، والتي أصبح يُخاف عليها. تحرك مشهد الخوف مرة أخرى، هذه المرة إلى الفضاء الخارجي[54].

دائما ما كانت السواحل هي الأماكن التي يلجأ إليها الإنسان لاستكشاف غموض الحياة والموت؛ فمن غير المفاجئ أن تكون هذه السـواحل قد ارتبطت لزمن طويل مع المقدس. كان سـاحل بيرو مشـهدا لطقوس دفن مطولـة، وذلك منذ زمن قديم يقدر بخمسـة آلاف سنة مضت، وقد وُجِدت غرف القبور على سواحل شمالي غرب أوروبا، وذلك قبل أن يبني المصريون أهراماتهم بزمن طويل. وعليه، يبدو أن تقاطع الأرض والبحر قد حفز النشـاط الإنسـاني الرمزي منذ البدايات. لقد اعتقد الوثنيون والمسيحيون كلاهما أن الجزر والجروف الصخرية كانت «مقدسة بالنسبة إلى الآلهة». فلقد استضافت أماكن مثل جزيرة هيرونيسوس الصغيرة المقابلة لقبرص جماعة أبولو الدينيـة قبل أن تتحـول إلى مقام للقديـس جورج. جزر أخرى في المتوسـط كانت مقدسة بالنسبة إلى الوثنيين، ثم إلى المسيحيين، وأخيرا بالنسبة إلى الإسلام، فعلى حافة الأطلنطـي، كان يقال إن جزيرة لافريـت الواقعة على مصب نهر اللوار كانت تؤوي جماعة دينية نسائية قديمة للخصوبة. مثل هذه الأماكن أصبح المسيحيون المبشرون والمهاجرون يسـتخدمونها لاحقا. كان الساحل الوثني موقعا لعدد كبير من الطقوس التي تهدف إلى مباركة البحارة واسـترضاء هذا البحر النشـط الذي كان يعتقد أن له مزاجا وإرادة خاصين به، لا يجب لإنسان أن يتحداهما من دون مساعدة من الآلهة. على طول السواحل الأطلنطية لايزال القساوسة يباركون أساطيل السفن سنويا، حتى إن كان ذلك الآن يتم من أجل السياح عنه من أجل نشاط الصيد المحتضر. لم يسبق لشيء أن نافس الساحل كمكان للغموض والسحر[55].

الحدود الأرضية الأطلنطية

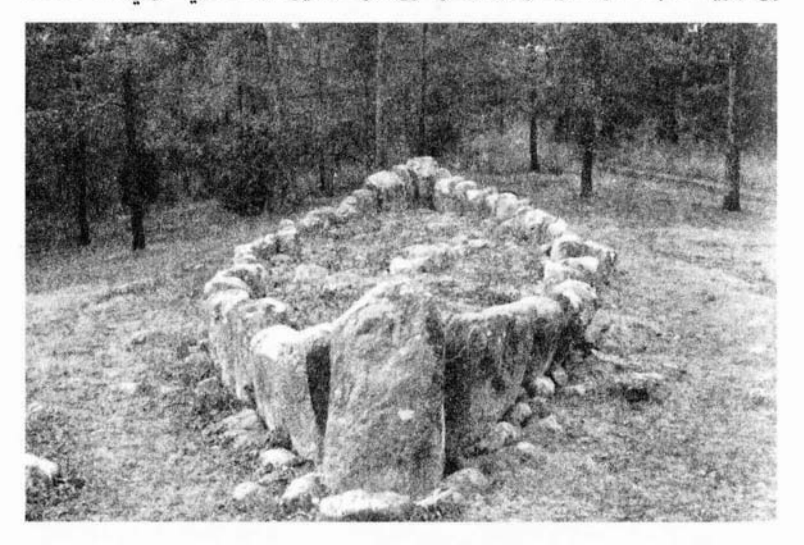
بكل تأكيد، وسعت السواحل الطريق، ليس فقط للتجارة والتطور الثقافي، ولكن كذلك للغزو والاسـتيلاء. كان الأوروبيون يحصنون ألسنتهم الأرضية الممتدة في البحر عـلى مدى قرون، بيد أن سـواحلهم بقيـت مخترقة، من دون حـدود دفاعية. كان المغـيرون والقراصنـة موجودين على مـدى ألف عام، ولكـن لا شيء ضاهى القوى الدخيلة لإسـكندنافيي القرن الثامن القدماء، والتي ربما كانت أحد أكثر المجتمعات السـاحلية الأوروبية القديمة نجاحا، والتي اسـتمرت في عمليـة التطور منذ اللحظة التي وصل فيها الصيادون الرحل إلى إسـكندنافيا. منذ البداية، كان الإسـكندنافيون

شـعبا برمائيا، وكانوا يشـعرون بأنهم في موطنهم الطبيعي في الماء كما على اليابسة، فحتـى القرنين الثالث عشر والرابع عـشر، كان موطنهم هو منطقة بلا طرق، حيث تتنقل الأشـياء جميعها عبر الماء، وحيث الرمـز الرئيسي لديهم هو القارب، والذي لم ينقل الأحياء فقط لكنه كان يوصل الموتى كذلك إلى العالم الآخر. بنى الإسكندنافيون البيوت والكنائس على شكل السفن، وكانوا يودعون موتاهم في أوعية تدفن في مقابر السفن الشهيرة، والتي لاتزال تميز المنظر الطبيعي الإسكندنافي عن أي منظر آخر. فما أسـمته جونيلا لارسون بثقافة «بحرية» قد امتد عميقا على اليابسة، إلى حيث تأخذ الأنهار القوارب السـابحة في التيارات الضحلة. استمر ذلك حتى القرن الثالث عشر، وذلك عندما تم تطبيق النظام الإقطاعي على المنطقة، حيث انتقلت القوى من الماء إلى اليابسة، وحيث «استُبدل بالقارب كرمز رئيسي الفارس على الحصان»[56].

كان لارسـوم محقا في إشـارته إلى أن الثقافة البحرية قد انتشرت بشكل أعمق على اليابسـة في تلك المنطقة عن أي مكان آخر في شـمال غرب أوروبا. ومع ذلك، فإن أفضل وصف للإسـكندنافيين هو أنهم ساحليون عوضا عن شعب بحري، حيث إنهم بقوا مرتبطين جدا باليابسة، وحتى عندما كانوا ينطلقون متجولين في الماء. بكل تأكيد، كان الإسـكندنافيون بحارة رائعين، بيد أنهم، ومثل كل البحارة القدماء، كانوا مسـتقرين بشكل كبير، حيث طوروا أنماطهم الخاصة في الزراعة وتربية الحيوانات. كوثنيـين، اعتبر هؤلاء السـاحل عتبة، مكانـا لتقديم القرابين لآلهـة البحر ولإقامة الشعائر، وذلك لتمكين سفنهم من المرور من عالم اليابسة المألوف إلى محيط البحر الخطر، وهي الشـعائر التـي كان يتم تكرارها خلال مراسـم الجنائز، وذلك عندما كانت السفينة توفر وسيلة نقل بين عالم الأحياء وعالم الموتى[57].

وحتـى أزاحهـم الضغط السـكاني من على سـواحلهم في القـرن الثامن، بقي الإسكندنافيون بحارة مزارعين، معروفين بمهاراتهم التجارية بشكل أكبر من براعتهم القتاليـة. في مناطـق مثل جزيرة غوتلند في غرب البلطيقـي، كانت المزارع تمتد إلى السـاحل، حيث كان سـكانها يتنقلون بسهولة بين صيد السـمك والزراعة. لاحقا، وعندما أصبح صيد السـمك على السـاحل النرويجي نشـاطا تجاريا بشـكل أكبر، أصبح هناك تقسـيم أكبر للعمل، بيد أن أحدا لم يتحر الحق المفترض لكل الشعوب بالتصرف على أنهم صيادون رحل بحريون أبدا في إسكندنافيا[58].

وحتى عندما أطلق الإسكندنافيون أنفسهم بعيدا عن موطنهم، أبحر هؤلاء، كما فعل البولينيسيون، حاملين معهم البذور والحيوانات الضرورية لإعادة خلق وجود زراعي قادر على الاستمرار. من هذا المنطلق، كانوا كأنهم فينيقيو الشمال، متنقلين من ساحل إلى ساحل، ومن جزيرة إلى جزيرة، معيدين إنتاج ثقافتهم حيثما حلوا. تحرك الإسكندنافيون شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، مستخدمين الأنظمة النهرية للمنطقة التي هي روسيا الآن، وصولا إلى البوسفور، وذلك بينما هم يكتسحون الجزر البريطانية، ويتحكمون في سواحل فرنسا، قبل الدخول إلى المتوسط. بحلول القرن التاسع مد هؤلاء مداهم عميقا في البحر الشمالي بحد ذاته، مستعمرين جزر فارو في سنة 800، وصولا إلى آيسلندا في خلال سنة 870. غالبا، سبقهم الرهبان الإيرلنديون ببضع سنوات، بيد أن هؤلاء لم يكونوا ندا للفايكنغ أو للقراصنة الإسكندنافيين الوثنيين، والذين سينتقلون إلى جرينلاند بعد قرن من الزمان، وصولا إلى سواحل نيوفاوندلاند في حوالي سنة 1000.



مقبرة سفينية في جيلفار، بوجا، غوتلاند. الصورة لأو رونستروم

توازي الإنجازات الملاحية للإسكندنافيين تلك التي لمغامري المحيط الهادي، والذين كانوا يستكملون استيطانهم لأوقيانوسيا النائية تقريبا في الوقت ذاته الذي كان فيه الفايكنغ يبتعدون عن سواحلهم الأصلية. ولكن سيكون من الخطأ التفكير في هؤلاء الفايكنغ على أنهم أي شيء غير حضارة برمائية شاطئية استثنائية عازمة على استكشاف

سواحل وجزر بحر الشمال. في الكوسمولوجيا الإسكندنافية، كان العالم مكونا من دائرتين متحدتي المركز. كانت الداخلية Midgadr مناسبة للبشر، بينما كانت الخارجية Utgadr تخص الوحوش. يفصل بين الدائرتين Oceanus(*) أو المحيط، والمعروف باسم Uthaf أو أوثاف، والــذي جعلوا موقعه في الغرب، وذلك بعدما اعتقدوه بحرا داخليا ضخما يمتد من سواحل إسكندنافيا وصولا إلى ما نعتبره اليوم سواحل وجزر أمريكا الشمالية[59].

إن النســخة الإسكندنافية لما يعرف باسم Mare Nostrum أو بحرنا، في إشارة إلى البحر المتوســط، احتوت ليس فقط على الجزر البريطانية، ولكن كذلك على جزر فارو وآيسلندا. لقد بدا أنهم تخيلوا هذا البحر على أنه محدد في الشمال بما أسموه «الساحل الذهبي»، وهو امتداد للســاحل النرويجي الذي كان يعتقد أنه يصل إلى جرينلاند، وفي الجنوب بامتداد شــمالي لأفريقيا، والذي كان يدعى فينلاند Vinland. في الغرب كانت هناك هيللاند، والمحــدد موقعها تقريبا حيث نحدد اليوم مكان جزر بافن، وماركلاند، حيث يجب أن تكون لبرادور، وحيث أرض سكرالينج وفنلندا تحتل موقع نيوفاوندلاند. وبينما نحن لا نملك أي نصوص أو خرائط من زمن الفايكنغ بحد ذاتهم، فإن مخطوطة لاحقة ستعبر عما قد يكون فهمهم المعاصر: «في جنوب جرينلاند تقع هيلولاند وبعدها ماركلاند، ومن هناك ليســت المســافة ببعيدة إلى فاينلاند، والــذي يعتقد البعض أنها توصل إلى أفريقيا». إن خريطة ســكالهولت التي رسمها الأسقف ثوردو ثوركاكسون في 1570 تبين بوضوح منطقة مائية مغلقة، بحرا متوسطا إسكندنافيا[60].

ليس هناك من دلالة على أن ليف أريكسون ومرافقيه قد فهموا أنهم عبروا المحيط أو اكتشفوا عالما جديدا[61]. كان الإسكندنافيون ببساطة يتحكمون في بحر داخلي، حيث ينشطون على الســواحل ويتنقلون بين الجزر على طريقة البحارة القدماء في كل مكان. إن ما نجحوا في فعله كان قد تم مسبقا في المحيطين الهندي والهادي: تطويق جسم مائي ذهنيا، مروضين فراغه المرعب الرهيب، وذلك عن طريق منحه سواحل محيطة به خياليا وملئه بالجزر. لقد قاموا برحلات أطول من تلك التي حاول الأوروبيون القيام بها قبلهم، لكنها لا تختلف في نوعيتها عن تلك التي أنجزتها شعوب ساحلية قديمة أخرى[62].

ستمر خمسمائة سنة أخرى قبل أن يصبح الأوروبيون مستعدين للقيام برحلات عــبر المحيطات كتلك. وكما تبين، كانت رحــلات الفايكنغ نوعا من الفترات الفاصلة والتي لم يكن لها شبيه خلال أواخر العصور الوسطى، حيث إن الأطلنطي استمر في

(*) رمز مقدس عند قدماء الإغريق والرومان، يمثل المحيط أو يشير إليه. [المترجمة].

كونــه عائقا ذهنيا، وكذلك طبيعيا مرعبا. أصبح الأوروبيون أكثر راحة كونهم بحارة، بيد أنهم لم يظهروا أي رغبة في أن يصبحوا من جائبي المحيطات. استمرت خريطتهم للعالم mappaemundi في إظهار موقعهم على أنه على جزيرة أرضية مطوقة ببحر شاســع، والذي فقد تدريجيا صفات النهر الغاضب المتعذر اجتيازه. في خلال أواخر العصور الوســطى امتلأ الفراغ الذي كان يمثل الأطلنطي تدريجيا بجزر أســطورية. ولكن تلك الجزر بقيت بعيدة المنال كما كانت أيام بندار.



خريطة سكالهولت للأسقف ثوردو ثوركاكسون، 1670.

الصورة مأخوذة من ويكيبيديا كومونز.

عندما كان شرق المتوسط مغلقا بالنسبة إليهم في القرن الرابع عشر، قاطعا عليهم التجارة مع الشرق الأقصى عن طريق المحيط الهندي، بدأ الأوروبيون في استكشاف إمكانات أخرى، تشمل قطع الساحل حول أفريقيا. في خلال رحلاتهم الاستكشافية على طول غرب أفريقيا، اكتشف البرتغاليون بمحض المصادفة جزر الأطلنطي القريبة لماديرا والكناري، بيد أن ذلك كان، مرة أخرى، امتدادا لتحرك ساحلي قديم، وتنقلا بين الجزر، عوضا عن كونه تجربة جديدة في المغامرات البحرية. بعدها أتت الرحلات الاستثنائية لكولومبوس، والاكتشاف غير المقصود للعالم الجديد، والذي سينفي أخيرا وتماما فكرة أن المحيط يطوق Orbis Terrarum أو العالم، مثبتا لأول وآخر مرة وجود المحيطين الأطلنطي والهادي، وبادئا عصر السفر عبر المحيطات. غير أن أوروبا استمرت في كونها حضارة شاطئية وليست محيطية. وكما سنرى، جلب المستكشفون الأوروبيون عقلية ساحلية للعالم الجديد، حيث قابلوا شعوبا ساحلية أخرى كانوا، في جوانب عديدة، يشبهونهم أكثر مما يختلفون عنهم. في أغلب الجوانب، كانت حضارة الساحل الحديثة الأولى هي استمرارية للنشاط الساحلي القديم، وقد امتدت الآن بشكل عنيف حول حافة الأطلنطي والهادي عن طريق إمبراطوريات بحرية أوروبية في الشمال الغربي أكثر ديناميكية وقوة من أي شيء آخر عرفه العالم مسبقا.

3

الجبهات البحرية للأطلنطي لبدايات العصر الحديث

النهــر في داخلنا، البحر هو كل
شيء عنــا، البحر هــو حافة الأرض
كذلك...

تي. اس. إليوت، «النقائذ الجافة»[1]

«عـلى مصائـد السـمك المرتحلـة، تتعلق الأفكار دوما بالعودة»

كان الصيــادون الرحل لايزالــون يجمعون النباتــات والعلف عندما بــدأت المرحلة التالية من التاريخ الساحلي للأطلنطي الشمالي، مرحلة قطع المحيطات، في نهايات القرن الخامس عشر. يؤكــد التاريــخ التقليدي التغيير على حســاب الاســتمرارية. نحــن نســمع دومــا أن رحلات كولومبــوس قد افتتحت عــصرا جديدا، بيد أنه في الواقع اســتمرت معظم الأنشطة البحرية في الاعتماد على الإبحــار على طول البحر بدلا من عبور البحار المكتشــفة حديثا. تتابع استكشاف العــالم الجديد جزيرة بعد جزيرة، شــبه جزيرة بعد شــبه جزيرة، مســتخدمين سفنا لا تختلف

كثيرا عن تلك المستخدمة ألف سنة ماضية. وكما سنرى، فإن أنشطة صيد السمك في بداية العصر الحديث كانت ثمرة للأنشطة السابقة في العصور الوسطى، التبادل التجاري عبر المحيطات كان امتدادا للتجارة الساحلية، كما أن الممارسات الإمبراطورية للإمبراطوريات الأوروبية في بدايات العصر الحديث تبدو مشابهة كثيرا لتلك التي كانت للإمبراطوريات البحرية في العصور القديمة والوسطى.

متى ما استطاعوا، كان البحارة في أوائل العصر الحديث يفضلون الإبحار حول المحيطات بدلا من عبورها. لقد كانوا يبحرون على طريقة costteggiare أو على طريقة الالتفاف، حيث يلتفون محتضنين الساحل بأكبر قدر ممكن. كان ما يشجع مغامراتهم النادرة بعيدا عن الساحل هو الاعتقاد الخاطئ بأن البحر كان ممتلئا بالجزر، مما يوفر مرورا قصيرا وآمنا لهم. عندما تخبط كولومبوس وصولا إلى العالم الجديد، فشل هو في رؤية أن أراضي هذا العالم لم تكن أرخبيلا آخر، يمكن عبوره بسهولة عبر المياه، لكن في الواقع كتلة أرضية لا يمكن عبورها. سيمر وقت طويل جدا، تقريبا ثلاثمائة سنة، قبل أن يعي الأوروبيون المساحة الكاملة للطابع القاري للأمريكتين وقبل أن يستوعبوا حقيقة أنهم لربما يحتاجون إلى التخلي عن أساليب الإمبراطوريات التي نشأت بحريا من أجل تلك الدول الأرضية. في خلال ذلك الوقت، صنع هؤلاء نوعا جديدا من الحضارة الساحلية، حضارة امتدت حول حافة شمال الأطلنطي، والتي سكنتها شعوب ساحلية كانت لديهم صفات مشتركة بعضهم مع بعض أكثر مما كان لهم مع جيرانهم في الأراضي الداخلية النائية[2].

إخوة البحار، «أرواح الحافة» Souls of the Edge

إن الخوف المبرر من الأضرار التي يسببها البحر قد دفع بالأوروبيين الشماليين إلى العيش بخفة على حافتهم من الأطلنطي. تعتبر السواحل أكثر العوامل الجغرافية غموضا وتقلبا. فمنذ زمن الأمواج المتقلبة العظيمة في نهاية آخر عصر جليدي، ارتفع البحر دوريا، بداية في مقتبل العصر الروماني ولاحقا مرتين خلال العصور الوسطى. خلال ثاني الفترات العديدة لارتفاع المياه خلال العصور الوسطى ما بين 1099 و 1570، أغرقت ثورات العواصف 286 مدينة وقرية في حوض بحر الشمال. لربما أفضل المدن المعروفة بتلك الحوادث هي دنويك على الساحل الأنجليني

Anglian شرق إنجلترا، كانت دنويك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميناء رئيسيا بتعداد ثلاثة آلاف من الناس، واشتهرت بتجارة الصوف وبكنائسها الثماني. ثم، بداية بعاصفة عظيمة في 1286، دمر ميناء المدينة حيث فقدت أحياء كاملة في البحر. بعدها ثارت عاصفتان تاليتان، واحدة في 1328 وأخرى في 1347، واللتان دمرتا التأثير التجاري لدنويك ولكن لم تمرا ميزاتها السياسية. وإلى أن جرى إبطال هذه الميزات بقانون الإصلاح لسنة 1832، كانت المدينة ذات شهرة لاذعة كونها «إدارة فاسدة»، حيث أرسلت عضوين من برلمانها إلى ويستمنستر. اليوم دنويك هي قرية بتعداد ثلاثمائة من البشر، والذين لايزالون يخسرون في مواجهة بحر الشمال. في كل مكان خلال العصور الوسطى كانت العواصف تحصد الأرواح كما كانت تحصد الأراضي. في الحادثة التي يسميها الهولنديون Grote Mandrenke، وهي حادثة الغرق العظيم في 1362، جُرف ما بين أحد عشر ألفا وثلاثين ألف إنسان[3].

لم تكن هي المياه وحدها التي أغرقت الأرض، حيث إن العاصفة الرملية التي وقعت في حدود 2500 ق.م. لربما تكون قد تسببت في هجر القرية الأوركيدية الرائعة للعصر الحجري الحديث والواقعة على سفح سكارا على حافة خليج سكيل، وذلك بعد ما يزيد على ستمائة سنة من الاستيطان. في شمال يوتلاند، بالقرب من مدينة المصيف الدنماركية سكاغين، توجد مدينة بها كنيسة، والمعروفة محليا باسم الكنيسة المدفونة، قد بنيت، بشكل غير متوقع، فوق المرتفعات الرملية. بنيت هذه المدينة في نحو 1400 لكنها هُجرت في 1591، وذلك عندما تسبب مزيج من عملية إزالة الغابات والرعي الجائر، واللذان تزامنا مع رياح عنيفة، في غمر سكاغين القديمة بالرمال. لقد عانت القرية الأسكتلندية كولبن المصير نفسه عندما مارس صناع الأسطح القشية الحصاد الجائر لقصب الرمال والذي كان يدعم التلال المحلية في أماكنها. في أواخر سنوات 1840 كان لا بد من الحفر لاستخراج كنيسة على ساحل كورنيش بعد هبوب عاصفة. من هولندا حتى سواحل البلطيق، العديد من القرى ترقد أسفل ما يبدو اليوم لمحبي الشمس وللسابحين على أنها مجرد طبيعة مسالمة تماما[4].

حتى عندما كانت السواحل تتمدد وتتقلص مع ارتفاع وانخفاض مناسيب مياه البحر، تأقلمت الشعوب الساحلية وذلك بالتحرك إلى داخل اليابسة وباتجاه الساحل. وجد الأوروبيون الشماليون أن التراجع عن البحر أسهل بكثير مما وجدته

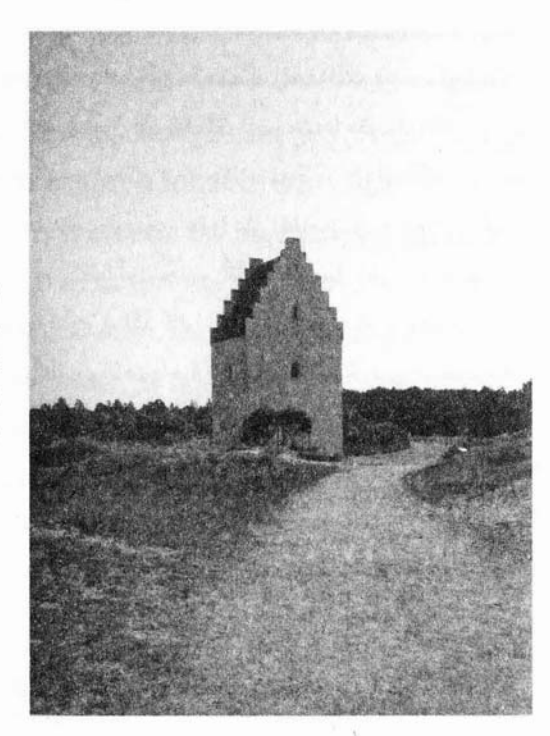
شـعوب البحر المتوسط كون هذا البحر محاطا بالجبال والصحارى. إن نقاط تحول الأمطار المتسـعة والمائلة برقة في شـمال غرب أوروبا قد وفـرت طرقا للوصول إلى مناطق داخلية شاسـعة والتي يمكن اجتيازها بقوارب رقيقة القاعدة حاملة تجارتها لمسـافات بعيـدة أعلى الأنهار وخلال البحيرات. لقد أحسـنت شـعوب المتوسـط اسـتغلال أرخبيلاتها، فيما كان للأوروبيين الشـماليين ميزة الأرض الرطبة المتسـعة المكونة من الأنهار والبحيرات. لقد زرع هؤلاء واصطادوا السـمك، بنوا المستعمرات ومراكز التجارة، بيد أنهم كانوا دوما مستعدين للانتقال عندما كانت تهددهم المياه.

كانت المياه هي حبل النجاة لجنس الحافة هذا. لقد تعلموا كيف يتكيفون مع الفيضانات السـاحلية والتي أنعشـت مروجهم، حيث وفرت ملاذا للطيور الباحثة عن الطعام وللأسـماك، كما جددت من مخـزون الطحالب التي اعتمد عليها الناس كوقـود. لقد جرى توثيق مدى الفيضانات في منطقة جنوب غرب إنجلترا والمعروفة باسـم مستويات سمرست، في أسـماء أماكنها الجافة، جزيرة آفالون (غلاستونبيري) وجزيرة آثيني، والتـي هي اليوم محاطة تماما بالأراضي غير أنها كانت غالبا محاطة بالمياه خلال العصور الوسـطى في الفينلاند الواقعة(*) على الساحل الشرقي، جزيرة إلى (جزيرة إيلز) كانت جزيرة فعلية حتى القرن السـابع عشر، وذلك عندما جفت الأراضي الرطبة أخيرا.

لقد وفرت المياه كذلك سبيلا إلى الداخل العميق، للتجارة، وعليه، سبيلا إلى ثراء غير متوافر على الساحل بحد ذاته. لقد اعتمدت الحياة على إبقاء الأنهار والممرات المائية مفتوحة، فعندما كانت تلك تسـد بالطمي، كان يجري بناء القنوات. كانت المدن غالبا دوما ما تقع على الأنهار أو مصبات الأنهار، وكثيرا ما تتكون على الجزر التي توفر سـبلا للمياه على كل جوانبها. وبينما كانت هذه المدن تكبر في حجمها، كان يجري حفر القنوات لتسـهيل الوصول إلى مراكز هذه المدن. كانت فينيسـيا، أمسـتردام وسـتوكهولم كلها أرخبيـلات بطبيعة تصميمها، حيـث ملئت بالقنوات بجهود سكانها. لقد جرب الجميع مخاطر الفيضانات بيد أنهم كذلك تقبلوا البحر، وهي الممارسـة التي سـتهملها مدن الموانئ اللاحقة ذات الاتصال الأقوى بالأراضي الداخلية النائية[5].

(*) Fenlands أو Fens: إقليم مستنقعات طبيعي شرقي إنجلترا، تعرضت أغلب بقاعه للجفاف. [المحرر].

لطالمـا كانت أفضل وسـائل الدفاع هي التراجع. فمنذ 500 ق.م، تعلم سـكان الأراضي المنخفضـة والمرتكزون على طول بحر الشـمال كيف يحافظون على جفاف مناطقهـم عن طريـق بناء التلال الصغيرة التي كانوا يسـمونها **terps** أو **wieden**. لقـد بدأ البنـاء الجاد للخنادق فقط في القرن الثالث عـشر، وذلك بوجود طواحين هوائية لتسـحب المياه القادمة بعد ذلك بمائتي سـنة. بالنسبة إلى هؤلاء البشر من القرن السـادس عشر والذين استقروا في ما يعرف اليوم باسم هولندا، كان يبدو أن البحر «لا ينام لا في الليل ولا في النهار، ولكنه يهجم بوحشية مثل أسد يلتهم الأرض بأكملها». غير أن جهود خندقة الأرض وتجفيفها من المياه كانت بالخطورة العظيمة نفسـها على الأرض كما هـي خطورة البحر في حد ذاته. إن إزالة المياه تسـببت في انكماش وانحسـار الأرض الخصبة، ما تسبب في مزيد من الفيضانات. وبينما تمدنت هولندا خـلال أواخر القرون الوسـطى، جرى تجفيـف الأراضي الرطبة الأقرب إلى المدن، مما تطلب مزيدا من الجهود الهرقلية لوضع البحر تحت السيطرة[6].



الكنيسة المغمورة، سكاغين، الدنمارك، هُجرت في 1775. الصورة من (ويكيبيديا).

انتشرت تكنولوجيا تصريف المياه تدريجيا في أرجاء أوروبا وأخيرا وصلت إلى العالم الجديد. لقد شكل الساحل الإنجليزي المقابل لهولندا أرضا رطبة أخرى، Fens أو أراضي مستنقعية، تلك التي سكنها الصيادون الرحل منذ العصر الحجري، والذين كانوا شعبا بحريا لا يرغب في أن تكون لديه أي علاقة بعمليات تصريف المياه التي كانت ستدمر بيئتهم الانتقالية الثمينة.

لقد اكتسب هؤلاء الناس سمعة كونهم «نمور المستنقعات»، حيث يقال إنهم كانوا يسيرون على ركائز طويلة بينما «يركزون تفكيرهم على رعي الماشية، وصيد السمك، وتربية الطيور الداجنة». كان هؤلاء مختلفين كثيرا عن الآخرين المعروفين بصفة رجال المناطق العليا والمزارعين الداخليين والذين كانوا يعتبرونهم «نوعا من البشر متوافقين مع طبيعة المكان الذي يقيمون فيه، وقحين، غير متحضرين، حقودين». كان أصحاب الأراضي المستأجرة absebtee landlords[*] ينظرون إلى الأراضي المغمورة على أنها «عديمة القيمة تماما» حيث كانوا يسرعون إلى تجفيفها. بحلول الثلاثينيات من القرن السابع عشر كان هؤلاء مستعدين لجلب مهندسين هولنديين لمساعدتهم فيما وُصِفَ بـ «المغامرات». في خلال عملية التصريف والتطويق هذه، هجّر هذا المشروع سكان هذه الأراضي المستنقعية، والذين كانوا يعتبرون المستنقعات أرضا مشاعا عظيمة، والتي كان لهم فيها حقوق استخدام بحكم مرور الوقت. اتجه هؤلاء المهجرون إلى المحاكم، غير أنهم كذلك في 1641 «تسلحوا، وبأسلوب فوضوي، عثروا على المغامرين، حطموا فتحات تصريف المياه، دمروا أراضيهم، أسقطوا أسيجتهم، أتلفوا محاصيل الذرة، هدموا بيوتهم، ثم وبالقوة استعادوا ملكية الأرض». لقد كانوا عدائيين خصوصا تجاه المهندسين الهولنديين، غير أنه يبدو واضحا من أغانيهم الاحتجاجية أن هؤلاء سكان الأراضي المنخفضة قد شعروا بأن نمط حياتهم بأكملها أصبح مهددا من قبل رجال الأراضي العليا[7].

تعالوا، يا إخوة البحر، ودعونا جميعا نحتشد.
لنتداول هذا الموضوع، الذي جعلنا نرتعش ونرتجف:
فكم سنتحسر، إذا ما حدث حقيقة أن سقطت الفينز Fens،
وحيث نعيش نحن على المستنقعات وعلى أعواد القصب، سيعيشون
هم على لحم العجل ولحم الخنزير.

(*) إشارة إلى أصحاب الأراضي الذين يؤجرون أملاكهم من دون أن يعيشوا عليها. [المترجمة].

لقد نهضت جماعات بأكملها ضد هؤلاء المطوقين، «حشـد من النساء والرجال، مسـلحين بالمناجل والمناسـف، قاذفين بكلـمات تهديد ضد أي شـخص يحاول أن يقودهم خارج مسـتنقعاتهم». وباسـم التطور الزراعـي، كان المغامرون في مهمة ترويض ليس فقط قوى الطبيعة ولكن ترويض هؤلاء السائرين على الركائز الطويلة أيضا، والذين اعتبروهم أفضل بقليل من البرابرة الوثنيين[8].

أنا أغني لكبت الفيضانات ولترويض المحيط
الأنهار الغنية مسيطر ومستحوذ عليها
المياه بضفافها أسيرة كأنها حبيسة سجن
حتى تسمح لها قنوات تصريف المياه الحنونة بأن تتحرر.

سيكون هناك تغيير في الرجال وفي مواقفهم،
قلوب جامدة وقاسية مثل قلوب الهايد Hydes، ستغذى على الندم
و«أرواح الحافة» ستعي الحوار،
أياد جديدة ستتعلم أن تعمل، وستنسى أن تسرق،
سيقان جديدة ستذهب إلى الكنيسة، وركب جديدة ستركع.

ليس من المستغرب أن يكون العديد من الفنلاندريين جمهوريين وذلك خلال الحرب الأهلية الإنجليزية. كانت للشعوب الساحلية ولزمن طويل سمعة على أنهم فوق قوانين الرب مثلما هم فوق قوانين البشر. وبعد مائة سنة لاحقة كانت المستنقعات لاتزال تعتبر من قبل الإصلاحي الزراعي العظيم آرثر يونغ «بلدا شـديد الوحشية [حتى] إنها ترعى جنسـا من الناس متوحشين كتوحش المستنقع، وهناك باتت أخلاق الجموع وصلاحهم مهددة ومدمرة بسـبب النقص في التطويق». حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت هذه الشـعوب الساحلية سيئة السمعة بسـبب جموحهم، ومجموعة «أرواح الحافة» كان لايزال يعتقد أنها خارج نطاق حيز الحضارات[9].

مواجهة الأطلنطي

في البداية، اعتمد الأوروبيون إستراتيجية دفاع عميقة لحماية أنفسهم من البحر ومن الأعـداء الذين قد يقدمون عـبر البحر. لقد عين الأوروبيـون موانئهم عميقا

على اليابسة، حيث مواقع المياه العذبة عوضا عن المياه المالحة. في أوائل العصور الوسطى، كانت أهم نقاط التبادل التجاري، entrepot، في السويد هي سيغتونا، الآن هي مدينة صغيرة مطوقة بالأراضي غرب أستوكهولم. بموقعها الداخلي على بحيرة مالارين، وفرت هذه المدينة منفذا لكل من بحر البلطيق وللداخل، ما جعلها مركزا ملكيا وتجاريا من 1000 إلى 1300. بعدها أفسحت المدينة المجال لاستوكهولم، وهي عبارة عن تجمع لجزر البلطيق والتي لم تكن مذكورة حتى في السجلات التاريخية إلى 1252. بحلول القرن الرابع عشر بدأت سمعة سيغتونا في الخفوت، حيث أصبحت على ما هي عليه اليوم، مدينة سياحية صغيرة من دون أهمية تجارية كبيرة. على رغم ذلك، استمر الربط بين الموانئ والمواقع النهرية العليا، وذلك حتى بداية العصر الحديث. في العالم الجديد كما القديم، تقع مبدئيا المواقع التجارية في أعلى الأنهار ضد التيار، عادة على fall line أو «خط الانحدار»، حيث تلتقي مقاطعات الأراضي المرتفعة بالسهول الساحلية. تحولت هذه إلى موانئ، بعضها مثل ألباني، نيويورك، وريتشموند في فيرجينيا تقع بعيدا أعلى الأنهار. التيارات المائية القوية والشلالات أعاقت حركة المرور في النهر لعدم إمكانية تجاوز هذه التيارات والشلالات غير أنها وفرت مواقع مثالية للطواحين والمشاريع الصناعية. في حالة نيو هامبشير، كانت مدن الطواحين على خط الانحدار مثل درهام وإكسيتر في البداية أكثر أهمية من بورتسموث الواقعة على البحر. في كاليفورنيا، تقع موانئ ساكرامينتو وستوكتون عميقا في الداخل، والتي هي بأهمية سان فرانسيسكو نفسها في الأيام الأولى لحمى الذهب.

إن الحركة باتجاه البحر كانت عملية طويلة ومعقدة، غير أننا نستطيع استبيان بدايتها في أواخر القرون الوسطى، عندما كانت نقاط التبادل التجاري في كل مكان تتجه ناحية الساحل نتيجة لملء الأنهار بالسدود والركائز، وعليه عَدَم قدرة المراكب العائمة الأكبر حجما على الوصول عميقا إلى الداخل. لقد تخلت كل من يورك ويبريس وغِنْت عن مكانتها كموانئ لتصبح مراكز تجارية مغلقة أرضيا. وكما رأينا، ارتبطت الأسواق ولفترات طويلة بالحواف وخصوصا بالسواحل، والتي كانت تعتبر أماكن محايدة حيث يمكن للتبادل التجاري أن يحدث بحرية. ومنذ القرن الثالث عشر فصاعدا نشأت في البداية تجارة شمالية تضليلية ليس في الموانئ ولكن على ساحل

فالســتربو، والتي هي اليوم جزء من المقاطعة الســويدية الجنوبية في سكانيا. وكونه جــزءا من مقاطعة الملك الدنماركي، كان هذا الشــاطئ مفتوحا للتجار الغرباء والذين كانوا يأتون في الربيع والخريف، حيث يرسون عبر الساحل ولكنهم ينشئون قرى مؤقتة تسمى fitten حيث يســتطيعون إدارة أعمالهم. في قمة شهرته، جذبت الكيلومترات السبعة من شاطئ فالستربو ممثلين عن 35 مدينة وشركة تجارية، بالإضافة إلى حشد من الممولين، الاســتعراضيين، والمومســات. خلال ذلك الوقت كانت فالســتربو، مثل مواقع الأسواق الأرضية، مكانا مهجورا، ليس بها سوى قرى لتشير إلى أهميتها بالنسبة إلى تجارة السمك العالمية[10].

مع مرور الوقت، تراجعت نقاط التبادل التجاري مثل ضفة فالســتربو لمصلحة مناطق التجارة الأكثر ديمومة. مبدئيا خارج أسوار المدن، أصبحت هذه المناطق مدنا موانئية ببنى تحتية دائمة، مرافئ عميقة محمية بحواجز للأمواج، خطوط ســاحلية ذات منشــآت خدماتية، مســتودعات، ومدن للبحارة. وحيــث إن الموانئ أصبحت تنســب إلى حافة البحر، أفسحت إســتراتيجية التراجع القديمة المجال لمصلحة وضع أحدث وأكثر جســارة، فقد بنيت موانئ جديدة وقُذفت المرافئ إلى الخارج. بحلول القرن السادس عشر لم تعد حافة أوروبا الأطلنطية نهاية العالم القديم بل بداية عالم جديد والذي بدأ يطوق الأطلنطي وما بعده[11].

ومــع ذلك، ظلت أوروبــا أكثر خوفا من البحر منها ســفرا فيه، فقد اســتمرت ساحلية بعناد شديد. في أواخر القرون الوسطى تكثفت التجارة الساحلية الأوروبية. وبالأســلوب نفسه، بدأ نشــاط الصيد، الذي كان حتى أواخر القرون الوسطى مهمة محصــورة في المياه العذبة كليــا تقريبا، يرتحل باتجاه الســاحل. مرة أخرى، عملت التغييرات في الأرض، خصوصا بناء الطواحين، والتي أتت مرفقة بعملية تثبيت الركائز الناتجة عن عملية إزالة الأشجار، وتلوث المياه الناتج عن مخلفات البشر والحيوانات، عملت هذه التغييرات على تغيير البيئة حتى إن الأوروبيين بدأوا في الابتعاد عن المياه العذبة واللجوء إلى المياه المالحة سعيا خلف مؤونة السمك الذي أصبح خلال القرون الوســطى جزءا رئيسيا من النظام الغذائي المطلوب من الكاثوليك الملتزمين دينيا. بدأ الســكان الذين كانوا يســتعيدون صحتهم بعد زيارة وباء الموت الأسود خلال القرن الرابع عــشر مجددا في انتهاك الأراضي الرطبة الســاحلية. حــارب الصيادون الرحل

الذين سكنوا هذه الأراضي الرطبة ألفية كاملة ضد عمليات التجفيف والتطويق، بيد أنهم أصبحوا يواجَهون بمؤسسات كنسية وملكية متزايدة القوى.

إن تـآكل حقـوق عامة الناس في الصيـد والجمع له تاريخ طويـل. فإلى تاريخ فتوحات النورمنديين في 1066، كان للشـعب الإنجليـزي منفذ لكل المياه المدية(*). عندمـا حـرم الملـوك النورمنديون الناس من ذلـك، حيث كانوا هـم من يقدمون تراخيـص للصياديـن، بدأ صراع قـاد إلى إلغاء امتيازات العـرش في الماجنا كارتا، أو الوثيقة العظمى، لسـنة 1215. وهكذا كان للشـعوب السـاحلية انتصارها، غير أن حقوقهم كانت محددة بالسـمك السـابح ولا تمتد إلى بقيـة القشريات. في القرون التالية، اسـتمر مـلاك الأراضي الأقوياء في التعدي على حقوق الاسـتخدام المتعارف عليها، متسببين في قيام مقاومة ثابتة من قبل شعوب السواحل والأنهار[12].

بحلول العام 1500 أصبحت السواحل والأراضي الداخلية متباينة بشكل حاد، ليس فقط اقتصاديا ولكن كذلك اجتماعيا وسياسيا. أصبح الداخل بحلول ذلك الوقت إقطاعيا تماما، تسـيطر عليه مملكات وأرسـتقراطيات مالكة للأراضي ذات قوى متزايدة، يحكم تجارتها تجار مدنيون متحمسـون لاحتكار التجارة التي كانت سابقا تحدث عن طريق الشعوب الساحلية من دون قيد أو ضريبة. لكن، وكما رفضت الأرض أن يبتلعها البحر، لم يستسـلم البحر بسـهولة للأرض. كان السـاحل مستقلا بشـكل كبير ليس فقط عن سـيطرة الأرسـتقراطيين والملكيين ولكن كذلك عن النقابات والمؤسسات المدنية. أصبح الأوروبيون الساحليون بحلول ذلك الوقت ما أسماه باري كنليف «أخوية عالمية»، والتي هي نتاج ألف سنة من النشاط الحر للتجارة والشعوب على طول الساحل. لقد قوبلت جهـود اللـوردات الداخليين لإعادة تعريـف التجارة الحرة على أنهـا تهريب، بمقاومة مـن مجموعـة «أرواح الحافة». لقد اسـتمروا في العمل من مرافـئ صغيرة وعادة ما تكون مؤقتة، حيث وُجد العديد منهم على جزر احتفظت بمكانتها خارج نطاق الدولة وباسـتقلالها. لقد جرى توصيف الساحل خلال أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة بشكل مسـتحق على أنه «منطقة للانتقال أو التحويل، جبهة «مفتوحة» على العالم العريض، منظمة ومسـيطر عليها بشـكل أقل بكثير من الإقطاعيات المملوكة أو المناطق المركزية للدولة العسكرية البيروقراطية[13]».

(*) Tidal waters: مياه فيها نشاط المد والجزر. [المترجمة].

الإمساك بالدفة والمحراث: صعود أول نموذج اقتصاد بحري

تتجـه نزعتنا الحالية إلى رسـم خـط حاد بين الأرض والبحر، غـير أن مثل هذا التمييز يشـوه الماضي بشـكل كلي، خاصة زمن بداية العـصر الحديث، عندما كان معظـم صيادي السـمك مزارعين حيث لهـم، كما يقول السـويديون «فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل». يقال إن الأوركيديانيين كانوا مزارعين يصيدون السمك، في حين أنه على جزر الشتلاند كان المزارعون معروفين بأنهم «صيادو سمك في أيديهم محراث». أصبح المزارعون الداخليون أصحاب سـوق ومتخصصين بشكل متزايد، غير أن هؤلاء المقيمين على الساحل خلطوا المواقع، فجمعوا بين صيد السمك وجمع النباتات والبسـتنة، مسـتغلين المدى المتكامل من المـوارد التي تقدمها بيئة الساحل الانتقالية. خلال العصور الوسطى شجع اللوردات الإقطاعيون مستأجريهم على مباشرة أنشـطة بحرية وذلك عن طريق المطالبة بالإيجار من السمك نفسه أو من النقود المحصلة من صيد السـمك. دفعت الكنيسة كذلك بملاك المزارع الصغيرة في اتجـاه البحر وذلك بمطالبتها بضريبة العشر من المصدر نفسـه. غير أن الفلاحين المعنيـين نادرا ما كانوا يعيشـون على السـاحل بحد ذاته، فقد كانـوا يأتون البحر موسـميا فقط. على السـواحل الجنوبية لديفون، احتفظوا بما كان يسمى «الأقبية» حيث كانوا يخزنون قواربهم ومعداتهم، مسـتمرين حتـى القرن الخامس عشر في العيـش عـلى الأراضي الداخلية، حيث كانوا يشـعرون بأنهـم في مأمن من كل من العواصف وأنشطة القراصنة[14].

حتـى أواخر العصور الوسـطى في إنجلـترا، «معظم صيد السـمك كان لايزال وبقوة في يد المزارعين الذين كانوا يصطادون بشـكل متقطع من دون تفرغ تام». شـارك النساء كما الرجال في سلسلة من الأنشطة التي كانت متغيرة بحسب الموسم والموقـع. أفضل مقارنة لهذا الاقتصاد المرن هي مع أول نموذج صناعي أرضي والذي ظهر في العصر نفسـه. في هذا الوقـت كانت الزراعة مدمجة مـع الحرفة وعملية إنتاج الموارد، التعدين، النسـج، الحدادة، الدباغـة، والتي جميعها كانت تحدث في إطار المسـاكن وليس المصانع، حيث عادة ما يشـترك كل أفراد العائلة فيها، النساء كما الرجال، الأطفال والبالغون. كان ما قد يسـمى **protomaritime economy** أو أول نموذج بحري للاقتصاد ينشأ حول حافة شمال الأطلنطي. ومثل تطور أول نموذج

صناعي، كان النموذج البحري شـــديد اللامركزية، حيث يحدث خارج المدن والموانئ الرئيسية، منظما عن طريق عامة الناس سعيا خلف حياة أفضل من تلك التي كانوا يحيونها كفلاحين يعملون في الأرض حصريا من دون غيرها[15].

كان الســاحل نوعا من الواجهات، أقل تنظيما من الداخل حيث يزود الناس بدرجات أعلى من الحرية لاستكشـــاف فرص جديدة. فإذا ما كان الساحل خلال عصور أقدم قد امتد عميقا على اليابســـة، فإنــه الآن يتجه ناحية البحر، مطوقا الجـــزر القريبة منــه. في القرن الخامس عـــشر بدأ البرتغاليون بـــإدارة ظهورهم للداخل الأيبيري، متجهين لاستكشـــاف ســـاحل أفريقيا وكذلـــك، من خلال هذه العملية، لاكتشـــاف، وعن طريق المصادفة جزر ماديريا والأزور. اســـتدار كذلك شـــعب الباسك، البريتون، والإنجليز باتجاه البحر، ليس بحثا عن جزر جديدة بل للعثور على مؤن جديدة من الســـمك للســـوق الأرضي المنتعش. من الملاحظ أنه لم يكـــن إغراء البحر كثيرا ولكن دفع اليابســـة الذي ابتـــدأ هذا التحول الجذري. مـــا كان آخذا في البزوغ لم يكن مجتمعا بحريا بقـــدر ما كان جنس حافة حيويا وخلاقا، وهو جنس كان على وشك أن يتخذ من كل أرجاء حافة شمال الأطلنطي موطنا له.

وبحلول أواخر العصور الوســـطى تركز الفلاحون الفقراء على طول الســـواحل. فالنمو الســـكاني في القرنين الســـادس عشر والسابع عشر طرد الكثيرين من الداخل. لاحقـــا، ســـيدفع التطويق والتصفيات بمزيـــد من هؤلاء إلى الانتقال إلى الســـواحل وإلى حيـــث أول نمـــوذج اقتصاد بحري. اســـتأجر الفقـــراء أو احتلـــوا أجزاء صغيرة مـــن الأراضي حيث كانوا من الذين لا يســـتطيعون توفير ســـبل العيش لأنفســـهم. في الأراضي الداخليـــة، اتجه الفقراء المســـتنزفون ملاك المزارع الصغيرة إلى أنشـــطة متعلقة بأول نموذج صناعي ليتمكنوا من الاســـتمرار في الحياة. على الســـاحل، اتجه الفقـــراء إلى البحر ليتمكنـــوا من إنعاش الأرض. ارتفعت أعـــداد هؤلاء كما تزايدت كثافة المســـتوطنات الســـاحلية، حيث حلت مجتمعات صيد السمك المقيمة محل المواقع المؤقتة القديمة، لكن ليس بالأســـلوب الذي يمكـــن أن نتخيله. هذه الكثافة العددية على الســـاحل لم تأت بالضرورة بهذا النوع من قرى صيد السمك المترابطة والتي تشـــكل إرثا للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقبل ذلك كان هناك نمط من

المســتوطنات الموزعة عشوائيا والذي كان مستمرا. على مواقع عديدة على الساحل الأطلنطــي «لا يوجد قرى. كل صياد يعيش في منزلــه منفصلا. فالحياة الجماعية لا تمتد لأبعد من العائلة»[16].

تــوزع صيادو الســمك المزارعون أفقيا على طول الســاحل، حيث تمركزوا حول قطع الأرض التي يســهل الوصول منها إلى القــوارب الصغيرة بدلا من التمركز حول الموانئ عميقة المياه والضرورية للســفن الأكثر ضخامة. لم تبرز القرية المتخصصة في صيد الســمك حتى القرن الثامن عشر، عندما بدأ التمييز بين صيد السمك والزراعة أخيرا وعندما انشــقت الأرض عن البحر. يجب فهم الموانئ القديمة على أنها أماكن «تغيــير، تقلبــات، وكل ما هو غــير متوقع، [حيث] إنها على نمط مــا بنيت عليه». لاحقا، برزت أســطورة قوم من صيادي السمك كشعب ذي جذور مميزة، كجزء من عرق، برزت لتعزل التاريخ الســابق لأول نموذج بحري لجنس الحافة والذي استغل كلا جانبي خط المد. إن أحد أفضل توصيفات مثل هذا الشعب تأتي إلينا من تقرير تمييزي متعال حول شــعب الثانيت، وهو مجتمع الثامسايد الواقع أسفل النهر من لندن، والذين وصفهم التقرير بأنهم «حيوانات برمائية، والذين يوفرون احتياجاتهم الحياتيــة مــن البحر والأرض . . . ماهرين في حمل كل مــن الدفة والمحراث، وذلك بحسب مواسم السنة»[17].

لقــد برزت أســطورة قــوم الصيادين المنعزلــين بالتزامن مع أســطورة البحارة المحترفــين، والتي هي نتاج بــروز توجه رومانسي تجاه البحر بدا ظاهرا خلال القرن الثامن عشر ولكن برز بكل قوته خلال القرن التاســع عشر. نحن نميل إلى أن نبالغ في تقدير نســبة البحارة المتفرغين في أوائل زمن العالم الحديث. فلطالما كان الإبحار عملا جانبيا، يتولاه الرجال موســميا (وأحيانا النساء) والذين كانوا مرتبطين بالأرض بقوة، وذلك كمرحلة من الحياة وليست كمسعى مستمر مدى الحياة. وعندما جرى تبنــي الصيد البحــري التجاري كعمل تفرغي كان هذا العمــل، بدافع من الحاجة، من نصيب أفقر الفقراء، الشــباب غير المتزوجين أو الذين لا يملكون أراضي، والذين ليســت لهم مزرعــة أو حرفة للاعتماد عليها والذين اعتمــدت قدرتهم على تكوين بيت أو أسرة خاصة بهم على قضاء ســنوات من الخدمة العازبة أو تحت عقد ملزم إما انتظارا لإرث ما وإما توفيرا لشراء مسكن وأرض من حوله[18].

لم يكـن هؤلاء الذين يصيدون السـمك مطلقا بجنس منفصـل ولكن كانوا طاقما متنوعـا، ليس بأي شـكل من الأشـكال متوافقا مـع القالب التقليـدي للبحار والذي اسـتحضره كتاب الرواية للقرن التاسـع عشر إلى الوجود. إنه خطأ في اسـتعادة الماضي عندمـا يجري وصف الصيادين بأنهم «تقليديون»، إمـا كونهم أقرب إلى الطبيعة وإما بقية باقية من ثقافة قديمة، ففي الواقع، المجتمعات السـاحلية كانت أكثر حيوية من الكثير من جيرانها سكان الأراضي الداخلية. إن أقوام الصيادين، وهم أبعد ما يكونون عن كونهم تقليديين في عاداتهم ونظرتهم إلى الحياة، كانوا نتاج تغييرات على الأرض والتي لم تعط للمحرومين من ملاك المزارع الصغيرة اختيارا سـوى «إما صيد السمك وإما الموت جوعـا». لاحقا، راقت الصورة المريحة لقرية الصيد الناشـئة كنقطة ثابتة في عالم متغير باسـتمرار لأوروبيي وأمريكيي القرن التاسـع عشر والذين كانوا يمرون بتجربة التمدن والتصنيع الموجعتين، غير أن الأسـطورة أخفت حقيقة أن تكاثر قرى صيد السـمك كان يوعز بشـكل كبير إلى المجموعة نفسـها من المتغيرات التي كانت تخلق حاجة ضخمة إلى السـمك بين أقوام المدن. تعمقا في القرن التاسع عشر، ستبقى كامل الحافة لشمال الأطلنطـي أول نموذج بحري، عالم متشرذم من المجتمعات السـاحلية الصغيرة المنعزلة (outports) والتي سيبقى لسكانها فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل[19].

سوق السمك المتجول

ما الذي تسبب إذن في إبعاد الأوروبيين عن الساحل من دون إزالتهم تماما من الأراضي الداخليـة؟ المفارقة أن ما كان يحدث ليس في البحر بل على الأرض، تحديدا الكارثـة البيئية، هي التي غـيّرت العلاقة بين الأرض والماء خلال العصور الوسـطى المتقدمـة، بداية على الأرض ومن ثم على السـواحل في حد ذاتها. في بداية العصور الوسـطى كان الداخل الأوروبي لايزال مثقلا بالغابات، حيث جداولها «كانت تجري صافية، منعشة، ومستقرة». وعلى ما يبدو كان هناك سمك مياه عذبة كاف ليشبع الاحتياجات المعيشية وحتى لتحمل القليل من الصيد الترفيهي. وفرت ضفاف الأنهار وسواحل البحيرات حواف استثنائية الخصوبة. عندما سأل رئيس دير إنجليزي صياد سمك محليا لمَ كلف نفسه الصيد في البحر، أجاب الأخير: «أحيانا أفعل، ولكن نادرا، لأنني أحتاج إلى الكثير من التجديف للوصول إلى البحر»[20].

لقد كانت البداية في القرن العاشر أن تسبب النمو السكاني في التصحر الشديد. كانـت الأراضي الزراعية أقل قـدرة على تحمل تدفق الأمطـار، ما أدى إلى حدوث فيضانـات محلية وعملية تعريـة للأرض. بدأت الأنهار تمتلئ بالطمي والرواسـب، فَبطأت حركتها وأصبحت أكثر دفئا. تأثر سـمك السـلمون بشـكل خاص. في بعض الحالات، سُـدت منافـذ البحر، ما أعـاق دورات التبويض للسـمك المهاجر للمياه العذبة. وما كان أشـد ضررا هو السدود التي تناثرت على المجاري المائية الأوروبية والتي وضعها ملاك الطواحين والمشـاريع الصناعية الصغيرة وذلك لاستغلال الطاقة المائية. كان التهديد لدورات تبويض سـمك السلمون في أسكتلندا في غاية الخطورة لدرجة أن صدر تشريع في 1214 يأمر بفتح السـدود دوريا للسماح للسمك بالمرور. يمكـن العثور على عديد من التشريعات المماثلة في جميع أنحاء أوروبا، حيث تزايد القلـق تجاه انخفاض معدل الصيـد في الأراضي الداخلية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وبينما أصبح الداخل الأوروبي أكثر تمدنا، شكل التلوث، بسبب النفايات البشرية ونشـاطات مثل الدباغة والصباغة، مخاطر إضافية بالنسبة إلى عملية صيد السـمك، ليس فقط من أجل الاحتياجات المعيشية ولكن كذلك من أجل نمو سوق السمك التجاري في المدن الكبرى[21].

حتى القـرن الحادي عشر، لم يبدأ الصيـادون الأوروبيون حتى في مس مصادر البحر، ما عدا تلك التي لاحتياجاتهم المعيشية على الساحل ذاته. لكن الآن انخفاض مخزون سـمك المياه الداخليـة مضافا إلى ذلك ارتفاع حاجة المدن إلى السـمك قد غـير كل ذلك. فمـع الوصول إلى ذروة القرون الوسـطى، كان منع الكنيسـة لأكل اللحم والسـمك الطازج خلال أيام معينة، أيام الجمعة، أيام القديسـين، والأربعين يوما للصوم الكبير، يعني أنه كان يجري اسـتبدال اللحم والسـمك الطازج بالسمك المجفـف لمدة تتراوح بين 130 و 150 يوما في السـنة. وبينـما أصبحت أوروبا أكثر غنى وأكثر تجارية، أصبح الناس أكثر اعتيادا على أكل السـمك. كانت النتيجة ظهور أسواق السمك في المدينة، والتي لم يعد من الممكن تغطية احتياجاتها من صيد المياه العذبة. تكونت أشكال جديدة من الزراعة المائية حول برك الأسماك الممتلئة بسمك المياه الدافئة مثل سمك الشبوط عجزت بدورها عن تغطية الطلب المتزايد. عندها، ولأول مرة، طور الأوروبيون فكرة صيد السمك البحري التجاري، وذلك بدءا من أمام

الساحل النرويجي حيث جرى اختراع عملية تجفيف سمك القد على جزر لوفوتن. من هنا فلاحقا، أصبح سمك القد ما أسماه مارك كورلانسكي «تقريبا رمزا دينيا»[22].

في القرن الحادي عشر، أصبحت مدينة برغن مركزا لتجارة القد المجفف، حيث كانت تزود معظم مناطق شمال أوروبا وإنجلترا. حطم التحالف الهانسيتي[*] احتكار مدينة برغن بعد ذلك بقرنين لكنه فشل في منع الإنجليز من صيد السمك عبر سواحلهم. فمن الموانئ على ساحلهم الشمالي الشرقي، تحدى الإنجليز النرويجيون والهولنديون في بحر الشمال، مطلقين سلسلة من حروب سمك القد انطلاقا من أيسلندا ومناطق أخرى. تسببت هذه المنافسة بشأن مخزون سمك القد القريب من الشاطئ والآخذ في التناقص، في الدفع بصيادي السمك الأوروبيين الشماليين، والذين كانوا سابقا ساحليين بشكل كبير وذوي تجربة محدودة في أعماق البحار، أبعد وأبعد عن الساحل. بدأ الصيادون المقيمون على السواحل الشمالية لإنجلترا وأسكتلندا بالتنقيب في شمال الأطلنطي عن مساحات سمكية جديدة. سرعان ما واجه هؤلاء منافسة من الهولنديين وكذلك من الإسكندنافيين، حيث انضم الأسطول الباسكي المرعب إلى هؤلاء من سنة 1540 فصاعدا[23].

بحلول نهاية القرن الخامس عشر، كانت القوارب بريستول تبحث عن السمك على مسافات أعمق باتجاه الغرب، وذلك ليس بهدف الاستكشاف أو الاستعمار بل كجزء من مشروع يدور حول فكرة السوق والذي أصبحت له الآن ديناميكية خاصة به. في العام 1497، استطاع جون كابوت أن يبلغ تجار بريستول بأنه شاهد ما أسماه New Found Land أو «الأرض المكتشفة حديثا». لم تكن الأرض في حد ذاتها بل السمك في البحر حولها هو ما أثار الأوروبيين بدرجة أكبر وسيستمر في إثارتهم على مدى القرنين التاليين. عندما شاهد ابن كابوت، سيباستيان، لابرادور في العام 1508، أطلق عليها اسم Baccallaos أو باكالوس، حيث «وجد هو في البحر المجاور كميات عظيمة من نوع معين من السمك الكبير بالأطنان، يسميه المستوطنون باكالوس، حتى إنه أحيانا كان يسد الطريق على سفنه». ولمرة أخرى، عرف البحر اليابسة لهؤلاء الذين كانوا يعرفون كيف يعيشون على الاثنين بأسلوب جنس الحافة[24].

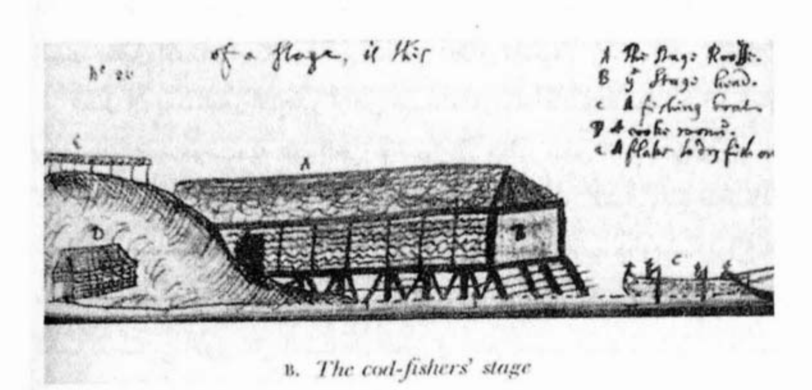
(*) Hanseatic League: نقابة كونفيدرالية للتجار. [المترجمة].

شــكل شمال الأطلنطي ما أسماه جيفري بولستر one great bioregion أو منطقة بيولوجيــة عظيمة موحدة. إن تشــابه المياه البــاردة، والظــروف الغذائية، والأجناس الســمكية حول حافته ســهلت على الأوروبيين تطبيق الأساليب التي تعلموها من على ســواحلهم هم على بحار الشمال والغرب. كان صيد الســمك الأوروبي في بداية العصر الحديث هو صيد مهاجر، له طبيعة موســمية، يختلف عن ممارسات الصيادين الرحل القديمة فقط في النطاق المتسع للتحركات التي يقومون بها. كانت مسارات الهجرة التي امتــدت في زمــن ما لعشرات أو على أكثر تقدير لمئات الأميــال، قد امتدت الآن للآلاف منها. ولقد أصبح الزمن بعيدا عن الوطن، والذي كان يقاس بالأسابيع في زمن ما، أصبح الآن يقاس بالشهور، ولاحقا، في حالات صيد الحيات، بالسنوات. بيد أن عقلية الصيادين الرحــل لهذا الزمن اللاحق كانت مشــابهة لتلك التي لجنس الحافة في العصور المبكرة. كان هــؤلاء يعملون في المجموعات الصغيرة نفســها، حيث كانوا يقاومون الانتظام مع أي مجموعات خارجية، ومســتمرين في كونهم حاكمين لأنفســهم بشكل كبير. كونهم متناغمــين مع حركة البحر وأحيائه، دوما على اســتعداد لتتبع الطرائد حيثما تقودهم، كان الصيادون المرتحلون يعملون على أســاس مبدأ أن البحر مفتوح للجمِيع. بالنســبة إليهم، حقوق الاستخدام كانت تعني أكثر من حقوق الملكية[25].

قبــل أن يســتعمر الإنجليز أراضي شــمال أمريكا، أســس هــؤلاء لمراكز تجارة ومخيمات صيد موســمية على الجزر والسواحل. تغادر سفن الصيد موانئ ويست كنتري في الربيع مسرعة الى أكثر الموانئ جاذبية على الساحل الشرقي لنيوفاوندلاند، حيث أول قبطان يصل سيكون هو «الأدميرال» المميز لهذا الموسم، وحيث يوزع هو ما كان يسمى «غرف» صيد السمك، ويسوي الخلافات بين أطقم الملاحة المتنافسة. كانت الأســابيع الأولى على الســاحل تقضى في صنع رصيف الميناء، ملاجئ خشــبية خشــنة المعيشــة، والمنصات حيث يجفف عليها ســمك القد. بعدها، يأخذ معظم الرجال القوارب الصغيرة لاصطياد ســمك القد بطريقة handline أو بالخيط المفرد فيما يبقى البقية على الســاحل «ليصنعوا السمك»، حيث يفتحونه، ويعالجونه، ثم يجففــون الصيد. بحلول القرن الثامن عــشر كان بعض الرجال يتركون خلفا ليحموا الغرف خلال الشــتاء، بيد أن المســتوطنات الدائمة لم تكن محبذة، ولم يحدث إلا في 1824 أن بدأ الناس بتمييز حقوق الملكية في المجال البحري[26].

تناوشــت جماعة «أرواح الحافــة» حول الموارد بيد أنهم أظهــروا درجة رائعة مــن التعاون في مواجهة صيادين رحل آخرين على الســواحل البعيدة. وبانتخابهم «أدميرال» ليشرف على ميناء كل صيف، كان صيادو الســمك الأوروبيون المرتحلون القادمون من أماكن مختلفة يســوون خلافاتهم من دون تدخل القوى الملكية. قام لويس روبرتس بتوصيف المشهد في العام 1638[27].

> خمســمائة ســفينة كبيرة وصغيرة كانت تبحر من إنجلترا سنويا إلى هذا الســاحل... حيــث تصل هنــاك في حدود منتصف أبريل، يرســون ســفنهم، ويقيمون أكشاكهم وكبائنهم على الساحل في خلجان وموانئ مختلفة، وهناك بوجــود مؤن الصيــد والملح، يبدأ هــؤلاء الصيد من على قواربهم وســفنهم، مســتمرين في ذلك إلى سبتمبر... وبانتهاء موســم الصيد هذا ومع بداية الجو البارد، يغادر هؤلاء مراكزهم وقواربهم، يصعدون سفنهم، يحملون أسماكهم، ينشرون أشرعة مراكبهم، ثم يعودون إلى مواطنهم الأصلية، حيث يقضي هؤلاء الصيادون الشــتاء ثم يصبحــون مزارعين، وعليه يمكن مقارنــة حياتهم بحياة حيوان القندس، والتي يقضي نصفها على الأرض ونصفها الآخر في البحر.



B. The cod-fishers' stage

منصات صيد في فيرلاند، ، مرسومة في الموقع بيد الجراح الإنجليزي جيمس يونغ في القرن السابع عشر.

كانت معظم مراكــز الصيد مبادرات خاصة، حيث لم تأتها ادعاءات الســيادة الملكية إلا لاحقا فقط، تقريبا كأنها فكــرة تاليــة لتأسيســها. في أوقــات ما اصطــاد الإنجليــز مــن على ســواحل كانــت اســميا تنتمي إلى فرنســا، فيمــا احتل

الأكاديون(*) المتحدثون الفرنسية أراضي هي تحت السيادة البريطانية. كانت الأرض في حد ذاتها مثيرة للاهتمام، بيد أنها بالنسبة إلى الأشخاص الذين عاشوا حيواتهم «نصفها على الأرض ونصفها الآخر على البحر» انحصرت أهميتها في مدى توفيرها منفذا إلى البحر. فكما يقول دونالد مينيغ: «كانت البحار غنية، الأراضي فقيرة. كان الدافع الرئيس إلى السيطرة على الأرض هو الحصول على أفضلية استغلال البحر». في نيوفاوندلاند وغاسبيه، كان الاهتمام بالداخل ضئيلا جدا، ينحصر في الاهتمام بالخشب لبناء غرف الصيد. لم يكن لدى صيادي الصيف أي وقت للزراعة حيث إنهم في البداية كانوا يحضرون مؤونة طعامهم معهم. لاحقا، عندما أصبح التجار أكثر ارتباطا بمشاريع صيد السمك، أدار هؤلاء نظام «شاحنة» حيث كان يجري تبادل السمك بالطعام والبضائع الأخرى التبادلية القادمة عبر البحار[28].

حتى عندما أصبحت المستوطنات الدائمة أكثر شيوعا خلال أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ظل الصيد نشاطا ارتحاليا، بيد أن القوارب كانت تغادر من سواحل نيوإنجلاند والمقاطعات البحرية في كندا Maritimes الآن بدلا من إنجلترا. كان يجري إعلام المهاجرين البريطانيين إلى جزيرة الأمير إدوارد، في أواخر 1819، بأن «ميزة التمركز على الساحل البحري لا بد أن تكون واضحة، وذلك عند مقارنتها بالوضع المزري لهؤلاء الذين جرى خداعهم ليهجروا أراضيهم الأصلية من أجل الأراضي الداخلية في الولايات المتحدة». فعلى الساحل وعلى طول الأنهار كان لهم أن يتوقعوا أن يجدوا اليابسة وكذلك منفذا للصيد، وذلك بالإضافة إلى العلاقات مع شبكات التجارة والتي شملت نيوفاوند لاند وجزر الهند الغربية. فلا عجب أن القرى التي بدأت بالتجمع حول أرصفة المرافئ والموانئ الصغيرة قد أسميت outports أو «بوابات خروج»: كان اتصالهم الوحيد يحدث عبر الماء، حيث كانوا غالبا أكثر ارتباطا بالموانئ على السواحل البعيدة عن ارتباطهم بأي شيء على جانبهم من الأطلنطي[29].

ولأنهم كانوا قادرين على الإبحار مباشرة إلى ضفاف صيد نيوفاوندلاند من بريتاني ونورماندي، سيطر الفرنسيون على مراكز صيد نيوفاوندلاند في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. كانوا يسعون نحو مركز صيد «مائي»، حيث

(*) الأكاديون Acadians هم سلالة مستعمرين فرنسيين احتلوا أكاديا، شرق الساحل الكندي، في القرن السابع عشر. [المترجمة].

يعالجون ســمك القد بتمليحه وتخليله، غالبا من دون أن يلمســوا اليابسة مطلقا. كان الإنجليز سادة لمراكز الصيد «الجافة»، والتي كانت تتطلب مراكز صيد موسمي مجهزة بمنصات تجفيف والمعروفة باسم flakes أو منصات. بحلول العام 1590 كان الإنجليز يهجرون موانئهم الساحلية الشمال الشرقية القديمة من أجل موانئ جديدة في ويســت كونتري، والتي كانت توفر منفذا أســهل للصيد من نيوفاوندلاند. بمرور الوقت سيستطيع الإنجليز طرد الفرنسيين من نيوفاوندلاند ذاتها.

ونظرا إلى حقيقة أن ســمك القد يُحفظ بشــكل أفضل من أي جنس أســماك آخر في شــمال الأطلنطي، اســتمر هو في كونه الصيد الأعظم. كان الإســكندنافيون يمارسون صيد الحيتان منذ القرن التاسع، وفي ذروة القرون الوسطى كان الباسكيين يتخذون من الحيتان الضخمة right whale والحيتان الرمادية gray whale مصدرا للحوم والزيوت وذلك على خليج غاســكونيا. وكما هي الحالة مع ســمك القد، عندما اســتنزفت مراكز صيد الســمك القريبة من الشــاطئ، نقل هؤلاء عملهم بعيدا باتجــاه الغرب، لينصبوا أنفســهم أخيرا على ساحل اللابرادور، مســتغلين عادات الهجرة للحيتان مقوسة الرأس bowhead whales والحيتــان الضخمة وذلــك من خلال مضيق جزيرة بيل. كان صيد الحيتان، مثل صيد الأســماك، ارتحاليا وموســميا. كانت ســفن صيد الحيتان الباسكية تغادر الســاحل الأوروبي أواخر الربيع، حيث تؤسس لمراكز تنطلق منها مراكب صغيرة (chalupas) ســعيا خلف الحيتان العابرة، حيث تعيدها إلى الموانئ مثل ذلك الذي في الخليج الأحمر Red Bay لكي يجري تحويلها إلى زيت في ما كان يســمى tryworks(*). ينقل عندها الزيت إلى براميل ضخمة على متن الســفن المبحرة إلى أوروبا. واليوم يقدر أنه بحلول أوائل القرن الســابع عشر، قُتل ما يقرب من عشرين ألف حوت، ما غير في أنماط هجراتها ورفع بالباسكيين ليوجهوا انتباههم إلى صيد سمك القد[30].

كــما أصبح صيد الفقمة تجاريا في ذلك الوقــت، وذلك، مرة أخرى، بنتائج متوقعة للدفع بمســتعمرات الفقمة لمغادرة الســواحل، حيث كانوا يوجدون على مدى قرون، وذلــك إلى الجليد القطبي، حيــث، وإلى وقت قريب، كان يجــري اصطيادها من أجل فرائها. ســيلاقي كذلك حيوان الألفظ، المرغوب بســبب عاج أنيابه، مصيرا مشابها. فما دام الصيــادون الرحل القطبيون المحليون يصطادون هــذه المخلوقات من أجل تأمين الغذاء، لم يكن هناك تساؤل بشأن بقائها، لكن أصبح صيد السمك واصطياد الحيوانات

(*) هي أهم أجزاء سفينة صيد الحيتان، حيث تحتوي على قدور ضخمة لإعادة تصنيع زيت الحوت. [المترجمة].

تجاريا، ما أسماه كالوم روبيرتس «أول كارثة صيد سمك في العالم»، ولم يكن في الإمكان إيقافهما. بكل تأكيد، كان دمار القرنين الخامس عشر والسادس عشر متواضعا مقارنة بالمستوى الصناعي لصيد السمك اليوم، بيد أنه جرى التأسيس لنمط وبعواقب لم يكن لأحد، وقتها، أن يتنبأ بها[31].

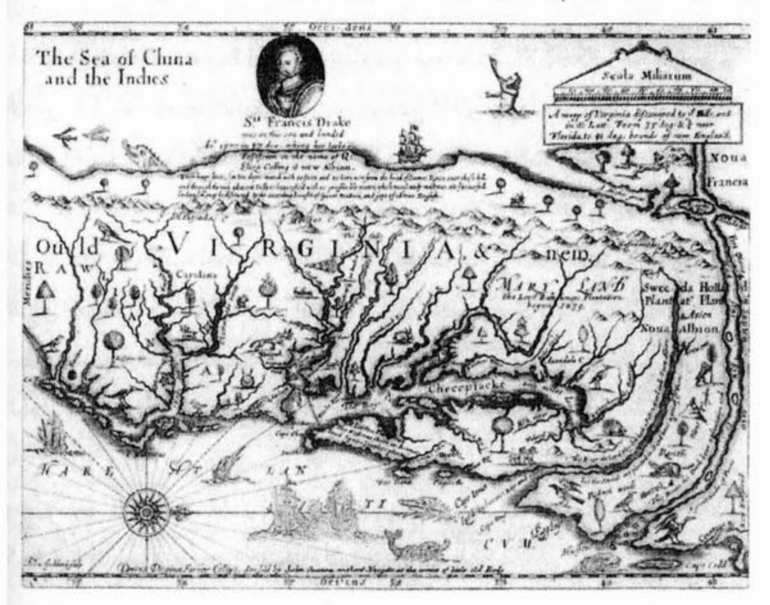
إمبراطوريات على طول الساحل

إن التركيز المفرط على رحلات المستكشفين البارزين قد أعمانا عن ملاحظة طرق تشكيل حافة شمال الأطلنطي والتي حدثت عن طريق المخاطرات المنسية لمئات الآلاف من صيادي السمك المزارعين المجهولين، والذين لم تكن لديهم أي نية للاستقرار على الساحل البعيد مطلقا. فإذا ما كانت المستعمرات هي النتاج النهائي لهذه العملية، فإنها لم تكن مطلقا النية المبدئية لها. لقد أبحر كولومبوس بنوايا لم تخرج عن كونها تجارية. فمن الخطأ رسم خريطة تاريخ الاستعمار للقرنين السابع عشر والثامن عشر بناء على العصور السابقة. فكما كان الوضع مع الإمبراطوريات البحرية القديمة، كانت النية هي لتأسيس مناطق معزولة تجارية تسهل حمايتها وليست مستوطنات زراعية أرضية[32].

وعلى نمط مشابه جدا لذلك الذي للإمبراطوريات البحرية، كانت الإمبراطوريات الأوروبية لبداية العصر الحديث متمركزة بحريا أكثر منها أرضيا. فعلى مدى ثلاثمائة سنة تحكمت هذه الإمبراطوريات في سلسلة من المحيطات وممرات الأنهار، والتي على طولها كانت هناك مناطق معزولة ذات مواقع إستراتيجية مواجهة للبحر عوضا عن المناطق الداخلية المطوقة. لقد كان الاكتشاف الأولي للعالم اكتشافا للبحر. «فعن طريق وسيلة نقل بحرية، جرى افتتاح أسواق متسعة لكل أنواع الصناعة عما كانت توفره وسيلة النقل الأرضية بمفردها»، كتب آدم سميث، «وعليه فإنه على ساحل البحر، وعلى طول ضفاف الأنهار الصالحة للملاحة، بدأت الصناعة بكل أنواعها بأن تتفرع وتتطور من نفسها». جلب الأوروبيون معهم توقعات حضارة نهرية وساحلية. لقد ركزت الاستكشافات الأولية على مصبات الأنهار كبوابات والأنهار كممرات للداخل، وليست كمواقع للمستوطنات الدائمة[33].

لقد جلب الأوروبيون معهم كمية متناثرة من الآراء الجغرافية، والحقائق، والأساطير، والتجارب، بالإضافة إلى الأوهام التي أسماها جون كيرتلاند رايت geosophy

أو «الجيوصوفيا». فمنذ العصور القديمة كان هؤلاء يتخيلون العالم بمصطلحات معزولة، جزيـرة أرضية عظيمة واحدة محاطة بالعديد من الجزر الصغيرة. لقد تخيل كولومبس نفسـه قافزا من جزيرة إلى أخرى وصولا إلى شرق آسـيا، ولقد كانـت خيبة أمل كبيرة أن وجد عائقا أرضيا يسـد طريقه. بيد أن الخيال لم يستسـلم بسـهولة للواقع، حيث اسـتمر المستكشفون في البحث باتجاه خطوط العرض الشمالية للعثور على ممرات إلى الهنـد. لقد كانـت الأجيال الأولى من الأوروبيين التي وضعـت قدمها في العالم الجديد من الشعوب المائية، من سـكان الجزر، الأنهار، والسواحل، كما أن الأمريكيين الأصليين الذين التقوا بهم في البداية كانوا كذلك جنس حافة، مشتركين معهم في كثير من الأفكار الجغرافلسـفية، متخيلين أنفسـهم على جزرهم الأرضية الخاصة بهم محاطين بالبحار المطوقة لهم. لقد اعتقد مخبرو جون سـميث المحليون من فيرجينيا أن العالم «مسطح ودائـري مثل صينية، وهم في منتصفها». لقـد أخبروه أنه باتجاه الغرب يقع بحر آخر. لقد أسمى شـعب الواباناكي الذي كان موجودا في ماين نفسه People of the Dawn أو شعب الفجر، كونهم يحيون على حافة شرقية لجزيرة عظيمة أخرى[34].



خريطة لفيرجينيا بيد جون فارار، والتي تظهر كلا من السواحل الشرقية والغربية.
مقدمة من مكتبة الكونغرس.

بتأكيد مـــن الأفـــكار الجيوصوفيـــة المحليـــة native geosophies، لم يكن مستغربا أن اعتقد الأوروبيون أنهم وجدوا أرخبيلا عوضا عن قارة. فقد أخبرتهم الجيوصوفيا الخاصـــة بهم أن المياه تجري شرقا وغربا، وأن الأنهار العظيمة التي صادفوها في شمال أمريكا كانت «بحارا ساحبة إلى الداخل» والتي كانت ستحملهم سريعـــا إلى مـــا كان يعتقد أنها مياه داخلية، عادة مـــا يطلق عليها البحر الغربي، وبعدها إلى الهادي. لقد شجع المحليون المتعاونون المستكشف الفرنسي كاديلاك في إطار هذا الخيال حيث أكدوا له أن الأنهار والبحيرات سريعا ما ســـتحمله إلى نقطـــة «يقال إن ما بعدها لا يوجد أرض». لقـــد أحضر جين نيكول مغه ملابس رســـمية مصنعة مـــن الدمقس الصينـــي كهدايا للملوك الآســـيويين والذي توقع مقابلتهم بين شـــعب الوينيباغو على بحيرة ميتشـــيغن. كان المستكشف فيرازانو يبحث عن قطاع بري ضيق مثل باناما على خطوط العرض الشـــمالية في 1524، عندما ظن خطأ أن بامليكو ســـاوند عـــلى الجانب الغربي لجزر كارولينا المتاخمة (الضفاف الخارجية) هي البحر الغربي. لقد بقيت فكرة أن العبور إلى جزر الهند كان مجرد مسيرة بضعة أيام رُكْناً إيمانيا بين مستعمري فيرجينيا، والذين تصوروا أنفســـهم على جزيرة. لقد كفلت لهـــم امتيازاتهم الملكية الأراضي «من البحر إلى البحر»، كما كان الوضع لهؤلاء في ماساتشوســـيتس، كونيتيكت، وكارولينا. تظهر خريطة نـــشرت في 1651 فيرجينيا على أنها معزولة، حيث الأطلنطي على جانب و«بحر الصين وجزر الهند» على الجانب الآخر[35].

وكـــما كان الوضع في العالم القديم، كونت الأنهار والبحيرات عالما مائيا متواصلا، ممتـــدا لآلاف الأميال بين الأراضي الداخلية. لقد بالغـــت الخرائط القديمة في حجم ومدى الخلجان ومصبات الأنهار، واعدة بممرات مائية عميقة في الداخل الأرضي. لقد حققت سكة حديد هدسون وسانت لورانس التوقعات، على الرغم من أن التمنيات بـــأن تقود أنهار فيرجينيا إلى بحيرات تجف غربا كما شرقا موصلة إلى الهادي، والذي كان يدعى وقتها بحر الهند الشرقي، قد خابت. فعلى مدى مئات السنوات، ووصولا إلى رحلة لويس وكلارك الاستكشـــافية في 1804، ســـيجري استكشـــاف القارة بشكل أســـاسي عبر القوارب، حيث يعكس ذلك ليس فقط كفاءة وسائل المواصلات المائية ولكن كذلك استمرار الاعتقاد أن العالم الجديد كان أرخبيليا عوضا عن قاريا[36].

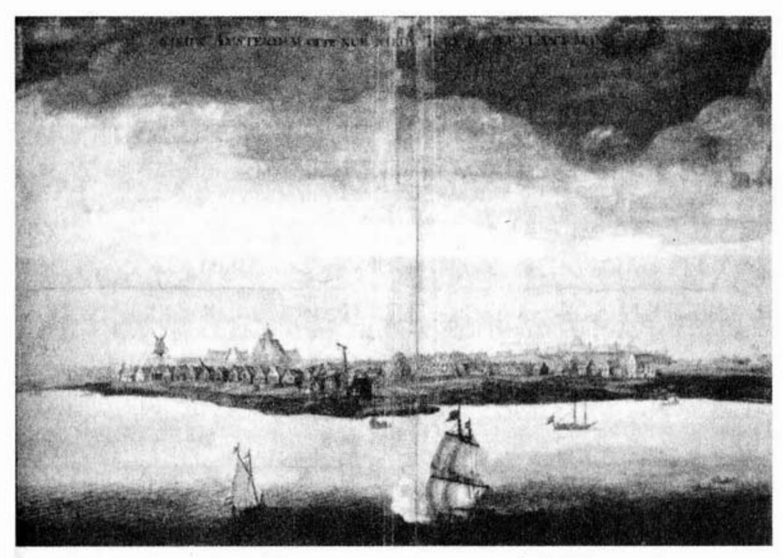
وكـما بين ويلكومب واشـبورن «غالبا مـا تطلع الأوروبيـون إلى ما بعد أو أغفلوا الأرض الحقيقية التـي وصلوا إليها، متوقعين ممرا إلى أرض الهادي والتي بقيت خيالا في عقولهم». كان من أول الأشـياء التي قام بها فرانسيس بيلينغتون عندما ترجل عن سـفينة ماي فلاور في 1620 أن تسلق شجرة ذات مشهد تجاه الغرب، حيث أبلغ أنه شـاهد «بحرا عظيما، كما كان يعتقد». ظهر بعد ذلك أن هـذا البحر العظيم لم يكن سـوى بركة، والتي إلى اليـوم تدعى بحر بيلينغتون. وعندمـا وصل الأوروبيون إلى السـاحل الغربي لأمريكا الشـمالية قاموا بتطبيق الجغرافلسفة نفسـها، وإن كانت باتجاه مغاير، حيث فكروا بمنطق الأرخبيلات ساعين خلف ما أسـموه مضيق أنينـا، الذي كان يفـترض أن يوصل شرقا إلى بحـر داخلي. لقد استكشـف هؤلاء كل مصبات الأنهـار الضخمة حتى تخلوا في النهاية عن فكرة ممر شرقي. بيد أنهم عانوا صعوبة أكبر في التخلي عن فكرة أن كاليفورنيا جزيرة، وهو الخيال الذي رفض الاستسلام للحقيقة حتى القرن الثامن عشر، عندما، كما حدث مع مضيق أنينا، اختفت هذه الجزيرة أخيرا من خرائط العالم. عندها فقط قبل الأمريكيون حقيقة أنهم كانوا يحتلون قارة منيعة وليس أرخبيلا الملاحة فيه ممكنة[37].

«لقد تعلقت تجارب أوروبا في الفتوحات، والاسـتعمار، والتجارة مثل تعلق قشريات البحر بالسـفينة وذلك على سواحل محيط العالم أو أنها تقصت الجزر المقابلـة للسـواحل والمحاطة بالخنادق البحرية، «يقول سـتيفن باين. لقد كان ذلـك إرثا عن المتوسـط، حيث مـدن الموانئ كانت تنتمي أكـثر للبحر منها إلى اليابسـة. هناك، حيث الناس «يشعرون بأنهم أقرب إلى مدنهم منهم إلى دولهم وأممهـم، و(حيث) فعليا مدنهـم كانت هي دولهم وأممهـم وأكثر من ذلك»، كانت دولة الأمة الإقليمية أبطأ في تطورها. فحتى القرن التاسع عشر، كان يجري التحصل على أفضل مكتسـبات الإمبراطورية عبر الساحل وعلى طوله وليس من الأراضي الداخلية. كانت إسـبانيا الجديدة هي الاسـتثناء الـذي ثبت القاعدة. «فالمسـتوطنات (القارية) كانت مثل الإسـفنج الذي كان يمتص رأس المال»، لقد كانت تمثل اسـتثمارا سيئا إلا إذا، مثل إسبانيا الجديدة، قدمت الذهب والفضة. لقد خيبت أمريكا الشـمالية آمال هؤلاء الذين كانوا يسـعون إلى الثراء السريع،

وعندما استقر الهولنديون، الفرنسيون، والإنجليز، فقد فعلوا ذلك على الجزر، روانوك، سانتا كروز، سابل، جيمس، مانهاتن، أو في الأماكن التي كان يعتقد أن لها منافذ مائية على كل الجهات، مثل فيرجينيا وماساتشوسيتس. كان البحر هو حبل النجاة بالنسبة إليهم، ولم تكن أي من المستعمرات الشمالية الشرقية في العالم الجديد قريبة من الاكتفاء الذاتي، فعندما يجري عزلها عن العالم الجديد، فإنها، مثل مستوطنة روانوك، تفشل تماما[38].

في العديد من الأماكن كانت المقايضة الخرساء أو التجارة الصامتة لاتزال تدار من على أسطح السفن، سامحة للمسافرين الأوروبيين بتفادي الاتصال المباشر مع الأراضي الداخلية. تطورت الموانئ الدائمة من المراكز التجارية المؤقتة التي أسسها البرتغاليون على الجزر على طول الساحل الأفريقي ولاحقا خلال آسيا. لقد خدمت هذه الموانئ مصالحهم التجارية من دون أن تشركهم في تكاليف حماية المستعمرات الساحلية. بيد أن الهولنديين هم من حَسَّن تماما إمبراطورية الساحل وذلك في العالم أجمع، مستخدمين الجزر في الشرق والغرب، في فورموسا، اليابان، سريلانكا، وجافا وكذلك في الأمريكتين. كانت دونا ميرويك تسميهم الأصليين «قوم امتداد الساحل»، والذين كانوا يرون العالم ليس «بعيون الفلاح الذي يتطلع إلى الأرض، بل بعيون البحار». أشارت ميرويك إلى أن مانهاتن، مثل مركز التجارة الهولندي البالغ الصغر في ناغازاكي، كانت pied-a-terre أو مسكنا مؤقتا أكثر منها ملكية رسمية. «لقد اعتبر الهولنديون أنفسهم أهل جزر وخطوط سواحل، أهل الأراضي المغمورة والحدود المتغيرة»، والذين كانت مدنهم «جزرا صغيرة»، متصلة أكثر عن طريق الماء منها عن طريق الأرض. كانوا في العموم غير واثقين بالفلاحين، حتى فلاحيهم هم. وجهت أمستردام الجديدة، والتي تأسست في 1625، وجهها تجاه البحر وباعدت بينها وبين الداخل بقدر المستطاع، مقاومة الرغبة في الزراعة حيث كان تجار الشركة الهولندية الشرق هندية يخشون أن يثير ذلك المواجهات مع الهنود المحليين. لقد تنازع هؤلاء مطولا مع قوى البحر وكانوا مرتاحين بدرجة معقولة معه. ما كانوا يخشونه أكثر شيء، بتعبير ميرويك المشهود، هو أن تغرقهم الأرض. بحلول 1660 تحققت أسوأ مخاوفهم، حيث فُقدت أمستردام الجديدة ليظهر الفلاحون الإنجليز الأكثر سلطة والذين

مارسوا عليهم الضغوطات من مناطقهم النائية القريبة من الساحل. عندما تعذر الدفـاع عن الجزيرة، تنازل الهولنديون عـن كل حقوقهم فيها في مقابل امتلاك جزيرة صغيرة أخرى في النصف الآخر من العالم، جزيرة جوز الطيب الإندونيسية الصغيرة والتي تدعى رون، وهو القرار الذي لربما يثير حيرتنا بيد أنه كان منطقيا تماما بالنسبة إليهم[39].



منظر لأمستردام الجديدة لجوهانس فينغبونز، 1664.

الصورة من ويكيميديا كومونز.

كان أوائل المستكشفين لسواحل أمريكا الشمالية يشعرون بأنهم في موطنهم في البحـر أكثر منهم على الأرض. الكثير منهم كانوا سـكان جزر بخبرة سـاحلية أكبر من تلـك في أعماق البحر. لقد اتبعت البضائع، والناس، والأفكار مسـارات متشـابهة على طول الساحل. لقد تواصلت المستوطنات في شمال أمريكا بعضها مع بعض عبر المياه. تطور ساحل الهادي لاحقا، ولكن بالأسلوب نفسه. في البداية قدم المستكشفون، ومن بعدهم التجار، وفقط بعد زمن طويل جاء المستوطنون الدائمـون. حتـى في ذلك الوقت، كانوا يميلـون إلى مواجهة البحـر، حيث كانوا يعتمدون عليـه في توفير البدائل وإعادة التموين. وكـما يقول دان كيلي: «لقد

جرى استكشاف ساحل الهادي كونه شريكا في حركة التجارة مع الشرق أكثر منه كأرض تستحق التعرف عليها من أجلها هي». وكونها موجهة إلى السواحل البعيدة عوضا عن أراضيها الداخلية النائية، كانت الولايات المتحدة الجديدة مزدوجة السواحل شرقا وغربا منذ البداية[40].

البحر الداخلي لحضارة شمال الأطلنطي

إن الامبراطوريات المائية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر كانت أكثر اهتماما بالمنافذ منها بالممتلكات. فباستثناء إسبانيا الجديدة، لم تكن هذه الإمبراطوريات أرضية بطبيعتها بل «شبكة من مجموعة من المراكز والمواقع الإستراتيجية على طول طرق التحرك الإستراتيجية... فهي متناثرة، ضحلة في تأثيرها القاري، غير منتظمة في الترتيب الهرمي لمناطقها». كونها نتاج مبادرات خاصة وعادة إقليمية عوضا عن كونها نتاج سياسة قومية منسقة، كانت المستوطنات الإنجليزية غالبا مختلفة بعضها عن بعض كما هي كل واحدة منها مختلفة عن المستوطنات الهولندية أو الفرنسية. ولأنها عادة على خلاف مع الوطن الأم، كانت لهذه المستوطنات سياساتها الخارجية والعسكرية الخاصة بها. كانت شعوبها متعددة الأعراق، لغاتهم كانت متعددة، وثقافتهم كانت عالمية. ما كانوا يتشاركون فيه هو ما كان يدعوه ميينغ «ثقافة الضفة»، ثقافة مواجهة للبحر ومتأقلمة أكثر مع السواحل البعيدة عنها مع الداخل القريب الخاص بها. لقد كان هؤلاء ينتمون إلى الأطلنطي، ما كان يدعوه ميينغ «البحر الداخلي للحضارة الغربية[41].

لقد كانت فكرة البحر الداخلي متلائمة مع الأوروبيين، الذين، بداية من تجربتهم مع المتوسط، كانوا أكثر شعورا بالأمان في المياه المطوقة منهم في المحيط المفتوح. إن أحدث شكل للبحر الداخلي شمل أكثر بكثير مما ندعوه اليوم العالم الغربي. فلقد غمر كذلك سواحل أفريقيا، والذي سيكون لثقافاته تأثير هائل في الأمريكتين. ولأن هذا الشكل الجديد التف شرقا وكذلك غربا، فقد حمل معه كذلك سمة الأمريكيين الأصليين الساحليين، والذين من دونهم كانت المستوطنات والاستكشافات الأوروبية ستصبح مختلفة تماما. لم تكن الممرات في البحر الداخلي

أحادية الاتجاه مطلقا. لقد تحرك المد عبر تاريخه «ليس فقط باتجاه الغرب على الجسم الأمريكي بل شرقا على الجسم الأوروبي، وداخليا فوق، وحديثا على طول الجسم الأفريقي»[42].

لقد وصل الأوروبيون الشماليون على السواحل الأمريكية عن طريق المصادفة وليس بنية مقصودة. لقد تصرفوا كما فعل الصيادون الرحل دائما، لحقوا بفريستهم حيثما قادتهم هذه الملاحقة، ممارسين نوعا من النقل الموسمي البحري للماشية transhumance، متتبعين السمك عوضا عن الحيوانات، وذلك على أساس موسمي، حيث أخذوا يذهبون لمسافات أبعد ومدد زمنية أطول، بيد أنهم دائما ما كانوا يعودون إلى موطنهم عندما كانوا يستوفون متطلباتهم. ولأكثر من قرن من الزمان، لم يظهر هؤلاء أي رغبة في ممارسة الزراعة. وعليه فإن مفهوم عصر «الاستعمار» (Colonial)، والذي يفترض الوجود الضروري للأرضي، يشوه بشكل كامل نظرتنا إلى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، عندما لم يكن بالنسبة إلى الأوروبيين الشماليين «أي نية لأن يصبحوا مستعمرين - وبالتأكيد ليسوا مستعمرين فاشلين - ولكنهم كانوا أعضاء متنقلين ومؤقتي الاستقرار في موطنهم. لقد كيفوا أنفسهم مع مساحات أمريكا الشمالية من حيث احتياجات مجتمعاتهم في موطنهم، عوضا عن معاملتها كمساحات لمجتمعات جديدة»[43].

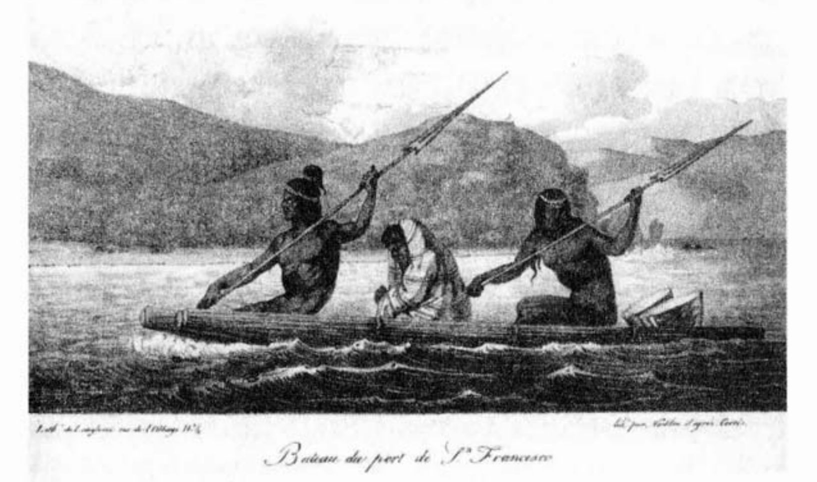
نوعان مختلفان تماما من مصائد السمك تكونا في الشمال الأطلنطي في نهاية القرن الخامس عشر. لقد أدار الفرنسيون، الباسكيون، الهولنديون، الإسبان، والبرتغاليون، والذين كانوا يمتلكون مؤنا جيدة من الملح، مصائد أسماكهم المائية بعيدا عن الساحل بشكل تام تقريبا. لقد كانوا يملحون صيدهم على متن السفينة، يتبلونه ويعبئونه في البراميل، ثم يتجهون إلى موطنهم عادة من دون أن يضعوا قدما على اليابسة. كان الإنجليز يفضلون تجفيف سمك القد، لكنهم كانوا يفعلون ذلك فقط في المواسم الدافئة، عائدين إلى موانئ مواطنهم قبل أن يحل الشتاء. في كثير من النواحي كان الساحل الأمريكي يعتبر امتدادا متسعا للحياة الساحلية الأوروبية، حيث كان لايزال مرتكزا، على الرغم من المسافات العظيمة ومدة البعد المتزايدة، على ميناء الوطن. فعلى مصائد السمك المرتحلة

تتعلق الأفكار دوما بالعودة. وفي أواخر سبعينيات القرن الماضي أخبر رجال سفن صيد السمك الإسبان الذين كانوا يصطادون في مياه نيوفاوندلاند، والتي يدعونها تيرانوفا، جوسيبا زيولايكا أن «هناك فقط يومين سعيدين جدا في البحر: يوم مغادرتك (تيرانوفا) إلى إسبانيا، ويوم وصولك إلى الوطن»[44].

على السواحل الأمريكية، صادف الأوروبيون شعوبا أخرى، والذين مارسوا نوعا من النقل الموسمي البحري للأسماك على نطاق ضيق. كان للأمريكيين الأصليين كذلك فردة حذاء طويل في القارب وأخرى في الحقل. لقد كانوا يمارسون صيد السمك والحيتان على طول الساحل على مدى قرون، مستهدفين الحيتان التي تدعى بالحيتان المنجرفة والتي كان يجرفها البحر إلى الساحل، ولكنهم أحيانا ينطلقون بعيدا عن الساحل في الزوارق الصغيرة. كانت مهاراتهم كصيادي سمك ومزارعين مصدر إنقاذ لمستوطني بلايموث خلال سنوات مجاعتهم الأولى في عشرينيات القرن السابع عشر، وذلك عندما كانوا يعتقدون أن هؤلاء الوافدين الجدد سيزرعون الذرة وسيصطادون من خليج ماساتشوسيتس. سرعان ما تعلم الأمريكيون الأصليون مهارات الإبحار الأوروبية، وبدأوا استعمال القوارب المصنوعة بأيادي الباسكيين لأغراض الصيد والتجارة. وبينما كانت هناك صدامات أولية كانت المواجهات الأولى عموما لطيفة ومربحة للطرفين. في رحلته في العام 1524 صادف فيرازانو شعب ناراغانسيت المتطور الذي كان موجودا في الموقع الحالي لرود آيلند، والذين أقبلوا على سفينته بلا أي مخاوف من أجل التبادل التجاري. على مسافة أبعد شمالا، وجد فيرازانو شعب الأباناكي أقل لطفا، بيد أنه وبحارة آخرين أسسوا لأسطورة المدينة الرائعة الغنية نورومبيغا التي تقع في مكان ما بالمنطقة التي ندعوها اليوم ماين، والتي استمر الأوروبيون في البحث عنها خلال القرن السادس عشر[45].

وكما كان الوضع في أوروبا، كانت الشعوب الساحلية لشمال أمريكا متعددة، وكونهم قد تعلموا أسرار البيئة الانتقالية، فقد كانوا نسبيا أقوياء وأغنياء كذلك. خلقت ممارستهم حرق الغابات تنوعا كبيرا للأنظمة البيئية بتأثيرات على حوافها التي كانت «مساكن طبيعية مثالية لعدد من الأجناس الطبيعية». ولقد استغل هؤلاء جانبي الساحل، حيث كانوا يتحركون موسميا لاستغلال الهجرات السمكية

- سمك القتار في مارس، الآيلوايف، السلامون، والحفش في أبريل - وكذلك وصول سـمك القد وأنواع الأسـماك القاعية الأخرى في مايو. لقـد كان يقدر بأن نصف مؤونة الغذاء السنوي لماين الهندية أتت من مصادر كهذه. لقد كان يقال «إنهم يتنقلون... من مكان إلى آخر وفق غنى الموقع والموسم»[46].



قارب لشعب الميووك مصنوع من نبات القصب Bateau du port de San Francisco، لوحة للفنان لوي كورس. الصورة من مكتبة بانكروفت، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

لم يكـن الأمريكيون الأصليون السـاحليون مأخوذيـن بتواصلهم الأول هذا، وفي الحقيقة كانت لهم اليد العليا في البداية. كان سـكان ما نسـميه نيو إنغلاند الأصليون «قد تعلموا كيف يتعاملون مع الوجود الأوروبي»، حيث قدموا أنفسهم، مثل الشـعوب الساحلية في الأماكن الأخرى، بوصفهم وسطاء بين البحر والداخل. لم يـشرك الأوروبيون الأمريكيين الأصليين في مراكز صيدهم، ولكن عندما قاد هذا النشـاط إلى تجارة الفرو أصبح هؤلاء الأوروبيون معتمدين على السكان الأصليين بشكل متزايد، حيث كان للسكان الأصليين كل الاتصالات الداخلية، كما أنهم كانوا يتحكمـون في الممرات النهرية التي كانت توصـل مخزونا أكبر حجما من الجلود الحيوانية. استمر الأمريكيون الأصليون في ترحيبهم مادام لم يحاول الأوروبيون أن يتواصلوا مباشرة مع الصيادين الداخليين. ولربما استمر هؤلاء في ممارسة سيطرتهم

السياســية والاقتصادية على الســواحل لمدة أطول، لولا هذه الأوبئة التي لم يكن لديهم أي وسائل حماية ضدها، والتي انتقلت إليهم عبر تواصلهم مع الأوروبيين. بحلول أوائل القرن الســابع عشر، عندما قرر البيوريتانيون أخيرا استعمار ساحل ماساتشوسيتس، كان 90 في المائة من السكان الأصليين قد ماتوا[47].

بقيت الســواحل الكندية غير مســتوطنة لفــترة أطول بكثــير. أحيانا يقول الكنديون إن سواحلهم الشرقية ما كان لها أن تُسكن أبدا. أصبح سكان الولايات المتحدة يفكرون في ســاحلهم الشرقي على أنه شاطئ، غير أن الكنديين لم يفكروا بهــذه الصورة. صحيح المقاطعــات البحرية لطالما كانت تنتمــي إلى البحر أكثر منهــا إلى الأرض، بيد أننــا لا بد من أن نكون حريصين على ألا نصدق أســطورة أننا كأمريكيين قد قُدر لنا أن نكون مزارعين، وأن تاريخنا «يبدأ برســو الســفينة عند جيمس [و] بعد أن ألقت سفينة المايفلاور مرساها». في الواقع، فإن التاريخ الحقيقي لكندا والولايات المتحدة لا يبدأ هناك، ولكن بعيدا عن الســاحل وعلى طول الساحل، حيث، وكما يصر بنجامين لاباري، إن أمريكا هي الأكثر بحرية بين كل القارات، على الرغم من أنه، بداية من الأمريكيين الأصليين، لطالما كانت فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل[48].

الجبهات البحرية

يمكــن أن يقال إن الســواحل الأمريكية كانت جبهة العــالم الجديدة الأولى بالنســبة إلى أوروبا. مثل كل الجبهات، كانت تلك في حركة دائمة، بيد أنها كانت مميزة من حيث مجابهتها لاتجاهين مختلفين. لقد بين والتر بريسكوت ويب أن الجبهة «ليست خطا للتوقف عنده، ولكنها منطقة تدعو إلى الدخول». في النهاية رحبت الســواحل بالدخول إلى القارة، لكنها في البداية أغرت ســكانها بالســعي خلف ثروات البحر؛ فللسنوات الثلاثمائة الأولى بعد اكتشافها، كانت تلك جبهات للاستخلاص عوضا عن الاســتيطان. فمثل جبهات التنقيب والتشجير، مرت هذه الجبهــات بدورات مــن الازدهار والتدهور، التأهيل والإخلاء الســكانيين. كانت الــثروات تُخسر بنفس سرعــة صنعها، لقد أتى واختفى هــؤلاء الصيادون الرحل التاليون تقريبا بالسرعة ذاتها لحضور واختفاء طرائدهم[49].

كان الأوروبيون الذين يستكشـفون خطوط العرض الشمالية للعالم الجديد متأكدين من أنهم قد اكتشـفوا نوعا من الجنة المفقودة، ليس على الأرض ولكن في البحـر. لقد جعلت مواسـم الزرع القصيرة والتربة الفقيرة السـاحل - في حد ذاتـه - غير ودود تجاه المزارعين، لكنه لم يكن هناك شـك بالنسـبة إلى العقول الإنجليزية أنهم قد اكتشفوا وفرة مائية غير معروفة على جانبهم من الأطلنطي. نـادرا ما كان يبدو أنهم لاحظوا التأثير السـابق للأمريكيين الأصليين على الأرض أو البحر، لأسـباب ترجع في جزء منها إلى أنهم عندما استقروا أخيرا على الساحل في أوائل القرن السابع عشر، كان السكان المحليون ينقرضون تدريجيا على مدى زمـن، جاعلين كلا من الأرض والبحر يبدو خاليا ونقيـا، طبيعة نقية جاهزة لأن تسلم ثرواتها إلى سادتها الجدد[50].

عندما استكشـف الأوروبيون السواحل الجديدة، كانوا ينظرون إليها بعيون تجاريـة. لقد نظـروا إلى الأشـجار العظيمة على أنها خشـب للصـواري، وإلى الحيوانات على أنها فراء، والسـمك على أنه الأكثر قيمة بين كل السلع الموجودة هناك. عندما تفقد الكابتن جون سميث خطوط العرض الشمالية في العام 1614، أشـار إلى أن الهولنديين قد حصلوا على ثروات أعظم «عن طريق تجارة السمك الوضيعـة» مما حصل عليه الإسـبان من التنقيب في إسـبانيا. «غير أن هذا هو تنقيبهم»، كتب سـميث قائلا: «والبحر هو مصدر هـذه الجداول الفضية لكل فضائلهم». لقد كانت نظرة سـميث وقتها هي تلك التي لصياد وليست لبستاني، للمرتحل الحديث وليسـت لمـزارع. لقد اعترف بعدم معرفتـه بالداخل، ولكن «حتـى الأطراف، في حـد ذاتها، يمكن أن تقدم طبيعيا مثل هذه الوفرة لنا، حتى إنه لا سفينة يمكن أن تعود فارغة». لقد شجعته قرى الصيد المحلية التي صادفها على أن يحفز الاسـتيطان في نيو إنغلاند، حيث، وبخلاف الوضع في نيوفاوندلاند، يمكن الصيد على مدار السـنة، حيث هؤلاء «الذين يصطادون أمام أبوابكم، قد ينامون بهدوء كل ليلة على السـاحل سعيدين بما تقدمونه لهم، أو إذا ما رضيتم بذلـك ربما يدخلون للنوم مع زوجاتكـم وعائلاتكم». هنا كانت جنة عدن ثانية مبنية على فكرة الاستيلاء على الطبيعة ومتطلبة لعمل شاق، ولكنها واعدة بحياة أسهل بكثير من تلك التي في إنجلترا «إذا ما عمل رجل لمدة ثلاثة أيام من سبعة،

يمكـــن لـــه أن يحصل على أكثر مـــما يمكن أن ينفق، إلا إذا مـــا كان مفرطا». لقد كانت غريزة سميث هي تلك التي لمرتحل موسر أكثر منها لمزارع مالك لأرضه[51].

قارن كل رحالة تقريبا حجم ومخزون السمك المتناقص في المياه الأوروبية لما بـــدا كوفرة كبيرة موجودة في الأمريكتين. لقد بـــدأ الوضع مع تقارير كابوت من نيوفاوندلانـــد، هي مفقـــودة الآن، والتي انتشرت في كل مكان: «هم يؤكدون أن البحر هناك يمتلئ بالســـمك الذي يمكن صيده ليس بالشـــبك، بل بالسلال التي يجري إنزالها في الماء بوضع حجر فيها، وذلك حتى تغوص في الماء». كان ســـمك القد بالغ الوفرة، وكذلك كانت الحيتان كثيرة جدا حتى إنها كانت تعيق الإبحار «إن وفرة ســـمك البحر تقريبا لا يمكن تصديقها، وبالتأكيد ما كنت لأصدقها لولا أن رأيتهـــا بعيني»، هكذا كتب رجل إنجليزي في تقريره. ولقد قال أحد المراقبين إن كميات الســـمك في مجاري المياه كانت عظيمة جدا، حتى إنه يمكن أن يمشي عبرهـــا من دون أن يبلل قدميـــه. إن هذا المنظور النفعـــي لم يتغير كثيرا عندما كان القبطان جورج فانكوفر والقبطان جيمس كوك يســـتطلعان الساحل الغربي في نهايـــة القـــرن الثامن عشر. هما كذلك اعتقدا أنهما اكتشـــفا ثروة تجارية من السمك والخشب[52].

في الحقيقة، لم يكن هناك أي شيء نقي حول هذه البيئة، والتي مرت بمئات الســـنوات من الاستغلال عن طريق الشـــعوب الأصلية. أخيرا، ظهرت دلائل على احتباس حراري وارتفاع في نسب ثاني أكسيد الكربون بفعل بشري، وذلك بسبب تقطيع وحرق الغابات الاســـتوائية قبل العـــام 1540. تجاهل الأوروبيون الدلائل على هـــذا التاريخ الماضي، حيث اعتـــبروا، على الرغم من وجـــود دلائل طبيعية عـــلى الزراعة القديمة، أن العالم الجديد طبيعة نقيـــة لم يُعبَث بها، وتعاملوا مع الشـــعوب الأصلية عـــلى أنهم «أبناء الطبيعة» وأنهـــم بحاجة، كما الأرض في حد ذاتها، إلى التهذيب والتمدن. وحيث إنه لم تتح لهم الفرصة لمشـــاهدة الصيادين الرحل شـــبه الزراعيـــين، وهم في قمة قواهم قبل أن تهزمهـــم الأوبئة الأوروبية، لم يكـــن لدى الأوروبيـــين أي فكرة كم كان هؤلاء مزارعـــين وصيادين أكفاء. فلو أنهم قـــد تفحصوا تلال الصدف الضخمة التي وجدوها على الســـواحل الشرقية والغربية، لكانوا وجدوا أن المستويات الأدنى كانت تحتوي على محار أكبر حجما

بكثير من تلك التي في المستويات الأحدث، مما يدل على ضراوة تسببت مسبقا في تقليل أحجام المحار، والحلزونات، وبلح البحر مع مرور الزمن[53].

وعلى الرغم من أنهم استغلوا هذا التنوع في الحقول المفتوحة والغابات التي خلقتها ممارسات الحرق القديمة فإن سكان نيو إنغلاند صدقوا أنهم وجدوا غابة عذراء لم يسبق لبشر أن مسها. لقد جعلوا من أنفسهم أبطالا خارقين في قصتهم هم حول ترويض الطبيعة التي ضيعها الهنود هباء. لم يكن هناك من دلائل على أن «الهمجيين»، كما كانوا يدعونهم، كانوا من المحافظين الواعين على البيئة، لكن أعدادهم المنخفضة قد حدت من تأثيرهم. كما أن حقيقة أنهم اعتبروا أنفسهم متصلين روحانيا بالسمك والحيوانات قد تكون حدت من استغلالهم بدرجة ما. لكن، وبسبب أن التاريخ السابق لكوارثهم البيئية لم يُوثَّق قط، فقد بدا للقادمين الجدد الأوروبيين أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا مسالمين، وأن البيئة التي كانوا يعيشون فيها نقية أبدية، وهي الأسطورة الملائمة التي بدا أنها تشرعن الادعاءات الأوروبية بالحق في زراعة الأرض وتمدين السكان باسم إلههم المسيحي، البستاني العظيم[54].

كان الأمريكيون الأصليون على الساحل الغربي يصطادون السمك من المياه الساحلية لمدة أربعة آلاف سنة قبل وصول الأوروبيين، وبينما كانوا يتنقلون موسميا على طول الساحل، وإلى حيث مواقع صيد السمك الأفضل على أنهار السلامون، فإن معظمهم كان يعمل من مستوطنات دائمة. أحد المؤرخين يصف مهاراتهم في صيد السمك والجمع على أنها «ذات كفاءة مخيفة»، بيد أنها لم تنتشر قط من أجل أغراض تجارية. هذا النشاط كان محددا كذلك بعدد معين من المحرمات والطقوس و«باحترام (جوهري) للسمك الذي يحفظ الحياة»، وهو المبدأ الذي تشاركوا فيه، ليس فقط مع السكان الأصليين من الساحل الشرقي، ولكن كذلك مع صيادي السمك الأوروبيين[55].

عندما وصل الأوروبيون إلى الساحل الغربي في مطلع القرن التاسع عشر، جلبوا معهم مجددا الأوبئة والتهجير السكاني. بحلول العام 1850 انخفض عدد السكان الأصليين إلى أقل من 6 في المائة عن مستويات ما قبل التواصل مع الأوروبيين، ما نتج عنه ارتداد إلى الوضع الطبيعي في مخزون السمك، والذي

تــرك الأوروبيين بانطباع أن الصياديين المحليين كانوا محافظين طبيعيين من دون تأثـير في بيئتهـم. لقد دفعت وفرة السـلامون وقشريات البحر بالفكرة الخاطئة بأنهم قد وجدوا جنة عدن غنية، ما شـجعهم على تحويلها منبعا تجاريا، وأخيرا على نهبها[56].

فلــو أنهم كانوا أقوى ملاحظة، لاســتطاع الأوروبيون اســتبيان الآثار البيئية للممارسـات المحلية من حرق للغابات، والتي خلقت بيئات حافة غنية، ولكنها كذلك ساهمت في سد المجاري المائية. الأكثر صعوبة في تمييزها كانت آثار تجارة الهـادي في جِلد كلب البحــر، والتي غالبا ما أدت إلى تدمـير أعداد كلاب البحر المحليــة، وبالتــالي مضاعفة أعداد قنافــذ البحر التي بدورها أفســدت المواطن الطبيعيــة البحرية القريبة من الســاحل. ومع ذلــك، كان الأمريكيون الأصليون قليــلي العدد ومنتشريــن فوق قطاعات ضخمــة من الأراضي، حيــث إنهم قد يســتهلكون مصــدرا محليا ما، ولكن دوما مــا كان في إمكانهم الانتقال إلى آخر. ولقد لجأ هؤلاء الصيادون الرحل، كذلك، إلى تحديد النســل بطرق مختلفة، منها الإجهاض، حيث لم يكلفوا البيئة إلى أقصى حدودها.

ثقافة أطلنطية عبر ساحلية

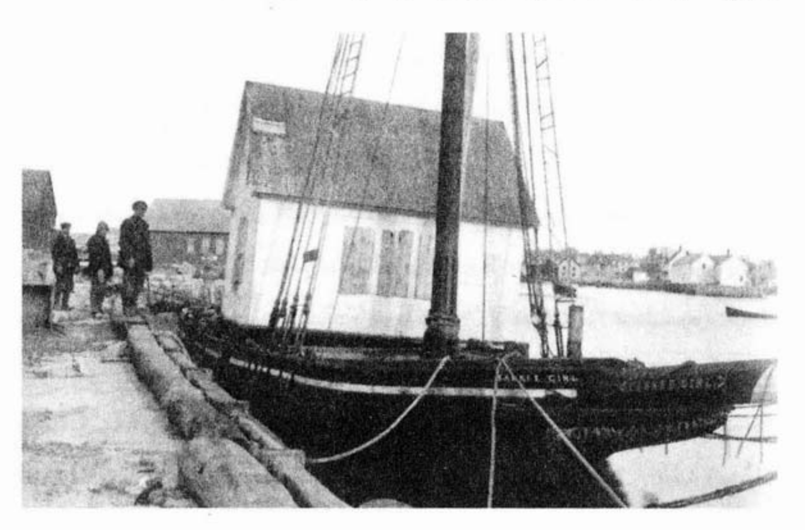
خلال فترة بدايــة العصر الحديث، كانت خطوط العرض الشـمالية لأوروبا وأمريكا متصلة بعضها ببعض، عن طريق ســواحلها. لقد جرى تصدير الثقافات الشاطئية للهولنديين، والإنجليز والفرنسيين إلى العالم الجديد، حيث كانت لديهم عوامل مشــتركة بعضهم مع بعض، أكثر مما كان لهم مع ســكان المناطق النائية في مواطنهم. بحلول القــرن الثامن عشر، كون هؤلاء قلادة من المناطق المعزولة الســاحلية والجزيريــة ضعيفة الترابــط، والتي امتدت حول حافــة بحر داخلي عظيــم. كان لديهم عندئذ نوع من الثقافة المشــتركة (lingua franca)، أو لغة مشــتركة، وأســاليب حياة وأنظمة أغذية بل وحتى تخطيط إسكاني متشابهة. لم يكن البحر هو حبل النجاة الأسـاسي الوحيد فقط بالنســبة إليهم، ولكنه كذلك مصدر الســلع التي ســاهمت في البداية، وبأكبر قدر، في ازدهار مناطق خطوط العرض الشــمالية. عميقا في اتجاه الجنوب ســتوفر تجارة الرقيق وعملية إنتاج

السكر مصدرا آخر للثروة، ولكن على مدى القرن الأول أو يزيد، أظهر الأوروبيون الشـماليون اهتمامـا أكبر بحقوقهـم الملاحية في ممرات مائيـة وولايات بحرية معينـة عن اهتمامهم بأملاكهم الأرضية بحد ذاتهـا. لقد عمل الأوروبيون وفقا لمبدأ هيوجو غروتن أن المحيط «لا يمكن السـيطرة عليه ولا يمكن محاصرته: لا، فهو بالأحرى يسـتحوذ على الأرض ولا تسـتحوذ عليـه الأرض». على الرغم من ذلك، فلقد اعترف هؤلاء بمفهوم حقوق الاستخدام المحلية، وهو المفهوم المشترك بين الشعوب السـاحلية حول العالم. عندما كان الصيادون من المناطق المختلفة يجدون أنفسهم يتسابقون على الموارد ذاتها، لم يكونوا يلجأون إلى حقوق الملكية الخاصة بل إلى الأعراف[57].

إن السـمة المشـتركة لكل ثقافات الضفـاف هذه كانت تَنقُّلهم الموسـمي البحري (transhumance)، وهو التنقل المسـتمر للمجتمعات في إثر طرائدهم بالأسلوب نفسه الذي اتبعه الصيادون الرحل على مدى ألف عام. كان الأمريكيون الأصليون في نيو إنغلاند متنقلين، يتحركون بشـكل موسمي، أحيانا مرات عدة في السنة. كانت بيوتهم ذات الأطر والأساسات الخشبية مغطاة بالأبسطة العشبية، أو بلحاء الشـجر، وذلك حتى يكون من الممكـن تفكيكها ونقلها عبر الماء. يقال إن هـؤلاء كانوا يحيون ببسـاطة، وإنهم «كانوا يحبـون ألا يكونوا مثقلين بكثير مـن الأدوات». في مايـن، كانوا يزورون الجـزر في الصيف، حيـث كانوا يبقون بالقرب من البحر، حتى في الشهور الباردة. لم يقضوا مزيدا من الوقت في الأراضي الداخلية خلال الشـتاء إلا عندما أصبحـوا أعمق ارتباطا بتجارة الفرو الأوروبية، وذلك عندما كان الثلج يسـهل عملية تتبع الحيوانات. في القرن السـادس عشر تتبع صيادو السـمك الأوروبيون على الساحل الشـمالي نمطا مشابها. هم كذلك اعتبروا أنفسـهم زوارا، متتبعين لطرق موسمية، عوضا عن تأسيس جذور دائمة. بالنسـبة إليهم، كانت الأرض تستخدم كمنطقة إعداد وتحضير، وليس لكي يجري الاستحواذ عليها كملكية، وهو الانطباع الذي لايزال سائدا في نيوفاوندلاند[58].

لقد كانـت بيوتهم غالبا، مثل تلك التي للسـكان الأصليين، مجهزة مقدما، فهي مصنوعة بشـكل يسـهل نقلها بالماء، أو عبر جليد الشـتاء. في قرية تيلتينغ الساحلية المعزولة في نيوفاوندلاند، هذه الممارسة، والتي يطلق عليها launching

أو «الإطلاق» لاتزال شائعة. في ماين كانت عملية نقل البيوت شائعة كذلك. وفي خـلال حرب الثورة Revolutionary War، كان Tories أو المحافظون الهاربون من كاسـتين، وماين، يجلبون منازلهم معهم إلى سـانت أندروز، نيو برونزويك، حيـث لاتزال هذه المنازل مصطفة عـلى الميناء. كانت المنازل في كيب كود تنقل كذلك ويعاد تصنيعها. لقد وجد روبرت فينتش أن السـكان تعاملوا مع «بيوتهم بشـكل أقل على أنها مقرات عائلية، يجري تأسيسـها للأزمنة القادمة، منها عن كونها ملاجئ مؤقتة، مثل الأصداف التي يسـتعيرها السـلطعون الناسك، فتلك يجري نقلها وتبادلها، وفق الموقع والغاية، وكما تتأتى الحاجة»[59].



مبنى مدرسي يجري زجه إلى الأرض الساحلية في مدينة فاينالهافن، ماين. الصورة من جمعية فاينالهافن التاريخية.

«لم يـأت الرب بمعجزة على أرض نيـو إنغلاند. لقد قدم البحر»، كذلك كتب سـامويل إليوت موريسون. لقد كان المسـتعمرون الانفصاليون، والذين وصلوا في العام 1620 شـعوبا داخلية بالدرجـة الأولى، مزارعين وحرفيين، غير مجهزين للتعامـل مع الأرض، وبدون أي مهارات إطلاقا في اسـتغلال البحر. لم يكن ركاب المايفلاور بحارة. لقد كان عبورهم إلى أمريكا كابوسـا، ولم تتجدد لديهم الرغبة

في العـــودة إلى البحـــر، ولكن كما قال دانييل فيكيرز: «لقـــد أصبحوا، انطلاقا من الضرورة، شعبا بحريا». وحيث إنه لم تكن لأي منهم مهارات بحرية، فلقد تبادلوا مع السكان الأصليين من أجل السمك. لقد تمكن هؤلاء من البقاء على قيد الحياة خلال «سنوات الجوع الشديد» بمســاعدة السكان الأصليين، ولكن، حتى عندما بدأوا في حصاد فوائض من الذرة، اكتشـــفوا أنهم لم يكن لديهم محصول تجاري للدفع من أجل الضروريات المســـتوردة مـــن أرض الوطن. وكونهم كانوا لايزالون في حاجـــة إلى البضائع الحيوية، كانت الخطوة التالية هي دعوة لغير الانفصاليين من صيادي الســـمك من مقاطعة دورســـت، والذين كانت لديهم خبرة ســـابقة في مصائد الســـمك المتنقلة، للاســـتقرار على الســـواحل الصخرية في ماربلهيد. لم تكن مصائد الســـمك متميزة عن مجتمعات الزراعة الداخلية ماديا فقط، ولكن ثقافيا كذلك. لقد كان يقال إن «البحارة وصيادي الســـمك كانوا يبغضون عموما الاشتراك في أي وظيفة على الأرض. كانوا يفضلون التسكع على الساحل والحصول على قوتهم بشـــكل غير منتظم مـــن المحيط. إن البحار عندمـــا يبتعد عن المياه يصبح مثل سمكة خارج نطاقها الطبيعي. فالجبل والغابة ليس لهما سحر عليه». حلم هؤلاء الذين اســـتقروا في المنطقة التي ســـتصبح معروفة باســـم بوسطن في ثلاثينيات القرن الســـابع عشر بحياة رعوية، غير أنهم أجبروا - عن طريق طبيعة الأرض العنيدة - على التوجه إلى البحر، ليســـتثمروا ثروتهم أخيرا في صيد السمك والتجارة الساحلية[60].

لم يكن الصيادون الذين جُلِبوا من ســـاحل إنجلـــترا انفصاليين، ولكنهم كانوا رجال كنيسة إنجلترا Church of England، والذين كان يعتبرهم البيوريتانيون أنهم «زمرة شريرة ســـكيرة»، حيث أسماهم جون وينثروب «أناسا مزعجين». مع مرور الوقت سيســـتقر صيادو الســـمك هؤلاء، ولكن أبدا ليس بطريقة استقرار جيرانهم الداخليين. الرجال خصوصا استمروا في كونهم رحالة موسميين، مراوحين بين «أســـفل الشرق» إلى ســـاحل ماين والمقاطعات البحرية في كندا Maritimes في الصيـــف. في ماساتشوســـيتس وماين احتل هؤلاء الأماكـــن التي كانت عديمة

الفائدة بالنسبة إلى المزارعين، بيد أن حقوق استملاكهم كانت غير ثابتة بالنسبة إلى المناطق النائيــة المباشرة لأماكنهم، والتي كانت مناطق عمومية، حيث يمكن للجميــع جمع الخشــب فيها. كان هــؤلاء مهتمين أكثر بالبحر عــن اهتمامهم بالإقطاعيــات الأرضية، حيث كانوا يطوفون بالســواحل والجــزر، ناقلين البيوت ومؤســسـين لمراسي الصيد في شــهور الصيف، ثم مغادرين في الخريف لكي يبيعوا صيدهــم إلى التجــار الإنجليز وتجار نيو إنغلاند، ليســددوا دينهــم قبل حلول الشــتاء. في البداية، كانوا يميلون إلى الانتشــار على طول الســاحل، كل بسفينته وبقاربه الصغير. لم تأت موانئ المياه العميقة وقرى صيد الســمك ســوى لاحقا، حيــث إن معظم رحلاتهــم كانت تحدث على مراكب صغيرة عن ســفن البحار العميقة. كانت تلك لاتزال حياة بحرية أولية، يحياها هؤلاء على طول الســاحل وليس عبر قطع المحيط[61].

كانت المجتمعات الساحلية حول حافة شمال الأطلنطي فقيرة نسبيا، بروابط مجتمعيــة وعائلية ضعيفة، وبثقافة مختلفــة عن تلك التي لجيرانهم الداخليين. غالبا، كان صيادو الســمك من الشــباب الأعزب، الذين، كما يقول كوتون ماثير، كانــوا يتكلمون اللغــة الوثنية للحظ الجيــد (Good Fortune)، متحدثين، كما كان يفعل صيادو الســمك في كل مكان، حول حظ السمك أو (Luck of Fish). نــادرا مــا كان هؤلاء الرجال يســتمرون في صيد الســمك طــوال أعمارهم، هم يســتقرون أخيرا، يتزوجون وينجبون الأطفال، ثم يرسلون أبناءهم هم إلى البحر. في القرنين الســابع عشر والثامن عشر اللاحقين، كان للشعوب الساحلية في ماين وماساتشوســيتس مزارع «مياه مالحة» صغيرة، نــادرا ما تكون بحجم يوفر لهم عيشــهم مدى الحياة. كانوا يلتفتون بعدهــا إلى صناعة القطن، غير أن «الإبحار كان الدواء الرئيسي لبطالة الشباب»[62].

لم يصبح صيد الســمك مهنة إلا في القرنين الثامن عشر والتاســع عشر؛ فإلى وقتها اســتمرت الشــعوب الســاحلية في وضعها فردة حــذاء طويل على الأرض والأخرى في القارب، وهو ما عزز الفرق بين الســاحل والأرض النائية، وذلك حتى

نهايــة القرن الثامن عشر الذي بدأ بدخول مرحلة الحياة الصناعية الأولية، وهو انتقال إلى عصر جديد حيث ينطلق صغار الســن، من الذكور والإناث، للســعي خلــف حظوظهم في المدن الصغيرة والكبيرة. ومع ذلك، بقي البحر بالنســبة إلى العديد من الأمريكيين الساحليين، وكذلك الأوروبيين، الجبهة الحقيقية، حيث كان ذلك أحد الأســباب التي دفعت بأليكس دو توكويفيل ليكتب عن الأمريكيين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر: «لا أستطيع سوى تصديق أنه ذات يوم سيصبحون أول قوة بحرية في العالم. لقد ولدوا ليحكموا البحار، كما ولد الرومانيون ليستولوا على العالم»[63].

على مدى ثلاثة قرون، كانت أراضي الحافة لشمال الأطلنطي قد تشكلت أكثر عن طريق البحر منها عن طريق اليابسة. كانت السواحل تنتمي إلى المياه، حيث كانت تسمى نسبة إلى ما يقع خلف الساحل: وعليه جاءت تسمية موانئ كيب كود ماينز بار. قبل أن يُستكشــف الســاحل من اليابسة، كان معروفا فقط من البحر، وعن طريق ما كان موجودا في البحر، كان المستكشــفون الأوائل مهتمين أكثر بكثير باكتشــاف ما كان مختبئا أســفل أســطحه وفي أعالي الأنهار عنهم من اهتمامهم بتخطيط المناطق الأرضية. اليوم، غالبا ما يكون الوضع معكوسا، حيث الأرض تعــرف البحر، بيد أنه لاتزال هناك أماكن لم يتغير ســوى أقل القليل فيها عبر القرون. فحتى بعد أن تحول المزارعون الصغار لجزيرة هاريس الأســكتلندية إلى الأنشــطة الأرضية حصريا، وذلك خلال القرن التاســع عشر، فإنهم اســتمروا في الحديــث حول التحــرك «في» التجهيز للذهاب إلى البحــر والتحرك «خارجا» عند العودة إلى اليابســة. في قرى صيد السمك في نيوفاوندلاند، لايزال الاستدلال والتوجيه يحدثان عن طريق المياه. لا تعني النقاط الأساســية للأرض Cardinal points، ســوى أقـل القليـل عندمــا يُوجَّـه كـــل شيء إمـا إلى «أعلى الخليج» up the bay وإما إلى «أســفل الميناء» down the harbor. حياتهم على الأرض ما هي إلا امتداد لحياتهم في البحر. يتحدث السكان المحليون عن «الصعود على متن» climbing aboard سياراتهم و«الدخول إلى» hauling in موقف السيارة.

تســمى زيارة الجيران «الطواف أو السفر حول» أو cruising، وكما رأينا مسبقا، يشــار إلى نقل البيوت على أنــه «انطلاق» launching. وبينما هو شــائع الآن تســمية الشرفات باسم مصطبات في كل مكان، فإنه فقط في نيوفاوندلاند لاتزال تلك تسمى جسورا bridges[64].

ليســت الجغرافيا الســاحلية هي فقــط التي تختلف، ولكــن كذلك الزمن الســاحلي. من غير المفاجــئ لنا أنــه في نيوفاوندلاند، كما هــو الوضع في ماين وأماكن ســاحلية أخرى، الوقت «ليس ممتدا خطيا ولكنه منبســط، مســحوب بتيارات جذب وطرد مركزية. فكما سير السنة، كل الأشياء تنطلق من وتعود إلى هذا المكان الأوحــد». وعليه فلا غرابة في أن المؤرخين كانوا يعانون فهم الأماكن التــي لا تنــدرج مرتبة في سردهم الخطي. لقد كان على الســاحل أن ســجل تي. إس. إليوت زمنا «ليس بزمننا... زمنا أقدم من زمن الســاعات الدقيقة... »، نحن نتجاهل مفاهيم الشعوب الساحلية حول المكان والزمان نخاطر في تجاهل، فكما المــد والجزر والتيارات التي هــي معروفة بجرفها لملاك الأراضي الغافلين، فإنه لا بد من فهم التدفق الخفي للتاريخ الساحلي إذا ما أردنا أن نتعلم العيش بشكل ثابت مستدام كما فعلت الأجيال السابقة[65].

لقــد كان يقال إن «المالحين القدمــاء old salts وحديثي القدوم مثل جوني jonnies-come-lately يتحدثون بشكل مختلف عن البحر، بيد أن هؤلاء الذين يعرفونــه بأفضل شــكل لا يجدون حاجة إلى الحديث عنــه مطلقا». تأتي معظم الكتابات عن الســواحل من أقلام ملاك الأراضي، ولكن على الرغم من ذلك، فإنه مــن الممكن فهم كيف لهؤلاء الذين يســكنون طرف البحــر أن يفكروا فيه. في مايــن هــم «أكثر ميلا إلى التصديــق بالقضاء عنهم من التصديــق بالقدر؛ ولأن يركزوا [انتباههم] على دورات الحياة عنهم عن التركيز على المتغيرات المستمرة». هؤلاء الذين تعلموا أن يعيشــوا مع وليس فقط على السواحل، يعرفون أنه من الحماقة الاعتقاد بأنهم يســيطرون بالكامل على أقدارهم. لم يكن هؤلاء قدريين، ولكنهم يحترمون المد والجزر والتيارات التي تحدد إيقاع ومســتوى عالمهم. من

هذا المنطلق هم لايزالون مشـــابهين للجامعين القدماء، حراس طرائد أكثر منهم بســـتانيين، والذين يعتبرونه قدرهم أن يحولـــوا الطبيعة. يؤمن المؤرخون، الذين عملهـــم هو سرد القصص الدرامية ذات التغيير الخطي لمســـتقيم، كذلك بالقدر، وهذا هو أحد أسباب تباطؤهم في منح الطبيعة، والسواحل والشعوب الساحلية، مكانا في روايتهم. نتيجة لذلك، فقد فشـــل هؤلاء المؤرخون في سرد جزء مهم من التاريخ الإنساني[66].

4

استيطان السواحل

شيء بـــارد هـــي الخريطة، غير
لطيفة ومملة، وليدة الفرجار ولوح
الرســـام المحترف. لا يظهــــر الخط
الساحلي هناك، تلك الخربشة غير
المنتظمة بالحـــبر القرمزي، لا رمل
ولا بحر ولا صخور، إنها لا تخاطب
أي بحار.

بيريل ماركهام[1]

لا وجود للخطوط الساحلية في الطبيعة، إنها نتـــاج مبادرة إنســـانية، جرى تخيلهـــا في البداية، ثـــم اكتشـــافها، ثم تســـميتها، وأخيرا اســـتطلاعها واســـتيطانها. وبما أنني مؤرخ، فـــإن مهمتي هي أن أسرد ليـــس قصة شيء مادي بـــل قصة عملية ثقافيـــة، وهي العمليـــة التي عـــن طريقها ظهر فهمنا الحديث للسواحل. إن الكلمة، المشتقة من أصلهـــا اللاتيني costa، تعني أصلا جانب (Side)

«لم تنتبه الشـعوب السـاحلية إلى الخطوط»

الشيء: جانب قطعة اللحم، جانب الجسـد الإنسـاني، جانـب أي قطعة من الأرض أو الماء. لقد اكتسـبت الكلمة معناها الحديـث فقط مع أواخر القرن الثامن عشر، حيث أصبحـت وللمرة الأولى «the coast» أو السـاحل، ليس فقـط جانبا لشيء آخر ولكنه مـكان بحد ذاته. لقد كان في ذلك الوقت كذلـك أن دخلت كلمة coastline أو الخط السـاحلي إلى مفرداتنا، معطية شـكلا لذلك العالم حيث تلتقي اليابسة بالبحر، خالقة شيئا مختلفا تماما عن سواحل العصور السابقة[2].

لم يخلق أسلافنا فرقا حادا بين الأرض والماء كما نفعل نحن الآن. لقد كانوا يفضلون رؤية الكوكب على أنه terraqueous أو بري - مائي، وهو المصطلح الذي كان يسـتخدم بشـكل متكرر في القرن السـابع عشر. فحتى وقـت قريب، قاومت السـواحل الثبات الذهنـي والمـادي. لطالما اقـترب البحارة منها بخـوف عظيم، حيث يعرفـون أنها أكثر فجائية وغدرا من البحر بحد ذاته. لقد كان يقال عن سواحل نوفا سكوشا - اليوم تعتبر واحـدة من أجمل المناظر الطبيعية في العالم - إنها كانت منفرة للزوار القدماء، هي من الأماكن «التي تتحول العين عنها باسـتياء مؤلم». ولكن لم يكن السـكان بحد ذاتهم أقل تنفيرا، والذين حتى القرن التاسـع عشر كان سـكان الأراضي الداخلية يعتبرونهم برابرة، مشهورين بسوء سـمعتهم بأفعال «الزنا، وتعدد الزوجات، وسفاح الأقارب، والسكر...» وفقا للجغرافيا الإنجيلية التي سادت حتى ذلك الوقت، فإن الرب قد أتلف الأرض التي كانـت في يوم سـوية كعقوبة على آثام البشرية، حيث سـخر البحـر في مواجهة الأرض وحط من السواحل إلى «لا شيء سوى الخراب». إن السواحل الصخرية التي نعتبرها الآن حصونـا طبيعية، باعتبارها خط دفاعنا الأول، كانـت حينها تُرى على أنها نقاط ضعف، ومصادر قوية للأوبئة والموت. لقد كان الأشخاص المرتبطون بالسواحل يُعتبرون بهمجية البحـر بحد ذاته، وعليه يجب تفاديهم ما أمكن. وحتى اليوم، هناك شيء مختلف حول السـواحل. فبالنسبة إلى شـونا ماكيب: «مثل كل الأراضي الرطبة، يعتبر خط الساحل أو «أرضا صلبة» terra infirma، متكلسة ومحددة بالقدر نفسه، ليست بيابسة ولا ببحر، هشة ومرنة في الوقت نفسه، ترمز بالتساوي إلى الموت والبعث، والعزل والحميمية»[3].

السواحل غير المستوطنة

باسـتثناء إسـبانيا، لم تكن هناك قوة إمبريالية أوروبية حديثة مهتمة بامتلاك خط سـاحلي مستمر، حتى الجهد الإسـباني كان قليلا جدا نسبة إلى الطموح. بدلا من ذلك،

أسس الهولنديون، والإنجليز، والفرنسيون مقاطعات ساحلية أو نهرية معزولة، ومراكز تجارية يستطيعون إدارة التجارة منها. لقد استوطن هؤلاء أماكن متنوعة ومنفصلة - جزرا، وخلجان محمية، وأنهرا عريضة، وأي مكان يسهل الوصول إليه عبر الماء. وكإمبراطوريات تجارية وليدة البحر، لم يكن لديهم اهتمام كبير بالأرض بحد ذاتها. عندما بدأ الإنجليز باستيطان نيو جيرسي في القرن السابع عشر، تجاهلوا تماما الشواطئ التي أتت أخيرا لتحدد الولاية وتجعل من عقارها الأثمن بين عقارات العالم[4].

كانت الأراضي ذات أهمية بالنسبة إلى الهولنديين والإنجليز والفرنسيين فقط لمجرد أنها تعطي منفذا للمياه والبضائع من خشب، وفرو، وسمك، وهي التي جذبتهم إلى العالم الجديد أصلا. في القرن السادس عشر، عسكر هؤلاء على السواحل لكنهم لم يكونوا مستعمرات دائمة. وحول ماين كان يقال «كانت اليابسة فكرة متأخرة، شيء يوضع له طرف». إن صنع هذا الطرف كان عملية ممتدة ومتنازعا عليها، عملية تصورها ثورو إلى منتصف القرن التاسع عشر على أنها بالكاد بدأت، وأنها لم تنته حتى إلى هذا اليوم. في البداية حدثت زيارة وجرى تخطيط نقاط قليلة فقط على طول الساحل، تحديدا الموانئ العميقة ومصبات الأنهر، في حين جرى تجاهل البقية. لقد كانت سواحل أمريكا الشمالية حقا terra infirma أو أرضا صلبة، عتبة توفر منفذا ولكنها تقاوم الاستيطان. لم تكن هناك ضرورة إقليمية فاعلة في أمريكا الشمالية مثل تلك الفاعلة في إسبانيا الجديدة. لقد أدار القادمون الجدد ظهورهم إلى المناطق النائية ليواجهوا البحر حيث بقوا أكثر قربا وارتباطا بأوروبا عن الداخل الأمريكي. لم يصبح المستوطنون حضارة قارية لا شاطئية إلا بعد أن فازوا باستقلالهم وبدأوا عملية بناء أمة[5].

حتى أواخر القرن الثامن عشر، كانت الضرورة المائية هي المسيطرة. ففي عصر التنقل المائي، لم يكن لأي مكان دون منفذ للمياه، نهري أو محيطي، أي فرصة في البقاء. فكما كان آدم سميث يعي جيدا، أن من التجارة والإنتاج معا يعتمدان تماما على المياه. لم تجلب هذه المياه المواد الخام والبضائع التي اعتمدت عليها التجارة فقط، لكنها كانت مصدر القوة التي أدارت الرحى والأجهزة الميكانيكية والتي بدورها حركت التطور الصناعي الأولي. فقبل أن تتجه الصناعة إلى القوى البخارية، كانت مرتبطة بالمياه. لقد وجد الهولنديون ما كانوا يبحثون عنه على مصب نهر الهدسون المتسع. لقد استفاد الفرنسيون، وهم شعب نهري عظيم، أكبر استفادة من الممرات المائية الداخلية،

فيما كانت أوائل المستعمرات البريطانية غالبا على الجزر. أدارت المستعمرات الأولية في أمريكا الشمالية ظهورها إلى الأراضي الداخلية النائية. لقد كانت المستعمرات الأمريكية لإنجلترا توصف بأنها «متشـظية، هشة في تأثيرها القاري»، حيث إنها أكثر ارتباطا بكثير بالبلد الأم عنها ببعضها البعض، كانت تبدو مثل الجزر أكثر منها أراضي يابسة[6].

إن فكرة السـاحل كحد خطي مستمر بين الأرض والبحر لم تصل حتى بدأت جهود بناء الأمة لولاية إقليمية مستقلة جديدة، مؤسسة على نوع جديد من الرأسمالية التي كانت أقل اعتمادا على التجارة منها على الزراعة والإنتاج الصناعي. عندها، ولأول مرة، جرى تخيل السـواحل على أنها مستمرة، كحواف لشيء أعظم يدعى تحديدا قارات. لم يظهر مفهوم القارات حتى اكتشاف الأمريكتين، ولم يحدث سوى في القرن التاسع عشر أن تحول مركز الجاذبية السياسية والاقتصادية من السواحل إلى المناطق الداخلية. حتى وقتها، كانت الأرض المتاخمة لسـاحل أو ميناء تدعى hinterland أو أرضا نائية وكان يفترض أنها تنتمي إليهما عن كونها تنتمي إلى القارة بحد ذاتها[7].

إن فكرة القارة ومفهوم «الخط السـاحلي» قد ظهرا متزامنين. كانت السـواحل في البداية ترسم من البحر، بحيث لا توجد طريقة سهلة للوصول إليها من الأرض، في حين لم تعكس مخطوطات البحر فقط اهتمام ملاك الأراضي بل البحارة أيضا الذين يسعون إلى العثـور على موانئ آمنة وأراض محمية. لقد صوروا السـاحل الذي يقع بين البينين على أنه رتيب ساكن. بالنسبة إلى البحار كانت تلك أرضا سائبة، مجهولة وبالتالي خطرة، هي شيء يجب الابتعاد عنه. وكما كان يعرف كل القباطنة الساحليين، «إن آمن مسافة بين النقاط نادرا ما تكون خطا مسـتقيما». يصغي مسـار البحار إلى التيارات، والرياح، ولسـمات الأشياء أسـفل المياه التي لم يكن ممكنا إيجادها على أي خريطة، حيث إنها معروفة فقط للمحليين، الذين كان يعتمد عليهم لقيادة السـفن الأجنبية المقتربة من السواحل المجهولة[8].

«إن المشاهد الطبيعية بلا أسماء للأماكن محيرة مربكة»: هكذا يكتب بول شيبارد، وهـذه «التي هي بلا قوالب تصنيفية، سـيئة جدا». يتفق جيمس هاملتون باترسـون مع فكرة أن طريقة ترويض مشـهد طبيعي مخيف تكون بإخضاعه لسـلطة اللغة. إن إعطاء المياه مسـميات سـاعد في تهدئة مخاوف البحارة القدماء. لقـد تغلبت أوروبا تدريجيا على رعب الفوضى المطوقة التي أسـماها القدماء Oceanus أو المحيط وذلك

عن طريق تسـمية وتخطيط البحار القريبة من السواحل. لقد أسموا هذه البحار على أسماء الأراضي المجاورة - بحر فرنسا، بحر إسبانيا - بيد أنه قد مضى وقت طويل قبل أن تجري تسمية الجسم المائي الذي ندعوه الأطلنطي أخيرا، متبوعا بالهادي. حتى بعد أن جرى إنجاز ذلك، كل من هذه المحيطات بقي مجهولا ضخما، شيئا يجري قطعه وليس هدفا للوصول إليه بحد ذاته[9].

الخطوة التالية كانت تسمية أكثر أجزاء البحر خطرا، ذلك الذي يقترب من الأرض. بالطبع فإن سواحل أمريكا لم تكن قط بلا أسماء، بيد أن الأوروبيين قد شرعوا في تبديل الأسماء الأمريكية الأصلية الوصفية - Far Away Island أو الجزيرة البعيدة، Burned Place أو المكان المحروق - بمصطلحات أكثر ألفة وأقل إرباكا، بيد أنهم في البداية تركوا كذلك الساحل المستقيم من دون تعريف. عندما ازداد الازدحام الساحلي خلال القرن الثامن عشر، ارتفعت نسبة التسمية كذلك. فكما يبين هوراس بيك: «لا يمكن تسمية الصخور حتى يجري إيجادها، الطرق المعتادة لإيجادها - من أجل غرض التسمية - كان بأن تطلق سفينة باتجاهها». لقد أنتجت الحوادث المؤسفة كلمات عامية طريفة أطلقت على بقع من ساحل ماين. فقد دعي نتوء من جزيرة مونهيجان باسم Cold Arse أو المؤخرة الباردة، فيما سميت سلسلة الصخور بالقرب من جزيرة كرانبيري العظمى مبدئيا باسم Bunker's Whore أو مومسبنكر وذلك نسبة إلى امرأة غرقت بينما كانت تجدف باتجاه سفينة الكابتن بنكر لتصعد على متنها. لاحقا، التزاما بالمعايير الفيكتورية، تحول هذا الاسم إلى Bunker's Ledge أو نتوء بنكر، فيما أُعيدت تسمية المؤخرة البادرة باسم Ragged Island أو الجزيرة الشعثاء[10].

وفي أعقاب رسامي الخرائط ظهر الفنانون، ولاحقا كذلك المصورون الذين سيجمدون زمنيا الطبيعة الانسيابية للساحل. في البداية، عمل الفنانون من على متن السفن، عائدين بأنظارهم في اتجاه الأرض، مؤطرين المرسى والخط الساحلي في انسجام مع التقاليد الأوروبية في رسم الموانئ. وعليه فقد صُورت الأماكن البعيدة والمحمية على أنها أقل إرعابا. وقد جرى تطويع موانئ مختارة قبل أن يُتَخلص من مخاوف بقية الساحل بزمن طويل. فقط إزاء نهايات القرن الثامن عشر بدأ الفنانون في جعل الأجراف والسواحل الصخرية مواضيع لأعمالهم، وقد كان في وقت لاحق لأن واجه هؤلاء البحر المفتوح في محاولة لتصوير قواه وعظمته اللامتناهيين[11].

إخضاع الساحل

كان الســاحل، في معظم التاريخ الإنساني، كما يصفه بول كارتر «متقطعا بعناد، ســحيقا، غير عقلاني، مستحيل الإصلاح». لقد كان الســاحل ينتمي إلى البحر وعليه فقد كان يعتبر خارج نطاق السيطرة البشرية. لقد استغلت البشرية سماته الطبيعية على مدى ألف ســنة، ولكن فقط نســبة صغيرة جدا من الساحل وفرت ميناء آمنا، خاصة بالنسبة إلى السفن الشراعية الأضخم حجما. لقد صدم زلزال لشبونة العظيم العــام 1755 أوروبــا حتى تعي مدى إمكان أن تكون حتــى أعظم موانئها البحرية مكشــوفة وضعيفة. إن الدمار الذي صنعه التســونامي الناتج عــن الزلزال، والذي تضخم بحكم هيكلة ميناء لشبونة، كان بعظمة ذاك الناتج عن الزلزال بحد ذاته[12].



عرض لآثار زلزال وتسونامي لشبونة العام 1755. تم نشرها في 1756. الصورة مقدمة من مجموعة كوزاك، الأرشيف الإلكتروني لمؤسسة NISEE لهندسة الزلازل، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

لم تجد سـفينة المايفلاور أي مرسى على سـاحل ماساتشوسيتس؛ لذا كان عليها أن تلقي بمرسـاها مقابل بلايموث وتبقي ركابها على متنها حتى يتمكن المهاجرون من بناء موقع يمكن سـكنه. لم يترك هؤلاء أي أثر أو دليل على كونهم هبطوا إلى السـاحل على الصخرة التي سـتولع بها الأجيال القادمة على أنها مكان المنشـأ في التاريخ الأمريكي. في الحقيقـة، لقد أجبروا على بنـاء جسر على الصخور وذلك حتـى يتمكنوا من التحميل هناك. الأنهر كذلك أثبتت أنها ليست بأكثر ترحيبا، فالاختراق الإنجليزي للداخل توقف على خط المنحدر حيث أوقفت التيارات المائية القوية تقدمهم أعلى النهر. لقد تفادى الفرنسـيون التيـارات النهرية عن طريق حملهم للمراكب والأدوات عبر اليابسـة، بيد أن الإنجليز اسـتخدموا سـفنا أثقل والتـي لم تكن لتتحرك حتى تعلمـوا بناء القنوات وتوظيـف أقفالها. لم يحدث ذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر، عندما بدأت المواقف تجاه الطبيعة بحد ذاتها تتغير، وفكرة هندسـة السـاحل، واستصلاحه من أجل أغراض منفعية، بدأت بالبروز[13].

إن المقـدرة على «التفوق بالحيلة على الطبيعة، وإخضاعها» كانت ولوقت طويل حلم مخططي المـدن الأوروبيين المثقفين الذين كانوا يفكرون في توفير منفذ أسـهل للبحـر لمدن مثل بـوردو. في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسـع عشر، بدأ هذا الحلم بالتحقق عن طريق المسـح والتخطيط، راسـمين خطوطا حيث لم يكن للبشر وجـود من قبـل، صانعين «طرفا محايدا» جديدا تماما متوافقـا مع المنطق الديكارتي للبحاريـن قليلي الخبرة[*]. كان ذلك أول جهد مبذول لإعادة تشـكيل السـاحل وفقا للتصميم المنطقي، ومن هذه النقطة فصاعدا أصبح الاقتصاد الرأسمالي وولايات الأمة أكثر إصرارا على جعل السـاحل متوائما مـع احتياجاتهم، وهو المجهود الذي يتعارض مع الطبيعة ويتناقض مع التاريخ السابق للسواحل والسكان الساحليين. بحلول نهاية القرن التاسـع عشر، كانت هذه الحملة الذهنية والمادية العصرية قد اكتملت بشكل كبير. لقد جرى ترويض البحر، وتحجيم «حوافه الخطرة إلى مجموعة من الإحداثيات التي يمكن قياسها». ليس فقط تحويل الساحل بشكل كامل، ولكن جرى كذلك تهجير

(*) المنطق الديكارتي إشـارة إلى نظام الإحداثيات الذي طوره رينيه ديكارت؛ حيث يجري تحديد أي نقطة في نظام من خلال تعيين علاقتها بما يقابلها من جهة بالمحور الأفقي، ومن جهة أخرى بالمحور العمودي، على مستوى هندسي مسطح. [المحرر].

ســكانه الأصليين بصورة عامة. النتيجة كانت الاختفاء، «الحقيقي والرمزي، لإنســان الساحل، Homo littoralis» [14].

اليــوم، عندما تقترب الأغلبية منا من أي ســاحل، نفكر نحن في خط يفصل الأرض عن الماء. بيد أن الخطوط المستقيمة، وكما يذكرنا تيم انجولد، غير موجودة في الطبيعة. واقعيا، الســواحل متلاشــية، متكسرة ومفتتة. الخطوط السـاحلية هي قصص خيالية مناسبة لنا، «أيقونة افتراضية لعصر الحداثة، إشارة إلى انتصار التصميم المنطقي المفيد على تقلبات العالم المادي». بالنســبة إلى علماء البيئة مثل راتشــيل كارســون، «دائما ما يبقى طرف البحر حدا مراوغا عصيا على التعريف»، بيد أن تلك حقيقة ضائعة بالنسبة إلى هؤلاء من الذين نشــأوا في عالم قد تغطى تماما بالجســور والأنفاق وجرت هندسته بشــكل تام، حتى إن، وبكلمات ويليام بنتينغ، «تقســيمة الأرض لم يســبق لها أن قلت أهميتهــا عما هي عليه اليوم». وكما يشــير بنتينغ، الوصف نفســه يمكن أن يقال عن تقســيمة البحر، الذي حتى في المدن البحرية، هو «مســيّج بالطــرق السريعة ومنسي بشكل كبير» [15].

لطالما كان السـاحل يُستكشف باللمس والشــعور، وبالاستماع إلى أصوات الأمواج تتكــسر على النتوءات غير المرئية أو باشــتمام الأرض. بداية من القرن الثامن عشر، بدأ البصر يحل محل الحواس الرئيسية الأخرى وذلك عندما جرى دفع ما أسماه مارتن جاي «نظــام الرؤية الأفقية لعصر الحداثة» إلى المقدمة. وعلى نقيض الطرق الأخرى للتعرف على العالم، فإن البصر يباعد بالمســافة بين المشاهِد والمراقَب. إن ثقافتنا البصرية، التي تعتمد بشدة على الرسم الخرائطي لمعرفة الطرق، قد كيفتنا لرؤية الخطوط في الطبيعة حيث لا توجد فعليا. وبســبب طبيعتها المادية، فإن الشواطئ معروفة بصعوبة قياسها وتخطيطهــا. يُخبرنا علماء البيئة بأنــه يجب معاملة هذه الشــواطئ على أنها مناطق متســعة حيث الماء واليابســة لا يفترقان، بيد أننا نصر على رؤيتهما من منظور ديكارتي والذي يفرض ثنائيات binaries [16].

بــكل تأكيد، لايزال هناك مِن هو عارف بوضعية البحر، ومطلع كذلك على وضعية الأرض وعليه أن يقاوم أي تقســيمة ســاذجة بين الاثنتين. لايزال هناك سكان ساحليون يعتمدون على البحر من أجل كسب رزقهم، والذين يمثل لهم الساحل مكانا للإحساس والرائحــة والصوت كما هو للإبصار. هؤلاء يمكن أن يوجدوا على كل ســاحل، وإن كان

بأعداد متناقصة. بالنسبة إلى الأغلبية منا، فإن البحر هو المجهول العظيم. يظهر البحر في الإعلام فقط عندما تكون هناك كارثة. لم تحمل صحف المدن الكبرى أخبار السفن منذ ستينيات القرن العشرين، وفيما عدا موسم الأعاصير، نادرا ما تعرض خرائط الطقس ما يحدث في البحر. وبكلمات ألان سيكولا: «إن النظرة المحدقة المدينية لم تعد تقع بعد الآن على خط الساحل، وفراغ معرفي يتبع ذلك». لاحظ بول ثيروكس، مقيم في كيب كود، أن «الغريب الذي يتمشى أو يقود سيارته إلى الساحل... دوما ما يرى تقسيمات»، بينما «لا يفرق المحلي بين الأرض والماء، ويستمر منطلقا، في الواقع يشاهد هو ذهنيا أسراب السمك والتيارات الملتفة والسفن الغارقة والصخور التي لا تظهر سوى في وقت الجزر- هي ليست عوائق بل سمات»[17].

إن الساحل في عقلية الإنسان المحلي أقرب بكثير إلى ذلك الذي كان مسيطرا حتى القرن الثامن عشر، عالم مائي حيث الفرق بين الأرض والبحر ضبابي، عادة ما يكون «مملكة مستنقعية (والتي) ليست بمشهد أرضي ولا مشهد بحري». بيد أن الغريب الذي يتقمص الرؤية الحداثية، مختبرا السواحل على أنها حدود، يقف على الساحل، مشاهدا فقط سطح البحر، يستمر في جهله بالسمات الخفية التي يمكن أن تعرف فقط من خلال التجربة المباشرة والمعرفة المحلية. فهذا الشخص، أو هذه، غالبا ما يتجاوز ما يربط الأرض بالبحر، حيث، ونظرا إلى جهلهم بالمفردات القديمة لمثل هذه الأماكن - **guzzle** أو الإسراف في الوقود، **creek** أو الجدول، **gutter** أو القناة، **bore** أو ارتفاع المد، **wrack** أو الحطام - فإن ملاك الأراضي لا يستطيعون تسمية وبالتالي في الأغلب لا يستطيعون فهم ما يقع بينهم وبين المحيط المفتوح. فمثل خارطة الطريق التي أوصلتهم إلى البحر، يسجل الغرباء كل ما يقع عبر الساحل كمساحة خالية، ذاك الأزرق المتوحش[18].

صُنْع الساحل الحديث

كانت عملية استيطان الساحل أكبر بكثير من مجرد عملية تأهيله بالسكان. لقد كانت تعني كذلك وضع هذه السواحل على الخرائط وهندسة سماتها لتناسب أهداف المدينة واقتصادها. فما كان يوما طرف البحر، معرفا بمدى وصول المياه، أصبح ساحل البحر، سمة من سمات الأرض. وما كان عتبة مفتوحة في كلا الاتجاهين أصبح

حدا صلبا. كل سنة تصرف الحكومات حول العالم المليارات محاولة «إصلاح» سواحلها، مجبرين إياها على الامتثال للخطوط التي رسموها في الرمال. بنت الحكومات السدود المضادة للأمــواج، والخواصر الأرضية، والأرصفة، وجرفت جبالا من الرمل، وســحبت مزيدا كذلك لتعوض ما جُرف. وباســم حماية الســاحل، دمــرت الحكومات مصبات الأنهار والأراضي الرطبة، مزعزعة في الواقع النظام الساحلي بتشجيعها عوامل التعرية المدمــرة والفيضانــات الناتجة عن التدفقــات البحرية المفاجئة. وكــما تظهر العلوم الســاحلية الحالية، ســيكون من الصعب تخيل نشــاط أكثر ضررا يُنفّذ باسم حماية طبيعة سواحلنا.

لقد بدأ اســتيطان ســواحل أمريكا الشــمالية بشــكل جدي في القرن الثامن عشر ووصــل أوجّــه في أواخر القرن التاســع عشر، عندما جرى استكشــاف وتأهيل الداخل القاري لأول مرة. لقد كان الاستيطان هذا أكثر بكثير من مجرد العملية المادية من حيث جعل قرى صيد السمك دائمة، وصنع مرافئ بموانئ ثابتة، وبناء المنارات والحصون. لقد كانــت هناك العملية الذهنية كذلك لإعادة تصــور العلاقة بين البشر والطبيعة وكذلك بين الأرض والبحر. إن الرغبة في استقرار شكل الساحل أخيرا وإلى الأبد كانت على الأقل بأهمية استقرار البشر على طول خطوط السواحل.

من وجهة نظر البحار، الساحل هو أخطر جزء من البحر، وما كان يسمى على مدى قرون «الساحل المستقيم» هو الأكثر رعبا بينها جميعا. فكما رأينا، كان البحارة القدماء يبحرون من ميناء إلى آخر، ومن مصب نهر إلى آخر، محاولين تجنبه. فما يعتبر اليوم في سوق العقار الأكثر جاذبية بين الممتلكات - الشاطئ - كان يعتبر في حينها **terra nullis**، فراغا يجــب تجنبه. لقد جرى تخطيط الموانئ ومصبات الأنهار في البداية من على متن السفن، وذلك لتسهيل الأمر على البحارة. فحتى القرن الثامن عشر، كانت المخطوطات تعكس رؤيتهم، بتركيز على الموانئ ومصبات الأنهار، بالكاد مصورة الســاحل المستقيم. لقد جرى تخطيط الســاحل المســتقيم من أجل جمهور مختلف، هو ملاك الأراضي. إن اســتطلاع الســواحل كان مشروعا مســتنيرا مدفوعا بالضرورة الأرضية لتحديد خطوط الممتلــكات وتثبيت الحدود لولايات الدولة الداخلية الناشــئة. فقبــل أن تكون هناك مســاحة، لا بد من وجود حدود. كانت الخطوط الســاحلية نتاج الضرورات السياسية لولايات الدولة المشغولة بتعزيز ودعم نفسها.

كانت الممالك القديمة مكتفية بترتيب مراكزها، تاركة سـواحلها وحدود أراضيها مشوشة. وكانت الحدود القديمة «لا تعنى بتحديد الإقليم وبدء علاقة مؤثرة مع العالم الخارجـي على قدر ما كانت تعنى بعزل وحماية شيء في الداخل». لم تنتبه الشـعوب الساحلية للخطوط. فوفق رأي مايكل بيرسون، «شكّل الساحل جبهة ليس الغرض منها أن تفصـل وتحتوي، لكنها بالأحرى تجـد معناها في كونها منفذا». لقد تحرك إنسـان السـاحل بسهولة وبدافع من الضرورة عبر وعلى طول منطقة شملت الأرض والماء. لقد كانت خطوط السـواحل لما قبل العصر الصناعي توصف بأنها مناطق للنقل والإرسال، وأنها حـواف عوضا عن مناطق فاصلة. لقد كانت تلك جبهات مفتوحة والتي واجهت كلا طرفي الأرض والبحر، ميسرة الحركة وليست معيقة لها لأجناس البشر والحيوانات[19].

كانت السـواحل مناطق حدودية قبـل أن تكون حدودا بزمن طويل. كانت أراضي محايدة حيث يمكن للتجار من مختلف البلدان أن يلتقوا على أسس متساوية. باختصار، قربت السواحل بعض الشعوب من بعض بدلا من أن تفرقهم. في بداية العصر الحديث لم تكن السواحل أول خطوط الدفاع، حيث كانت الممالك تفضل أن تتمركز عميقا في الداخل. لقد طُورت فكرة السـاحل المحصن فقط في القرن التاسـع عشر، عندما أصبح التحصين السـاحلي في الولايات المتحدة هو أضخم إنفاق عسـكري سـلمي. إن العصر البريطاني العظيم للدفاع السـاحلي بدأ خلال الحـروب النابليونية وقد أدى إلى بناء ما يزيـد على مائة من أبراج مارتيلـو. عندما روع نابليون الثالث، ابن شـقيق بونابارت، البريطانيين دافعا بهم إلى حلقة أخرى من البناء في السـتينيات من القرن التاسع عشر، أصبحـت الأبـراج، التي كانت ضعيفة أمام الأسـلحة المدفعية الجديدة، تعرف باسـم حماقات بالميرسـتون. إن الأبراج الخمسـة والعشرين التي لاتزال تقف على الساحل لا توفر أي دفاع حقيقي لكنها محفوظة كجزء من التراث الساحلي البريطاني[20].

ولادة المرفأ

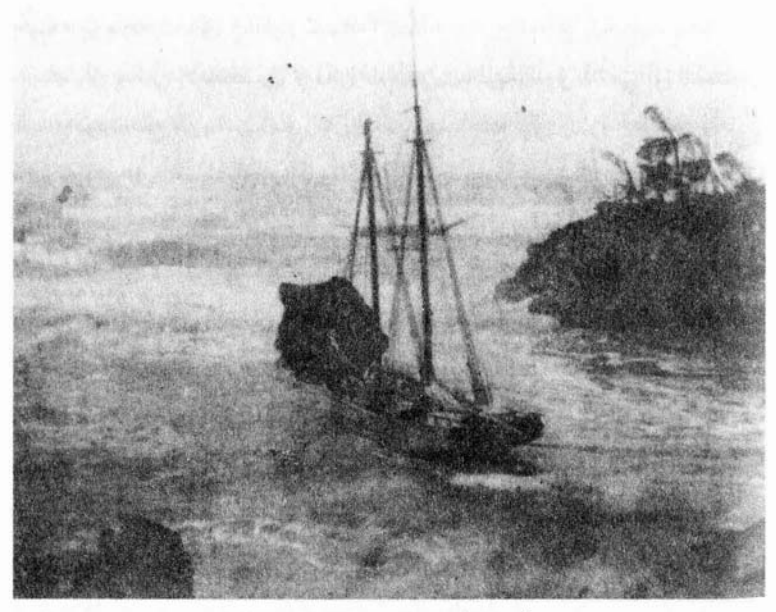
في عصرنا الحالي للتجديد الضخم لخط السـاحل، وحين تسـتغل كل مدينة ذات منفذ للماء هذا التجديد كمصدر للثراء السكني والاقتصادي، فإنه يصبح من الصعب تصديق إن كان هناك وقت أدارت فيه المدن ظهورها إلى البحر، مبعدة نفسها قدر المستطاع عما كان يعتبر من صفاته الخطرة المهينة. بالنسـبة إلى شـمال أوروبا، لم يتحقق الصلح بين المدينة

والبحـــر حتى تحقق التوســع في التجارة عبر البحار في بداية العــصر الحديث. لقد كان في حينها أن وزعت أمستردام نفسها حول ممراتها المائية، وأصبح الخط الساحلي مركزا للحياة الاجتماعية للباريســيين واللندنيين. خلال الفترة نفســها، تخيل المصممون المدنيون إحضار البحـــر إلى المدينـــة أو المدينة إلى البحـــر، وذلك على الرغم من أن هـــذا العداء القديم بين النظام المدني والفوضى البحرية لم يختف تماما، خصوصا على طول الساحل الأطلنطي. إن الأساطير حول المدن الغرقى لطالما لاحقت الخيالات الأوروبية. كان يعتقد أن مدينة أفلاطون الخيالية، أطلانتس، موجودة في المتوسط بداية ثم بعد ذلك في الأطلنطي، والأساطير المحلية، مثـــل تلك التي تدور حول مملكة ليونيس الغارقة، والمســتلقية في مـــكان ما بين كورنويل وجزر سيســيليا، كذلك قد تلاعبت بمخاوف هؤلاء الذين يحيون على طول الســاحل. مثل أطلانتس، كانت ليونيس حكاية تحذيرية لأناس ساء مصيرهم بسبب فسادهم. كل من كان يعيش بالقرب من ســاحل ما كان يعرف بقرى ومدن قد دُمرت بشـــدة بسبب العواصف، وأخـــرى، مثـــل دونويك، التي اختفت تقريبـــا تماما. إن الربط بين البحـــر والموت والخراب اســتمر ثابتا في العقول الغربية حتى نهايات القرن الثامن عشر، وذلك عندما تغلب إغراء البحر أخيرا على مساوئه. لقد اجتمع البحر بالمدينة في وقت متأخر، ومن البداية كانت تلك تركيبة غير مستقرة لم يتجاوز وجودها القرن العشرين. واليوم، لا وجود لمدينة المرفأ، ففي عصر سفن الشحن، أصبح المرفأ والمدينة كيانين منفصلين مجددا[21].

لقد كانت ولادة المرفأ نتاج ذات القوى الاقتصادية التي استوطنت السواحل في بداية العـــصر الحديث. فعـــلى الرغم من وجود الموانئ صنيعة الإنســـان في العالم القديم، فقد أصبح شـــائعا الاعتماد على الموانئ الطبيعية وضفاف الأنهر. تركت مواقع الرســـو ومواقع التجارة المؤقتة القليل من الأثر على وجودها. في أوروبا الشمالية كانت المرافئ الصخرية والأرصفة الممتدة داخل البحر شـــديدة الندرة، ولم تصبح أرصفة التحميل شـــائعة إلا في القرن الثامن عشر. إن زوار ســـيغتونا اليوم، والتـــي كانت ذات يوم أكثر المواقع التجارية في الســـويد ازدحاما لكنها اليوم أصغر مكان في الســـويد لايزال يشار إليه على أنه مدينة، يعانـــون صعوبة في تخيل أمجاد هذه المدينة الماضية. وجـــود مطار أرلاندا الدولي بقرب المدينة فقط هو ما حفظها من الزوال التام. توجد آلاف مما كان ذات يوم مرافئ مزدهرة وحيث لا يوجد فيها أي شيء اليوم. لقد كانت تلك أكثر بعض الشيء من كونها شـــواطئ أو شقوقا في الجروف حيث يمكن إلقاء المواد المشحونة على أظهر القوارب المنتظرة. على ســـاحل كاليفورنيا، هنـــاك دزينات مما كنا ندعوه ذات يـــوم «مرافئ حُفر الكلب»، هي

موانئ بالكاد تكفي، كان يقال، لكلب لكي يلتف حول نفسه فيه. معظم هذه الموانئ قد اختفت من دون أن تترك أي أثر، ومن غير اسم حتى ليذكّر بوجودها السابق[22].

في شــمال أوروبا، انتقلت المرافئ تدريجيا باتجاه الســواحل، حيث أصبحت أقرب إلى المدن في حد ذاتها، مبعدة نفســها عن نظائرها من المــدن الداخلية. لقد كان هناك تكاثر للمرافئ الصغيرة في القرن الثامن عشر، فقط ليجري استبدالها بالقليل من الموانئ الضخمة بحلول نهايــة القرن التالي. في العالم الجديد، كان كل مــن الأمريكيين الأصليين والأوروبيين يفضلون «المراسي» Landings كمواقع تجارة، محتفظين بمجتمعاتهم الدائمة على درجة من البعد عن البحر، والتي تعتبر إشــارة إلى الاحترام الذي تحمله كل الشعوب الساحلية تجاه القــوى المدمرة للمحيط والخوف من هؤلاء الذين قد يصلون بشــكل مفاجئ عن طريقه. كانت الشعوب الأصلية تفضل تجديف زوارقها إلى حيث السفن الأوروبية، مقايضين إياهم على المياه بدلا من المخاطرة بالســماح لهم بالرســو. في معظم الوقت، كان قباطنة السفن سعيدين بهذا الترتيب، حيث كانوا أكثر حماية لسفنهم المسلحة أو الجزر المحصنة[23].



مرفأ حفرة الكلب على ساحل كاليفورنيا الشمالي.

الصورة مقدمة من مكتبة الكونغرس.

في شـمال أمريكا، ظهرت المدن أولا على السـاحل عوضا عن الداخل. كل المدن الشـمال أمريكية الاسـتعمارية الرئيسـية كانت مبدئيا مرافئ بحرية، أنشئت من أجـل أغراض التبادل وفقط لاحقا طورت مؤسسـاتها الدينيـة والمدنية التي كانت بذات براعتهم التجارية. وعلى العكس من إسـبانيا الجديـدة، لم يكن مركز الحياة المدنية في أمريكا الشمالية هو ميدان المدينة أو ساحتها العامة ولكن كان المركز هو الميناء، الذي كانت تقابله كل المباني العامة والخاصة الرئيسـية، والذي كان يخدم عـلى أنه «غرف خارجية ضخمة» التـي كانت كل الطرق تقـود إليها وكل الانتباه يتوجه نحوها. فمن البداية، مَدَّ سـكان هذه المـدن أياديهم ليعانقوا البحر، حيث بنـوا المرافـئ وأرصفة الموانئ. في البداية، لم تكن مدن أمريـكا مالحة المياه امتدادا لـلأرض بقدر ما كانت امتدادا للماء. فقط لاحقا تسـببت الضرورات الأرضية بملء المدن بالمرافئ والموانئ، وهي الحركة التي قاومها في البداية البوسـطنيون (سـكان بوسطن) على أسـاس أنها أعاقت «طريقا (مائيا) سريعا أعظم من أي طريق سابق جرى تخطيطه أو إنشـاؤه عبر مفوضية أي مدينة أو مقاطعة... لقد جرى تخطيطه وصنعه بواسطة الخالق العظيم نفسه»[24].

فعـلى جانبي الأطلنطـي، لم تكن المرافـئ البحرية الأولى تنتمي إلى السـاحل بقـدر كونها تقع على السـاحل. كان العديد منها يقع على جـزر حقيقية، وأخرى كانـت تقع على أشـباه الجزر. كل تلـك كانت منفصلة عـن الأراضي حولها. كانت للمرافئ، مثل مرفأ بوسـطن، أراضٍ نائية ضحلة المياه، وبعضها الآخر لم يكن له أي منها مطلقـا. كان للمرفأ الفرنسي على جزيرة كيب بريتون، القلعة الفرنسـية عند لويزبورغ، القليل من الاتصال مع سـاحل اليابسة الصخري أو مع الغابة المخيفة في الداخـل. «إن الأراضي النائية الحقيقية للويزبـورغ»، كتب جون ماكنيل: «ومصدر ثرواتها يقع عبر السـاحل». في بداية العصر الحديث، كانت المرافئ البحرية متصلة بشـكل أكبر بالمرافئ الأخرى أكثر من اتصالها بأراضيها النائية، فتلك كانت بطبيعتها entrepôts أو مراكز تجارية، وهي كلمة مشـتقة من الكلمة الفرنسـية التي تعني «warehouse» أو «مخـزن». كانت المرافئ تفهم في البداية على أنها مراكز تجارية حيث يمكن أن يجري تصدير واسـتيراد البضائع التجارية عن طريق المياه من دون دفع ضريبة الاستيراد[25].

إن أمســتردام الجديدة الهولندية كانت مجرد مركز تجاري، لا تنتج شيئا ذاتيا للتصدير. ســيمر وقت طويل قبل أن تطور خليفتهــا الإنجليزية، نيويورك، علاقة مع الأرض في حد ذاتها. كان ذلك واقعا كذلك بالنســبة إلى المواقع الفرنسية الأولى في ســانت كروا وبورت رويال. لم ينو البيوريتانيون الذين اســتقروا في بوسطن في العــام 1630 أن يجعلــوا منها مرفأ، ولكن عندما فشــل حلمهم في تكوين اقتصاد رعوي داخلي ، التفتوا مجددا إلى البحر ليكســبوا المال من صيد الســمك والتجارة الســاحلية. كل هذه المرافئ القديمة كانت عقدا في شــبكات معقدة حيث كانت الأرباح تصنع من البضائع المتبادلة وليس من تصدير واستيراد الأشياء من الأراضي الداخلية في حد ذاتها. فلو أن هذه المرافئ وُجدت فقط لتقوم بأعمال تجارية مع الأراضي النائية قليلة الســكان التي هي في بدايتهــا قليلة الإنتاج، ما كانت لتكون قادرة على البقاء أصلا[26].

كمراكــز تجاريــة، كانت المرافئ البحرية أماكن مقصــودة في حد ذاتها. مع ذلــك، أصبحت هــذه المرافئ أخيرا نقاط عبور إلى دولهــم. بمرور الوقت، جرى اســتبدال المخــازن بالمصانع حيث إنها أضافــت الإنتاج لنشــاطاتهم التجارية، أصبحت المرافئ أقل شــبها بالجزر عبر الساحل وأكثر ارتباطا بالأراضي الرئيسية، أولا عــبر القنوات، ولاحقا عبر الطرق، وأخيرا عن طريق ســكك الحديد. بحلول منتصف القرن التاســع عشر، لم تعد تلك تنتمي إلى البحر لكنها أصبحت نقاط عبــور بينه وبــين الداخل. ازدهــرت نيويورك عندما أصبحــت مرتبطة بالغرب الأوسط عن طريق قناة ايري في عشرينيات القرن التاسع عشر. وجدت بوسطن نفسها، من دون وسائل اتصال مائية مشابهة باتجاه اليابسة، في وضع سيئ حتى أُنقذت عن طريق السكة الحديد[27].

صناعة الواجهات المائية

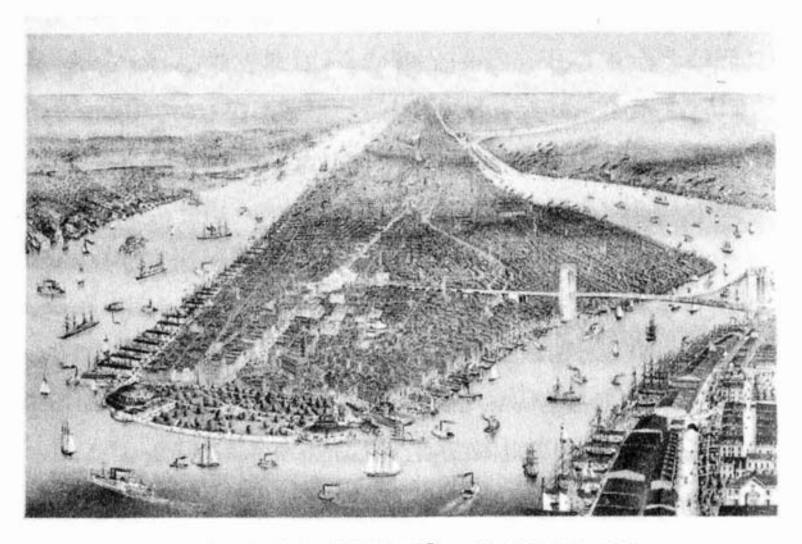
في البداية، اســتغل البحارون الســمات الطبيعية، ولكن لم يمر وقت طويل قبل أن يبدأ ســكان المرافئ «بتحســين» منافذهم للماء، حيث بنوا أرصفة الموانئ ومد الجسور لتحل محل مراسي المياه الضحلة القديمة. في لندن، سبب التوسع الضخم في التجارة الساحلية في القرن الثامن عشر اكتظاظ نهر التايمز حتى إن المدينة أصيبت

بهســتيريا بناء أرصفة التحميل. تطلبت الســفن المتعاظم حجمهــا تغييرات والتي سرعان ما تسببت في اســتبدال البيئة الانتقالية القديمة بحافة من نوع جديد، التي جرى وصفها بالمصطلح المخترع حديثا waterfront أو الواجهة المائية، والذي وضع فاصلا أكثر حدة بــين الأرض والماء. بيد أن هذه الأعمال الفذة الصناعية تدخلت في نشاط الحَتّ الطبيعي لتيارات المياه عند مصبات الأنهار ولمياه الأنهار المتدفقة، مما أدى إلى تراكم الرواسب النهرية وبالتالي ضرورة إزالة الموانئ. لقد سبب تطويق نهر التايمز بالســدود إغلاق طريق فيضانه نحو السهول وهو ما سبب فيضانات متكررة في المدينة. في اليابــان، أدى تعميق الموانئ وتقويم القنوات إلى زيادة سرعة وحجم الأعاصير، التي بدورها اســتوجبت خلق مصطلح جديد، tsunami أو التسونامي أو «موجة الميناء»، وذلك للتفريق بينها وبين سلوك البحار عندما تقترب من السواحل عن طريق الأنهار المتعرجة والأراضي الرطبة الساحلية[28].

وحتــى عندما مــدت المرافــئ ممراتها باتجــاه البحر، فإنهــا أصبحت أكثر ارتباطا بأراضيها النائية، لتنقســم أخيرا بين المقيمين الذين كانوا يكسبون قوتهم عــن طريق البحر وهــؤلاء الذين كانوا منتظمين في أنشــطة أرضية خالصة. لقد أصبحت تلك أقل شبها بالجزر وأكثر قارية، وذلك إما عن طريق مد الجسور وإما ببنــاء الأنفاق. ومع بناء جسر بروكلين في العــام 1883، فقدت مانهاتن طبيعتها الجزيرية. لقد كان يقال إن «القارة قد امتدت حتى إن الشــخص يمكنه، بقدمين جافتين ومن دون اســتخدام العبــارات، أن يزور كل مدينة من الأطلنطي وحتى Golden Gate أو البوابــة الذهبية». بحلول ذلك الوقت، وباســتثناء خطوطهم الســاحلية، أصبحت مــدن المرافئ جزءا لا يتجزأ من الأراضي الرئيســية، الحافة الصلبة من القارة[29].

بالتأكيــد، بقيت المرافئ الصغيرة، التي فاق عددها الموانئ العميقة بكثير وذلك حتــى القرن التاســع عشر، بيئة انتقاليــة، تربط الأرض بالبحــر. في أيامها الأولى، لم يكن لمدينة سيلم خط ســاحلي واحد ولكن عدة خطوط، وذلك لأنها ومثل العديد من المســتوطنات الأخرى على ســاحل ماساتشوســيتس، كانت محاطة بالمياه. كان الناس يتنقلون عبر القوارب، وكل الشوارع كانت تقود مباشرة إلى المياه. كان التجار، الذين غالبا ما كانوا يصحبون ســفنهم إلى البحر، يعيشــون أقرب ما يمكن إلى المياه.

كانــت الزراعة وصيد الســمك لايــزالان متلازمين في كل مــكان، وقليلون فقط هم مــن جعلوا من البحر مهنتهم مدى الحياة. فقــط في المرافئ الأكبر حجما في أوروبا وأمريــكا الشــمالية ظهر شيء مثل رجــل البحر أو الصياد المتخصــص تماما، وحتى عندهــا فإن فكرة «البحرية» كانت تعني مجــاورة البحر عوضا عن الانتماء الكامل إليه. هؤلاء الذين كانوا يصطادون الســمك مارســوا المهنة موسميا أو أنهم خرجوا للبحر لســنوات معدودة خلال شــبابهم، وعليه فإنهم لم يكونوا نسلا منفصلا لكن في الواقع يصعب تمييزهم عن الآخرين المنتمين إلى الشــعوب الساحلية حول حافة الأطلنطي بأكملها[30].



نظرة تحليقية لمانهاتن. كورير وآيفز، 1884. الصورة مقدمة من كوربس.

في البداية، أرســل ســكان المناطق مثل بوســطن، وفيلادلفيا ونيويورك أبناءهم إلى البحــر ليتعلموا التجارة. أصبح أكثرهم اقتدارا قباطنة ســفن وتجارا رحلا حول العالم. لقد كان الخروج إلى البحر في البداية يعتبر مرحلة في الحياة أكثر منه إشــارة إلى مســتوى طبقي. ولكن بحلول منتصف القرن التاســع عشر، أصبح كل من صيد الســمك والخروج إلى البحر عملا مستمرا مدى الحياة. ظهرت التقسيمات الطبقية على الخط الساحلي، وبحلول أواخر القرن التاسع عشر ظهر في كل مكان «بروليتاري

أعماق البحار»، الذي يجري توظيفه بشكل متزايد عن طريق المرافئ الأجنبية عوضا عن تلك الموطنية. لقد كان عند تلك النقطة أن بدأت المدن تدير ظهورها لخطوطها الساحلية. فما كان مركزا للتعارف وفخر المدينة أصبح ينظر إليه كوجود غريب، ومنطقة خطرة والتي، مثل البحر في حد ذاته، يجب أن تبقى على بعد مسافة آمنة. إن الحياة الساحلية للبيئة الانتقالية القديمة قد تمزقت إربا حيث أصبح الخط بين البحر والأرض محفورا بشكل أعمق وغير مسبوق حول الأطلنطي. ومثل النيويوركيين واللندنيين، تجنب الباريسيون الخطوط الساحلية العاملة وهؤلاء العاملين هناك. لقد فضل البرجوازيون المدنيون الآن البرك الصناعية والنوافير عن النهر الذي يجري خلال المدينة[31].

بحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت الطبقات المحترمة تبتعد عن أرصفة الموانئ، والمدن مثل نيويورك كانت تنغلق على نفسها. لقد انقطع أعضاء طبقة التجار، الذين استفادوا كثيرا من التجارة البحرية، عن الذهاب إلى البحر فيما عدا الإبحار بيخوتهم خلال ساعات الترفيه. لقد كان في ذلك الوقت تقريبا أن تحولت أرصفة الموانئ إلى أماكن استجمام في أيام الآحاد. وكما بين أحد البوسطنيين: «إن أرصفة موانئنا.. كانت في الحقيقة متنزهات مائية للناس، ولم تكن تخلو من دروس حول الأشياء. في أيام الآحاد اللطيفة كانت عائلات بأكملها تتجه إلى هناك. في أيام الإجازات والمناسبات الاحتفالية الخاصة، كانت هذه الأرصفة جذابة جدا». بيد أن أهل المدينة المهذبين كانوا يتفادون الواجهة المائية الساحلية في عطل نهاية الأسبوع، حيث أصبحت هذه منطقة مختلفة، وعالما بين عالمين، ومثل السواحل الحدودية القديمة، كان مسكونا بمخلوقات غريبة، هذه المرة من النوع الإنساني. لقد كان هناك أن وُجد «الجديد، والحيوي، والمتغير والغريب». هناك تكدس الغرباء، والمهاجرون، وهؤلاء الساعون خلف مجموعة من النشاطات غير المشروعة: التهريب، والاختلاسات، وتجارة المخدرات، والتجارة بالبشر. بالنسبة إلى المواطنين المهذبين، أصبح خط الساحل منطقة ممنوعة عليهم، «مرتعا مخيفا للمنبوذين»، ومكانا يرتاده المدمنون، والمثليون، والمومسات. كان الذكور البرجوازيون يستمتعون بامتياز ارتياد الأماكن الفقيرة عند الحدود المدينية للبحر، بيد أنه لم يكن لامرأة محترمة أن تشعر بالراحة هناك، فيما عدا الصعود إلى عبارة أو سفينة فارهة عابرة للأطلسي[32].

كان العــصر العظيم الصعود للواجهــة المائية البروليتاريــة، تقريبا بين العامين 1850 - 1950، مميزا بسبب بيئته الفريدة والمتأثرة بشدة بالتلوث الناتج من اعتياد ســكان المدن على التفكير في البحر على أنه حوض عظيم يمكن تفريغ كل شيء فيه. سرعان ما خسرت المرافئ البحرية أطرافها الناعمة عندما دمر الحفر ودفن النفايات الأراضي الرطبة التي كانت مصدرا للحياة. عندما اســتطلع هنري هدسون لأول مرة ما كان سيصبح لاحقا ميناء نيويورك، فإنه وصفه على أنه جنة عدن، فائض بالسمك وقشريات البحر، بما في ذلك أعظم تجمعات للمحار في العالم، والتي هي قادرة على تنقيــة كل المياه في الخلجــان المحيطة خلال بضعة أيام فقط. ومثل كل الشــعوب الســاحلية، فإن هولنديي القرن الســابع عشر حصدوا هذه الــثروة وجعلوها ذات فائدة اقتصادية. وحتى القرن العشرين، كانت المدينة تتغذى على حصاد سواحلها. «كان المحــار هو الرابط بين نيويورك والبحــر وهو الرابط الذي ضاع تدريجيا»، مع ذلــك. اليوم تقريبا كل ما يقدم على نصف المحارة في مانهاتن يؤتى به عبر الجو من حول العالم[33].

بعد منتصف القرن التاســع عــشر، تحولت المدن العظيمــة ثقافيا، إن لم يكن كذلــك فعليا، إلى مدن مغلقة. فالعوالم المائية التي كانت ذات يوم مألوفة أصبحت الآن تعــرف بشــكل أقل عن طريق الخــبرات المباشرة أكثر منها عــن طريق الأدب والفن. ولكنه في ذلك الوقت أصبح ســكان الأراضي الداخلية مبهورين بالبحر كما لم يكونوا من قبل، معيدين اكتشــافه ولكن مــن زاوية مختلفة تماما، ليس عن طريق العمــل بعد الآن ولكن من خــلال أوقات الترفيه. وكما ذُكر ســابقا، في 1850، كان النيويوركيــون، الذيــن لم يعد لمعظمهــم أي روابط مع البحــر، يتدفقون إلى الخط الســاحلي في عصريات الآحاد. «تقريبا كل الرجال.. في وقت ما، كانوا يحتفظون عن قرب بالمشــاعر نفســها تجاه المحيط التي هي لي»، كما كتب هيرمان ميلفيل. لقد كان مذهولا فعلا بما شــاهده على خط ســاحل مانهاتــن: «منصوبين مثل الحراس الصامتين حول المدينة بأكملها، يقــف الآلاف والآلاف من الرجال الفانين مأخوذين بخيالاتهم المحيطية. البعض منهم يســتند إلى الركام، وآخرون يجلسون على رؤوس الجسور المائية، البعض ينظر إلى ما بعد متاريس السفن المقبلة من الصين، وآخرون مرتفعــون عاليا على الأشرعة والصــواري، كأنهم يكافحون مــن أجل اختلاس نظرة

أفضـل باتجاه البحر. بيد أن هؤلاء جميعهم رجال يابسـة، ممـن يقضون عطلهم الأسـبوعية بين الخشـب والجبس - مربوطين إلى مناضدهـم، مثبتين إلى منصاتهم، متعلقـين بمصطباتهم، كيف إذن حدث ذلك؟ هل اختفـت الحقول الخضراء؟ ماذا يفعلون هنا؟»[34].

لايزال سؤال ميلفيل يستصرخ إجابة. لقد كان يعتقده دافعا قديما، الدافع نفسه الذي سبب إيقاع نركسوس في غرام عارم بصورته المعكوسة في المياه حتى إنه غاص خلفها وغرق. بالنسبة إليه، قدم المحيط «صورة لا يمكن إدراكها لطيف الحياة». لقد اعتقد تي إس إليوت أن البحر ألمح إلى «خلق سابق آخر»، وهو التصور الذي شاركه فيه هنري ديفيد ثورو، وراتشـيل كارسون، وكل هؤلاء الذين يتفقون مع ميلفيل في أن «التأمل والمياه متزاوجان إلى الأبد»[35].

نصف حياة قرية صيد السمك

لم يكن لدى هؤلاء المرتبطين بالبحر بشـكل يومي الوقت للتحديق في المياه. لم تصل هذه العادة إلى قرية صيد السمك حتى القرن العشرين، عندما استبدلت الخطوط السـاحلية العاملـة حوض القـوارب marina. مع اسـتثناءات قليلة، أصبحت هذه أماكن حيث «تعرض وتمارس جوانب من صيد السمك، ولكن حيث لم يعد السـمك يصطاد أو يباع محليا». إن الصورة النمطية لقرية صيد السـمك، بأكواخها حسـنة التجهيز، وخطوطها الساحلية المرتبة، وسـكانها اللطفاء، تقدم صورة زائفة لمجتمعات صيد السـمك من الماضي. نحن نُصر على أن نُسـبغ على قرى صيد السمك قِدما مصطنعا، مسندين إلى سكانها، الذين اعتدنا نعتهم باسم «fisherfolk» أو «الصيادين»، أصولا جينية كاذبة إلى حد بعيد. تلك هي طريقة أخرى استـوطنا بها السـاحل، في هذه الحالة، من خلال أوهام نتجت من النظر إلى الماضي[36].

لقد كان هناك عدد قليل جدا من قرى صيد السـمك الدائمة قبل بداية العصر الحديـث، ولم يكـن حتى القرن الثامن عشر أن أصبحت هذه القرى شـائعة أصلا. فقـط عندما أصبح صيد السـمك مشروعا تجاريا ظهر شيء مثـل مجتمعات صيد السـمك، وحتى في وقتها، بقيت تلك «مجتمعات متقلبة»، تتبع السمك، وثرواتهم

تتدفق وتنحسر كما هي الحركات غير المتوقعة للفريسة التي كانوا يعتمدون عليها. كانـت حياة مجتمع صيد السـمك الصغير عـادة قصيرة، وبحلـول منتصف القرن التاسع عشر، جرى تجاوزها بوجود المرافئ الكبيرة الحجم، وذلك عندما أصبح صيد السمك مهنة يومية كاملة وفي الأغلب بروليتارية في أعماق البحار[37].

حتى عندما تكونت القرى في الموانئ المناسـبة على طول الساحل، أبقى سكانها على المسـافة بينهم وبين البحر نفسه، موجهين أكواخهم باتجاه اليابسة متى تيسر ذلك. كان أول من احتل الشاطئ وبنى مساكن مقابلة للبحر هو سكان اليابسة من الطبقتين العليا والوسـطى الذين كانوا مقتنعين بالقيمة الشفائية لماء وهواء البحر. بسـبب إغراءات المنتجعات الصحية الداخليـة بوعود مسرفة بعلاجات إعجازية في منتصـف القرن الثامن عـشر، بدأ الإنجليز المعتلون والمصابون بوسـواس المرض في التدفق إلى أماكن مثل سـكاربورو، وبرايتون، ومارجيت، حيث كانوا يدخلون البحر ويخرجون منه بواسـطة أجهزة سباحة حديثة الاختراع، ويقضون ساعات لامتناهية يمشـطون الشاطئ ويشـاهدون معالمه، وهي الأنشطة التي كانت غريبة تماما على السـكان المحليين، الذين، كما بينت جين أوسـتين، تفادوا المياه فيما عدا عند كسب الرزق منه. بالنسـبة إليهـم «لم يكن البحر خفيا فقط - حتـى صوته ورائحته كانا ينقطعـان تماما فيما عدا خلال سـوء الأحوال الجوية. إن المناظـر البحرية متروكة فقط لأهل المدينة، الذين لم يختبروا تهديداته قط. البحار الحقيقي يفضل أن يبقى محبوسا أرضيا عوضا عن مواجهة المحيط»[38].

إن حقيقة قرية صيد السـمك تسـير باتجاه معاكس لكل الصور النمطية التي اسـتُثمرت بكل حرص خلال القرنين الماضيين. فكما تبين، أنها ليست نوعا من البقاء لنمط ما قديم من أنماط الحياة مطلقا. على العكس تماما، كانت القرية ظاهرة حديثة تماما، هي نتاج التحولات الاقتصادية العظيمة للعصر الحديث، أولا للثورة الزراعية ثـم الصناعية، التـي في البداية حركت عددا كبيرا من التنقـلات للناس من الداخل باتجاه السواحل. إن الفقراء المطرودين والملاك الصغار الذين فقدوا ممتلكاتهم على الأرض اتجهوا إلى صيد السمك بدافع من الحاجة، في الأغلب كملاذ أخير، وذلك منذ القرن السادس عشر فصاعدا. تكرر هذا النمط عندما اتجه مستوطنو العالم الجديد، بعد أن اكتشـفوا عدم إمكان كسـب قوتهم من الأرض، إلى البحر بدافع من اليأس.

وكما عبر، بطريقة لا تنسى، ساموييل إليوت موريسون عن الوضع: «لم ينفذ الرب معجزة على أرض نيو إنجلاند. لقد قدم البحر. إن الحاجة الملحة خلقت بحارة ممن كان يجب أن يكونوا مزارعين... لقد اتجهت ماساتشوسيتس إلى البحر، إذن، ليس بدافع الاختيار، بل بدافع الضرورة»[39].

لم يكن الأشخاص العاملون منجذبين إلى البحر بقدر ما كانوا مساقين إليه. لقد كانت أحداث داخلية بقدر ما هي أحداث في البحر السبب في استيطان السواحل. في أسكتلندا، كان ملاك الأراضي العظماء الذين امتدت أملاكهم حتى السواحل مشغولين بصنع «fish-touns» أو قرى صيد السمك في القرن الثامن عشر وذلك عن طريق إجبار مستأجريهم على أن يحصلوا على مبالغ الإيجار من العمل في البحر. لم تظهر قرى صيد السمك المستقلة هناك حتى بداية القرن التاسع عشر، وبقيت تلك فقيرة ومعتمدة على تجار السمك. خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، جرى تقييد مجتمعات صيد السمك وحصرها في الموانئ بشكل متزايد، حيث أُبعدت عن الشواطئ بدفع من أحدث المهاجرين من الداخل، والمصطافين. اليوم، هم يفقدون حتى أماكنهم في الموانئ، مدفوعين إلى الأراضي الداخلية بسبب ارتفاع قيمة الأملاك وقوانين المناطق المقسمة[40].

منذ أقدم الأزمنة، كانت قرى صيد السمك نتاج الأسواق التجارية، سواء الداخلية أو تلك التي هي عبر البحار، وعليه فقد كانت معرضة لتذبذب العرض والطلب. لقد كانت تلك القرى غير مستقرة بشكل كبير وعرضة للفشل، كما كان سكانها متنقلين وغير مستقرين، ومستعدين لتجاوز القرية أو العودة إلى الزراعة عندما كانت الظروف تتطلب ذلك. في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، افتقدت هذه القرى الاستمرارية المجتمعية أو الأسرية. أما شهرتهم بزواج الأقارب فقد أتت بعد ذلك بزمن بعيد، حيث، كونهم ليسوا «جنسا مختلفا» مطلقا، كانوا مثل الشعوب الساحلية القديمة الذين كانوا يتنقلون ذهابا وإيابا عبر خط المد وذلك على مدى حياة كاملة، جامعين بين الزراعة وصيد السمك: رجال كل أنواع العمل والتجارة الذين كانت سمتهم المميزة هي تكيفهم وليس تفردهم. في بداية القرن التاسع عشر، كان شعب ماين الساحلي من بين أكثر الشعوب على الأرض سفرا وعالمية. «في الأيام الغابرة، جزء لا بأس به من أفضل الرجال هنا كانوا يعرفون مائة

مرفأ وشـيئا عن طريقة معيشـة الناس فيها»، هكذا أشار القبطان ليتل بيج، إحدى الشخصيات الخيالية لسارا أورن جيويت. كان هؤلاء كذلك أحد أكثر الأجزاء السكانية تطـورا في أمريـكا، حيث كانوا يزدرون كل ما هو قديـم لمصلحة الجديد. في أوروبا كذلك، كان البحارة يشـكلون مؤشرا إلى الاتجاهـات الجديدة في الملبس والحديث. عندمـا كون هؤلاء جزءا معقولا من الـثروة، بنوا منازل جديدة وجهزوها على طرز المدينة الحديثة. كانت ردهاتهم مملوءة بالقطع الغريبة الدخيلة - الببغاءات، بيض النعام، المرجان - كما أنهم كانوا يأكلون من أواني الصيني المسـتوردة. حتى شواهد أضرحتهم كانت جديدة»[41].

إن مفهوم «الصيادين»، مثل الفكرة النمطية حول الفلاحين الفقراء، كانت نتاج الرومانتيكية الروسوية Rousseauist لأواخر القرن الثامن عشر، التي دشنت رحلة طويلة للنـاس، داخل وخارج أوروبا، غير ملوثة بالحضارة. فكما اتجه الجيولوجيون إلى أجراف البحر المتآكلة بحثا عن دلائل أحفورية لأزمان سـحيقة، مشط متخصصو الآثـار السـواحل والجـزر بحثا عما اعتقـدوه ينتمي إلى أسـلافهم الذين يمكن أن يربطهم بماضيهم البعيد. خلال هذه العملية، جرى استبدال صور القرصان والباحث عن السفن الغارقة التي كانت منتشرة في القرن الثامن عشر بتلك التي كانت لفريق قارب الإنقاذ الشـجاع ولحارس المنارة. لقد جـرى ترويض صورة جاك تار، المرتبطة بالصخب والشـجار والتطـرف في إنجلترا القرن الثامن عـشر، تماما بحلول منتصف القرن التاسع عشر، حيث أصبح البحارة رموزا للوطنية البريطانية[42].

في أعقـاب خسـارتها للمسـتعمرات الخارجيـة، التفتت بريطانيـا إلى عملية اسـتيطان سـواحلها بحد ذاتها لأسباب سياسـية وكذلك اقتصادية. في العام 1786، أنشـئت جمعية المصائد البريطانية بغرض إنشـاء قرى صيد سمك نموذجية بحيث تخفـف من حدة فقر البحارة غير العاملين والمـلاك الصغار المجردين من أملاكهم. معظـم هذه القرى - توبرموري، وأولابول، ولوج بـاي، وبولتيني تاون - كانت تقع في أسـكتلندا، حيـث أخرجت التصفيات الآلاف من أراضيهـم. لقد وفرت كل منها خدمات ولوازم لصيد السـمك، كما وفرت كذلك أرضية مناسـبة لرعاية هذا العمل الإضافي. في لوج باي، أضعف المنفذ الأرضي عمل المسمكة عندما تحول السكان كلهم إلى الزراعة، ولكن في أكثر هذه المجتمعات نجاحا، بولتيني تاون، الواقعة في المنطقة

التي تسـمى اليوم مدينة ويك، اسـتمر اقتصاد بيئي انتقالي من العام 1803 حتى العام 1893، بما يقارب سبعة آلاف مقيم خلال موسم صيد السمك[43].

إن البحار البريطاني، الذي كان ذات زمن مصدرا لكثير من القلق، أخذ في التحول سريعـا إلى مادة للتوق إلى الماضي، مقدما بصـورة نمطية في الفن ومصورا في مواقع قديمة ليس لها سـوى أقل القليل من الارتباط بظروف عمله الحقيقية. في الولايات المتحـدة الجديـدة، أخذت عملية التحويـل الفولكلوري زمنا أطـول لتتطور، لكن بحلول 1880 جرى تشـكيل صورة «المالح القديم» بشـكل مشابه، لتنهي أخيرا كل آثـار عملية التحويل البروليتاري التي طغت في كل مـكان كان الصيد فيه الاختيار الأوحـد للإنسـان الفقير. وكما قال جون سـتيلجو: «بحلول العـام 1910 أصبحت الشعوب السـاحلية عينات أو شخصيات، وهي الصورة المتبقية، في الخيال الشعبي على الأقل، إلى اليوم»[44].

إن الفلاح الفقير وقـرى الصيد الموضوعة في قوالب مثالية كانوا جميعا نتاج الخيـالات الخصبة للفنانـين والكتاب، إنهم الغرباء غير المنتمين الذين سـيطروا عـلى مناطق طبيعية معينـة ممثلين لطريقة حياة لا يمكـن وجودها في المراكز المدنية الحديثة. في إنجلترا، أصبحت القرية الريفية هي روح الإنجليزية، بينما في أسكتلندا كان مرفأ صيد السمك هو الذي أصبح يمثل نوعا معينا من الأسكتلندية الأصيلـة. في المناطق البحريـة الكندية ونيو إنجلانـد، أصبحت مجتمعات صيد السـمك كذلك حاملة للتراث الإقليمي، وحتى القومي. بلغت العملية ذروتها في 1920 و1930، عندمـا أصبح الاقتصاد العالمـي مضعضعا. لقد بدا لكثيرين ممن يعرفون الشـعوب الساحلية فقط من الزيارات الصيفية للسواحل والجزر، أنهم كانوا أكثر تجذرا، وأصحاب سـلالة أنقى من شعوب المدينة. وعلى الرغم من أن الصيادين شـكلوا نسـبة أصغر من السـكان العاملين في جزيرة كيب بريتون في نوفا سكوشا من عمال المناجم والمزارعين، فإنهم أصبحوا رمزا لكل ما يستحق أن يحافظ عليه هناك. الوضع نفسه ينطبق على أهالي ننتاكيت وشعوب قرى صيد السمك الصغيرة في نيوفاوندلاند[45].

مـن المفارقـات أنه في أعقاب انهيار صناعة صيد السـمك، أصبـح لقرية صيد السـمك هذا النوع من التحكم في الخيال الحديث. لم تحصل جلوسيسـتر، واحدة

مـن القليل من المرافـئ البحرية التـي رفضت أن تموت بصمـت، قط، على هذه القيمة الرمزية لمرفأ روكبورت القريب، الذي جعلت منه أرصفته المهجورة ومراكبه الشراعيـة المغطـاة بالعفن مصدر جـذب للفنانين. في أعقاب انهيـار صناعة صيد الحيتان في منتصف القرن التاسع عشر، بحثت النخبة التجارية في ننتاكيت باستماتة عن اسـتخدامات جديدة لأرصفتها المهجورة ومساكنها المتآكلة. لقد تبين أن التاريخ كان سـلعة بإمكانها تنشـيط أسـواق السـياحة والعقار. وبحلول القرن العشرين، استطاعت الصناعة السياحية المحلية أن تخفي التاريخ البغيض لصيد الحيتان خلف المظاهر الجذابة للمنازل الكولونية المجددة، مقنعين السياح بأن «التاريخ قد توقف تقريبا منذ نصف قرن مضى»[46].

إن السواحل، كما الجزر، أصبحت الآن تقدم على أنها أماكن توقف فيها الزمن. عندما ذهب الرسـام الأمريكي مارسـدن هارتلي باحثا عن نسـخة دنيوية للأبدية، فقد اعتقد أنه وجدها على السـاحل الشرقي لنوفا سكوشا. كان يعتقد أن الشعوب الساحلية هم بقايا زمن أقدم، وقد كانوا مثيرين للإعجاب بسبب ذلك. وعلى الرغم من ميولهم التنقلية، كانوا يصنفون على أنهم «سـكان أصليون»، مكتسـبين صفات المكان حيث تلتقي الأرض بالماء. في فرنسـا، كانت الشـعوب الساحلية تعامل على أنها غريبة ومثيرة، حيث كانوا يتخيلونها بداية، ويشـبهونها بالتاهيتيين والأستراليين الأصليـين. بيـد أنهم لم يعـودوا معتبرين همجـا، حيث إنه حتـى عندما تخلصت السـواحل من سمعتها كأماكن خطرة، كان سكانها يُعاد تخيلهم على أنهم صيادون ظرفـاء غرباء، شـخصيات بريئة غير ضـارة. بحلول نهاية القرن التاسـع عشر، كان شـائعا العثور على سياح فرنسيين يؤدون دور الصيادين بالطريقة نفسها التي لعب بهـا الأمريكيون من دون الهنود، كطريقة للتخلص من قيود الحضارة وللتواصل مع نفوسـهم القديمة. أصبحت الشعوب الساحلية، المرسـومة والمصورة ولكن نادرا ما تفهم حقيقة من قبل السـياح والذين تقع هذه الشـعوب تحت نظراتهم المحدقة، أصبحت هذه الشـعوب، مثل قرى صيد السـمك، منمطة بشـكل متزايد، ممتثلة للأعراف المتجانسة لتجارة السياحة. في روكبورت، وهي قرية الفنانين المفضلة، تغير الكثـير ولكن جرى الاهتمام بأن يبقى بيت صيـد أوحد والواقع على رصيف برادلي على حالته تماما وذلك من أجل رسامي هذا النوع من المواضيع. عندما جرى تحطيم

ما كان يعرف باسم Motif Number 1 أو «الرسم رقم 1»(*) عن طريق عاصفة في العام 1976، جرت إعادة بنائه بسرعة كبيرة، كونه أيقونة ثابتة ليس فقط لروكبورت ولكن لكل قرية صيد سمك على ساحل نيو إنغلاند[47].

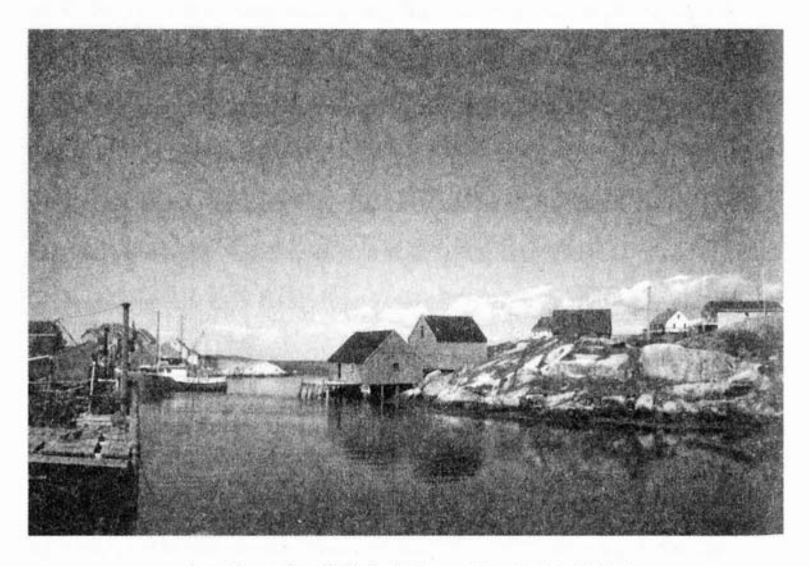


أيقونة الفنانين Motif Number 1. روكبورت، ماساتشوسيتس.
الصورة من ويكيبيديا.

لقد استرعت منطقة جون بيجي في نوفا سكوشا، والتي هي ربما أكثر الأماكن رسما وتصويرا على ساحل أمريكا الشرقي، انتباه كندا في العام 1944 عن طريق كتابات جاي. اف. بي. لايفزي، وهو رجل إنجليزي ولد على جزيرة وايت، والذي وجد هناك «عالما بشريا نابضا صغيرا مثبتا على بحر مضطرب». بيد أنه كان الرسام الكاتب ويليام إي. ديجارث، الذي بدأ بالاصطياف في الجون في 1930 ثم انتقل إلى هناك بشكل دائم في 1955، الذي قدم الأكثر ليحقق الرؤية الرعوية للايفزلي. كان ديجارث فنلنديا ساحليا بخلفية سويدية والذي هاجر إلى كندا في العام 1926. كونه تدرب على أن يكون رساما، فإنه خصص حياته ليجد ما كان يسميه «أجمل مكان على الأرض». لقد

(*) نموذج مطابق لكوخ صيد قديم، يرتاده الفنانون كثيرا لرسمه. يقع في ولاية ماساتشوستس الأمريكية. [المحرر].

حدد هذا الموقع على حافة خليج سـانت مارجريـت بين مجموعة من المنازل لاتزال بلا كهرباء أو سـباكة داخلية، وإن كانت تسـهل القيادة إليها من مدينة نوفا سكوشا الرئيسية، هاليفاكس. وبحنين عميق إلى «عصر ماضٍ للبحر»، صادق ديجارث القطاع المتضائل من صيادي السـمك المحليين وبدأ بتحويل المكان من خلال رسـوماته ومن خلال كتيب أخرجه اسمه This Is Peggy's Cove أو«هذه منطقة جون بيجي». إن اسم منطقة الجون قد جرى اشتقاقه من الخليج الذي كان جزءا منه، بيد أن ديجارث اخترع بيجـي خيالية، امرأة نجت من حادثة غرق سـفينة والتي يفترض أنها أعطت اسـمها للجون عندما تزوجت أحد منقذيها المحليين. كان السكان المحليون مقتنعين بـأن ديجارث «قد اخـترع القصة»، قائلين «لا بد أنه فعل، فلم يسـمع أحد آخر بها مطلقـا». غير أنهـم لم يعترضوا كثيرا، لأنه بحلول خمسـينيات القرن العشرين كانت السـياحة قد حلت محل صيد السـمك كمصدرهم الرئيـسي للدخل. أصبح ديجارث المتعهد المسؤول عن شهرة القرية وثروتها وذلك حتى وفاته في 1983[48].



الخط الساحلي في جون بيجي، نوفا سكوشا. الصورة من ويكيبيديا.

إن ظهـور جون بيجي ومثيلاتها حول الأطلنطـي كان النتاج النهائي لعملية طويلة من الاسـتعمار الثقافي، والتي مع أواخر القرن التاسع عشر كانت قد محت تماما الرؤية

القديمة للسـواحل على أنها قبيحة ومشـؤومة. إن تمكن لايفـزي وديجارث من تخيل الشـعوب الساحلية والذين كانوا بالكاد متمسـكين بوجودهم المتقلقل على أنهم أكثر استقرارا من جيرانهم الأرضيين ما كان سوى عمل فذ لخيالاتهم النشطة. «جزيرة الهدوء، ملجـأ ودود مـن كل اضطرابات العالم»، كان ذلك ما كتبه لايفزي بشـأن مكان كان في الواقع يختبر انهيارا اقتصاديا وتناقصا سريعا في السكان. اليوم القليل من المراكب فقط بالكاد تترك الميناء، بيد أن الصورة النقية لقرية صيد السـمك محافظ عليها عن طريق القوانين التنظيمية من ستينيات القرن العشرين والتي تضمن عدم تغير الصورة المرئية لجون بيجي، مهما كان يحدث لعملية صيد السمك نفسها[49].

تقلـد الحياة الآن الفن، حتى على حسـاب الحياة نفسـها. فمن أسـكتلندا إلى نيوفاوندلاند، تسـتمر قرى صيد السمك بل تزدهر مع غياب عملية صيد السمك. إن المقاطعة السـاحلية لمنطقة بكي تعتاش على التجارة السياحية، حيث إن شعارها هو «مسـتقبلنا موجود في ماضينا». لقد اختفت العديد من مسـتوطنات صيد السمك، بيد أن أخريات أعادت صنع نفسـها على أنها نسـخ جمالية نظيفة من شيء لم يكن لـه وجود فعليـا مطلقا. فكما لاحظ جان جوس: «أن الطبيعـة البحرية جذابة فقط في المـاضي أو من على مسـافة... حيـث إن طبيعتها «الرملية» عـن قرب غير ملائمة لاحتياجات الطبقة الوسطى»[50].

إن صور صيادي السـمك الذين يسـتحضرهم الفنانون والكتـاب بداية من أوائل القرن التاسع عشر قد حملت أوجه شبه قليلة لهؤلاء الذين عملوا على السواحل. لدينا توصيفـات حقيقية قليلة للعمل البحري، خاصة للعمل الخاص بالنسـاء والذين كانوا جزءا لا يتجزأ من هذا الاقتصاد. هناك كذلك عدد أقل من الأشكال الجديرة بالتصديق في المشاهد البحرية عنها في المشاهد البرية. لقد كانت السفينة، والتي هي مصدر فخر التاجـر، غالبا في المقدمة. إن الحياة في أعالي البحار لطالما ألهمت الفنانين والكتاب، بيد أن صيد السمك من على الساحل والنقل الساحلي فشلا في تأجيج خيالاتهم. في البداية، هؤلاء الذين كانوا يستكشـفون السـاحل مـن البحر قد تجاوزوه لمـا يقع بعده على الأراضي الداخلية. «بالنسـبة إلى المشـاهد اللبق القديم»، كتب إيان ماكاي، «كان خط السـاحل قبيحا وغير مثير للاهتمام والصيادون بدائيين، منبوذين من «مسـيرة التقدم» جديرين بالشفقة. لم تكن الخطوط الساحلية في روكبوند وصياديها ذوي اللحى الشائبة

لتُرى على أنها رموز ملهمة لنوفا سكوشـا». غير أنه جرى لاحقا تحويل السواحل وبقايا السـكان الذين عاشـوا عليها إلى حصـون لمجتمع كان، في عيون أشـخاص مثل ليفزي وديجارث، قد جـرى تقويضه على مدى قرن من الصناعة والتمدين. إن ما وصفه جين ديديـير أربابن على أنه عملية ممتـدة عبر قرن كامل «إنهـاء همجية» desavaging الشـعوب السـاحلية قد أتت بالمعجزات. إن الأشـخاص الذين كانـوا يوصفون بأنهم بجموح السـواحل نفسـها أصبحوا اليوم يصورون عن طريق برنـارد ديفوتو على أنهم «أشـخاص من صخر الغرانيت»، إنهم يانكي منطقة ماين ذوو الشخصيات التي لا تهتز والذين يستطيعون مقاومة كل عواصف الحداثة، بما فيها كارثة الكساد العظيم. عندما ذهـب الفنان الأمريكي مارسـدن هارتلي إلى نوفا سكوشـا في 1935، فإنه، مثل ليفزي وديجارث، كان يبحث عن «حجر ثابت في عالم متغير»[51].

نهاية اليابسة

بالنسبة إلى راتشيل كارسون، «الحد الفاصل بين البحر والأرض هو السمة الأكثر سرعـة في المـرور والأسرع زوالا عـلى الأرض». وعلى مدى ألف سـنة، كانت كذلك الأكثر خطرا. فحتى وقت متأخر مع بداية القرن التاسـع عشر كانت بريطانيا تخسر تقريبا ألف سفينة سنويا، أغلبها تحطم بالقرب من الساحل والكثير منها في المرافئ بحد ذاتها. إن بناء الموانئ والسـدود الدائمة والتي جعلت المرافئ عند خطوط المد أكـثر فتنة وإغـراء قد جعلتها كذلك أكثر غدرا وذلك بسـبب تقليل عملية التعرية الطبيعيـة، وتضييق القنوات، ورفع مسـتويات المد. لقـد أطلقت هذه التهديدات تجاه الازدهار السـاحلي أول مجهود ثابت ضخم لفهـم البحر، وهو المجهود الذي تركز أولا على عملية المد والجزر وفقط لاحقا تحول إلى علم أعماق البحار[52].

بحلول نهاية القرن التاسـع عشر، أصبحت السـواحل التي كانت ذات يوم أرضا مجهولة من بين أشـهر ملامح الأرض. أصبح تحطم السفن بالقرب من الساحل نادرا، حيث فقد الساحل ارتباطه بالخطر ليصبح مكانا للترفيه. وكونها لم تعد أراضي حدودية أو جبهات، فقد جرى إعلان السـواجل البحرية على لسان اللورد كرزون «الأكثر عنادا وفاعليـة، والأقـل قابلية للتغيير» بـين كل الحدود تحديدا لأنها بـدت طبيعية جدا. على مدى أقل من قرن، فإن عملية الاكتشـاف والمسح والتسمية كان لها تأثير تطبيع

السـواحل وأقلمتها مع الناس، حتى إنها حفرتها في أذهان الأشـخاص الداخليين. لقد أُفرغت السواحل من أهميتها التاريخية الأصلية لتصبح أماكن يبدأ عندها التاريخ أو ينتهي، ولكن ليس بعد أماكن حيث كان يصنع فيها هذا التاريخ[53].

في 1835 كان لايزال ممكنا بالنسـبة إلى أليكس دو توكويفيل أن يتخيل مستقبلا بحريا لأمريكا. مع نهاية القرن كانت الأمة تنظر إلى نفسـها، كما فعلت معظم القوى الأوروبيـة العظمى والتـي كانت أمريكا تقارن نفسـها بها، كأمـة قارية. لقد جرى الاستيلاء على كل من الجغرافيا والتاريخ عن طريق ما أسماه دنيس كوزغروف «نظرة الأقلمـة» (territoriallzing)، والتـي كانت مبنية على أن الأمـم بطبيعتها وحدات حدوديـة، مركزية، أرضية. إن أراضي الرسـو في جيمس تـاون وبلايموث قد أصبحت مناطق الأصول الأسـطورية لأمريكا. إن السواحل الصخرية والتي خشي البحارة ذات يوم الهبوط عليها أصبحت الآن أسسا مبجلة لمزار الأمة. لقد أصبحت صخرة بلايموث، والتي لا توجد أي إشـارة إليها في سجلات الهجرة الأولية والتي في الحقيقة قد أزيلت من السـاحل بحلول العام 1774، رمزا للمنشـأ. وعندما أعيدت إلى مكانها الأصلي في 1859، ومع نهاية القرن أصبحت موقعا سياحيا قوميا[54].

بحلـول ذلـك الوقت كان التاريخ قـد اتخذ منحى أرضيا، فلـم يعد متحركا عبر السواحل، أو، كما يقولون في نيو إنجلاند، «أسفل الشرق»، ولكن من الشرق إلى الغرب بشكل حازم. لقد كان هناك زمن في بداية القرن التاسع عشر عندما تخيل الأمريكيون أنفسـهم يدخلون إلى الهادي ليسـتكملوا أقدارهم، بيـد أن الجبهات البحرية كانت مغلقة كما أن «إمبراطورية الحرية» لجيفرسون ستتوقف متعثرة على الساحل الغربي عوضا عن التقدم فوريا إلى هاواي وما بعدها. لقد أشار جوناثان رابان إلى أن «الناس التـي تعيش على القارات تعتاد اعتبار المحيط على أنـه نهاية الرحلة، إنه النقطة في نهاية السـفر الطويل. عندما وصل الأمريكيون الشـماليون إلى الهادي لم يكن هناك شيء يستوجب عمله سوى بناء ولاية كاليفورنيا الواقعة في نهاية العالم[55].

إن أحد أبعاد سـطوة وسـيطرة انتصار رؤية الأقلمة كان عدد «نهايات الأرض» التـي بدأت تلوح على سـواحل أوروبـا وأمريكا. أكثرها شـهرة، والواقعة على نتوء خليجـي يقـع جنوب أقصى الغرب من كورنوال، سُـميت في وقـت مبكر في القرن الرابع عشر باسم Landesynde أو لانديسند، والذي يعني «نهاية الأراضي الصلبة».

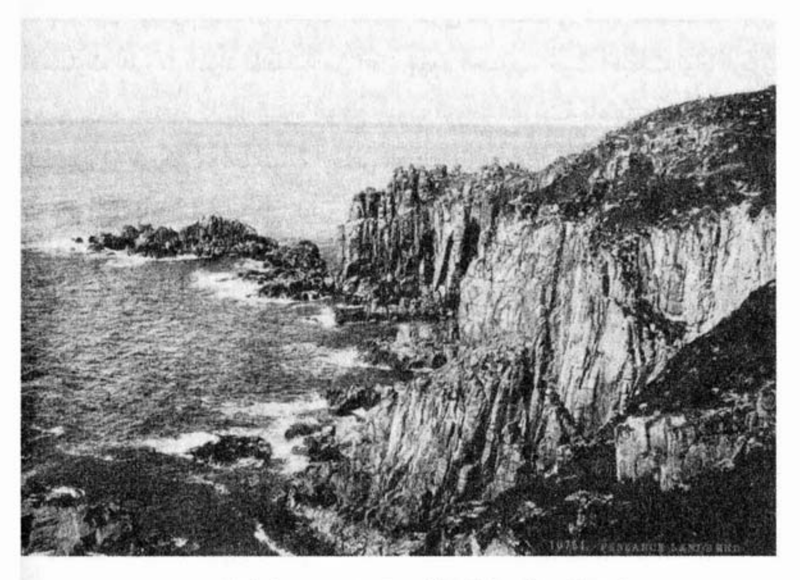
نهايات أرضية أخرى، مثل كيب فينيستير في إسبانيا وفينيستير في فرنسا، هي كذلك مواقع غربية. وكذلك هي نهايات الأرض في كاليفورنيا، واحدة في الباجا، والأخرى في بريسايديو بوينت غرب سان فرانسيسكو[56].

بحلول بداية القرن العشرين، أصبح الساحل الغربي جبهة أمريكا الأخيرة. لقد كان مناسبا أن المعرض الدولي لباناما-الهادي قد جرت استضافته في سان فرانسيسكو في 1915. ومن أجل هذا المعرض، قام جيمس إيرل فريزر بنحت محارب هندي منهك منهار على حصانه من مادة الجص، وهو رمز للهزيمة الأخيرة للهنود على أيدي حضارة البيض المقبلة. لقد كان عمل End of the Trail أو «نهاية الأثر» صورة غاية في الشعبية، حيث خطط فرايزر لأن يغطيه بالبرونز ويضعه مواجها الغرب على بريسايديو بوينت، عاليا فوق الهادي. بيد أن الحرب العالمية الأولى تدخلت في هذه المخططات. جرى الاستيلاء على كل المواد المعدنية من أجل جهود الحرب، حيث أحبطت نوايا فريزر. ومع ذلك، يحتفظ ذلك النتوء الواقع جنوب البوابة الغربية بأهميته كموقع لنهاية الطريق، إن لم يكن موقعا لنهاية الجنس الهندي، بالنسبة إلى الكثير من الأمريكيين.

إن الميل ناحية الغرب كان مغروسا بعمق في الثقافة الغربية. لقد نظر السلتيون غربا باتجاه البحر بحثا عن أرض الموتى الخاصة بهم، ووضع الرومان أبطالهم الموتى على جزر في البحر الغربي، والمسيحية، والتي كانت مواقعها المقدسة تقع أصلا في الأراضي المقدسة الشرقية، أصبحت تتوقع البعث الثاني للمسيح أن يكون في الغرب، حيث ليس فقط الأرض ولكن الزمن كذلك كان يعتبر منتهيا. في أذهان المعتقدين، تحرك الخلاص من الشرق إلى الغرب، مصطحبا نهاية الزمان معه. لقد أصبح الغرب مرتبطا بالموت ولكن كذلك بالبعث. في الفكر المسيحي، كانت النهايات دوما مرتبطة بالبدايات الجديدة. لقد وجد جون ويسلي، الذي زار نهاية أرض إنجلترا في 1743، الساحل هناك على أنه «منظر مريع» ولكنه توقع، وطبقا للجغرافيا الإنجيلية لذلك الزمن، أن بشاعته، والتي هي نتاج الخطيئة الأولى، «ستذوب عندما يظهر الرب يوم الحساب»[57].

وفي حين أنها كانت ذات يوم مواقع وصول لليابسة بالنسبة إلى البحارة، فإن نهايات الأرض هذه لم تكتسب معانيها من سكان الأراضي الداخليين حتى حلول القرن التاسع عشر، وذلك عندما أصبح للسواحل منفذ من الأرض. عندما أطلق ريتشارد آيتون والرسام ويليام دانيل رحلتهما الاستكشافية لساحل إنجلترا الذي

أسمياه «المهمل المجهول» في 1813، فإنهما خططا للذهاب عبر البحر ولكنهما وجدا الرحلة غاية في الخطورة وقررا عوضا عن ذلك أن «يبحرا على ظهور الخيل»، فاتحين الشـهية للسـفر باتجاه السـاحل والذي تزايد عبر الوقت. وبينما هو ليس واضحا تمامـا لم اختارا أن يبدآ رحلتهما عنـد Land's End أو نهاية الأرض، فإنه من المؤكد أن المكان كان قد اكتسـب منذ زمن معنى خاصا بالنسبة إلى الجماهير التي «كانت تمعـن النظر باتجاهه، ناحتين أسـماءهم على الأرض، ثم مغادرين، بذلك الشـعور بالرضا الكامل والذي يجب أن يحظى به الإنسان الذي يعتقد أنه فعل كل ما يمكن فعلـه». لقد اتبع آيتون ودانييل «العرف المعتاد بالذهاب إلى الحافة القصوى لتلك النقطة» قبل الاستمرار حول الساحل باتجاه عقارب الساعة[58].



Land's End أو نهاية العالم، كورنوال. الصورة من مكتبة الكونغرس.

مـن الممكن أنهم كانوا شـهودا على بقاء طقْس قديـم، إذ إنه، وكما لاحظ دبليو. إتش. هدسـون بعد ذلك بمائة سـنة أن «الربط القديم للمكان يستمر، وإذا مـا جـرى توقيت الزيارة بشـكل صحيح، لربما اسـتطاعوا اسـتثمارها في اسـتجلاب جاذبية ومهابة هي ليسـت لها في الواقع». ولكـن إذا ما كان هناك

أي معنى سـلتي أو مسـيحي مرتبط بنهاية الأرض في كورنويل، فإنها سرعان ما ستسـتبدل بروابط رومانتيكية والتي كانت لها أصول شـديدة الاختلاف وتامة الحداثة. عندما بدأ آيتون ودانييل رحلتهما، كان السـاحل يشـكل إلى حد كبير أرضا مجهولة للجميع فيما عدا بالنسـبة إلى المحليين. على سواحل إنجلترا فقط المنتجعات الأنيقة الحديثة هي التي اجتذبت الزوار. كان ما بقي من السـاحل يعتـبر مكانا غـير صحي وخطرا لدرجـة أن المنارات وأبـراج المراقبة فقط هي ما كان لها وجود هناك. كان هؤلاء المسـافرون الشجعان مستكشفين حقيقيين للمجهول، متحمسـين «لعرض عظمة مشـهده الطبيعي، ووظائف وسلوكيات الناس، وأسـاليب الحياة في أكثر أجزائه برية». فحتى ذلك الوقت، كانت البرية تحديـدا، هي التي يجري تجنبهـا. الآن، أصبحت تلك الصفة هي الأكثر جاذبية للسـاحل. فهـذه الأرض بعينهـا الأرض terra nullus التـي لا تنتمي إلى أحد والتي يومـاً كانت طاردة أصبحت الآن جاذبة، تاركة مجالا واسـع لزوارها لأن يستثمروها بأكثر خيالاتهم جموحا[59].

في خلال القرن التاسـع عشر، أصبحت نهاية الأرض في كورنوال واحدة من أشهر المناطق في بريطانيا، يرتادها عشرات الآلاف القادمين عبر الطريق الأرضي أو القطار طاعـة لما أصبح في حينها تقليدا في الذهاب إلى آخر الحافة. من شَـهِدَ هذا التقليد شـبهه بالحج. قارن ويلكي كولينز منطقة نهاية الأرض بإسرائيل بيد أنه لم يسـتطع اسـتبيان أي دوافع دينية واضحة عند الحجاج. وصف دبليو إتش هدسـون هدف الوصـول هذا بمصطلحات دنيويـة تماما، على أنها «الهـدف الأعظم والأخير لرحلة إلى الإقليـم الواقع في أقصى حدود الغرب في إنجلترا، إنها الشـمال الأقصى (Ultima Thule) الخاصة بها أو هي منطقة أقصى شمالها». بالنسبة إليه كانت منطقة نهاية الأرض «اسـما يفاجئنا بأكبر قدر في طفولتنا عندما كنا ندرس جغرافيتنا، والتي تملأ الذهن بأشخاص خياليين وصور حول أرض قاحلة موحشة وأحلام حول نتوء خليجي منعزل، إنه المكان حيث آخر إنسـان في إنجلترا سيكون موجودا في انتظار الموت في نهاية العالم»[60].

بحلـول أواخر القرن التاسـع عشر أصبحت منطقة نهاية الأرض غاية رئيسـية للمسـافرين بشكل يومي، البعض منهم قادم من مناطق بعيدة ببعد المستعمرات

في حـد ذاتها فقط ليقفـوا، وإن كان للحظات قليلـة، في مواجهة الشرق على هذا الجـرف البحري الناتىء والمهترئ قبل أن يعـاودوا الصعود على قطاراتهم عودة إلى مانشستر، لندن. «لطالما أردت رؤية منطقة نهاية الأرض، والأمر كذلك بالنسبة إلينا جميعا»، هكذا نقل هدسون عن أحد الرجال العاملين، «لقد أتينا لرؤيتها ولا شيء آخر». كان العديد من الزوار كبارا في السن يرتحلون إيفاء بوعد رعوه منذ الطفولة، عـلى أن يقوموا بالزيارة قبل أن يوافيهم الموت. وبمجرد أن يقضوا هذه الزيارة، فلا سبب لديهم لأن يتباطأوا ولا لأن يعودوا إلى ذات المكان. بالنسبة إلى القلة الأغنياء هناك فندق يطل على البحر، ولكن بالنسـبة إلى الأغلبية كانت زيارتهم تمتد فقط لدقائق قليلة[61].

لقد عَبّر السـكان المحليون عن دهشتهم من هذا التصرف. فهؤلاء الذين عاشوا بالقرب من المنطقة كانوا يعرفونها على أنها خطرة مشؤومة. «لم يسبق لي أن رأيتها ولا أود في يـوم أن أفعل»، هكذا أخبر رجل من كورنوال هدسـون. فأيا كان المعنى المحلي الـذي كان للمنطقة، فإن هذا المعنى فُقد الآن. لقد أصبح المكان ينتمي إلى المساحة الخيالية للأمة، وهو مكان أصبح يعرف خلال القرن التاسع عشر عن طريق سـواحله من الجنوب إلى الشـمال كما من الشرق إلى الغرب. لقد أطلق هدسـون على منطقة نهاية الأرض اسـم «ملكية قومية»، جزء غير قابل للمصادرة من تركيبة الأمـة البنيويـة. ففي العصر الذي أصبحت فيه مواقع طبيعية معينة مقدسـة من خلال خرائط الفصل المدرسي وطوابع البريد وأصبحت تذكر للمرة الأولى في النشـيد الوطني، أصبحت السواحل رموزا للهوية والأمن القوميين[62].

لقد مارسـت السواحل دورا بارزا بنحو متزايد في بروز جغرافيا قومية مترابطة. في 1832 كان لايزال ممكنا بالنسبة إلى دانييل ويبستر أن يقف في ردهات الكونغرس الأمريكي معلنا: «ماذا عسـانا أن نأمل فعله في الساحل الغربي، ساحل يمتد إلى ثلاثة آلاف ميل، صخري القاعدة، كئيب، سيدي الرئيس. لن أصوت أبدا على صرف سنت واحد من خزانة الأمة لتقريب الساحل الغربي إنشا واحدا من بوسطن عما هو عليه الآن». على الرغم من ذلك، وبحلول نهاية القرن التاسـع عشر، أصبحت السـواحل تعـرف أمريكا. فالأمـم التي ليس لها منفذٌ إلى البحر أصبحت تشـعر بنقصها. لقد عوّضـوا هـذا النقص بأن شـكلوا قوات بحريـة، معظمها يعمل فقـط على الأنهر

والبحيرات. لايزال لبوليفيا، والتي فقدت منفذها على الهادي خلال الحرب المعروفة باسم حرب الهادي في أواخر القرن التاسع عشر، أكبر هذه القوات البحرية. تَنْحصر مهمة هذه القوات في الوقت الحالي في القيام بدورات حراسة في بحيرة تيتيكاكا، بيد أن هذه القوات تبقى ذات أهمية رمزية عظمى للبوليفيين، الذين انتعشت آمالهم طويلة الأجل بالعودة إلى البحر في 2010 عندما أقرت اتفاقيات المنفذ مع بيرو[63].

لقد استخدمت عبارة «من الساحل إلى الساحل» أول مرة لوصف الولايات المتحدة خلال خمسينيات القرن التاسع عشر. عندما ألفت كاثرين لي بيتس «أمريكا الجميلة» في 1893، كانت من فورها قد هبطت على قمة بايك، والتي منها «كل سحر أمريكا بدا معروضا هناك في هذا المدى الشبيه بالبحر». إن هذه «الأمواج الكهرمانية (المتألقة) من القمح» قد استحضرت سخاء المحيطات، بيد أن خيال بيتس قد امتد فقط من «بحر إلى بحر لامع»، حيث إنه بحلول ذلك الوقت عرفت الولايات المتحدة نفسها ليس على أنها أمة بحرية ولكن أمة قارية. في 1879 دفع رجل من كورنوال يعرف باسم روبرت كارلايل بعربة يدوية من منطقة نهاية الأرض إلى منطقة جون أوغروتس في أقصى شمال أسكتلندا. ومنذ ذلك الوقت، فإن تقصي مساره أصبح شيئا من التقليد الوطني. إن ربط الحواف أصبح استعراضا لبطولة شخصية ولكن كذلك شهادة على الوحدة القومية. إن «مرتحلي النهاية إلى النهاية» الذين يسيرون، ويقودون الدراجة، أو يقودون السيارة على هذا الطريق يتنافسون فيما بينهم على أرقام السرعة القياسية، بيد أن الرحلة تمثل كذلك نوعا من الحج القومي وكذلك، شبها بمثيلاتها من الرحلات الدينية، هي مصدر للهوية الجمعية لهؤلاء الذين يقومون بها. لقد أصبحت السواحل توفر نوعا من التماسك الذي لم يستطع الداخل أن يوفره. فكما اكتشف بول ثيروكس عندما قام لاحقا بتقليد طواف آيتون ودانييل، «بريطانيا ما هي إلا سواحلها». لم تعرف دولة أخرى بسواحلها كما عرفت هذه الأمة الجزيرية، بيد أنه في كل مكان حول حافة الأطلنطي ما كان سابقا يعتبر مناطق غريبة معزولة أصبح اليوم يحتضن على أنه مصدر للفخر والمتعة القوميين[64].

بحلول نهاية القرن التاسع عشر، اتخذت السواحل مَظْهَرا جديدا تماما. فهذه السواحل التي كان لها ذات يوم جغرافيا سَلِسة وكانت مأهولة بأجناس حافة

متنقلين، أصبحت الآن متحجرة زمانيا ومكانيا. لقد توقفت تحركاتها وبدا أن الزمن توقف. إن الساحل القديم اليوم ليس إلاّ حطاما، يعلوه ما يصفه جون غيفر بأنه «ساحل ومرفأ ثان مكون من محلات الآثار القديمة والهدايا، والمطاعم، والمقاهي، والحانات، حيث يشرب الناس نبيذ الجن على أضواء الشموع، محاطين بآلات الحرث، وشباك السمك، والنظارات المكبرة وغيرها من الأشياء الأثرية الخاصة بأسلوب حياة شاق ومنظم والذي لا يعرفون شيئا عنه». اليوم أصبح ديكور الساحل الثاني على الأغلب مصنعا وليس أثريا. يتحدث جون ماكيني عن انتشار المتاجر على ساحل كاليفورنيا، الذي تطور إلى الحد الذي «أصبح معه الزوار غير قادرين على الوصول إلى الخط الساحلي، وغير قادرين على رؤية السواحل بسبب المتاجر». وحتى «الشاطئ الزجاجي» الذي يباع في محلات الهدايا يأتي ليس من الساحل ولكن من المصانع الداخلية. إن سيريالية الساحل الثاني تزداد وضوحا يوما بعد يوم، إنه صنيعة خيالات سكان الأراضي الداخلية، وهو مستمر بدفع من حاجاتهم ورغباتهم. لقد استحوذ هؤلاء على مدخرات الساحل الأول واستخدموه ليشرعنوا جغرافياتهم الأسطورية ورواياتهم التاريخية الخيالية[65].

5

الاكتشاف الثاني للبحار

يعتبر البحر أحد أكثر الرموز «عالمية» في الأدب، إنه من دون شك الأكثر تلونا.

جوناثان رابان[1]

لقد جرى اكتشاف المحيطات مرتين. في عصر الاكتشاف الأول، كانت البحار تستكشف وتخطط على أنها وسائل للوصول إلى الأراضي البعيدة، غير أن القليل من الانتباه كان يعزى إلى المياه بحد ذاتها. لقد كان يقال إنه «بالكاد تركت أعماق البحر أثرا... حتى مستكشفو المحيطات كانوا أكثر تكيفا مع الأرض منهم مع المحيط، لقد استخدموا البحر فقط كطريق سريع لبلوغ الأرض اليابسة التالية». لقد كان ذلك اكتشافا عن طريق البحر أكثر منه اكتشافا للبحر. لقد كان العلم في بداية العصر الحديث يعرف عن السماوات أكثر مما يعرف عن المحيطات، ومزيد من الانتباه كان يعزى إلى استخراج الثروات من

«مع مرور الوقت، سيقف العلم على قدمين بحريتين»

البحر، تحديدا السمك، عنه تجاه المياه بحد ذاتها. لقد كان كل ما يقع تحت السطح - في الأعماق - يعتبر هاوية لا يسبر غورها، لا يمكن اختراقها ولا فهمها، منطقة ميتة مظلمة تحاصر كل ما يغرق تحت سطحها، وهي لا تظهر أسرارها مطلقا. حتى القرن التاسع عشر، يقول جيمس هاملتون - باترسون، كان فهمنا للبحر «صناعيا بكل ما في الكلمة من معنى... سطح يمكن الإبحار عليه، من دون شك، فوق الهاوية»[2].

أنتج الاكتشاف الثاني للبحر، الذي بدأ في القرن التاسع عشر، توسعا ضخما في معرفة البحر بحد ذاته، الآن كمخلوق حي ثلاثي الأبعاد بتاريخ وجغرافيا خاصين به. لقد حقق الزمن الحديث ما لم يحاول القيام به أي عصر آخر: اكتشاف أعماق البحار. في الوقت ذاته، جلبت هذه المحاولة اكتشافا آخر، وهو اكتشاف أدبي فني بقدر ما هو علمي، عصر نهضة رمزي وليس فعليا، والذي كانت له تداعيات مماثلة إن لم تكن أكبر حجما بالنسبة إلى الثقافة الشعبية في العصر الحديث.

منذ العصور القديمة، كانت المحيطات تعتبر غريبة تماما عن بني البشر. كان الشخص يخرج إلى البحر بدافع من الضرورة وليس الرغبة. كانت الرحلة «شرا ضروريا، هي رحلة عبور ذاك الذي يفصل ويقصي»، كتب دبليو. إتش. أودن. لقد كان القدر، وليس الاختيار، هو الذي دفع أوديسيوس عبر الساحل. وطوال الرحلة كانت فكرة «nostos»، أو العودة إلى الديار، وليس البحر، هي المسيطرة على وعيه. بالنسبة إلى مسيحيي العصور القديمة، كان البحر يقارن بالصحراء، التي ألهمت أول جيل من رجال الكنيسة. لقد أطلق القديس بريندان قاربه في فراغ البحر الضخم على أمل أن يجد الرب هناك. كانت تلك رحلة peregrinato، رحلة عناء، المقصود بها اختبار الإيمان تحت أكثر الظروف صعوبة[3].

لقد حذر إيراسموس من أنها «حماقة أن تثق بالبحر»، كما كتب جون دون في العام 1619 أن «البحر ليس مكانا للعيش، بل ممر إلى حيث أماكن معيشتنا». لقد كانت تلك هي الطريقة التي فهم بها ويليام برادفورد محنة المايفلاور. بالنسبة إليه كانت الرحلة «بحرا من المشاكل»، غير أن احتفاظه بوصف «بشعة وبرية خربة» للأرض التي كانت قبلة الحجاج كان ذا مغزى. فبالنسبة إلى هؤلاء المسيحيين، كانت الرحلة هي مواجهة ليست مع الطبيعة ولكن مع ما وراء الطبيعة. لقد كانت الرحلة إلى أمريكا بحد ذاتها ضربا من العبادة وذلك بطاعة القوة الإلهية، وليست فعلا إراديا حرا كما سيعتقده المراقبون الأكثر دنيوية في رؤيتهم لاحقا[4].

لم يكن البحر خطرا فقط بل بشعا كذلك، غير جدير بالتناول الفني أو الأدبي. بالنسبة إلى شكسبير كان البحر خلفية عوضا عن كونه مادة أساسية. لقد كان الرسم والرواية حول البحر في بداية العصر الحديث فقيرين بشكل يثير الدهشة خصوصا بالنسبة إلى المحيطات بحد ذاتها. كان التركيز وقتها يكاد يكون كاملا على السفن وعلى مهارات الرجال الذين كانوا يشغلونها، حيث البحر بحد ذاته يكاد يكون فكرة لاحقة. في روايات البحر للقرنين السادس عشر والسابع عشر، تركز الاهتمام، كما كان في اللوحات البحرية، على تفاصيل مهارة البحار. بعد العام 1750 قل الاهتمام بعمال البحر الكادحين بشكل كبير حيث أصبحت الرواية الإنجليزية منغلقة أرضيا، «مقسمة إقليميا» إذا جاز التعبير. عندما أعيد إحياء روايات البحر في القرن التاسع عشر، فإنها كانت مهتمة بنفسيات الرجال أكثر من اهتمامها بعملهم في البحر[5].

لقد بدأ البحر بحد ذاته يبرز بقوة فقط عندما تمت السيطرة على الأرض أخيرا. لقد استغرقت العملية من الوقت تقريبا حتى القرن العشرين ليجري استكشاف كل القارات واستيطانها. حتى ذلك الوقت، كانت المناطق خلف السواحل يشار إليها على أنها مناطق نائية hinterlands حيث كانت مرتبطة بالرجعية والتخلف. بوصول القرن العشرين، انعكست مواقع السواحل والمناطق الداخلية، حيث الأولى، توصف اليوم بأنها «قلب الأرض»، قد أصبحت مركز الجذب الاقتصادي والسياسي. لقد كانت أول مرحلة للتطور الرأسمالي تجارية وبحرية، أما الثانية فكانت زراعية وصناعية، وأرضية تماما. عندما أفسح عصر الملاحة العظيم الطريق للعصر البخاري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تراجعت البحار بينما فتحت القارات أبوابها. لقد كان القدر الآن مع الأرض وليس مع الماء وذلك لأول مرة على مدى قرون. لم يكن العصر الصناعي الجديد مرتكزا فقط على تجارة البضائع بل على تصنيعهم، ما أعطى أفضلية للأراضي الضخمة بسكانها القادرين على مواكبة الإنتاج والاستهلاك الضخمين. لم يكن لدولة أن تكون أرضا نائية، حيث إن المستقبل آنذاك كان للأراضي المركزية التي وصفها الجغرافي هالفورد جاي. ماكيندر في العام 1904 بالمحاور المستقبلية لتاريخ العالم[6].

غير أنه حتى عندما استدارت الشعوب عن البحر كمكان للعمل والقوة، فإنها عادت إليه، كما لم تفعل من قبل، وذلك كمكان للترفيه الجسدي والروحاني. في القرن التاسع عشر بدأ البحر بحد ذاته، على عكس السفر والبحارة، في الدخول إلى الفن

والأدب بطرق حديثة وغير مسبوقة تماما. ففيما أسمته مارجريت كوهين «تسامي البحر»، أُعطي البحر مكانة ثقافية جديدة، وقوة جمالية عليا. لقد أصبح المحيط ينبوعا من الصور والرموز - حيث السفن المحطمة هي الأكثر انتشارا فقط - والتي استمرت في السيطرة على الثقافة الغربية إلى اليوم. حتى عندما انخفضت أرقام هؤلاء الخارجين إلى البحر لكسب قوتهم بصورة كبيرة، بدأ مزيد من الناس في وصف حياتهم على أنها رحلة بحرية. وكما وصف أحد الطلبة المهتمين بهذا التحول في الأحداث بأن هؤلاء الذين «يعيشون على الأرض يفضلون مع ذلك، في خيالاتهم، أن يصفوا حالتهم العامة في هذه الدنيا بمصطلحات الرحلة البحرية». في الوقت ذاته، فإن القيم التي كانت ذات يوم مرتبطة بالأرض، لا سيما البرية، قد تحولت إلى ما عبر الساحل. إن الطبيعة النقية، التي أصبحت بحلول ذلك الوقت نادرة في الأراضي الصناعية، قد وجدت ملجأها في المحيطات، فيما الغموض الذي كان مرتبطا ذات يوم بما يعرف باسم terra cognita أو الأرض المجهولة قد انتقل إلى الأعماق. في الوقت ذاته، فإن الجلال، الذي كان مرتبطا في السابق بالجبال والغابات، أصبح مرتبطا بمياه الأنهار المتدفقة Whitewater[7].

البحر بوصفه ذوقا مكتسبا

أصبح البحر في بداية العصر البحري العظيم أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ولأول مرة، جزءا من الثقافة الأرضية الغالبة. بعد ذلك، ولأول مرة، تبنت الطبقات الوسطى الأمريكية والأوروبية ما أسماه هنري ديفيد ثورو «صبغة بحرية». بالنسبة إلى بعض الشباب مثل ريتشارد هنري دانا، كان الإبحار بالصاري (Mast) المرفوع هو طقسا للعبور. وقد نشأ ولع بالإبحار باليخوت على كلا طرفي الأطلنطي، حيث أصبحت الرياضات المائية منتشرة جدا. خلال نصف القرن التالي، الملايين من أهل بلد دانا، الذين وصلوا في البداية عبر البحر، سيلتفتون إليه بخيالاتهم، والبعض منهم بأجسادهم. بداية من منتصف القرن التاسع عشر كان هناك عادة رجال من ذوي العقيدة الإنجيلية، والذين مارسوا الإبحار ليس للوصول إلى مكان ما بل لاسترداد ذلك الشعور بالاستقلال الرجولي والتوجه الأخلاقي الذي لم يعودوا قادرين على إيجاده في حياتهم اليومية على الأراضي الداخلية. يقول جوناثان رابان إنه «نادرا ما كانت رحلات القوارب الصغيرة تغيب عن نظر مجتمع كانوا

يحاولون تنظيمه، فهم قد استخدموا البحر لإثبات شيء ما للأرض». غير أن أغلب هؤلاء الذين عادوا إلى البحر لم يبتعدوا مسافة أكبر عن الساحل. وحتى اليوم، فإن معظمنا يتحصل على صبغته البحرية ليس على الماء ولكن على الشاطئ[8].

غير أنه حتى هؤلاء الذين لم يسبق لهم أن تعدوا خط المد قد تبنوا الرموز البحرية وجعلوا من البحر رمزا للحياة على الأرض. لقد وقع هؤلاء في حب القارب اللعبة وبذلة البحار، وبدأوا استعمار الساحل لأسباب ترفيهية وكذلك لأسباب صحية، كما أنهم ملأوا قاعاتهم التي تقع في المدينة أو في ضواحيها بأحواض السمك والمشاهد البحرية. وكما قال أحد المؤرخين: «خلال القرن التاسع عشر، تغلغل المحيط في عقول، وبيوت، وأحلام، وحوارات الأناس العاديين». لقد فعل المحيط ذلك من خلال فن رسم المناظر البحرية، من خلال أدب المغامرات، ومن خلال طرق أكثر اعتيادية ويومية: جمع السمك الاستوائي، والصدف، والمرجان، وعظام الحيتان المنقوشة. «عادة ما يبدو أنه كلما أصبح الناس أكثر تمدنا»، كتب جيمس هاميلتون - باتيرسون، «أرادوا أن يحوطوا أنفسهم أكثر بتعويذات الطبيعة على حوائطهم، وعلى أرففهم، وفي حلقات مفاتيحهم»[9].

في القرن التاسع عشر، بدأ الناس في العودة إلى البحر بحثا عن قيمة شعروا بأنها مفقودة في البيئة الصناعية الجديدة، شيء أطلقوا عليه برية. ظهرت الرغبة في اختبار الطبيعة غير المروضة في القرن الثامن عشر بين مجموعة من الذواقة الأوروبيين والذين بالنسبة إليهم كانت قوة البحر الرائعة، كما شاهدوها من على اليابسة الآمنة، محفزا ذهنيا وعاطفيا قويا جدا. إن الهلع والدهشة اللذين ربطهما الأشخاص المتدينون بالقوى الخارقة للطبيعة، جرى الآن تحويلهما إلى الطبيعة بحد ذاتها. في العام 1712 كتب جوزيف آديسون حول «الرعب اللطيف» الذي تثيره العواصف: «بين كل الأشياء التي رأيتها، لا شيء يؤثر في الخيال مثل البحر أو المحيط... إن محيطا مضطربا، بالنسبة إلى إنسان يبحر فيه، هو، كما أعتقد، أضخم مادة يمكن له أن يراها تتحرك... من الطبيعي أن تثير مثل هذه المادة في داخلي فكرة وجود عظيم فتقنعني بوجوده على قدر ما يفعل البرهان الميتافيزيقي». في فرنسا، كان دنيس ديديروت منجذبا إلى الساحل لأسباب مشابهة، فيما فضل الإنجليزي إدموند بيرك البحر على اليابسة كذلك كمنشط للعقل والروح. لم يختبر ذلك شخص أفضل من جول فيرن، الذي كتب: «إن العقل الإنساني يستمتع بالمشاهد الضخمة للكائنات التي تفوق الطبيعة. والبحر هو الوسيلة الأفضل، هو البيئة الوحيدة حيث مثل هذه

المخلوقات الضخمة - والتي مقارنة بها تعتبر الحيوانات الأرضية، كالفيل ووحيد القرن، كأنها أقزام - يمكن لها أن تتكاثر وتتطور»[10].

إن الخيال الرومانطيقي لبداية القرن التاسع عشر، الذي كان يركز في البداية على هيبة الجبال، تحول أخيرا إلى الساحل الجامح، مكان كان الجميع يتحاشاه سابقا ما عدا هؤلاء الذين كانوا يكسبون عيشهم عليه. فإذا ما كان يتوقع من جيشان البحر في العصور الأقدم أن يذكر بصور من الطوفان الوارد في الكتاب المقدس، من الموت والخراب، الآن، وفي عصر أكثر دنيوية، فإن المياه نفسها تعد ببعث جسدي وروحاني. كانت سواحل بريطانيا وفرنسا بحلول ذلك الوقت مسطرة بالمنتجعات التي تقدم بركات مياه البحر، في البداية فقط للطبقات الراقية، ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر، قدمتها للطبقات الوسطى كذلك. في القرن العشرين، لحقت العامة بهؤلاء إلى أكثر أماكن الاستمتاع حداثة وعصرية، الشاطئ.



عرض وينسلو هومر للهيبة الساحلية في براوتس نيك، اللوحة بعنوان دريفت وود، 1909.
حقوق النشر لمتحف الفنون الجميلة، بوسطن.

إن التجربة الجســدية المباشرة للبحر استبدلت بألفة خيالية ليست أقل وضوحا ولا ســيطرة. فحتى القرن الثامن عشر، كان البحر بحد ذاته غير مرئي بشــكل كبير، حيــث كان مثــيرا للاهتمام لمــا يحتويه من الســمك، ولما يربط مــن أراض وليس لذاتــه، حيث نادرا ما كان يظهر في طليعة الفــن أو الأدب وذلك حتى جعلت منه الحركــة الرومانطيقية للقرنين الثامن عشر والتاســع عشر موضوعا مناســبا للاثنين. لكــن بمجرد الوصول إلى هذه النقطة الحاســمة، سرعان ما أصبح البحر مدموجا في الفنون الشعبية. بعدها، سرعان ما أعطت التصويرات الخيالية للبحر شكلا لحقائق ملاحية بحرية جديدة. فضلا عن ذلك، أصبح البحر هو خشــبة المسرح حيث يجري تمثيل الحالة الإنســانية بأكثر الأساليب ميلودرامية. فالأحلام والكوابيس التي كانت في الســابق تُعكس على المناظر الطبيعية الأرضية أصبحت الآن منصبة على المناظر البحرية. حتى عندما أصبحت المحيطات لأول مرة مادة للعلم، كان البحر يمر بجولة أسطورية أخرى[11].

مع مرور الوقت ســيقف العلم على قدمــين بحريتين، بيد أن علم المحيطات كان آخــر المعارف الجديدة الوليدة، وحتى اليوم فإن جزءا صغيرا جدا من أعماق المحيطــات، عــلى الأكثر 5 في المائة، هــو فقط المعروف بشيء مــن التفصيل. إن المفاهيم الشــائعة حول المحيطات لاتزال نتاج الأفــلام والروايات أكثر منها نتاج الأبحاث. يبقى البحر، كما كان في الكتاب المقدس، أقصى درجات «الآخر»، غير أنه الآن ظاهــرة طبيعية عوضا عن فوق طبيعية. وكما كان الوضع خلال الاكتشــاف الأول للبحر، رســم الخيال الطريق الذي سيتبعه المستكشفون. سيستشف العلم طريقــه من كتاب مثل جــول فيرن وهيرمان ميلفيل، اللذيــن كانا من أوائل من تحرك عبر الســاحل ليس لاستكشــاف طبيعة البحر فقط بل لاستكشاف الطبيعة الإنسانية كذلك[12].

وفيما كان هامشيا ذات يوم بالنسبة إلى الثقافة الغربية، انجذب البحر الآن إلى مركز الوعي الجمعي لهذه الثقافة، حيث أصبح رمزا رئيســيا لكل السلوك الإنساني. لقــد وصف رابان البحر بأنه أكــثر الرموز تلونا وذلك لأنه «ليس مادة معرفة... إنه، بالأحرى، الســائل الأعظم والعنصر الأكثر عنفا، يعيد تشــكيل نفسه من جديد من أجــل كل مياه ومن أجل كل جيل». خلال القرن التاســع عــشر اتخذ البحر موقعا

جديد تماما في الجغرافيا الأسطورية للثقافة الغربية. فما أشار إليه جوزيف كونراد علـى أنه «البحر الخالـد» أصبح ملجأ للآمـال والمخاوف التي لم يعـد من الممكن استيعابها على الأرض[13].

حتى عندما أصبح معظم الأمريكيين والأوروبيين أقل ارتباطا جسديا بالمحيطات، فإنهم أصبحوا أكثر قربا منها ذهنيا وخياليا. لطالما كانت للمياه قوى مقدسـة، لكن الآن ولأول مرة قدم البحر نوعا من التوبة الدنيوية. لقد أصبح رمزا للأبدية، ومصدر راحة لهؤلاء الذين، وعلى إثر فقدانهم الإيمان بالفكرة الإلهية للحياة الأبدية، أصبحوا يـرون في ما يبدو تدفقه السرمدي دليلا على خلود الطبيعة وأبدية الحياة. هناك في المـكان الذي تلتقي فيه الأرض بالماء، لم يكن للوقت والتاريخ أي سـيطرة. أصبحت الأرض مرتبطـة بالحـدود، وبالبدايات والنهايات، غير أن البحـر أتى ليمثل الثراء، ما يبـدو أنه مصدر متجـدد لانهائي، وجبهة جديدة تماما للاستكشـاف والاسـتغلال. بالنسـبة إلى جوزيف كونراد، الذي كان يحتقر ما حدث للأرض في العصر الصناعي، كان البحـر هو الاختيار العملي الأوحد. فقط في زمننا هذا جرت مقارعة أسـطورة البحـر اللامتناهي بالنتائج المثبتة للتلوث وبالنهب غير المقنن لمياه العالم، ولكن مع ذلك، تستمر فكرة البحر الخالد في الثقافة الشعبية[14].

آفاق جديدة

كان الاكتشاف الثاني للبحر من إنجاز سكان الأراضي الداخلية مثل هنري ديفيد ثورو وراتشيل كارسون وليس إنجاز البحارة، وهما من الكتاب الذين كانت خبراتهم العملية بالمحيط محدودة ولكن كان خيالهم لا حد له. لقد أتوا إلى البحر ليكتشفوا ليـس ذاك الكامـن وراءه فقط بل وذاك الكامن في دواخل أنفسـهم. بالنسـبة إلى الأجيال الأقدم كان البعد الملهم للدهشـة هو البعد العمودي، خصوصا السـماوات في الأعلى. حل مراقب الميـاه مكان مراقب النجوم، حيث اتخذ البعد الأفقي معنى جديـدا وحيث أصبح الأفق بحد ذاته جبهات للخيال، خصوصا بالنسـبة إلى هؤلاء الفنانين الذين توافدوا إلى الساحل لأول مرة. في البداية كانت طبيعة البحر الشرسة هي التي اجتذبتهم، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا عمقه الزمني كما عمقه المكاني. على الأرض، بـدا أن التغـير الصناعي قد عزل الماضي، ولكن البحر، الذي يشـار إليه الآن

بشــكل متزايد على أنه «أبدي» أو «خالد»، بدا أزليا، مُســتودعا لذلك الذي اختفى مــن فوق الأرض. حاجــج جول فيرن بأنــه، ولأن البحر لا يتغير أبــدا، «لم لا يكون البحــر قد احتفظ، في أعماقه المجهولــة، بالبعض من هذه العينات العملاقة للحياة لعصر آخر؟» كما أن أناس البحر، والبحارة والصيادين، الذين كانوا سابقا غير مرئيين بالنســبة إلى الفنانين والشعراء، أصبحوا وبشــكل مفاجئ ذوي أهمية كبقايا لما هو قديم وباق. إن المنظر البحري، والذي كان ذات يوم نوعا فنيا ثانويا، أصبح رئيســيا خلال القرن التاســع عشر، مستحضرا مناظر للحياة البحرية في ردهات هؤلاء الذين لم يقتربوا قط من الساحل فضلا عن الدخول إلى البحر[15].

في إنجلــترا، وحيــث بقــي النزر القليــل من البريــة الداخلية، اجتــذب البحر «المتوحــش» الرومانطيقيــين منذ وقت مبكــر. في أمريكا، حيث الوفــرة الكبيرة في الأراضي غير المروضة، اســتغرقت رحلة البحث عــن التجارب الروحانية المهيبة وقتا أطــول حتى تضع تركيزها على المحيط. ومع ذلك، خلال القرن التاســع عشر، أصبح الاتســاع غير المحدود للبحر أكثر جاذبية من أي وقت مضى. إن «ضخامته الأفقية»، مرفقــة بحركته المســتمرة وبأعماقــه الغامضة، كانت لها جاذبيــة عظيمة على كلا طــرفي الأطلنطي. أصبح البحر مرآة سيســتخدمها ســكان الأرض للتفكير في حالتهم الشخصية. ستستخدم المجتمعات المتجهة إلى التصنيع بسرعة كبيرة، وخصوصا رجال هذه المجتمعات، البحر لتقدير أنفسهم، ولاختبار لياقتهم ورجولتهم في عالم لم يعد يقدم لهم تحديات كافية[16].

حتــى عندما قل التشــارك الفعلي مع البحر، فإن وجــوده الرمزي والمجازي ازداد قــوة. يخبرنا هانــز بلومينبيرغ أنه في العصر الذي كانت فيه ســفن الدول تتهددهــا الثورات، تألقت فيه رمزية حطام الســفينة بشــكل غير مســبوق. في العصر الفيكتوري، اكتشــفت كذلك الجموع الإنجليزية نفســها متأخرا على أنها شعب بحري. إن مهنة البحار العمومية، والتي كان يجري تفاديها سابقا على أنها شيء يقــترب من العبودية، أضبحت الآن تمجد على أنها محترمة وبطولية. وبينما أصبح التواصل مع الأرض أساســيا للشــعور بالقومية إبان القرن التاسع عشر في فرنســا وألمانيا، كان البحــر في بريطانيا هو الذي أثار المشــاعر الوطنية القوية. لاحظ روبرت لويس ستيفنسون أنه «إذا ما تمنى رجل إنجليزي مثل هذا الشعور

(الوطنـــي)، لا بـــد له أن يكون عن البحـــر... إن البحر هو نهجنـــا وحصننا، لقد كان موقعا لأعظم انتصاراتنا ومخاطرنا، ولقد اعتدنا من خلال وصلاتنا الشـــعرية الغنائية أن ننســـبه إلى أنفسنا». خلال العصر الفيكتوري، سيصنع الإنجليز هيكلا معظما من الأبطال البحارة وسيسبغون على جاك تار(*) نبلا لم يتمتع به أي جيل سابق من البحارة قط[17].

حينئذ اعتبر البحر «الموطن الطبيعي للرجل الإنجليزي»، وحقا مكتسبا بالولادة بالنسبة إلى الأمة، ودعوة وتبريرا للتوسع الإمبريالي. إن الطبيعية الجزيرية لبريطانيا، والتي كانت ســـابقا تُرى على أنها عيب، أصبحت «قرارا حكيما من العناية الإلهية»، فهـــي تحمي من الغزو الخارجي كما أنها وســـيلة للنفاذ إلى العالم الأوســـع. «نحن نمتلك بحرا رائعا»، أعلن تشـــارلز ديكنز، «صحيا لكل الناس، مفيدا للجســـد، مفيدا للذهـــن». وعلى الرغم مـــن أن عصر الرحلات العظيمة قد ولى منذ زمن، فإن البحر قد زود الإنجليز برؤية لأنفســـهم ترتد إلى الماضي باعتبارهم «أمة» بطلة بشـــكل لا يمكـــن لمحيطهم الأرضي الضعيـــف أن يقدمه أبدا. وفي أمريكا كذلك، تطور هناك ما كان «بشـــكل جوهري ثقافة ســـاحلية بحرية الوعي وبتقليد أدبي متطور يستقر في الدوافع الرومانطيقية»[18].

غـــير أن البحر كان يؤدي دورا على مســـتوى شـــخصي كذلـــك، كرمز مجازي للحيـــاة بحـــد ذاتها. ففي عصر بدا فيه كل شيء في حالـــة من التغير، صور البحر وبشـــكل مجازي تدفق الحياة. «هنا»، كتب جاي. جي. فرانســـيس حول شاطئ البحر: «نحن نفكر بشـــكل أفضل من تفكيرنا من على أي مشهد أرضي، يستطيع الرجـــل أن يتأمل ويســـتلهم». كان المـــد مذكرا بالطفولة والشـــباب، فيما الجزر بالكبر، بينما خط الأفق «يحكي عن مســـتقبل مضمـــون، عن أبدية ثابتة». والآن وقد أصبح كل شيء يرى على أســـاس التغيير والتطـــور، أصبحت الرموز البحرية توجد في كل مكان في الفن كما في الأدب. تقليديا، كانت الصورة المفضلة لمســـيرة الحياة هي Ages of Man أو «أعمار الإنسان» والتي هي عبارة عن سلم يصعد ويهبط وتبدو عليه كل مرحلة من مراحل الحياة من الولادة وحتى الموت ساكنة. فيما قبل القرن التاسع عـــشر، كانت رحلة الحياة تقدم بشـــكل أرضي على أنها

(*) مصطلح إنجليزي شائع يشير إلى رجال البحر. [المترجمة].

شـــارع أو طريق، غير أنه في العام 1842 قــدم الفنان الأمريكي توماس كول أربع لوحات أســماها «رحلة الحياة» Voyage of Life والتي سرعان ما أصبحت أكثر تمثيل لمســيرة الحياة شــهرة. في هذه اللوحات يظهر أشــخاص يمثلون الطفولة، والشــباب، والرجولة، والشيخـوخـة على متن قارب يبحر في نهر سيقود أخيرا إلى البحر، ممثلا الموت[19].

الآن، اتخــذت فكرة الرحلــة البحرية أهمية جديدة تمامــا. لقد كانت هي الرحلــة بحد ذاتها، وليــس موقع الوصول، التي أعطت للحيــاة معنى. فما كان مرتبطا في الســابق بالقدر، ويخاض فقط بسبب الضرورة، أصبح الآن هو طموح كل شــاب. أصبح البحر مرتبطا بالنماء، بينــما الأرض مرتبطة بالجمود. وما كان ذات يوم الملاذ الأخير بالنســبة إلى الفقراء، أصبح الخــروج إلى البحر ولأول مرة ينظر إليه على أنه نشاط مشرف. ففي كل من إنجلترا وأمريكا الشمالية أصبحت الرحلة البحرية بالنســبة إلى نخبة معينة طقســا افتراضيا للعبور، حيث يميزهم هــذا الطقس ليس فقط عن رجال اليابســة العوام، لكن عــلى ما يبدو أنه كان الأهم، عن كل النســاء. من المفارقات أنه حتى حــين أعيد تصور البحر على أنه أمومي والســفينة على أنها أنثى أصبح الإبحار أكــثر حصرا على الذكور عما كان عليه في القرون الســابقة. وفي تغيير تام لمفهوم القدماء لفكرة العودة إلى الديار، أصبح البحر هو الموطن الآن. بالنســبة إلى الرجال، فالخروج إلى البحر اســتحضر شعور الارتواء الرجولي، بالنسبة إلى النساء، في «مجاورة البحر المحتضن الأمومي، تزدهر الغرائز الأنثوية». وحيث أصبح البحر يُرى على أنه رحم كل الحياة، أصبح الســاحل هو الحاضنة، حيث أخذ يرتبط بشكل متزايد بالطفولة عندما أصبحت عديد من الطبقات الوســطى الفيكتورية تســافر بشــكل أسري لقضاء عطلاتها هناك. فقبل أن يُجَنســن الشــاطئ، جرى توليفه، حيث أصبح محيطا ينتمي إلى الأمهــات والأطفال، ويتذكــره الرجال بحنين كجنة مفقودة مــن الطفولة لطالما اجتذبتهم باستمرار ككبار[20].

إن الجيــل ذاته الذي أســس لفكرة الزمــن العميق لنظرية التطــور كان على الاهتمام نفســه بأعماق المحيط. إن الألغاز التي كان يعتقد ذات يوم أنها موجودة عــلى الأرض انتقلــت الآن عبر الســاحل. أصبح البحر هو البريــة الجديدة والجبهة

الجديــدة، والأفق القــادم للطموحات الإنســانية، يحمل على عاتقــه ثقل تحقيق الأمنيات والأحلام والتي كانت تســتثمر على الجبهــات الأرضية ذات يوم. إن قدرة خيال البشر على تجاوز قواهم في الملاحظة تعني أنه حتى عندما ســبر العصر الثاني للاستكشاف أغوار البحار بأعماق أكبر، أصبحت المحيطات هي آخر موقع للجغرافيا الأسطورية، والتي، كما تذكرنا ميرتشا إلياده، هي الجغرافيا الوحيدة التي لا يستطيع أن يستغني عنها الإنسان[21].

كيف أصبح البحر بريا؟

لقــد كان البحر مرتبطا ولزمن طويل بالبرية، ولكن ليس النوع الذي اجتذب الجيــل الرومانطيقــي. إن الكلمة Wilderness أو البريــة، هي واحدة من تلك الكلمات المتحولة، دائمة التغير في المعنى والتطبيق. وحيث إنها ارتبطت بالأماكن غير المناســبة للحياة البشريــة، فإنها انطبقــت على الأراضي المقفــرة، خصوصا الصحاري والغابات الخطرة، وذلك قبل أن ترتبط بالبحر بحد ذاته. لقد أصبحت البريــة مكانــا لاختبار عمق المشــاعر والتــي كانت مقدرة جدا بــين أجيال من الرومانطيقيــين الأوروبيين والأمريكيين. خلال القرن التاســع عشر، لم تعد البرية شيئا مخيفا يجري تفاديه بل أصبحت مكانا يجري التمتع فيه وتستوجب حمايته.

في العديــد من الثقافات يرتبط البحر بقوة تفــوق الطبيعة. فالبحر غالبا ما يكــون موقعا للموتى، أو للخالديــن. كان ذلك حقيقيا لكل مــن الصين وأوروبا الوثنية. لقد عرفت المسيحية البحر على أنه مملكة الشيطان، غير أنها احتفظت بالقــوى العظمى للــرب. في جغرافيا الكتاب المقدس تطيــع المياه إرادته، حيث تبقى غامضة لا يمكن التنبؤ بظروفها. فلم يكن حتى القرن الثامن عشر أن أصبح ممكنــا تصــور أن المحيطات قد تكون معرضة لقوانــين الطبيعة، بل مضى وقت أكــثر قبــل أن يجري تفصيل هذه القوانين عن طريق علــم المحيطات الحديث. حتى ذلك الوقت، شــعر البــشر بأنهم في موطنهم الطبيعــي فقط على الأرض. كانت الوحوش لاتزال تظهر كرسوم على الخرائط البحرية وذلك بعد أن اختفت مــن خرائط الأراضي الداخلية بزمن طويل. لطالمــا كان يجري دفع المخاوف إلى أطــراف العالم الذي يعرفه البشر، وفيما أصبحت القارات معروفة أكثر، أصبحت

المحيطات مستودع المخاطر التي لم يعد يمكن تخيل وجودها على الأرض. هناك تكمن الحيتان البيضاء وأسـماك القرش القاتلة، التي سـترتفع قيمتها في الثقافة الشـعبية مع مرور الوقت، في البداية في الأدب ولاحقا في الأفلام. لقد اسـتمرت الأعـماق في الاحتفاظ بأسرارهـا لوقت أطول بكثير مما فعلـت حتى أكثر بقاع الأرض انعزالا، مبيحة نشـاطا أعظـم بكثير للخيال. كانـت المخاوف والخيالات تتعاظم كلما ابتعد الإنسـان عن السـاحل، حيث كانت تلـك «مرجعية متكررة للأشخاص الذين لم يسبق لهم أن عملوا في البحر أو عاشوا على الساحل»[22].

وفيـما تعددت الحضارات عـلى الأراضي حول العالم، لم يعد للبدائي النقي من مكان للذهاب إليه سـوى البحر. بحلول نهاية القرن التاسع عشر - وإلى اليوم - كان يعتقـد أنه، بين كل الأماكن على هـذا الكوكب، كانت المحيطات الأقل تأثرا بالبشرية. إن الإشارات المتكررة إلى «البحر الأبدي» تجعله يبدو كأن مياهه تبقى أبعـد من وصـول الزمن إليها، وهو الوهم الذي أسـهم في غياب المحيطات عن المعالجـة التاريخية الجادة، وعن المؤرخين البيئيين. كانت البرية تجتذب تحديدا سكان المدينة والذين كانوا يبحثون فيها عن مصادر للإلهام الاجتماعي والشخصي التي كانوا يشـعرون بأنها تَنْسَلُّ من بين أيديهم في المجتمع الصناعي الرأسمالي. ومع الشـعور بفقدان التواصل مع الطبيعة، بحث الأوروبيون والأمريكيون عن مسـاحات، حيث أنقى أشـكال الطبيعة يمكن إيجادها وحمايتها. كانت الجبال، والغابـات، والصحاري أول ما أشـير إليه وفُهم على أنـه برية. كان البحر آخر ما جـرت حمايتـه، عموما لأنه بدا غير محدود بشـكل كبير حتـى إنه لا يمكن أن يتعـرض للخطر. وبينما جرى استكشـاف القارات تماما، فـإن الجبهات الأرضية أصبحـت قليلة. فقط في الولايات المتحدة وكنـدا كان هناك مجال للبرية، ولكن بحلول نهايات القرن التاسـع عشر أصبح الأمريكيون الشماليون ينظرون كذلك إلى أعـماق البحـار على أنها «فراغ عظيم، صُوّر بشـكل مثالي عـلى أنه مجتمع خارجـي، ومنطقة برية من الطبيعة التي كانت متناقضة مع الأماكن الاجتماعية على الأرض التي يمكن تخطيطها، والتحكم فيها، وتطويرها»[23].

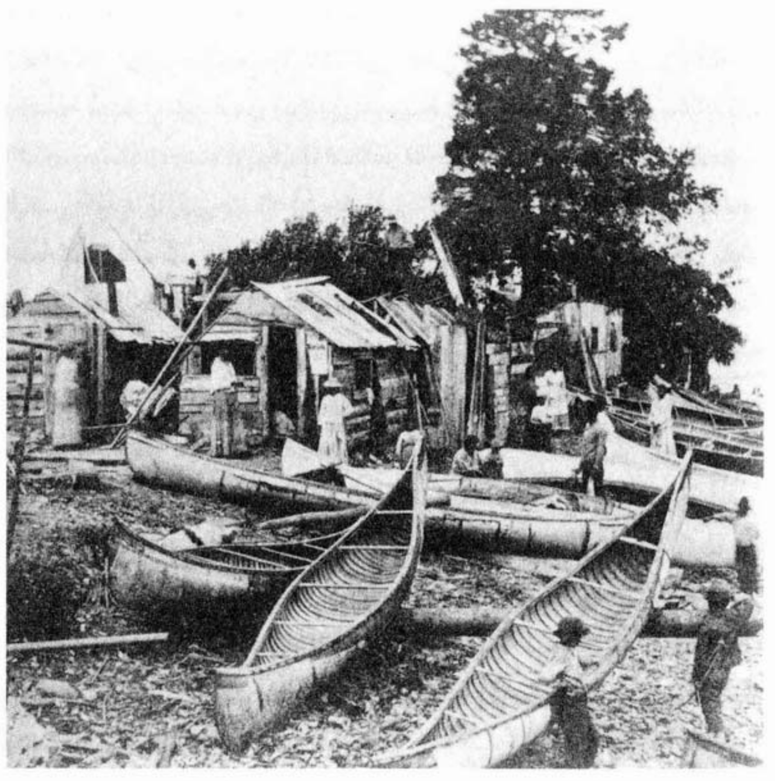
لقد كان الأمريكيون الأصليون مثل شـعب الماين والواباناكي من بين أوائل مكتشـفي البحر كجبهة جديدة، جرى دفعهم بعيدا عن السـاحل في البداية

عـن طريق المسـتوطنين الأوروبيين ومن ثـم تهجيرهم مـن مناطق الجمع والصيد الداخلية الخاصة بهم عن طريق التوسع الأبيض في الزراعة وفي عملية قطع الأشجار. وحيث إنه جرى سَدّ أنهار سمك السلمون بسدود بنتها شركات قطـع الأشـجار، لم يكن لدى الواباناكي من خيار سـوى العودة إلى السـاحل لصيد السـمك. وهناك اكتشفوا فرصا تجارية جديدة تفتحت لهم عن طريق السياحة الساحلية[24].

لقـد ازدادت الأعداد السـاحلية للواباناكي في نسـبة وتناسـب مباشرين مع ارتفـاع عدد زوار الصيف البيـض. بداية من منتصف القرن التاسـع عشر، كان هؤلاء يخيمون مجددا على السواحل التي كانت على مدى مئات السنوات بقاع صيد وتجميع لأسلافهم، ولكن هذه المرة هم يستغلون مهاراتهم في كسب قوتهم من أجل أغراض تجارية. فبحصادهم للعشبة الحلوة sweetgrass، أسسوا تجارة صنع سـلال قوية. لقد عادوا إلى صيد الفقمة مـن أجل صنع نوع من الأحذية، فيما أصبح صيد خنازير البحر، الذي كان في السابق نشاط كسب معيشة ثانويا، ومشروعا تجاريا رئيسـيا، مزودا المنـارات والزراعة الميكانيكية بمصدر ثمين لنوع ممتـاز من زيت الإنارة والتشـحيم. وعليه، لقد كان الأمريكي الأصلي «يسـتفيد من الآليات نفسها التي دفعت به وأنشطته خارج الغابات». ومع ازدياد القيود بسـبب قوانين الأعمال، اتجـه هنود ماين إلى البحر كآخر برية بالنسـبة إليهم. لقد كان يقال إنه «عندما أصبحت الغابات مراعي، عندما أدارت أنهار السلمون المناشير، ذهبوا (هم) إلى البحر حيث لا توجد أسيجة، وفؤوس، أو محاريث»[25].

لقد كانت هي ذات اللحظة التي اكتشف فيها هنري ديفيد ثورو البحر على أنه برية. لقد توصل إلى ذلك نتيجة لزيارتين إلى كيب كود، الأولى في العام 1849، والثانية في العام 1855، ثم نشر تجاربه خلال الستينيات من القرن التاسع عشر، حيـث كتب أن «المحيط هو بريـة تمتد حول العالم، إنه أكثر توحشـا من غابة البنغـال وهو مملوء بالوحوش». لقد التصق هـذا التوصيف المجازي، كما فعل مفهومه حول البحر على أنـه غير محدود ونقي، يقف خارج حدود التاريخ. إن مفهوم البحر على أنه برية لم يكن شـيئا تعلمـه ثورو من البحارة الذين قابلهم عندما كان يقيم مؤقتا في كيب كود، فمثل هذا المفهوم كان غريبا تماما بالنسـبة

إليهـم. لم يتعامل ثورو مع الماء في أي وقت، كل ملاحظاته كانت من الســاحل، مما صنع منه متســكع الســواحل الأول في أمريكا. بيد أنه كان يعتقد أن طرف البحــر كان يطل على عالم جديد تمامــا، وجبهة جديدة للنمو الروحاني. أصبحت المحيطات بالنســبة إليه نســخة أكبر وأكثر إلهاما من بركة والدن. فبالنســبة إلى ثورو وكذلك للواباناكي، كان البحر مكانا بلا أسيجة[26].



منظر من الساحل لمخيم هندي عند ميناء بار، ماين، 1881. الصورة لكيلبيرن بروذيرز، مقدمة من متحف آبي، ميناء بار.

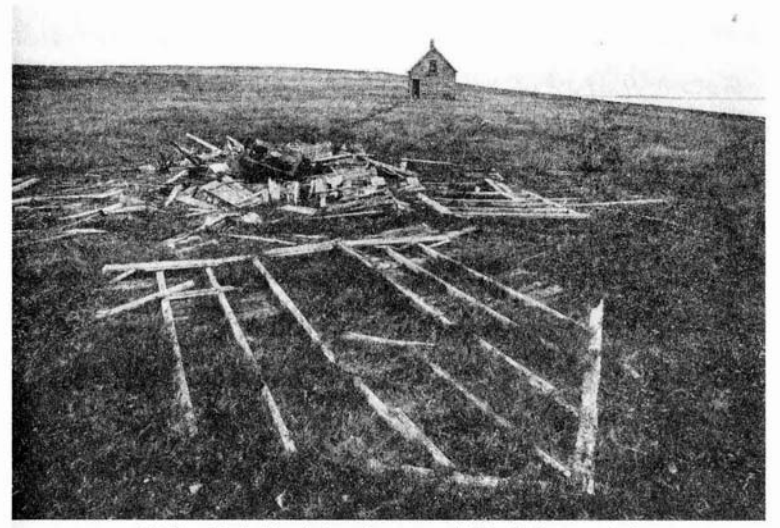
لطالما كان البحر مرتبطا بالمخاطر والموت، بيد أن حطام السفينة أصبح الآن الرمز الرئيسي للكوارث الإنسانية حتى جرى استبداله بحوادث تحطم طائرات المســافرين اقترابا من زمننا الحالي. لقد كان هناك عدد كبير من حطام السفن

عبر التاريخ، بيد أنها لم تكتسب أهمية رمزية كبيرة مطلقا، ليس فقط للبحارة ولكن لسكان الأرض كذلك. قبل القرن التاسع عشر، كانت حوادث السفن شائعة جدا إلى درجة التحول إلى شيء مهم بالنسبة إلى الشعوب الساحلية، غير أنها كانت ذات أثر قوي في سكان اليابسة. وبينما كان يرتحل باتجاه كيب كود في العام 1849، انحرف ثورو عن مساره باتجاه الساحل، حيث اجتذبه إعلان مكتوب يقول: «الموت! مائة وتسع وأربعون روحا فقدت في كوهاست». فقد تحطمت سفينة سانت جون الشراعية، وهي سفينة مهاجرين من غالواي، مجتذبة أعدادا ضخمة من إيرلنديي بوسطن إلى الساحل. وحتى فيما كان الثكلى يجمعون جثث أقربائهم، استمر المحليون في عملهم في جمع طحالب البحر «كأنه لم يكن هناك أي حادثة في الدنيا». لم يكن ذلك بسبب نقص التعاطف، بل كان ذلك يعكس وعيا بحريا مختلفا وقديما والذي كان يقبل الموت في البحر على أنه حتمي لا مفر منه. لقد كان لفكرة حطام السفينة معنى مختلف عندما كانت حوادث الغرق جزءا من النظام الطبيعي للأشياء، هي شيء يجب ألا يعطل عمل هؤلاء الذين كان مصيرهم أن يموتوا وأن يحيوا عن طريق البحر[27].

لقد كان تحطم السفن متكرر الحدوث في القرون السابقة إلى درجة أنه لم يكن موضوعا هائلا جديرا بالذكر. لقد جرى التعرف على مواقع ما يقرب من ثلاثة ملايين سفينة محطمة عن طريق علماء الآثار الحديثين، ومزيد من هذه المواقع موجود حول العالم من دون شك. في القرن التاسع عشر، كان للمنارات المتزايدة والعاملة بشكل أفضل مرفوقة بتطوير القوى البخارية أن خفضت وبشكل ملحوظ أعداد السفن المحطمة. بيد أنه كان تحديدا في ذلك العصر الذي لم يكن للسفن فيه أن تغرق أن تعاظم الفزع من هذه الحوادث بالنسبة إلى سكان اليابسة، الذين بالنسبة إليهم أتت هذه الحوادث لتبرز العجز الإنساني في مواجهة قوى البحر العظيمة. في رواية لواشنطن إيرفينغ، يبرز التصادف مع حطام سفينة منجرف أفكارا بشأن الضياع المطلق. في القرن التاسع عشر، أصبح حطام السفن رمزا لقوى الطبيعة ولعجز المحاولات الإنسانية عن التحكم في أقدارهم سواء على الأرض أو في البحر[28].

في أدب القرن التاسـع عشر، أصبح البحر هو الموقع الرئيسي للخطر والمغامرة، الطقس الأهم للعبور بالنسبة إلى صبية اليابسة الذين يتوقون إلى تأكيد رجولتهم. في إنجلترا كان البحر يعتبر «البرية الوحيدة غير المروضة، حيث ربما لايزال الإنسان صغـيرا ووحيدا بين ضخامة الخلق... إن الذهــاب إلى البحر كان هربا من المدينة ومــن الآلة»، كما بــين رابان. في العصور القديمة، خدمــت الجبال والغابات غرضا مشابها، وقد استمرت في ذلك بالنسبة إلى السكان الأمريكيين الأصليين على ساحل شــمال غرب أمريكا، الذين طالما اتجهوا إلى الأراضي الداخلية في رؤاهم الارتحالية. ولكن بالنســبة إلى الأمريكيين الأوروبيين، الذين كانوا مستمرين في عملية التطهير مــن جميــع آثار البريــة في الأرض، فالمحيطات فقط هي التــي قدمت درجة من التحدي تضمن استنهاض البطولة في الطبقة الاجتماعية للرجال المهذبين التي كان ينتمي إليها ثورو في حد ذاته. لقد شعر رجال الطبقة الوسطى أواخر القرن التاسع عشر بأنهم ورثوا عالما يتقلص باســتمرار، عالما أُخلي من الأشــياء البرية المتوحشة الضرورية للمحافظة على رجولتهم. «لا أستطيع سوى أن أشعر كأنني قد عشت في بلد مروض ومخصي إذا جاز التعبير»، كتب ثورو في العام 1855. لقد كانت النكهة البحرية، التي كان يكتسبها وهو آمن على الساحل، هي خلاصه[29].

لم يكــن هناك شيء مُفقِــدٌ للرجولة أكثر من ذلك العــالم الأليف الفيكتوري شــديد الأنوثــة، وعليه لم يكن مفاجئــا أن الرجولة أصبحت مرتبطة بالمســاحة الوحيــدة التــي، وبحلول منتصف القرن التاســع عشر، كانت النســاء مبعدات عنها منهجيا، أعني البحر. في القرون الأولى، كانت النســاء فعليا جزءا من العالم الســاحلي، مشــاركات تقريبا في كل جوانب التجارة وصيد الســمك. بيد أنه مع وصول الطاقة البخارية أصبحت النســاء مقيدات بشكل متزايد فقط بالأنشطة الســاحلية، أو، عندما كان يســمح لهن بالصعود على القوارب، كن يُقَيَّدْنَ بدور الراكب السلبي. وعلى الرغم من أن البحر كان يُقَدَّمُ مرارا وتكرارا على أنه مؤنث وشــبيه بالرحــم، بيد أنه أصبح يُرى على أنه محيط حــصري بالرجال. لقد جرى نســيان مشــاركة المرأة ســابقا في العالم البحري وذلك عندما أصبح البحر يؤدي خدمــة رمزية أخرى وذلك عن طريق تأكيد، بــل وتضخيم، الفروقات الجندرية الطرق التي لم يعد لليابسة القدرة على أدائها[30].



تامبلهوم Tumblehome، للمصور بيتر رالستون. الصورة مقدمة من الفنان.

في أدواره الجديـدة باعتبـاره برية، قدم البحر مهربا مـن الزمن، من التاريخ في حـد ذاته. ومع صعود الدولة الأممية الأرضية، أصبحت الأرض أكثر تأريخا وبشـكل مكثـف، مـما عزل دور البحر. الآن بـدأت التواريخ الأممية وانتهت على السـاحل، فيما أصبحت فكرة الأبدية أكثر ارتباطا بالمحيطات من أي وقت مضى، كأنها محاولة لإزالتهم من مسيرة الزمن التخريبية التي بدت مستمرة من دون هوادة على الأرض. إن السرمدية كانت شـيئا أتى ثورو باحثا عنه في زياراته إلى كيب كود، ولقد وجدها على السـاحل: «نحن لا نربط فكرة القِدم بالمحيط، ولا نتسـاءل كيف بدا منذ ألف سـنة مضت، كـما نفعل مع الأرض، حيث إنه كان متوحشـا ويصعب غور أسـباره بذات الدرجة دوما». وعليه، كان البحر محصنا من الخسـارات التي عانتها اليابسـة باستمرار. لقد كان خالدا [31].

لقد وجد ثورو شـيئا ملهما روحانيا ومتجددا باسـتمرار حول البحر. سنوات عدة قبـل جولات كيب كود، وبينما كان يعيش لمدة قصيرة على جزيرة سـتاتن، كتب ثورو «أن أفضل موقع للسكن الإنساني كان على طرف الأرض، حيث هناك ربما تغوص عميقا الدروس والتأثيرات المسـتمرة للبحر في حياة وشـخصية رجل الأرض، ربما مزودة خياله بصبغة بحرية». وبسبب كونه سـليل أسرة تجارية ساحلية من ماساتشوسيتس، لطالما

شعر ثورو باتصاله بالبحر. «إنها كلمة نبيلة، البحار.. يجب أن يكون في داخل كل واحد منا مزيد من معاني هذه الكلمة.. لربما يجب أن نكون بحارة وأرضيين بشــكل متســاو، وحتــى جبالنا الخضراء تحتاج إلى بعض من خُضْرة البحــر لنختلط بها». يبدو أن ثورو لم يكــن رجل الأرض الذي طالمــا دُفع به أن يكون، ولكنه لم يكن بحارا كذلك بالطريقة التي كان بها أســلافه. هو كان عوضا عن ذلك مؤسســا لنســل جديــد من بين أجناس الحافــة، مديــرا وجهه تجاه البحر فيما هو متجذر بقوة عــلى الأرض. لقد كان هو من أوائل من أســمتهم إميلي ديكنسون «مراقبي المياه الساحليين». سرعان ما سينضم إليه آخرون، بمن فيهم والت ويتمان، الذي كتب عن الشاطئ أنه مكان يشير إلى «التواصل، والتقاطع، والصَّلْب يتزاوج مع السائل - ذاك الشيء الغريب الجذاب»[32].

إن هؤلاء الذين كانوا يكســبون عيشــهم من البحر نادرا ما عبروا عن أي مشــاعر تجاهــه غير حتمية القــدر. لقد كانوا يقضون أوقاتهــم الترفيهية مصوبين ظهورهم إلى البحر، متجاهلين هؤلاء المهتمين «بملاحقة الســاحل» عــلى أنهم غريبو الأطوار، وحتى معتوهون. إن الانتشــاء بالبحر لم يكن جزءا من الثقافــة البحرية القديمة. لقد وصف رالــف والدو إميرســون «حياة البحــر بأنها ذوق مكتســب، مثل ذاك الذي نكتســبه للطماطم والزيتون. «ما أشــار إليه ثورو على أنه صبغة بحرية كان شــيئا يتحصل عليه ســكان اليابسة. إن قصيدة إيميلي ديكنســون «الابتهاج هو في ذهاب» توضح تماما أن حب البحر كانت له جذور أرضية:

الابتهاج هو في ذهاب
روح أرضية إلى البحر،
عابرة البيوت - عابرة الألسنة الأرضية
إلى حيث الأبدية العميقة
أن تناسلنا كما حدث، بين الجبال،
هل يستطيع البحار أن يتفهم
هذه النشوة الإلهية
لغرة الشأو البادية من اليابسة[33].

بالنســبة إلى هربرت. جي. ويلز هناك «لا يوجد رومانســية للبحر في سفينة إبحار صغيرة كما رأيتها أنا. إن الرومانسية هي في ذهن رجل الأرض الحالم»[34].

الساحل الاستشفائي

لقــد كان الأوروبيون والأمريكيون منجذبــين إلى البحر حتى عندما أصبحت أعداد من يعبر خط المد منهم أقل فأقل. لقد كان الســاحل جذابا في البداية بســبب صفاته البرية المهيبة، بيد أنه في النهاية لم يكن الساحل الصخري ولكن الرملي، ما ندعوه اليوم بالشــاطئ، هو ما أصبح أكثر صفاته جاذبية. لقد كان الشاطئ اختراعا للعصر الحديث، صور طبيعية جديدة تماما ثقافيا كما هي ماديا. يخبرنا المعجم الإنجليزي لأكسفورد بأن الكلمة المحلية beach أو شــاطئ كانت تعني في الأصل نوعا معينا من الصخور والذي يدعــوه الإنجليــز «shingle» أو «حصى» أو «cobble» أو «الأحجار المســتديرة». لقد تطلب الأمر فترة زمنية قبل أن تصبح الكلمة اســما لنوع مميز من الأماكن. إن شواطئ الحصى والأحجار المســتديرة أكثر شــيوعا في أوروبا، بينما الشــواطئ الرملية منتشرة في الأمريكتين وفي أستراليا، بيد أن القاسم المشترك بينها هو الطريقة التي تشكلت وتغيرت بهــا عن طريــق حركة المياه. تحمل الأنهار الأحجــار إلى البحر، حيث يجري طحنها إلى قطع أصغر ثم تُلقى على طول الســاحل. إن الشــواطئ، وأكثر من أي أجزاء أخرى من الســاحل، تتغذى على الحركة. لقد كان يقال إن «الشاطئ هو المكان الذي تتوقف فيه الرمال لترتاح لوهلة قبل أن تواصل رحلتها إلى مكان آخر». عندما تجف الأنهر وتتراجع التيارات الساحلية تموت الشواطئ وتختفي[35].

ولأن الشــواطئ حية ودائمة التغيير، تكون عصية عــلى التعريف وعصية أكثر على التحديد. لا عجب إذن أن لم يكن لأسلافنا أسماء ولا مشاعر تجاهها. لقد كانوا يخافون طبيعتهــا المتقلبة حيث بذلوا مجهودا قليلا للتحكم فيها. اليوم، عندما نســتثمر الكثير من الجهود في موازنة واســتقرار الشواطئ وذلك من خلال تغذية الشواطئ وإجراءات أخرى، فإنها تســتمر في التملص من قبضتنا. وعليه فنحن نتحدث عن الرمال المتحركة ومخاطر البناء على الرمال. فبين كل الملامح الســاحلية، وبعيدا عن الأراضي الرطبة، فإن الشــواطئ هي الأكثر ســيولة بين كل مظاهر الطبيعة، إنها terrae infirma أو الأرض اللينة العظمى. اليوم تعتبر الشواطئ حول العالم من أكثر الأماكن اصطناعية. إن الرمل، وتحديدا الرمل الأبيض، أصبح هو المعيار العالمي للشواطئ حتى في الأماكن التي تكون فيها هذه الشواطئ صناعية تماما ومستوردة. إن ما كان ذات يوم مادة بلا قيمة أصبح الآن رمــزا لا يقدر بثمن. إن العديد من الشــواطئ اليوم هي من صنع الإنســان تماما، والبعض منها داخلي كذلك، بعيدا عن البحر وعن الطبيعة بحد ذاتها[36].

إنه تحول مذهل، فعندما استقر الأوروبيون والأمريكيون على السواحل في البداية، فإنهم بالعموم تجاهلوا، بل تفادوا، ما يعتبر اليوم أكثر الامتدادات الســاحلية جاذبية. عندما جرى الاقتراب منه في البداية عبر البحر، كان الشاطئ يستخدم للرسو ولكن ليس للاســتقرار. لم يكن ســكونه القاحل غير مضياف فقط ولكنه منفر. لقد ارتبط الشاطئ طويلا بالأوبئة والموت، وســيمر وقت طويل قبل أن تستبدل سمعة الشاطئ الجهنمية بتسميته الجديدة كجنة أرضية. وحتى الآن لايزال الرعب يلاحق الشاطئ، متفجرا بذعر دوري حول هجمات القرش والمخاوف المستمرة من تلوث المياه وسرطان الجلد[37].

لقد مرت قرون قبل أن يصبح الشــاطئ هدف وصــول وليس نقطة انتقال بين الأرض والبحر. قبل القرن التاسع عشر، كان الشاطئ هو أسهل مكان لإرساء قوارب المياه الضحلة. لقد أرسى أســلافنا ســفنهم على الشاطئ لزمن طويل قبل أن يفكروا في النزول للشــاطئ بأنفســهم. فحتى هؤلاء الذين كســبوا قوتهم من البحر تفادوا الخط الســاحلي، حيث بنوا مســاكنهم على الأرض موجهين بعيدا عن البحر. فلزمن طويل، لم يجد الزوار ســوى القليل الذي يبهجهم حول الساحل. فحتى سنة 1903، قال مسافر سويدي على الساحل الغربي للدولة إنه «خلال كل الرحلة، لم أشهد مكانا واحدا جميلا»[38].

عندمــا بدأت الطبقــة الراقية الإنجليزيــة في بدايات القــرن الثامن عشر هجر المنتجعــات الأرضية من أجــل تلك الواقعة على الســاحل، لم يكونوا يقصدون المياه الدافئة والشــواطئ الرملية. لقــد كان التخلص من الألم عوضا عن البحث عن المتعة هــو ما حــرك أول تدفق نحو البحر. كان المرضى والمتنقهــون ينجذبون إلى المميزات العلاجية الرفيعة الشــهيرة لمياه البحر الباردة. بيد أن العلاجات التي وجدوها هناك كانــت، وفق مقاييســنا، أكثر جهنمية منهــا نعيمية. لقد أتوا ليس ليســبحوا ولكن ليستحموا، ولقد كانت تجري مساعدتهم لاستكمال هذا النشاط عن طريق ما يسمى آلات الاســتحمام، والتي كانت كبائن على عجلات تنقلهم عبر الشــاطئ وإلى المياه ، حيث، وبمســاعدة عاملين مســتأجرين، كان يجري غمس الرجال والنســاء على حد السواء في البحر كجزء من علاجاتهم النفسية والجسدية، والتي كانت تشتمل كذلك على شرب مياه البحر، والتي كانت تعتبر طبية في ذلك الوقت. قبل أن تصل ســكك الحديد إلى ساحل نيو جيرسي، كانت الرحلة إلى هناك توصف بأنها «عقوبة أكثر منها

متعة... كانت الرحلة مرهقة كتلك التي يَتَجَشَّمُها المسلمون إلى مكة». لاحقا، عندما بــدأت الطبقات الراقية الإنجليزية بالتطلع جنوبا إلى المتوســط بحثا عن علاجاتهم، كانوا يذهبون خلال الشتاء، حيث إنه لم يكن حتى القرن العشرين أن حلت الشمس محل المياه الباردة كإكسير للصحة والنشاط[39].

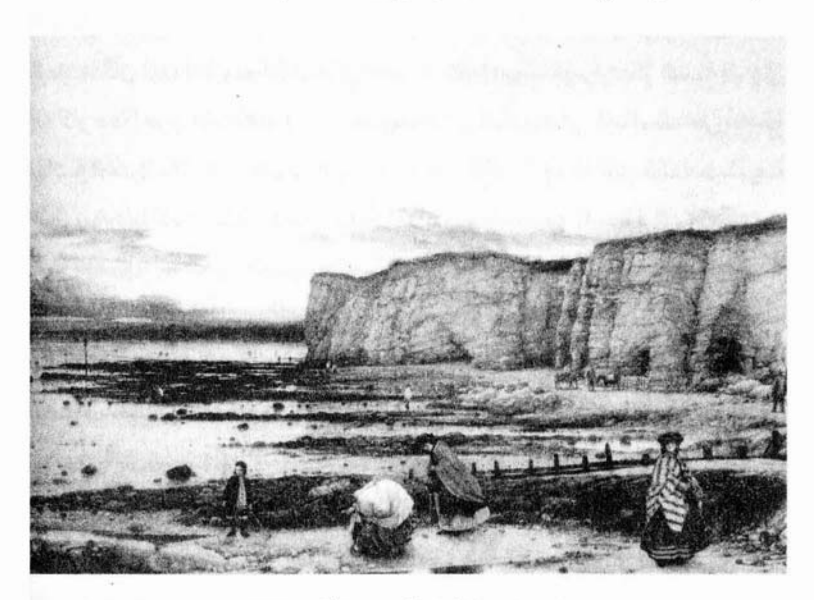
ليس كل ساحل يصلح لأن يكون منتجعا. لقد جرى اختيار الشواطئ الإنجليزية في البداية كونها مسطحة، حيث كان لها أسطح صلبة مما وفر منفذا سهلا لآلات الاستحمام، والتي كانت تغوص في الرمل الناعم. وفق مقاييس اليوم، كانت المقاييس المفضلة قبيحة وغير مريحة. لقد كانت هذه المقاييس مرتبطة أكثر بالعجزة عن الرياضيين، بالأجســاد الموبــوءة عن الصحية. لم تنتشر مهارات الســباحة حتى القــرن العشرين. فالخوض في المياه والانغماس فيها برزا على ســاحل جيرسي، وهذه الأنشــطة هي أحد الأسباب التي جعلت المياه الضحلة مواقع شاطئية مفضلة. وفيما كان الاستحمام العاري مقبولا حتى منتصف القرن التاســع عشر، فإن الوسائل المختارة للوصول إلى البحر بقيت هي ذاتها آلة الاســتحمام، والتــي لم توفر فقط احتياطا أمنيا ولكنها كذلك كانت تخبئ الجســد، وهي الخدمة التي كانت تقدرها النساء تحديدا. ولكن بحلول نهاية القرن التاسع عشر كانت المياه المالحة تفقد ســمعتها العلاجية، حيث كانــت الأعداد المتزايدة من الناس تأتي البحر من أجل متعة الســباحة الخالصة، والتي هي نوع من الرياضة التي أخذت شــعبيتها في الازدياد. لقد حلت أزياء الاســتحمام للرجال والنساء موضوع الخصوصية جاعلــة من آلة الاســتحمام عديمة الفائدة. كانت هــذه الآلات تقف على حافة الرمال كغرف تبديل لمرتادي الشــاطئ الجدد. لاحقا، ســتتطور هذه الآلات إلى أكواخ شاطئ مواجهة للبحر ثم إلى منازل شــاطئية. بحلول ذلك الوقت، كان الشاطئ في حد ذاته قد أصبح هدف الوصول[40].

ولكــن قبــل أن يكون الشــاطئ مكانا للســباحة أو التشــمس، كان مكانا للمشي، والركوب، وأخيرا للاستكشــاف. لقد جرى اكتشاف الســاحل الإنجليزي عقليا وروحانيا قبل أن يُستكشــف حسيا بزمن طويل. لقد وجد علماء الآثار في أجراف البحر «أرشيف الأرض» الأحفــوري. في البدايــة، أكدت العجائب الطبيعية الموجــودة على حافة البحر ولم تضعف الجدل بشــأن وجود تصميم إلهي. مع مرور الوقت، ستؤرخ الأحافير بداية الحياة بوقت أقدم بكثير عما اقترحته قصص الكتاب المقدس، ولكن خلال معظم القرن

التاسـع عشر كان الدين لايزال في موطنه الطبيعي على الشـاطئ. كان السـاحل غاية أولية ليس فقط للمسـافرين عبر الزمن ولكن كذلك لعلماء النبات والحيوان المبتدئين، والذيـن، في عصر مـا قبل مهنيـة العلم، قد اشـتملوا على العديد من النسـاء. يمكن مشاهدة هؤلاء النسـاء وأطفالهن وهم يستكشفون أحواض الصخور، غارسين أياديهم للحصول على عينات، والتي ستجد طريقها إلى الحوض المائي المنزلي، والذي كان صخب الطبقة المتوسـطة الأمريكية والأوروبية في منتصف القرن التاسع عشر. بعد ذلك كانت هناك الرغبة العامة لتمشـيط الشاطئ، الذي إليه توعز مجموعات الأصداف، وصخور الشاطئ، وزجاج البحر التي كانت تملأ الردهات وغرف الأطفال الفيكتورية. على المدى البعيـد كان لهذا التجميع المركز نتائج وخيمة. كان إدموند غوس يتذكر السـاحل على أنه كنز دفين جرى اكتشـافه في خمسـينيات القرن التاسع عشر. لقد أسف على أنه مع نهايـة القـرن «كل شيء كان قد انتهى. إن حلقة الأحياء الجميلة التي كانت مرسـومة حول سواحلنا كانت حلقة رقيقة وهشة. لقد بقيت واستمرت كل هذه القرون كنتيجة كلية للإهمال، إنه الجهل الحميد للإنسـان... لن يرى أحد مجددا على ساحل إنجلترا ما رأيته أنا في بداية طفولتي»[41].

كان رد الفعـل الغريـزي الأول للأوروبيـين والأمريكيين، مع الأخـذ بعين الاعتبار الخـوف طويـل الأمد من البحر، هو دفع هذا البحـر إلى التراجع وذلك عن طريق مد اليابسة بأكثر قدر ممكن. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، نُقلت الفنادق والمساكن الأنيقـة، والتي جرى بناؤها سـابقا بعيدا عن السـاحل ومواجهة في غـير اتجاهه، إلى مواقع أقرب إليه، صانعة لأول مرة خطا سـاحليا ظاهرا ومسـتقرا في العديد من مدن المنتجعات والنوادي الصحية. فما كان ذات يوم حدا مسـاميا بين الأرض والبحر أصبح الآن حدا منيعا غير قابل للاختراق، مكتملا بحائط بحري ومتنزهات مبنية لهذا الغرض. في القـرن الثامن عشر، عندمـا لم يكن الناس يقضون الكثير من الوقت على الشـاطئ مثلما كانوا يقضونه عند الشـاطئ، كانت الرمال والحصى لاتزال مواد غريبة، مسـاحتها هي مساحة حدودية مملوءة بالقلق بين الأرض والبحر، بين الحضارة والطبيعة. وحتى السنوات المتأخرة من سـبعينيات القرن التاسع عشر كان زوار مدينة أتلانتك يشتكون من الرمال التي كانت تنزلق في كل مكان. لقد صُنع الممشى ليبقي الطبيعة حرفيا تحت السـيطرة. إن ذات الكراهية تجاه البرية السـاحلية تبرر الأعداد الضخمة من الجسور

المائيــة وممــرات المشي والتي جرى بناؤها في أواخر القرن التاســع عــشر. في بريطانيا وحدها جرى بناء ما يزيد على ستين جسرا مائيا بين العامين 1850 و1900. كانت هذه الجســور الأولى المصنوعة للترفيه ما هي فعليا إلا امتدادات للأرض حيث كانت تحمل الزوار فوق وليس إلى الشــاطئ في حد ذاته، حيث كانت تحميهم من روائحه ومناظره البغيضــة فيما توفر لهم نقطة نظــر آمنة ليتطلعوا إلى كل من البحــر والبر. كما أنهم حرصوا على ألا يجري جلب الكثير من رمال الشــاطئ ومخلفاتــه إلى الفنادق والمنازل الأنيقة الساحلية التي اصطفت الآن على الواجهة الساحلية[42].



خليج بيغويل في كنت، ذكرى من 5 أكتوبر 1858.

الصورة من ويكيميديا كومونز.

وفي وقت لم يكن فيه الشــاطئ في حد ذاته بَعْد مكانا ليتطلع منه الإنســان أو ليُرى الآخرون منه، أدت الجســور المائية وممرات المشي هذا الغرض. لقد ســمحت هــذه للزوار بــأن «يخدعوا الطبيعــة»، مقتربين أكثر ما يمكن مــن البحر من دون التخلي عن أي من زينة الملبس وأنماط السلوك اللائقة والتي شكلت مفهوم الاحترام بالنســبة إلى الطبقة الوســطى الفيكتورية. وكمكافأة إضافية، فــإن البنية التحتية

الجديدة منعت الاختلاط بهؤلاء الناس الذين كانوا يحتلون الشـواطئ لزمن طويل، وهم صيادو السـمك وجامعو النباتات المحليون. إن الخط الساحلي جديد التكوين كان كذلـك خطا طبقيا، وحـدا اجتماعيا لا تقل درجة تخطيطـه والدفاع عنه عن السـاحل في حد ذاته. في البداية، حاول الـزوار تفادي «الرعاع» ليس إلا، وذلك عن طريق عزل أنفسهم مكانيا عن الشاطئ، مبقين إياه حرفيا ورمزيا أسفلهم. ولكن مع مرور الوقت، أصبح إغراء البحر والشاطئ - في حد ذاته - شديد القوة. بحلول نهاية القرن التاسع عشر كان لا بد للمقيمين القدامى من أن يُرحلوا، لقد جرى إخفاؤهم، كما حدث مع «الأهـالي الأصليين» الآخرين عندما قررت الطبقة الراقية المدينية أن تعزل الجبال والغابات من أجل أغراضهم الترفيهية والجمالية الخاصة[43].



بلاك بول، إنجلترا، الصورة لإليوت إيرويت، بترخيص من ماغنوم.

لقد أُزيل سكان الساحل، كما أُزيلت الهضبات وغيرها من الأماكن سابقا. ولكن حيث إن مقدمة الشاطئ طالما كانت تعتبر شعبية، فإن هذه آخر حركات التطويق العظيمة، قد استُقبلت بمقاومة قوية من السكان الساحليين المقيمين، خاصة صيادي السمك وجامعي النباتات والذين كانوا معتادين على إرساء قواربهم على الشاطئ في أكثر البقع المرغوبة، وتخزين معداتهم، ومعالجة السمك على مرأى واشتمام من سابحي الطبقة الراقية. وكما في حالة مصارف فنلاند السابقة، كان الصراع بين آخر أشخاص الحافة وأواخر القادمين الجدد شديدا بالفعل، ومنذ بداية القرن التاسع عشر، ولكن مع مرور الوقت، فقد الصيادون والجامعون أماكنهم، حيث دُفِعوا إلى موانئ قريبة، لتُسحَب منهم مجددا عندما بدأ أهل اليابسة التوق إلى شراء أملاك الواجهة الساحلية.

يصف جين - ديدير إيربراين هذه العملية بأنها «مُدَمِّرة» للشاطئ، فهي «احتلال جمالي للساحل عن طريق أيديولوجية قضاء الإجازة»، نتج عنها الاختفاء «الحقيقي والرمزي، للإنسان الساحلي، Homo littoralis». إنّ دليلا إلى منطقة هاستينغس لسنة 1858 يطمئن الزوار بأنه «قد جرى تحسين الشاطئ بشكل كبير، بإزالة أكواخ صيد السمك القديمة غريبة المنظر، والتي سابقا كثيرا ما أعاقت منظر البحر». لقد دافع صيادو السمك، وجامعو المحار الفرنسيون عن حقهم في المرور إلى البحر حتى نهاية القرن التاسع عشر، غير أنه حتى هؤلاء جرى نفيهم أخيرا إلى المرافئ المحلية. في القرن العشرين، طُرِدت الشعوب الساحلية من كل مكان ما عدا أقل المناطق جاذبية على الشاطئ. أخيرا، وبصورة ذات مغزى، جرى مسح كل ذكرى لوجود إنسان الساحل[44].

إمكانية الفراغ

لقد خُلِقَ الشاطئ من العدم، من دون أن يوفر شعورا بالمكان، أو شعورا بالتاريخ والمرتبطين بأماكن قضاء العطل الأخرى مثل القرية الريفية. وعليه فقد بدا الشاطئ على أنه لا مكان، فراغ، وبقي كذلك منذ ذلك الحين. من البداية كان فراغه، تصحره الاصطناعي، جزءا من جاذبيته. لطالما بحث تجار العقارات عن أماكن خالية لبناء الأندية الصحية والمنتجعات. منذ البداية، كانوا يتنافسون على المساحة الساحلية المحدودة، والتي أصبح إيجادها أكثر صعوبة. لقد أثبتت الطبيعة أنها العدو الأول لمشاريع المنتجعات المزدهرة على طرفي الأطلنطي. فحيثما وقفت الأراضي الرطبة

والسواحل الصخرية في طريق التوسـع في الواجهات الشاطئية، كانت وببساطة تملأ أو تسوى بالأرض[45].

في خلال القرن التاسـع عشر، كان الشـاطئ يُغَيَّر ويُتْلَف حتى مع إعادة تشـكيله كأنقى الصور التعبيرية للطبيعة. لقد أزيلت الأحياء النباتية والحيوانية الطبيعية وحلت الرمـال الجدباء أو الحصى محلها. في بريطانيا اليوم لا تُوجد تقريبا أي شـواطئ عذراء، وفي أمريـكا الشـمالية يوجد أقل القليل منها، ما عـدا في المناطق التي جرت المحافظة عليها عن عمد. إن مفاهيم أهل اليابسـة تقول إنه لا بد من تنظيف الشواطئ من كل ما هو ذو رائحة أو قبيح المظهر. في القرن التاسع عشر، كان الشاطئ مغطى بالمخلفات الطافيـة وما يرميه البحر على الشـاطئ. كان حطام السـفن يجتـذب مجاميع الناس، وكانت السـفن الثقيلة تُترَك لتتعفن في الرمال. الآن، أصبحت الشواطئ مرتبطة بالحياة عوضـا عن الموت، فتذكارات الموت هذه لم تعـد مقبولة، كما أن الحياة الطبيعية التي كانت تجتذب الصيادين والجامعين ذات يوم لم يعد يسمح لها أن تتجمع هناك كذلك. اليوم، أُخليت الشـواطئ ونُظِّفت بوسائل ميكانيكية. رمالها نادرا ما تكون نتاج نشاط طبيعي للبحر، ولكنها مجروفة أو مشحونة إلى هناك.

غـير أن هـذا التصحر هو الجاذب الرئيسي للشـاطئ الحديث. لقـد كان يقال إن «أنقـى أشـكال العطاء هـو الفراغ في ذاته». لقد سـكن الرجال المقدسـون ذات يوم الصحارى بسـبب ما تقدمه روحانيا. لاحقا، اجتذبت الجزر المهجورة الرحالة والنساك. بيد أن الفراغ الشاطئي اليوم غالبا ما سيثير إمكانية شعورية لا روحانية. هناك نستطيع أن نخلي أنفسـنا من كل الهموم والمسـؤوليات المرتبطة بحيواتنا العادية، وعليه ظهور مصطلح العطلة vacation. في الفترات الزمنية السابقة، كانت كلمة عطلة تعني إيقافا لا إراديا عن العمل أو فقدانه. فقط في نهاية القرن التاسـع عشر حملت الكلمة معاني أكثر إيجابية[46].

بمصطلحـات لغة البحار «أن تكون على الشـاطئ» كان يعنـي ذات يوم أن تكون بلا عمل ومعدما تماما. بيد أن الشـاطئ لم يعد مرتبطا بالمعدمين المعزولين. وفيما تعتبر الشـواطئ المكان المفضل للعائلات مع أطفالها، فإنها مرتبطة كذلك بالغريب والإغرائي. تشـير الشـواطئ إلى الطبقة الاجتماعية، كما أنها تكشـف عن الهوية الجنسية وغيرها من الهويات. كانت الشـواطئ تسـتخدم لفرض العزل الجنسي والعرقي، ولكن في حالة شـواطئ العراة والمثليين، يمكن رؤيتها على أنها مانحـة للقوة. كونها مملوءة بالمهتمين

بكمال أجسامهم وبعشاق الشمس، تلك هي أماكن حيث نتخلص فيها، ولو لوقت قصير، من تقاليدنا. ونجد طبائع جديدة لأنفسنا. فكونها عتبة، فإن حافة البحر لطالما أشارت إلى إمكان تغيير الأشكال، وكانت في سابق الأزمنة أماكن تلازمها مخلوقات نصف حيوانية، نصف إنسانية مثل حورية البحر ومخلوقات السيلكي. هذه المخلوقات اختفت، غير أن التغيير لايزال مرتبطا بالرمال المتحركة، كما لم يرتبط سابقا بأي بيئة أرضية. تبقى المياه وسيلة درامية للتحول الديني، ولايزال الساحل هو موقع التعميد، بيد أن الشاطئ أصبح كذلك مكانا للتجديف وعدد آخر من الطقوس الدنيوية الجديدة، خاصة تلك المرتبطة بالعائلة(47).

إن الشاطئ هو ما يعرّفه مارك أوجيه على أنه اللا ـ مكان non place، شيء لتعبره لا لتسكن فيه. إن اللا ـ أماكن تحظى بأقل اهتمام من الجغرافيين، فالقليل من الشواطئ لديها مؤرخوها. يبين الشاطئ بداية ونهاية، ولكنه لا يوفر سردا في المنتصف، فالشاطئ ليس لديه تاريخ، ومرتادو الشواطئ لا روابط لهم مع أفراد إنسان الساحل السابقين. عوضا عن ذلك، تظهر الشواطئ نفسها على أنها نقطة عودة أبدية والتي تعد بألا تتغير أبدا - مكان حيث لا يحدث شيء مطلقا. وكما يقول أرباين، نسيت الشواطئ تاريخها. لقد محا التجديد أغلبية آثار الحياة السابقة للشعوب الساحلية؛ فحتى قرى صيد السمك الباقية هي منفصلة عن الماضي، مجرد تصور لحيوات عاملة سابقة قد انقرضت الآن. إن جاذبية الشاطئ تقع في حقيقة أنه يبعد كل «ما له علاقة بالعمل»، فعلاقته الحقيقية بالطبيعة والتاريخ يجب أن يجري إخفاؤها دوما، حيث إن الشاطئ يقدم نفسه في الثقافة الحديثة على أنه مكان أساسي للهروب، مكان للسلوان والنسيان(48).

إن الساحل الذي ظهر في القرن التاسع عشر قد قدم نفسه في البداية على أنه طبيعة وحشية ولكنها سرعان ما رُوضت، حيث حظيت ببروتوكولها وقواعد سلوكياتها الخاصة بها، والتي ستصبح في النهاية غاية في العالمية، حتى أن الشواطئ بدأت تشبه بعضها. لقد فقد الشاطئ، كحال كل اللا ـ أماكن الحديثة، اتصاله بالشعور المحلي. فبمجرد أن جرى تهجير كل سكانه الأصليين ومحو ماضيه، أصبح مستعدا لإعادة البناء كعالم منفصل، لا ينتمي إلى الأرض ولا إلى البحر، بمساحاته الخاصة، بمعماره الخاص، وبأزمانه الخاصة. فمنذ بداية القرن التاسع عشر فصاعدا، جرى تحويل المنتجعات الصحية القديمة إلى أماكن لهو، مدن ملاهٍ فاخرة، والتي في حين كانت تتردد عليها الطبقات الاجتماعية العليا في البداية، سرعان ما اجتاحتها طبقة المدينة البرجوازية. بحلول منتصف القرن

التاسع عشر، أخذت الطبقة العاملة من المرتحلين يوميا بالتدفق من المدن الصناعية. في البداية حضروا على أنهم مقيمون، حيث اســتأجروا الغرف الإضافية من زوجات صيادي السمك. أقام المتنزهون الأفضل حالا في الفنادق حديثة البنيان. وسعيا إلى تأكيد درجتهم الاجتماعية، بدأ الأغنياء إما بالارتحال إلى مكان آخر وإما بتخصيص الســاحل، مُشــيِّدين بيوتهم الشــاطئية الضخمة الخاصة بهم. لقد قامت الطبقات الوســطى بمحاكاتهم على مقياس أصغر، وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين كانت هناك مدن كاملة من العشــش المتواضعة المســتوى التي أخذت تزحم ســواحل كل من أوروبا وأمريكا الشــمالية. بعد الحرب العالميــة الثانية، جلبت ثورة المركبة الآلية معها فكرة منتزهات العربات الكبيرة (الكارافان). لأول مرة، كان لدى الأشــخاص العاملين وقت إجازة كاف لينضموا إلى ذلك التيــار المتدفــق نحو البحر، وعندئذ بدا أن «ســاحل البحر ينتمــي إلى الجميع». وفيما كانت ذات يوم منازل موســمية، بحلول سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته أصبحت المجتمعات الشاطئية ضواحي ساحلية، مسكونة على مدار السنة من المتقاعدين والذين قــرروا تحويــل منازلهم الصيفية إلى أماكن إقامة دائمــة. الآن هي مجتمعات غرف نوم كذلــك، حيث العاملون الذين يتنقلون من المدينة إلى الســاحل البحري من أجل قضاء عطلاتهم يعودون إلى التنقل يوميا من الساحل إلى أماكن عملهم[49].



مجموعات مختلفة من المحدقين باتجاه البحر، الصورة لإليوت أرويت.
بترخيص من ماغنوم.

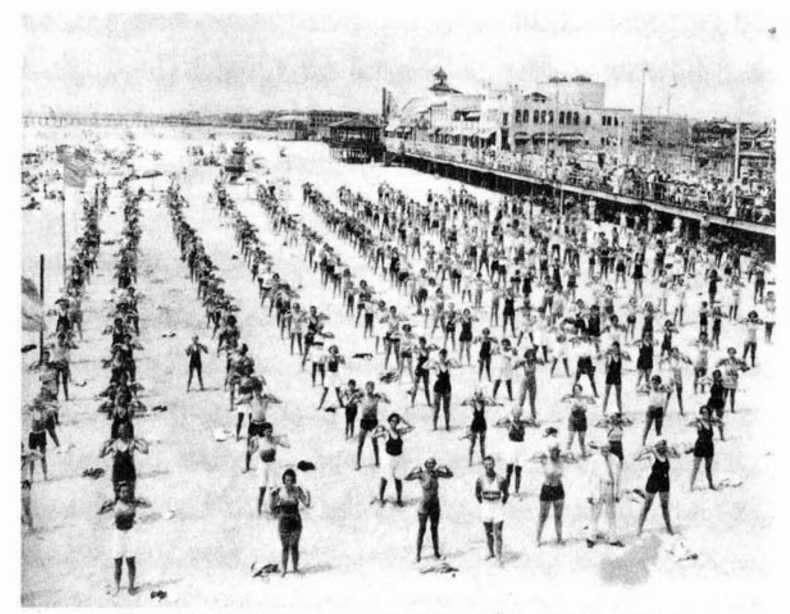
الشاطئ موقع طقوسي

إن مـا بدا على أنه رحلة قصيرة سـيتطور أخيرا إلى ما نعرفه الآن باسـم عطلة العائلة. في منتجعات مثـل منتجع الليدو في روما، كيب ماي في فيلادلفيا، وبرايتون في لندن، والتي جميعها تبعد مسـافة رحلـة قطار قصيرة عن المدن، تثبت الأمهات والأطفال أنفسـهم على السـاحل الصيفي، في حين يلحق الآبـاء بهم في عطل نهاية الأسـبوع. في بداية القرن التاسـع عشر أصبح الشـاطئ مرتبطا بالعائلة النووية[*]. لقـد أصبح متصلا بالطفولة، وفيـما أصبح الأطفال هم المحـاور المكانية والزمانية والتـي تدور حولها حياة العائلة، اكتسـب الشـاطئ معنى خاصا عـلى أنه المكان الوحيـد الذي «يحاول فيه الكبار أن يصبحوا صغـارا». لقد كان ذلك مهما تحديدا بالنسـبة إلى الرجـال، والذين في طور الحياة اليومية قد تحولوا إلى غرباء بالنسـبة إلى أطفالهم، والذين بالنسـبة إليهم كان الشاطئ رابطا ليس فقط بصغارهم، ولكن كذلك بطفولتهم هم، والتي يتذكرونها الآن من خلال عدسات الحنين الوردية[50].

مسـبقا مع نهاية القرن التاسـع عشر بدأت العائلات في العودة سنة بعد سنة إلى المنتجعات الشـاطئية ذاتها، حيث أخيرا بدأت تسـتثمر في الممتلكات الساحلية والتي يمكن تمليكها من جيل إلى جيل، فما كان ذات يوم رحلة سـياحية تزين الآن بزينـة الحج الدنيوي. وبتقديس الشـاطئ على أنه المنطقة المثـلى لقضاء العطلة، اكتسبت الحياة هناك قيمة طقسية متزايدة. وحيث إنه لم يعد مكانا لعرض القيمة الاجتماعية، فقد خدم الشاطئ كمساحة استعراضية للطقوس العاطفية الدالة على التماسـك العائلي. وكما وصفه إيربابن، أصبح الشـاطئ «موقعا طقسيا» و«سجادة صلاة» من أجل أداء طقس معين، فعلى مدى أغلب أيام الأسـبوع، يكون الشـاطئ هو مملكة النساء والأطفال، ولكن في عطلات نهاية الأسبوع كان يمكن للعائلات أن تعيد تشـكيل نفسـها، وأن ترتفع إلى تلك النسخة المثالية التي رسمتها لنفسها. بين كل المناسـبات العائلية الأخرى التي ظهرت خلال مدة القرن الماضي أو نحوه، كانت عطلة السـاحل البحري تتطلب أكبر قدر من الاسـتثمار، حتـى عندما كانت توفر أفضـل العوائد. وفي أواخر القرن العشرين حلت الشـواطئ محـل الجبال، والقرى الريفية مناطق مفضلة للأوروبيين والأمريكيين الشماليين[51].

(*) تعبير يشير إلى العائلة المكونة من الأب والأم والأبناء. [المترجمة].

بالنسبة إلى الهارب من سرعة الحياة الحديثة، لا شيء يمكن له أن ينافس الشاطئ. لقد توقف الزمن عند حافة الرمال، لقد أصبح الشاطئ المكان المفضل في العالم لعمل لا شيء. لقد كان الشــاطئ لا مكانا، حيث يفترض أن يحدث شيء هناك. معلق بين الماضي والحاضر، إنه مكان للحلم وليس للفعل، كل ما يذكر بالعمل قد أُبعد منذ زمن. بحلول ســبعينيات القرن العشرين كان أكثر الأســباب التي قدمها سكان لوس أنجلوس شيوعا حول سبب قدومهم إلى شواطئ الهادي هو أن هذه الشواطئ لم تكن فقط الأكثر بهجة، ولكن كذلك الأكثر أمنا بين كل الأماكن العامة «إنما الرمال كالمحراب بالنسبة إليّ»، تقول إحدى السيدات الشابات: «وأنا هناك، أسترخي وأهدأ تماما»؛ فحتى وقت قريب، حتى الأنشــطة الجســدية العنيفة كانت تعزل بعيدا، وكما رأينا مســبقا، ظهرت السباحة في وقت متأخر على الشاطئ. أما ركوب الأمواج فوصل فقط في ستينيات القرن العشرين، وكذلــك جرى تنظيمها في معظم المناطق الشــاطئية. الرياضات القصوى العنيفة، مثل الطــيران الشراعــي المعلق وركوب الرياح، كان لا بد لهــا أن تبحث عن مأوى آخر على الساحل، في أماكن كان تعتبر سابقا أكثر رهبة منها متعة[52].



صف الصحة الشاطئي في أوشن سيتي، نيو جيرسي، في عشرينيات القرن العشرين.

الصورة مقدمة من مكتبة الكونغرس.

وحيث إن الشاطئ هو اختراع حديث تماما، فسرعان ما ارتبط بدرجة من الحنين نادرا ما تلتصق بالسمات الجغرافية الأخرى. إن الذكريات الجميلة تعيد الكبار إلى رمال طفولتهم، ولكن مثل ملايين الصور التي تسجل الحياة الحديثة على الشاطئ، فإن الذاكرة تجمد الوقت وتغرب التاريخ الحقيقي لمثل هذه الأماكن. فمنذ قرن مضى، هؤلاء المحظوظون بما فيه الكفاية ليشتروا بيوت صيادي السمك المهجورة بدأوا بفعل ذلك. الآن الأكثر شيوعا هو بناء منازل جديدة تقترب من الساحل بأكبر قدر ممكن. خلال سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، كانت نسبة 80 في المائة من كل أعمال الإعمار في الولايات المتحدة يحدث في المناطق الساحلية، عادة على الشاطئ مباشرة. وفيما كانت ذات يوم أقل مناطق البلد سكانا، أصبحت السواحل الآن الأعلى كثافة سكانية. في أوروبا كان هناك حراك مشابه باتجاه البحر. هناك، وحيث اليابسة أكثر ندرة، أصبحت سواحل بلجيكا، وإسبانيا، وإيطاليا كأنها مدن كبيرة. في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية أصبحت السواحل تعرف الأراضي الداخلية بدرجة غير مسبوقة في الماضي. في كل سنة خلال سبعينيات القرن العشرين، كان اثنا عشر إلى ثمانية عشر مليون شخص يزورون الشواطئ العامة الرئيسية في لوس أنجلوس، والتي كانت بطول ثلاثة أميال وشكلت 353 هكتارا فقط. بحلول ذلك الوقت لم تعد هذه الرمال تعرف الساحل المباشر لها فقط، ولكنها أصبحت مساحات حلم لمنطقة عصرية ضخمة[53].

التحديق في الماء

لقد أصبح الشاطئ المكان المفضل في العصر الحديث من أجل الاستغراق في أحلام اليقظة. في العصور السابقة، أطلقت الجبال والغابات العنان للخيال، ولكن في القرن الواحد والعشرين كان هو البحر الذي «يسحب الذهن للخارج وبعيدا». كان الهندوس في الهند يقيمون مزاراتهم عند طرف البحر، والذي هو بالنسبة إليهم «نهاية الأرض، حافة الحياة الأرضية، حيث يمكن للأتقياء والمتأملين أن يحدقوا عبر الفراغ، ذلك «الماء الأسود» المذكور في الأدب السنسكريتي القديم. إنهم يخوضون في المياه حتى تغمر كواحلهم وملابسهم كاملة، حيث يغمرون أنفسهم في المياه ولكن نادرا ما يسبحون. لقد رأينا كيف أنه في أوروبا ما قبل المسيحية كان الساحل

يعامل على أنه بوابة إلى عوالم أخرى، حيث أصبح موقعا للطقوس ومراسم الدفن. كان المسيحيون أقل احتمالا في إقامة كنائسهم على حافة البحر، حيث إن خيالاتهم كانت مجذوبة إلى الأعلى وليس إلى الخارج. في العصور الوسطى، عندما كانت الحياة مقيدة فعليا وبشدة، كان يبدو أن العالم ينفتح عموديا فقط، حيث كان الخيال موجها في اتجاه السماء أعلاه، عوضا عن العوالم البعيدة في الجانب الآخر[54].

في عصر الاكتشافات، أصبح العالم، ولأول مرة «متسعا في سطحه، منخفضا في سقفه». أصبح البعد الأفقي غاية في الأهمية، حيث اتخذت الجبهات، البحرية والأرضية، أهمية رمزية، وكذلك مادية غير مسبوقة. مع إغلاق الجبهات الأرضية في أواخر القرن التاسع عشر، مع ذلك، اتخذت الجبهات البحرية معنى جديدا. لقد أصبحت أكثر أهمية من أي وقت مضى لتعريف ولحماية الهويات القومية. في نهاية القرن التاسع عشر، أصبح الإنجليز مقتنعين بأن «حرية إنجلترا كانت محفوظة في الماء المالح - الماء المالح هذا هو القناة الإنجليزية... هذا «الشريط الفضي» الذي يفصل إنجلترا السعيدة عن الصراعات القارية»[55].

مع إغلاق الجبهات الداخلية، كان الأمر متروكا للساحل البحري ليوفر منفذا من دون عائق نحو الأفق. كان البرجوازيون الفيكتوريون هم أول من اكتشف الكيفية التي وفر بها الأفق «مساحة يمكن للخيال والرؤية الداخلية أن يسافرا من خلالها». في القرن العشرين، أصبح الساحل مساحة الحلم المفضلة للجموع. إنه «دائما ومبدئيا مفتوح - لاستقبال محتوى جديد، بنيان جديد، واحتمالات جديدة». يقول يي - فو توان بأن ساحل البحر الحديث هو مميز بين المظاهر الطبيعية الحديثة، وذلك من حيث توفيره بشكل متزامن للملجأ والمهرب، الأمان والآفاق المفتوحة. في عالم يترك القليل للخيال، نتوق نحن إلى «عالم ما ورائي والذي، بطبيعته، لا يمكن الوصول إليه لا حقيقة ولا تصورا»[56].

لقد أصبح الارتحال نحو الآفاق أكثر شخصية من أي وقت مضى. إنه أساسي بالنسبة إلى السياحة الحديثة، بيد أننا لا نحتاج - بعد الآن – إلى أن نسافر مسافات بعيدة لإيجاد آفاق جديدة. في الأزمنة القديمة كان من الضروري عبور الشواطئ لإيجاد فرص جديدة. اليوم نحن نحتاج فقط إلى أن نتجه إلى الساحل. إن أذهان الملايين تسافر بعيدا حتى عندما تبقى أجسادهم ثابتة على الشاطئ. ومثل الهندوس

في الهنـد، فإن هؤلاء على الأغلب سـيخوضون في الماء على أن يسـبحوا فيه. عندما تنزهنا مشيا على سواحل بريطانيا خلال ثمانينيات القرن العشرين، كان بول ثيروكس مفتونا بالأشـخاص الذين وجدهم تحت كل أنواع الطقوس الجوية يقضون ساعات لا متناهية محدقين في البحر «بدا البريطانيون بالنسبة إليّ شعبا يقف إلى الأبد على سـاحل متهالك ماسحين الأفق بأنظارهم». لقد قرر ثيروكس أن تلك كانت «طريقة الشخص الفقير في السفر - أن يقف على ساحل البحر ويحدق في المحيط. أنا أعتقد أن هـؤلاء الناس كانوا يتخيلون أنهم هناك عند الأفق المنتظر، عند البحر... نادرا ما شاهدت أحدا يوجه ظهره تجاه البحر (لقد كانت تلك أندر وضعية يتخذها إنسان على الساحل). أغلبية الناس كانوا ينظرون تجاه البحر بوجوه آملة قلقة، كأنهم من فورهم تركوا موطنهم الأصلي»[57].

بيـد أن ذلـك لم يكن فقط غرابة أطـوار بريطانية. يصف دبليو. جي. سـيبالد الألمان الذين يمكن الظن خطأ أنهم صيادو سـمك: «أنـا لا أعتقد أن هؤلاء الرجال يجلسون بجانب البحر طوال النهار وطوال الليل حتى لا يفوتوا وقت مرور السمك الأبيض، ارتفاع السـمك المفلطح، أو قدوم سـمك القد إلى المياه الأكثر ضحالة، كما يدعون أنهم يرغبون فقط في أن يكونوا في مكان حيث يكون العالم خلفهم، ولا شيء أمامهم إلّا الفراغ. في الواقع، تقريبا، يستحيل اليوم أن تمسك بأي شيء يصطاد سمكا من الشاطئ»[58].

لقد كتب هيرمان ميلفيل ملاحظاته مسـبقا حول الكيفية التي كان بها سـكان مانهاتـن منجذبين لحافة المياه خلال منتصف القرن التاسـع عشر «ولكن انظر! ها هي الجموع قادمة، مهرولة بشكل مباشر نحو المياه، حيث تبدو مُصِرَّة على الغوص. غريب! ما من شيء سـيرضي الجموع غير الحدود القصوى لليابسة. فالتسكع أسفل الجانب المظلل من هذه المسـتودعات هناك لا يفي بالغرض. كلا، بل لا بد أن تلك الجموع سـتقترب من الماء على قدر ما تسـتطيع مـن دون أن تقع فيه... كل أهل اليابسة يأتون من الممرات والأزقة، الشوارع والجادات - شمالا، شرقا، جنوبا، وغربا. غير أنهم يتحدون هنا. نعم، كما يعرف الجميع، فالتأمل والمياه متزاوجان إلى الأبد». بالنسـبة إلى ماثيو آرنولد، كان شاطئ دوفر يفوح بالفقد: «لقد جلب إلى ذهنه المد والجـزر العكرين للمعاناة الإنسـانية». اليوم، للتحديق المـائي أغراض عدة بيد أنه

أصبح شـائعا جدا حتـى أنه أصبح عاديا. إنه منتشر في كل جـزء من العالم الغربي، خاصة على السواحل المواجهة للغرب، حيث «الغروب» هو طقس ليلي يومي[59].

في السـابق، كانت أَنْفَس المشـاهد البحرية الفنية تحتوي وبشكل مستمر على السـفن وعلى الأنشـطة البحرية الأخرى، وذلك تقديرا لهؤلاء الذين كانوا يكسبون قوتهـم من البحر. بيد أنـه في وقتنا هذا اختفى الأشـخاص العاملون من اللوحات والصور، كما اختفوا من الشاطئ بحد ذاته. بداية من القرن التاسع عشر، انقطعت العيون عن التجول في الميناء أو بالقرب من السـاحل، حيث أصبحت موجهة بشكل متزايد في اتجاه أفق البحر. في أوقاتنا هذه «البحر هو للتحديق فيه بل وللاحتفاء به كذلك»، كتب فيليب سـتينبيرغ «ولكن كمكان حقيقي للإنتاج والتنقل فقد اختفى بشـكل كبير». إنه فراغ المحيط الذي هو محط النظر. وكما لاحظ مايكل توسيغ، لم يعد البحر مكانا للسكن بعد الآن ولكن مكان للتأمل[60].

الكل يرغب في منظر مفتوح لا يعيقه شيء، والشاطئ، بعد أن جرت تصفيته من الأشخاص والأشياء المشتتة للانتباه، هو المكان الأمثل للحصول على ذلك. في السويد كان «فراغ وبسـاطة المنظر الأرضي الطبيعي في ذاتيهما، ما وفر فرصة للإنسان ليجد نفسه، مدخلين الإنسـان في حالة ذهنية تأملية أو شبيهة بالغيبوبة». بدأت المنازل ذات الإطلالة البحرية مسـبقا بتحقيق أرباح خلال نهاية القرن التاسـع عشر. لقد جرى تدوير أكواخ صيادي السـمك القديمة، والتي كانت تبتعد واجهتها عن البحر، أو أُعيد بناؤها حتى تتناسب مع المتطلبات الثقافية الجديدة. في وقتنا الحالي، يبدو أنه لا شيء يهم مثل الإطلالة. لقد أصبحت «لا تقدر بثمن»[61].

بينـما هم منجذبون لنقاء البحر واختلافه، فإن سـياح السـاحل اليوم هم أقل احتمالا في التعامل مع البحر أو المغامرة من خلاله. وكما لاحظ جون سـتيلغيو، «إن بريته، فضائيته، وطبيعيته تجتذب السـواحل، بيد أن سـواح هذه الأيام يريدون أن يتفرجوا، لا أن يفعلوا». في أعقاب هذا العشق للمناظر البحرية في القرن التاسع عشر، أصبح البحر في حد ذاته مشـهدا تصويريا picturesque. لم تعد الرمال الممسـوحة والمنظفة تضيف الكثير إلى المنظر الجميل، حيث الآن بعد أن زالت رائحة وإحساس المسمكات القديمة، لم يعد هناك الكثير الذي يعتبر تجربة شعورية عدا تلك البصرية. في السـابق، كان الرومانطيقيون يفضلون السواحل الصخرية على أنها أماكن مخيفة

لاختبار الشـعور بالهيبة، ولكن اليوم نحن نسـعى خلف الشواطئ الخفيفة الميلان والمحمية بشـباك القرش وحراس الإنقـاذ. لقد أصبح ذلك هو المكان الأمثل «للحلم، بعيدا عـن اضطرابات وتقلبات الطبيعـة، وبعيدا عن الحقائـق اليومية التاريخية، الاجتماعيـة، والثقافية». كونها منفصلة عن كل من البحر والأرض، تلك هي الأماكن الوحيدة حيث يسـتطيع الإنسان أن يدير ظهره للعالم، للتاريخ في ذاته. وعلى عكس الأراضي النائية، نادرا ما احتوت الشـواطئ على أنصبة تذكارية. فحتى حطام السفن التي كانت تغطي السواحل ذات يوم، تجري إزالتها أولا فأولا الآن، بحيث لا يبقى أي شيء يذكر بالأحداث المأسـاوية التي قد تؤثر في السياحة، أو تفسد أحلام المصطاف. إن حطام السفن، مثل كثير من أمور البحر، أصبح الآن رمزيا خالصا[62].

عندما سار بول ثيروكس على الساحل البريطاني في ثمانينيات القرن العشرين، فقد شعر بالفقد، ليس فقط للطبيعة، ولكن للتاريخ كذلك. لقد هُدِم كل شيء - الأجراف، الصيد، المرافئ - بما فيها الشـواطئ بحد ذاتهـا[63]. في ذلك الوقت كان البريطانيون ينسـحبون من الشـاطئ، مفضلين الاسترخاء حول أحواض السـباحة بالفنادق التي كانت تقدم «نسـخة أفضل إدارة بكثير من الشاطئ، مياه ذات درجة حرارة لطيفة، مـن دون رمل يدخل بين أصابع القدم، وقريبة من بـار الفندق». في أماكن أخرى، كان الناس يتجهون إلى الأراضي الداخلية كذلك، حيث الشـواطئ الداخلية الجديدة التي بدأت في اليابان ثم انتشرت الآن حول العالم. بيد أن منظر الشاطئ يبقى قويا، وذلـك الحنين اللاتاريخي حولـه يبقى غير منقوص. تفضـل مارغريت درابل الآن، والتي قضت طفولتها على سـاحل لينكونشاير غير الصحي، حيث تتذكر سباحتها في مياه المجاري، تفضل عدم العودة إلى هناك، ليس بسبب التلوث، ولكن «لخوفها أن يكون المكان قد دُمِر مسـبقا، جنة مفقودة». تُعتَبَر الشـواطئ من بين أكثر الأماكن غير المسـتقرة بين كل مشـاهد الطبيعة، غير أن ارتباطها بالفردوس يقاوم بعناد كل تغيـير. كونه مجمدا زمنيا في المليارات من الصور الفوتوغرافية، يبقى السـاحل هو المكان الذي نودعه أحلامنا الثمينة، وأكثر كوابيسنا رعبا[64].

6

الأحلام والكوابيس الساحلية

نحن نتوقع أن الحضارة
ستنتهي على الشاطئ.

فيليب فيرنانديز - ارميستو[1]

لقد كان هناك زمن حين كان فقط هؤلاء الذين يقيمون على الساحل يسمون ساحليين، لكن اليوم يربط الناس الذين يسكنون مئات الأميال بعيدا عن البحر أنفسهم بالسواحل، يقيمون مهرجانات المأكولات البحرية، يتشمسون بل يركبون الأمواج أيضا على الشواطئ الداخلية. إن مزيدا من الناس اليوم يقيمون على السواحل، وعلى ما يبدو فإن الجميع تقريبا يرتبطون بها. ربما كان السبب في هذا هو، كما يقول جون موري، أن «كل شخص يولد في هذا العالم لديه ساحل، وحافة، وحد، ومنطقة انتقالية بين أنفسهم وبين العالم». إن الأشخاص الذين لم يسبق لهم أن ذهبوا إلى نيو جيرسي يألفون «الساحل». إن رمز

«إن العلاقة بين المدينة والبحر، مثل تلك التي بين الحضارة والطبيعة، لم تكن مستقرة قط»

كاليفورنيا هو الشاطئ، فيما تود ماين أن يعتقدها الجميع ساحل سرطان البحر. تقدم نوفا سكوشا نفسها على أنها «ملعب كندا المحيطي». فعندما تهاجم الأعاصير وحوادث اندلاق النفط، تحتشد أمم كاملة للدفاع عن السواحل[2].

ربما لم يكن ذلك واقعا منذ 100 عام مضت، بيد أن السواحل اليوم لا تعرف الدول والأمم فقط لكنها تربطهم إقليميا، وعالميا أيضا. تشكل الشواطئ التي أقام عليها الأوروبيون ذات يوم دفاعاتهم بعضهم ضد بعض الآن ساحلا واحدا مستمرا من بحر البلطيق حتى البحر المتوسط. كل أجزاء أوروبا اليوم تطالب بالبحر على أنه إرث مشترك، ومصدر للهوية المشتركة. بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح ينظر إلى حافة الأطلنطي الشمالية على أنها تعرف الحضارة الغربية. وعلى الرغم من أنها صنعت لتقاوم قوى عظمى قارية، الاتحاد السوفييتي، بيد أن تنظيم معاهدة شمال الأطلنطي اختار أن يعرف نفسه نسبة إلى المحيط. والآن، ترى شعوب حافة الهادي أنفسها كذلك على أنها تمتلك مزيدا من الصفات المشتركة بعضها مع بعض عما تمتلكه مع سكان مناطقهم النائية المتعددة[3].

لقد اتخذت السواحل سلطة رمزية ضخمة. من المفارقات أن هذه السواحل هي مكان الحداثة الأول للأحلام ولكن كذلك للكوابيس. إنها تقع على حافة البحر بما يسمح لنا أن نتخيل مولد عوالم جديدة وموت القديم منها. في كل مكان، يعود الناس الآن إلى البحر، محضرين معهم أعظم آمالهم وأسوأ مخاوفهم، تجتذبهم رؤى إلى جزر خيالية وشواطئ عدنية[*]، لكنهم كذلك ملاحقون بالشياطين القديمة للرياح، والماء، والنار. فعلى ما تفضل كاليفورنيا أن تدعوه «ساحل أحلامها»، يتجادل مجلس المدينة لسانتا باربارا حول ما إذا كان يتطلب منهم أن يرسموا خطا أزرق ساطعا في شوارعهم للتدليل على درجة ارتفاع البحر المستقبلية. يفضل المهتمون بالبيئة هذه الفكرة كونها أداة لزيادة الوعي، بيد أن أصحاب المنازل، وخوفا من أن هذه الفكرة ستهبط بأسعار عقاراتهم، ينظمون معارضة شرسة. إن المدينة نفسها هي في كامل الوعي حول حقيقة انتمائها إلى ما يسمى «ساحل النار»، حيث تُفقد المنازل في حرائق هائلة وبشكل منتظم. إن السواحل هي، وبشكل متزامن، أكثر المساكن الطبيعية جاذبية وأكثرها عرضة للمخاطر. إن التعدي على الأماكن التي

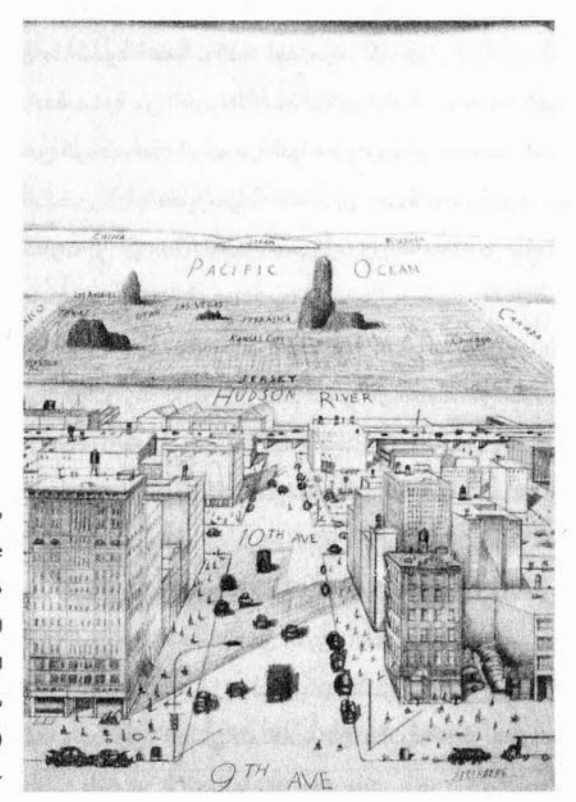
(*) من جنة عدن. [المترجمة].

لم تكن في يوم مناسبة للسكن قد أسهم بشكل مباشر في تعرية الساحل وتلويث المحيط، وفي إشعال النيران المدمرة كذلك. يحيا الكاليفورنيون الساحليون فيما يسميه مايك دافيز «بيئة الخوف»، التي هي بيئة من صنعهم هم بأنفسهم بشكل كبير. كأن هذه التهديدات الحقيقية غير كافية، فقد تمكنا من استحضار مجموعة جديدة كاملة من الوحوش البحرية، التي توالدت بعيدا على اليابسة عن طريق كتاب مثل بيتر بينجلي، كاتب قصة Jaws أو «الفك المفترس»[4].

عندما أطلق ستيفن سبيلبيرغ نسخة فيلمه من «الفك المفترس» صيف العام 1975، قالت «نيويورك تايمز» إن «مستخدمي السنانير والسابحين الذين لم يسبق لهم حقا أن أخذوا بعض الوقت لينظروا بانتباه نحو الماء قبل ذلك، يفعلون ذلك الآن، وغالبا ما يعرفون أي شيء يشبه ولو من بعيد سمك القرش على أنه قرش فعلا». لاحقا في ذلك الخريف، كتب اثنان من أطباء الأعصاب إلى مجلة «نيو إنغلاند» الطبية بشأن ما أسموه «عصاب الفك المفترس». لقد جرى تشخيص ذلك المرض عند فتاة في السابعة عشرة من الغرب الأوسط ،والتي بعد أن شاهدت الفيلم مرت بخمس نوبات من الرعب، على الرغم من أنها تعي تماما أن «مخاطر هجوم سمك القرش في غرب كانساس كانت فعليا بعيدة تماما». إن القصة الأصلية في التايمز كانت مدركة عندما أشارت إلى أن «(ال) وحش المجنون.. في الفك المفترس يأتي من أعماق الفضاء الداخلي، من البحر كما من كوابيس الإنسان»[5].

إن المدى الذي تصل إليه المخاوف والخيالات الساحلية هو أحد مقاييس تمدد مفهوم الساحل. فمن جهة، هناك نزعة للأرض لأن تضم البحر، لأن تعامله على أنه منها، على أنه منطقة يمكن توزيعها، وتأجيرها، واستملاكها. وعليه، اتخذ البحر شكلا قاريا. لم يُستخدم مصطلح قاري حتى نهايات القرن الثامن عشر، غير أنه بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر كان المصطلح يوظف لتوصيف الجزر القريبة من الساحل. لقد استخدم مصطلح الجرف القاري منذ العام 1950 فصاعدا وجرى تثبيته عن طريق ميثاق الأمم المتحدة لقانون البحر في العام 1982. في القرون السابقة، امتدت سيادة الدولة فقط لثلاثة أميال من الساحل. بحلول سبعينيات القرن العشرين كانت قد امتدت لاثني عشر ميلا، ومع الإقرار العالمي للمناطق الاقتصادية الحصرية في العام 1982، كان للدول أن تطالب بالمصادر الاقتصادية على بعد مائتي ميل داخل البحر[6].

إن اكتشـاف النفط والغاز عبر السـاحل، وكذلك الفوائد التي يمكن اكتسـابها من الرمـال والتعديـن غير العضوي، قد ركزا التفكير الإسـتراتيجي على الميـاه القريبة من الساحل. لقد نشرت القوات البحرية للولايات المتحدة تقريرها Forward... from the Sea أو «للأمـام من البحـر» في العام 1994، معيدة تركيز الانتباه من المحيط التقليدي للمياه الزرقاء إلى حرب المياه البنية. يقول المؤلف، اللواء البحري بول غافني، إنه بسبب أن نصف سـكان العالم يعيشـون على بعد خمسـين ميلا من البحـر، فإنه من المرجح أن الخلافات المسـتقبلية ستشمل السـواحل، خصوصا المدن الساحلية. في العام 1999، خططت القوات البحرية لتنظيم تمارين حرب مدنية في مونتيري وألاميندا، وكاليفورنيا. أدت الاحتجاجات ضد رسـوهم في مناطق حساسـة بيئيا إلى إيقـاف التمارين، بيد أن فكرة الحرب الساحلية تبقى ذات أهمية مرتفعة على جدول الأعمال[7].



سـول سـتينبيرغ، Veiw from 9th Avenue «المنظـر مـن الجـادة التاسعة»، 1976. حقوق الطبـع لمؤسسـة سـول ستينبيرغ Artist Rights Society (ARS)، جمعية حقوق الفنانين، نيويورك.

على الجانب الأرضي، تلاشت فكرة الخط الساحلي تدريجيا، مفسحة الطريقة أمام فكرة المنطقة الساحلية، التي يمكن لها أن تمتد مئات الأميال في الداخل الأرضي. أحيانا يبدو كأن بريطانيا هي لا شيء سوى سواحلها. يقول البريطانيون إن «كوننا أهل جزيرة فنحـــن منجذبون إلى الحافة، هناك نستشـــعر بقوة جوهر كتلتنا الأرضية الســـابحة». بيـــد أن الوضع نفســـه صحيح بالنســـبة إلى الأمم القارية، حيث تبدو الســـواحل أكثر ضخامة. بحلول ســـبعينيات القرن العشرين يبدو أن الولايات المتحدة أصبحت ما هي إلا ســـواحلها، حيث انخفضت أهمية داخلها الأرضي إلى كونه شـــيئا تســـافر فوقه أو تقطعه. إن الرسم الكرتوني لسول ستينبيرغ لعام 1976 A Veiw of the World from 9th Avenue أو «منظر للعالم من الجادة التاسعة» صور هذه الخريطة الذهنية[8].

لقد توقف الســـاحلي عن كونه موقعا جغرافيا منفـــردا حيث أصبح رمزا يطفو بحرية ليجري تخصيصه لمجموعة أغراض تجارية واجتماعية ليســـت بالضرورة ذات أي علاقـــة بالمكان حيث الأرض والماء يلتقيان. لمجلـــة Coastal Living أو «الحياة الســـاحلية» قاعـــدة قراء أرضيين كبـــيرة، والذين يهتمون أكثر بطريقـــة الحياة التي تســـتعرضها المجلة عن ظروف الســـواحل بحد ذاتها. وبينما تستحوذ السواحل على مســـاحة ذهنيـــة متزايدة على كل من الأرض الداخلية وعبر الســـاحل، فإن التجربة الحقيقية للبيئات الساحلية مهمشة. في مطلع انهيار الاقتصاد الساحلي لصيد السمك والشحن في القرن العشرين، استعمرت النشاطات الترفيهية والسياحية السواحل كما لم تفعل من قبل. ومثلما جرى استبدال العمل بالاستهلاك في الحيوات اليومية لهؤلاء الذين يعيشـــون على الساحل، تمزقت استمرارية وتسلســـل الحياة الساحلية، التي تعود إلى ألف ســـنة مضت، حيث أصبح الســـاحل مكانا بـــلا ذاكرة في حد ذاته، بلا جغرافيا أو تاريخ ليصنع عليهما مستقبلا قويا. حتى في حين أننا نصبح أكثر ساحلية من جهة، فإننا نصبح كذلك أقل ساحلية من جهات أخرى[9].

السواحل المفقودة

في العـــصر الحديـــث، أصبح شـــعور ما بالفقد نافـــذا بقوة. إنه في جـــزء منه نتاج الطبيعـــة العنيفة بـــل التدميرية للتاريخ المعاصر، الذي شـــهد جماعـــات بأكملها بل وأمما تدمر بالكامل أيض ا. من الســـهولة انعكاس شعور شخصي وجماعي بالفقد على

الأماكــن، خصوصا إذا لم يكن لهــذه الأماكن وجود فعلي مطلقا. لم يكن لقارة أتلانتس المفقــودة، التي هي خيال اختلقه أفلاطون كقصة تحذيرية للإغريق، أي تأثير حقيقي في الخيــال الشــعبي حتى القرن التاســع عشر، وذلك عندما جــرى إنعاش القصة عن طريق الكاتب الشــعبي إغناتيو ســدونيللي في إصدار كان الأعلى مبيعا في العام 1882 وذلــك كتحذير لمعاصريه. من هذه النقطــة فصاعدا أصبحت أتلانتس موضوعا لمئات الكتب وعدد كبير من الأفلام. ما كان لجاذبيتها أن يعادلها شيء ســوى تلك التي لقارة ليموريا المفقودة التي بدأ شعب التاميل في جنوب آسيا يصبح مهووسا بها في زمن كان وجودهم هم مهددا. لم يكن لجاذبية «المفقود» إلا أن ازدادت مع الزمن[10].

بالنظر إلى تاريخ الســواحل، فإنه من الســهل فهم ســبب ربط مفهوم الفقد بها. يألــف البحــارة ظاهرة looming أو اللوح في الأفق، التــي هي خيال بصري يمكنه أن يجعل الســواحل تظهر وتختفي. لضباب الســواحل التأثير نفســه، ولكن كذلك يفعل التاريخ، والذي رأى السواحل تأتي وتذهب بسرعة لا يضاهيها سوى القليل من السمات الطبوغرافيــة الأخرى. الآن يعرف الســاحل الشــمالي لكاليفورنيــا، والملاصق لمقاطعة همبولدت، على أنه «الســاحل المفقود». فقد فوت الأوروبيون المستكشــفون الأوائل مينــاءه العميق الوحيد، خليج همبولدت، تماما. وفي حين أنه جرى رســمه عن طريق أمريــكي كان يعمل عند شركة الفرو الروســية - الأمريكية في العام 1806، فإنه لم يزره البيض قط إلى أن جرى مسحه عن طريق حملة استكشافية أرضية في العام 1849. من هذه النقطة فصاعدا، جعلت صناعة الخشب الأحمر المزدهرة منه أحد أكثر السواحل ازدحامــا على الســاحل الغربي. بيد أنه لم يُســتكمل الطريق السريع الســاحلي حتى عشرينيات القرن العشرين، وعندما تراجعت صناعة الخشب، فإن هذا الساحل أصبح مجددا أحد أكثر أجزاء أمريكا الشــمالية انعزالا. إن اســم الساحل المفقود كان اختراعا لصناعة ما بعد الحرب الســياحية، التي حققت أرباحا من الرغبة العالمية في اكتشاف أماكــن جديدة تماما. ففي العصر الــذي كانت تحتل فيه القــارات المفقودة، القبائل المفقودة، والحضارات المفقودة، مثل هذه المساحة الضخمة من الخيال الشعبي، بقي هذا الجزء الرائع من ساحل كاليفورنيا مفقودا ولكن ليس منسيا[11].

فعلى مدى أغلب القرن العشرين ابتليت السواحل حول العالم بفقد، ليس بالضرورة هو من صنعها. لقد كانت هذه الســواحل ولاتزال مهددة بالتغييرات الحادثة في صناعة

صيد السمك، التي أصبحت مسبقا في نهايات القرن التاسع عشر مشروعا لأعماق البحار، منفصلا عن سـواحل بعينهـا. فقبل أن تكون هناك مصانـع للهاربين وعمل مصرفي عبر السـاحل بوقت طويل، كان صيد السـمك قد أصبح عالميا، ونشـاطا يبحث بلا كلل عن مجموعات السمك الكبيرة والأيدي العاملة البحرية الرخيصة. الوضع نفسه كان حقيقيا بالنسبة إلى الشحن، فهو كذلك قد توقف تدريجيا عن كونه عملية ساحلية محلية.

في القرن التاسـع عشر وأوائل القـرن العشرين، كانت السـواحل تعرف بمرافئها، وبواجهاتهـا المائيـة العاملـة. اليوم، لم تعد المـدن الواقعة على البحـر مرافئ، حيث انتقلت المرافئ إلى أماكن أخرى على طول السـاحل أو أعلى الأنهار. ومع ظهور سفينة الحاويات في خمسـينيات القرن العشرين، ظهر التهريب البحري ثم انتهى في منشآت مبنيـة خصيصـا، لم تكن فيها تجمعات سـكانية يمكن ذكرها. لقـد فقدت الواجهات البحريـة القديمة أدوارها وبحلول سـتينيات القرين العشريـن كانت هذه الواجهات تحول إلى مناطق سـكنية أو ترفيهية. خلال هذه العملية أصبحت السـواحل تشـتهر بمراسيها وشواطئها[12].



حالة نادرة للتعايش المعاصر بين الواجهات البحرية العاملة وشاطئ للسباحة، بيير، ديفون، إنجلترا. الصورة مقدمة من ويكيميديا كومونز.

لقد أصبح البحر بداية من العصر البخاري، وكونه قد أصبح أكثر ظهورا في عصر أنظمة تحديد المواقع العالمية الأخير هذا، أكثر شبها بالأرض، «لقد أصبحت المصانع متحركة، تشبه السفن، كما أصبحت السفن وبشكل متزايد تشبه الشاحنات والقطارات.. إن هذا التغير التاريخي يعكس العلاقة «الكلاسيكية» بين ثبات الأرض وانسيابية البحر». تغادر السفن الآن وتصل بانتظام الساعة على ممراتها العابرة للمحيط، غير متأثرة وإلى حد كبير بحركة المد أو الرياح. تزور السفن السياحية المرافئ القديمة مثل تلك التي في ميامي وستوكهولم، ولكن، وبخلاف المراكب الترفيهية، اختفت حركة المرور الساحلية إلى حد كبير في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية. إن السواحل أقل ارتباطا بنفسها بقطعها الطولي عن ارتباطها بالسواحل البعيدة. فاليوم يمكن أن يقال إن فانكوفر وسياتل هما أكثر وقوعا على الهادي عن كونهما في أمريكا الشمالية[13].

يستمر العالم في فقد نوع من السواحل واكتساب نوع آخر، نوع أقل ارتباطا بكثير ببيئته الطبيعية، تلك البيئة الانتقالية التي أعالت الشعوب الساحلية طوال ألف سنة. إن الساحل الجديد ليس نتاج الطبيعة بل التخطيط. إنه ساحل أنثروبوجيني، مصنوع وفق متطلبات كل من الشعوب الأرضية الداخلية التي تستعمر الساحل الآن، وكذلك صناعات صيد السمك والشحن في أعماق البحار، التي تعمل على أساس المتطلبات الزمنية والمكانية نفسها لمثيلاتها الأرضية. وفيما تصبح الأنشطة البحرية مشابهة إلى حد كبير لتلك التي على الأرض، يصبح الساحل في حد ذاته عرضة لما أسماه كالوم روبرتس «الضغط الساحلي»، الذي يهدد كل أجناس الحياة الساحلية، بما فيها الإنسان. أحيانا يبدو أنه جرى تصغير الساحل إلى حد كونه خطا من الرمال، ظل لكينونته السابقة معزولا عن تاريخه وجغرافيته في حد ذاتهما.

المسمكات الحرة

لقد بلغ العالم الساحلي لشمال الأطلنطي وشمال الهادي قمته خلال منتصف القرن التاسع عشر وهو في تراجع منذ ذلك الوقت. إن الرابط القديم بين الأرض والبحر، والزراعة وصيد السمك، يمر الآن بمحنة قاسية. تستمر كثير من أنشطة الصيد في تركيزها على المياه الغنية للأجراف القارية غير أنها الآن تقدم بأسلوب

مختلــف تماما، عن طريق أيد عاملة موظفــة في الأغلب من الداخل الأرضي أو من الخــارج أكــثر من كونها من الســاحل ذاته. إن العمل ورأس المــال كلاهما مرتحل، منفصلان عن المجتمعات المحلية، مرتكزان في المرافئ الآخذة في التوسع، حتى إنهما أصبحا تروسا في عجلة المشروع العالمي العظيمة[14].

كانــت مراكــب الصيد تعمل بالبخار بحلول ســتينيات القرن التاســع عشر ثم مغطــاة بالفولاذ بحلول العــام 1880، كما أن حجمها ونطــاق عملها كانا في ازدياد سريع، ما مكنهم من اســتخدام تقنيات الصيد بالشــبك التي كانت مستحيلة خلال عصر الإبحار الشراعي. كان الصيد بالشبك في قاع البحر يمارس منذ العصور الوسطى، بيد أن الحصيلة كانت قليلة مقارنة بحصيلة صيد الشبك البخاري، الذي بدأ في المياه القريبة من الســاحل في ثمانينيات القرن التاســع عشر ومن ثم ابتعد أكثر فأكثر عن الساحل فيما هو يكشط مســاحات ضخمة نظيفة من الجرف القاري، محولا إياها إلى صحار قاحلة، خالية من الحياة. لقد وصف مارك كرلانسكي صيد السمك بالشبك بأنه «صيد الســمك المســاوي للتعدين الســطحي»، بيد أنه في هذه الحالة ســبق التدمــير في البحر ذاك الذي على الأرض. مع بداية تراجع الصيد من على الســاحل، تحركت ســفن صيد السمك بالشبك والقوارب والتي كانت مجهزة بأميال من شباك الصيد الكبيرة مبتعدة عن الساحل أكثر من أي وقت مضى. وبحلول القرن العشرين كان صيــادو الســمك يقضون مزيدا مــن الوقت في البحر على الســفن التي كانت تجمــع عمليتي الحصاد والتحميض. كانت هذه الســفن تقيد إلى الأرض فقط على أحــد المرافئ الكبيرة القادرة على التعامل مــع الكميات الضخمة لصيدها، وبحلول ستينيات القرن العشرين أصبحت تلك السفن «المصانع»، أعجوبة ميكانيكية قادرة على مســح مســاحات كاملة من المحيط وتنظيفها من السمك. وعلى رغم أن ذلك حدث بريادة الإنجليز، فقد جرى تطوير هذا النوع من الصيد على النطاق الصناعي عن طريق الاتحاد السوفييتي واليابان. ففي هذا الاندفاع لاستغلال البحار السبعة، انتفعت كل أساطيل المصانع العالمية من الدعم الحكومي الضخم. لقد طرد صيادو الســمك الذين كانوا يســتخدمون المراكب الصغيرة، خاصة هؤلاء المنتمين إلى الأمم الأقــل تطورا، من مياههم. في الصومال تحول هؤلاء الصيادون المســتغنى عنهم إلى القرصنة، حيث يثأرون من السفن العابرة التابعة للأمم الغنية[15].

لقد حدث التوسع في نطاق المسمكات سابقا، بالطبع، بداية من القرن الخامس عشر. الذي كان جديدا في ذلك الوقت هو الطلب المتزايد على السمك الطازج، والذي كان يعتمد على علاقة جديدة تماما بين الأرض والبحر. لم تكن الأسواق الداخلية الكبيرة للسمك الطازج ممكنة قبل العصر البخاري، والذي لم يسمح فقط للسفن ذات الثلاجات بإيصال صيدها في الوقت المناسب لكنه وفر السكك الحديد التي يمكنها إيصال البضاعة الطازجة إلى أعماق الأراضي الداخلية. لقد أعطى تواصل السكك الحديد امتيازا لقليل من المرافئ الكبيرة على حساب الموانئ الساحلية الصغيرة، التي كانت تخدم الأسواق المحلية فقط، وعليه فقد كانت النتيجة النهائية هي نهاية الآلاف من المجتمعات الصغيرة التي كانت تخلط على مدى قرون الزراعة بصيد السمك. بعض هذه المجتمعات استمر على قيد الحياة بالتركيز على أجناس بحرية معينة، مثل سرطان البحر، بيد أن معظم صيادي السمك الساحليين وجدوا صعوبة في التنافس مع الأساطيل قوية التمويل التي تعمل من المرافئ الكبيرة. إن سفن المصانع الضخمة هذه وطواقمها الموظفة عالميا التي تشغلها تعمل جميعا في البحر، بيد أنها لم تعد بعد الآن جزءا من الثقافة البحرية المميزة.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعدا، لم يعد صيد السمك مهنة موسمية يمارسها في الأغلب شباب أعزب متطلعين إلى مستقبلهم على أنهم سيصبحون مزارعين أو حرفيين. لقد تحول الصيد بشكل متزايد إلى عمل بروليتاري يمتد مدى الحياة، يقوم به عمال جرى تجميعهم بشكل كبير إما من بين سكان الأراضي الداخلية الفقراء وإما من بين المهاجرين الفقراء. إن التقسيم الطبقي، الذي كان نادرا بين المجتمعات الساحلية القديمة، أصبح الآن واضحا. الفروق الجندرية، التي كانت مشوشة في الأزمنة السابقة عندما كانت النساء يؤدين أدوارا عدة مهمة في عملية صيد السمك الساحلية ، قد تعمقت كذلك: فبينما أصبحت القوارب أكبر حجما والرحلات أطول زمنا، أصبح صيد السمك ذكوريا بشكل خالص. لقد استمرت النساء في العمل، ولكن فقط على الساحل وذلك في الجزء الأخير التحضيري من هذا العمل[16].

خلال القرن التاسع عشر أصبح العمل البحري أكثر انفصالا من أي وقت مضى. لقد رأينا كيف أن الواجهة البحرية قد أصبحت مثل خلية النحل جامعة الناس من بقية مدن المرافئ، التي كان لكل منها الآن «مدينة البحار» الخاصة بها، والتي

تكون غريبة عن حياة بقية المدينة. لم يكن صيادو السـمك نسـلا مختلفا قط من قبـل، بيد أنهم الآن مقيدون داخـل مقاطعتهم، مرتبطون بالمرافئ الأخرى أكثر من ارتباطهم بالأراضي النائية. كانت مدن البحارة مسـاحات عالمية في، ولكن لا تنتمي إلى، الأمـة الأرضية، حيث ترتبط هذه المدن بالعناصر الأجنبية، وبالجريمة، وبالبغاء. كان المواطنـون الملتزمون بالقانون يتجنبون هـذه المدن التي كانت عرضة للتمييز والقمع من الدولة بحد ذاتها.



سفينة مصنع ألمانية، Kiel NC105، 2008، الصورة من ويكيبيديا.

لطالما كان صيد السـمك عرضة للازدهار والكساد وذلك منذ العصور الوسطى، بيـد أن التاريـخ الطويل للانهيار البيئـي وانقراض الأجناس إما أنـه نُسي وإما أنه جرى تجاهله عندما أعيد اكتشـاف ثراء البحر في القرن التاسـع عشر. لم يكن غريبا وصـف البحر على أنه «منجم ثروة لا ينضب»، وتعويذة بالنسـبة إلى هؤلاء الذين كانـوا يرونه عـلى أنه الجبهة العظمـى الأخيرة، وجنة عدن الأرضيـة الوحيدة غير المدمرة. على السـاحل الغربي لأمريكا، كانت مسـمكات السـلمون المحلية «فعالة بشـكل مخيف» قبل وصول الأوروبيين والأمريكيين، غير أن الأعداد الصغيرة نسـبيا للصياديـن وعدم وجود سـوق تجاري كانا يعنيـان أنه لم يجر اصطيـاد الكميات السـمكية الكبيرة لأكثر من مستوى تعويض واكتفاء السوق. عندما وصل البيض إلى السـاحل الغربي، فقد جلبوا معهم أوبئة دمرت صيادي السـمك المحليين، ما نتجت

عنه عودة إلى الوضع الطبيعي بين أسراب سـمك السلمون التي نشرت رؤى بهيجة بالغنى بين القادمين الجدد. لقد وصل صيادو السمك المهاجرون من كل بقاع العالم - الصينيـون، الصقليون، البرتغاليون، التشـيليون - في مطلع عصر حمى الذهب في كاليفورنيا. وبعد أن أفرغوا النظام النهري في سـاكرامينتو من السـمك في ستينيات القرن التاسـع عشر، انتقلوا إلى الشمال إلى فم نهر كولومبيا، حيث تأسست صناعة التعليب على مسـتوى صناعي احترافي. مع مرور الوقت اسـتُهلك هذا المخزون، ما أدى إلى الوصول إلى صيد السـمك بالقوارب ذات المحركات عبر السـاحل وذلك في بداية القرن العشرين[17].

في هـذا العـصر من صيد السـمك مرتفـع التمويـل في أعماق البحـار، مثلت المحيطـات جبهة جديدة، وكانت المرافئ هي الجبهـات المدينية التي ظهرت حيثما وفرت التكنولوجيا الجديدة مصدرا طبيعيا لانتزاع الربح. كان التعدين الرمز المفضل لصيد السـمك الصناعي، حيث اشتركت مرافئ الصيد في مصير مستوطنات التعدين من حيث إنها أصبحت مدن أشـباح بمجرد استهلاك العرق المعدني الأم. خلال أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، تبعت أساطيل الصيد الأسماك من مكان إلى آخر، وذلك في ارتحال موسـمي بحري متوسـع جعل فكرة صيد السمك بوصفه عملا مسـتقرا متجذرا محل سخرية. لقد أصبحت فكرة قرية الصيد القديمة الجذابة ملاحقة ببقايا السواحل التي كانت تهجر من سكانها وتمتلئ بالكادحين بسرعة كبيرة، حيث أصبحت هناك ندرة متزايدة في عملية استمرار الأجيال، إذ باعت مقدما العديد مـن الأسر القديمة أملاكها عـلى واجهات المياه منتقلـة إلى الأراضي الداخلية. بداية من سـتينيات القرن العشرين، أعيد تأهيل سواحل الولايات المتحدة، بيد أن الموانئ أصبحت في الأغلب تمتلئ بمهارات الترفيه، حيث يهتم سكانها باستهلاك السمك أكثر من صيده. واجهت غلوسستر، ماساتشوسيتس، التي قاومت هذا الاتجاه، صعوبة في المحافظة على واجهة مائية عاملة حيث إنها تحولت وبشـكل متسارع إلى ضاحية في بوسـطن. في بداية القرن الواحد والعشرين، بدا أن «كل الخطوط الساحلية في العالم ستحتوي على لا شيء سوى السياحة والإبحار باليخوت»[18].

يتعثر نشـاط صيد السـمك العالمـي الآن على الرغم من الحماية والمسـاندات الحكومية السـخية. ويسـتمر بعض صيد السـمك السـاحلي عن طريق القوارب

الصغيرة، والذي يستهدف الأسواق المحلية، وهنا وهناك يقوم صيادو السمك بتأسيس نظير لسوق المزارعين، عارضين صيدا طازجا ومحليا ليتنافس مع بضائع الصيد المصنعي والتوزيع العام. في أماكن مثل مرفأ كلايد، وماين، يعاد بناء الرابط بين الأرض والبحر بشكل بطيء ومؤلم. لقد بدأ حلم جديد بالاستقرار يظهر، ولكن لايزال الوقت مبكرا للتكهن بما إذا كان سيستمر.

المرافئ البحرية المختفية

إن العلاقة بين المدينة والبحر، مثل تلك التي بين الحضارة والطبيعة، لم تكن قط مستقرة. لقد رأينا كيف أن الواجهة المائية قد ظهرت كمصد بين سكان المدينة والماء في القرن التاسع عشر. بالنسبة إلى المرفأ البحري الصناعي «كان الماء هو دمه الحيوي، وليس روحه». وفيما أصبحت المدن أكثر انغلاقا على الأرض ذهنيا إن لم يكن فعليا، أصبحت الواجهة المائية منطقة غريبة، وفي القرن العشرين بدا كأنها لم توجد أصلا بالنسبة إلى أغلبية البوسطنيين واللندنيين والباريسيين. بحلول ذلك الوقت تحول الناس إلى أماكن أخرى بحثا عن الهواء النقي والمياه. لقد كان يقال عن النيويوركيين إنهم «فقدوا كل ارتباط لهم بالبحر، تقريبا نسوا أن البحر موجود هناك». حتى النرويجيون، الذين كانوا في يوم أكثر شعب بحري بين كل الشعوب، قد ابتعدوا عن واجهاتهم المائية. لقد قيل إن العجلات قد حلت اليوم محل عوارض السفن في معظم المرافئ النرويجية[19].

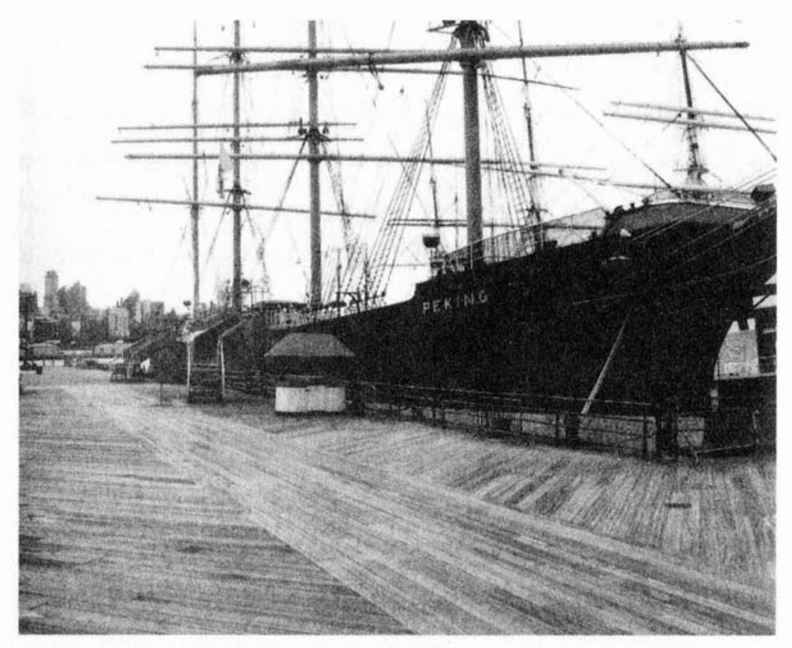
لقد تدفق سكان المدن ذات يوم إلى الواجهات المائية في ساعات فراغهم. الآن، هم معزولون بساحات السكك الحديد والطرق السريعة، هؤلاء المقتدرون يذهبون إلى السواحل القريبة للتنزه. في نيويورك هناك جزيرة كوني، وفي لندن هناك برايتون ومارغيت. إن تزايد المنتجعات الساحلية تغذى على رغبة أهل الضواحي في الهرب من الحرارة، والقذارة، والإزعاج المصاحبة للمدينة الصناعية. لقد ابتكر هؤلاء أنواعا جديدة من الترفيه، بما فيها مدن الملاهي، كما اخترعوا عددا وافرا من الأذواق، والرياضات، والمباني المعمارية الساحلية الجديدة, في هذه الأثناء، تعفنت أرصفة الموانئ في المدن حيث أصبحت الواجهات المائية أراضي خربة. فلم يكن حتى سبعينيات القرن العشرين أن عادت المدن الأمريكية والأوروبية إلى البحر، هذه المرة لتصنع علاقة جديدة تماما به.

«لقد صنعت التكنولوجيا ثم دمرت الواجهة المائية التقليدية»، كتب بيتر هول. لقد ختم مصيرها عندما قطعت كارثة السويس في العام 1956 نقل البترول من الشرق الأوسط إلى أوروبا، مجبرة التجارة على اللجوء إلى شاحنة النفط العملاقة، والتي لم يكن ممكنا استقبالها على الأرصفة القديمة. في العقد نفسه من الزمان، اخترع مالكوم ماكلين، أمريكي، سفينة الحاويات الحديثة، والتي كانت تتطلب كذلك خدمات مرفئية جديدة تماما قادرة على التعامل مع الكثافة العالية والسرعة الكبيرة للإنتاج. لم تكن المرافئ القديمة قادرة على توفير منافذ كفؤة لسكك الحديد والطرق السريعة. لقد خسر نظام مانهاتن للممشى الممتد من الرصيف أمام نظام مرفأ إليزابيث في نيو جيرسي عبر نهر الهدسون، لقد حلت أوكلاند محل جارتها ذات الخليج ألا وهي سان فرانسيسكو، كما أصبحت روتيردام البوابة إلى أوروبا. لقد قضت السفن القديمة نصف وقتها راسية، بيد أن سفن الحاويات، التي تعمل وفقا لجداول زمنية دقيقة، قد خفضت أوقات رسوها في المرافئ إلى أقل من 20 في المائة من زمن الرحلة. إن سواحل المرافئ ذات الصناعة الثقيلة قد صعدت تكلفتها إلى ما بين 60 و 75 في المائة من كل نفقات الشحن، ولكن الآن، وحيث إن الرافعات الميكانيكية قد حلت محل العامل الذي يحمل السفن، فإن الأرباح قد قفزت عاليا. لقد أصبحت سفن الحاويات تعرف باسم «كفن عامل المرفأ». حملت السفن الجديدة طواقم عمل أصغر وأقل تكلفة، بحيث لا تدفع لهم المبالغ الممتازة نفسها. ومثل صيد السمك، أصبح الشحن صناعة حرة، يدار من خلال سفن مبنية ومسجلة في مرافئ غريبة، حيث تتفادى الضرائب والقوانين التنظيمية عن طريق رفعها لما يسمى الأعلام الملائمة(*) وكذلك عن طريق عولمة طواقم عملهم.

لم يعد لما أسماه ألان سيكولا «السفن الهاربة» موطن محدد. بحلول العام 1960 أصبح المرفأ محطة في الطريق في رحلة مستمرة، مكان اللامكان، مخفيا ومنسيا. مع تغير الزمن أصبحت تلك المرافئ تقريبا لا شيء، لقد حبست طواقم العمل في السفن في حين اختفت مدن البحار القديمة. لقد أصبحت السفينة، كما يقول مايكل فوكو، «قطعة سابحة من المكان، مكان بلا مكان، والذي هو موجود

(*) Flags of Convenience: هي أعلام الدول التي تسجل فيها السفن غير أنها ليست دول المنشأ، حيث يجري هذا التسجيل لتفادي الضرائب والقوانين لدول المنشأ. [المترجمة].

من أجل نفســه». كان ذلك حقيقة كذلك بالنســبة إلى السفن السياحية التي حلت محل ســفن الركاب العابرة للمحيطات في العصر نفسه. وكونها تحمل ما يزيد على ســتة آلاف من الركاب وطاقم العمل، كانت هذه السفن العملاقة تحتاج إلى مرافئ جديدة، مثل ذاك الذي في ميامي. أصبحت هذه السفينة في حد ذاتها، وكونها عالما مكتفيــا ذاتيا بمتاجره ومطاعمه، هي المقصد الأخير. ففي ســفينة مصنوعة لتجعل الركاب ينسون حتى أنهم في البحر، فإن «انتباه الراكب يتحول في الواقع عن البحر، وذلك باتجاه السفينة وكل المتع التي تعد بها». ومثل الواجهة المائية الحديثة، فهي على البحر لا مِنْهُ[21].



The Peking، بيكينغ، سفينة تاريخية ترسو في متحف الشارع الجنوبي للمرفأ البحري، نيويورك. الصورة مقدمة من ويكيميديا كومنز.

لقد كان للواجهة المائية ذات يوم ثقافتها المميزة، غير أنه عندما توقفت السفن عن الرسو وبدأت الأرصفة بالتعفن سرعان ما تحول الإهمال إلى خراب تام. أصبحت ساحات ســكك الحديد غير المســتعملة موطنا للمتشردين. بحلول ستينيات القرن

العشرين، أصبح الميناء مكانا حيث يلقي سكان نيويورك ليس فقط بفضلاتهم بل بجيرانهم الأقل حظا كذلك.

بيد أنه كان في ذلك الوقت تحديدا بدأت الواجهات المائية حول العالم بما أسماه هانز ماير «البعث المذهل». ففي خلال سنوات قليلة قصيرة، أصبحت الواجهات البحرية المنبوذة تشترى عن طريق متعهدي المشاريع. لقد هدمت السكك الحديد والطرق السريعة التي فصلت المدن عن مياهها، كما دمرت الأرصفة المتعفنة. في حالة نموذجية للتدمير الخلاق، ماتت واجهات العالم المائية ثم بعثت من جديد، كل ذلك في مدة قصيرة جدا[22].

لقد استغلت الأماكن التي جرى إخلاؤها حديثا في استعمالات متعددة: جزء منها سكني، وجزء تجاري، وآخر ترفيهي. قاد رصيف لونغ وارف في بوسطن هذا المسير، وسرعان ما لحقت بها بالتيمور، ثم أتت لندن، روتردام، سنغافورة، سيدني، وسان فرانسيسكو. في عصر ارتفاع العولمة استعارت بعض المدن من بعضها الآخر. أصبح التطوير للواجهة البحرية متوقعا بالطريقة ذاتها التي كان عليها تطوير المنتجعات. وبالبناء على أقرب مسافة من الماء، دفع التطور بعملية دفن النفايات إلى درجاتها القصوى. لقد جرت التضحية بالأراضي الرطبة المجاورة، حيث جرت هندسة آخر السمات الطبيعية للموانئ القديمة حتى اختفت من الوجود. حول العالم بأكمله، حل الآن يوم الساحل الأنثروبوجيني[23].

السواحل الأنثروبوجينية

منذ سبعينيات القرن العشرين فصاعدا، عاد سكان المدينة إلى البحر، ولكن بأسلوب غير مسبوق في التاريخ السابق للمرافئ البحرية. فلا علاقة عمل اليوم لسكان الواجهات المائية بالماء. ففيما عدا خدمات العبارة، لم تعد الواجهة المائية المطورة نقطة عبور. فأماكن قليلة فقط تسمح بالنفاذ إلى الماء في حد ذاته، وتلك عادة ما تكون مراسي خاصة. يلاحظ فيليب لوبات أن «لمانهاتن كراهية مرضية تقريبا لأن تسمح لك بالتجول إلى طرف النهر والاقتراب بما يكفي لتمس المياه». إن سكان الميناء الجدد هم في الأغلب من الطبقتين الاجتماعيتين العليا أو الوسطى، هم أناس أداروا في العقود السابقة ظهورهم إلى المدينة الداخلية سعيا خلف

حيـاة أفضل في الضواحي. ليس فقـط إنهم أكثر غنى من الطبقات العاملة البحرية والصناعية والتي حلوا محلها، ولكنهم في الأغلب يجمعون صفتي كونهم أكبر وأصغر عمـرا معا. لقد أصبحت الضواحي أماكن لإنشـاء الأسر. بيـد أن تطوير الواجهات المائيـة يوفر للكبار العزاب، والذين يجـدون في هذا المكان «جبهة جديدة» ومكانا لأسـاليب الحياة المتنوعة. لطالما كانت الواجهة المائية فردوسا متحررا، بيد أنها الآن لم تعـد مرتبطـة بالخطر، الجريمة، والكدح، ولكن ببناء حيـاة جيدة كما يعرفها لنا مفهوم الاستهلاك[24].



سفن حاويات في خليج سان فرانسيسكو. الصورة من ويكيبيديا.

مثـل ما حدث مع الشـاطئ، نظفت الواجهة المائية أولا من سـكانها الأصليين ومن ثم جرى اسـتعمارها من قبل أهالي الأراضي الداخلية. وما كان ذات يوم مكانا للعمل، أصبح الآن في الأغلب مكانا للاستهلاك، ومكانا «للتسوق عوضا عن الشحن»، كما تقول آن بتنويزر، مسـاحة احتفالية والتي منها يشـاهد الناس الألعاب النارية والسفن الطويلة. إن هؤلاء الذين يجتمعون عند حافة المياه هم مشاهدون وليسوا مشـاركين. مثل هؤلاء الذين يسكنون الشـاطئ الحديث، ليسوا هناك ليدخلوا إلى البحر بل لينظروا فقط. لم تعد الواجهة المائية مكانا بل صارت مشهدا طبيعيا. ومثل

الشـاطئ، فإن الواجهة المائية المدينية الجديدة هي لا مكان، هي ليسـت معزولة فقـط عن بيئتهـا الطبيعية بل عن تاريخها في حد ذاته. لقـد كان يقال إن «الشيء الوحيد الذي يتجاهله سكان نيويورك أكثر من الطبيعة هو التاريخ»[25].

في البداية، تطلبت إعادة تطوير الموانئ، مثل إعادة تطوير الشواطئ، عملا ضخما من النسـيان. ومن ثم، بداية مع سـتينيات القرن العشرين، اكتشـف المستثمرون القيمـة التجاريـة للتاريخ البحري كعامل جذب بالنسـبة إلى السـياح حيث بدأوا بإضافة عملية الترميـم التاريخي إلى جدول أعمالهم، وذلك على الرغم من أنه، وفي مطلع الدمار الشـامل للمرافئ القديمة، كان هناك القليل جدا الذي يمكن ترميمه. بدلا من ذلك، اخترع هؤلاء نسـختهم الخاصة بهم مـن الماضي - رصيف الصياد في سـان فرانسيسكو، مرفأ الشـارع الجنوبي في نيويورك، أرصفة إرساء السفن في لندن - كلها مصممة لتحظى بنصيبها من السـياحة البحرية. اليوم، ما يسمى بالواجهات البحريـة التاريخية ليس لها سـوى أقل ارتباط بالتاريخ. فغالبـا هذه الأماكن هي مشاريع تجارية وليست بحرية، ونوع من أنواع الأسواق التجارية في المدينة «كيف يمكـن لنيويورك، بعـد أن خنقت مرفأها حتى الموت (أيا كانت الأسـباب الصالحة لعمـل ذلك) أن تعود فتطلب منا أن نحتفي بهذا الذي كان محركا اقتصاديا عظيما ذات يـوم، في أكثر المحيطات تعقيـما وزينة اصطناعية، والذي يتردد عليه بشـكل رئيسي السـياح فقط؟»هكذا يتسـاءل لوبيت. لقد أصبحت الواجهة المائية بأكملها حافة للأرض. لقد توقفت عن كونها نقطة تواصل أو عبور. لم تعد تلك منطقة بيئية انتقاليـة حيث تتواصـل البيئات، تتحدى، وتجدد حيوية بعضهـا البعض. وكونه لم يعد جزءا من المنطقة السـاحلية الأكبر، لم يعد المرفأ مكانا مميزا مسكونا بمجموعة سـكانية مميزة. في الواقع، لقد أصبح مشـكوكا فيه مـا إذا كان من الممكن وصف المرافئ بالساحلية في أي من مواصفاتها عدا في موقعها[26].

لم يسـبق للسـواحل أن كانت غنية جدا بقيمة عقاراتها وفقيرة جدا بما جعلها ذات يوم الموطن الأول للبشرية. إن ما اعتقده هنري ديفيد ثورو عتبة البرية الأخيرة أصبـح الآن ربما هو أقـل الأماكن طبيعية على الأرض. لقد كان يقال عن السـاحل البريطـاني إنه لم يعـد أي جزء منه تقريبـا نقيا أصليا. هـذا التوصيف هو حقيقة بالنسبة إلى الشـواطئ تحديدا، والتي في العالم الغربي هي جميعها تقريبا من صنع

الإنســان إلى حد ما. إن رحلة البحث عن النقــي البدائي منها في المناطق الأبعد من الكرة الأرضية ما نتج عنها سوى رفع نسبة هندسة الشواطئ هناك. إن نصف ساحل نيوجــيرسي كاملا هو الآن مدرع. تعــود برامج حماية شــاطئه، والتي تضم حواجز الأمــواج، الأرصفة الممتدة داخل البحر، وحواجز البحــر، إلى العام 1920، حيث إن «النيوجيرسـية» تمارس الآن (كما يجري الاحتجاج ضدها) في كل مكان في العالم. بيد أن الهندســة الساحلية ليســت واضحة في مكان كما هي في اليابان، حيث إن 65 في المائة من السواحل مغطاة الآن بالخرسانة[27].

إن الســواحل الطبيعية، يحذرنا بول كارتر، «متقطعة بعناد، غاية في السوء، غير منطقية، تستحيل على الإصلاح»، كما أن أي جهود مبذولة لاستقرارها قد أتت بنتائج عكســية لما كان مقصودا. إن الشــواطئ، مثل الكائنات التي تعيش عليها، متحركة. إن الرمال تتحرك باســتمرار، متنقلة على وبعيدا عن وعلى طول الساحل تجاوبا مع التغييرات في كل من الأرض والبحر. إنها تتغذى على الرواسب المجروفة من الداخل. إن الحواجز الجزيرية العظيمة للأطلنطي وسواحل خليج أمريكا مستمرة في الحركة عــلى مدى قرون. لقد كان يقال حول هاتيراس في نورث كارولينا: «إن هذه الجزيرة غــير ثابتة. إن لديها خــواص وقتية تنقلية مبنية في صلــب وجودها». في ثمانينيات القرن العشرين في هاتيراس «المنازل المبنية مسافة بعيدة عن الشاطئ (كانت) تباع على أســاس أنها «عقار الواجهة المحيطية وذلك مــع مطلع القرن». «حتى التعرية كانت تحقق أرباحا». فقط عندما تســتقر هذه الجــزر الحاجزية في مكانها يجري اختراقهــا وتعريتها. وحيث إنه تُمنع من التحرك، فإن هذه الجزر تموت فعليا، حيث تنكمش في حجمها وحيويتها. عندما يجري ســد الأنهار وتحويل مســاراتها وعندما تتوقف تيارات المياه وحركات المد عن تغذية الســواحل بدفعها الرواسب في اتجاه الســاحل، فإن الكوارث تلي كل ذلك. تســعى الحكومات إلى تجديد الشواطئ عن طريــق ضخ الرمــال، بيد أنه من المعــروف جيدا أن الشــواطئ «المرممة» معرضة للتعرية بضعف نسبة تلك المتروكة على طبيعتها[28].

إن الســبب في استمرارنا في «إصلاح» الســواحل فقط لندمرها هو ليس عصيا على الفهم. لقد ســمحنا للناس بأن يشيدوا المباني إلى حافة البحر، خالقين عقارات، والتي هي بالنسبة إلى المجتمعات الســاحلية المتدهورة اقتصاديا قاعدة الضرائب

الرئيسية. وكما يقول مستشار في فلوريدا بشأن الموضوع، «لقد كان علينا أن نحمي الإوزة الذهبية». يعتقد القادمون الجدد إلى الساحل أن «كل الأراضي (هي) دائمة وكل الحدود ثابتة». وكما رأينا، بدأت هذه العملية عن طريق الأوروبيين والأمريكيين الأثرياء في القرن التاسع عشر مع بناء النوادي الصحية، أماكن الاستحمام، وأخيرا، المقاطعات الساحلية. لقد أصبح ممكنا لساموبل اليوت موريسون أن يكتب في العام 1921 «لقد حلت مدن المصانع ومراكز اليخوت الآن محل قرى صيد السمك. إن الحدائق والقصور الإيطالية يمكنها أن تمحو حتى ذكرى المزارع الساحلية الوعرة»[29].

لقد ساندت السياحة متوسطة الدخل نمو المنتجعات في النصف الأول من القرن العشرين، غير أنه لم يبدأ التدفق الحقيقي نحو الساحل إلا بعد الحرب العالمية الثانية. من ستينيات القرن العشرين فصاعدا، لم تنمُ المجتمعات الساحلية في الحجم فقط بل أصبحت تشبه الضواحي أكثر فأكثر. لقد اجتذبت تلك المتقاعدين، والذي اصطاف العديد منهم أو قضى شتاءاته هناك قبل أن يستقروا في المنطقة بشكل دائم. إن الأشخاص العاملين الذين كانوا يسافرون سابقا من المدينة إلى الساحل قد عكسوا الآن مسارهم بأن جعلوا من مساكنهم الموسمية أماكن إقامة مستقرة على مدار العام. لقد كان ذلك واقعا حقيقيا تحديدا على السواحل القريبة من المدن الكبيرة، بيد أن العملية ذاتها يمكن رؤيتها كذلك في ماين، حيث كانت تتحول قرى صيد السمك إلى ما يقترب من الضواحي بسرعة كبيرة. مع مطلع القرن الواحد والعشرين، كان الملايين يهجرون الواجهات العشبية للضواحي من أجل تلك التي للساحل، محضرين معهم طريقة تفكير تركز القيمة المرتفعة على العقار والخصوصية. لقد تجاوب المستثمرون مع هذا التدفق بأن قاموا بالبناء بتهور مقتربين بشكل غير مسبوق من البحر، وهو النهج الذي أسهم بشكل عظيم في الدمار الذي تكبدته السواحل خلال العواصف، الكبيرة منها والصغيرة. إن تأمين العقار المضمون حكوميا قد شجع على إعادة البناء حتى على أكثر المواقع حساسية. لن يسمح للإوزة التي كانت تضع بيضا من الذهب أن تموت، حتى عندما جرى تدمير السمات الطبيعية للساحل بسبب المشاريع الهندسية والتي تسببت في ارتفاع نسبة تعرية السواحل[30].

اليوم أكثر من نصف أنشطة الخط الساحلي موظفة من أجل السياحة والترفيه. لقد جرى احتجاز الزراعة، وصيد السمك، والشحن، في جزء صغير جدا من الخط الساحلي الكلي. تحتل الواجهات العاملة في ماين فقط 20 من الخط الساحلي الكلي والبالغ 5300 ميل. فما كان ذات يوم واجهة منسابة، حافة أعظم حديقة في العالم، هو الآن حد ذو حراسة مشددة والذي يعيق الدخول من الأرض والبحر على حد السواء. وبجفاف الأراضي الرطبة وبسد السواحل بالسدود المضادة للأمواج، ما كان حافة ناعمة أصبح الآن حافة صلبة غير قابلة للاختراق. في الولايات المتحدة، 83 في المائة من السواحل الشرقية و60 في المائة من السواحل الغربية أصبحت ملكية خاصة. لايزال للعامة حق بالأقدمية في النفاذ إلى الساحل وذلك أسفل أعلى خط للمد، بيد أن نفاذهم إلى مناطق التيارات المنبسطة هو محدود بشدة. عندما بدأ الوعي بكم هو قليل ما بقي من المنافذ السياحية المتاحة يرتفع في سبعينيات القرن العشرين، ضغطت المجاميع على ملاك العقار وقاضتهم وذلك لتأمين حق مرور والذي يسمح بالنفاذ إلى الشواطئ. في ننتاكيت، كانت حركة One Big Beach أو شاطئ كبير واحد فاعلة منذ العام 2004، ولكن بحق نفاذ محدود فقط. في أماكن أخرى، بدا أن التخصيص كان هو الفائز في الصراع. في ديستين، فلوريدا، على سبيل المثال، وقف ملاك العقار حتى ضد مشاريع تغذية الشاطئ وذلك بسعي منهم إلى المحافظة على ما اعتبروه أنه حقهم السيادي في الخصوصية. لقد كانوا يفضلون ألا يكون لديهم أي شاطئ على أن يتشاركوا فيه مع الغرباء. قبل ازدهار واجهتها الشاطئية في سبعينيات القرن العشرين، كانت ديستين مجتمع صيد متآكلا، واليوم هي هدف سياحي رئيسي، متخم بالأسواق التجارية الفاخرة، وملاعب الغولف، ومدن الملاهي، وبقاعدة ضريبية تقدر بقيمة 4.5 مليارات دولار. لقد عمدها مطوروها على أنها «قرية صيد السمك الأكثر حظا في العالم»، على الرغم من أنه لا صيد، عدا عن صيد التسلية، يجري هناك[31].

حول كل العالم، أصبحت القرى الساحلية مركزا لنوع من الحنين والتي لم يكن لها شبيه في القرون السابقة. فما كان ينفر الزائر المديني ذات يوم أصبح الآن يجتذب الملايين. لقد حلت قرية صيد السمك محل قرية الفقراء كنسخة

مثالية لما يجب أن تكون عليه الحياة. مثل هذه المدن الصغيرة تبدو أنها توقف الزمن وتضع الماضي بين أيدي الناس بطريقة لم تستطعها المدن الكبيرة والضواحي الممتدة. إن أحجامها الصغيرة وعزلتها تقدمان وهما لملاذ، لموطن في عالم بلا قلب أو رحمة. فحول حافة شـمال الأطلنطي - في أسكتلندا، نيو إنغلاند، بريتاني، نوفا سكوشا، القناة الإنجليزية، وماين - تتلوى ما تدعى بالمسارات التراثية على طول السواحل، ملقية بنا عند قرية طريفة غريبة بعد الأخرى.

لقد جرت الإشـارة إلى nostalgia أو الشعور بالحنين - والمشتقة من الكلمة الإغريقيـة التي تعني العـودة إلى الوطن nostos - لأول مرة في القرن السـابع عـشر وذلك عـلى أنها حالة طبيـة خطرة متفشـية بين بعض الجنـود المرتزقة السـويسريين، والذين قد سيطر عليهم الاشـتياق إلى الوطن حتى إنهم أصبحوا غير صالحين للعمل. إن تحول هذه الظاهرة من مرض جسـدي إلى حالة نفسية، مرتبطة بالحنين أكثر تجاه ماض عنه تجاه مكان، قد حدث فقط في القرن التاسع عشر. اليوم، يعتبر الحنين سـمة متفشـية في المجتمعات الحديثة، حيث يشكل أساسـا لصناعة التحف والتراث، قوى محركة في كل شيء بداية من فكرة الحماية التاريخية وإلى فكرة اللقاءات العائلية. يبدو أننا لا نكتفي من العودة إلى الماضي، أو بالأحرى إلى نسخة مثالية من الماضي، والتي ليس لها سوى شبه قليل بالحقيقة التاريخية. وعلى الرغم من أنه لم يعد يعامل على أنه مرض خطير، فإن للشـعور بالحنين تبعات خطيرة بالنسـبة إلى هذه الأماكن والأشـخاص والتي يوجه إليها هذا الحنين.

لقـد رأينا مقدمـا كيف وقعت قرية صيد السـمك تحـت تعويذة الحنين. في أسـكتلندا، يقـود ما يعـرف باسـم Fishing Heritage Trail أو خط تراث صيد السـمك السواح بشـكل رئيسي إلى الأماكن التي لم يعد فيها صيد للسمك وذلك لأن خبراء السـياحة يعتقدون عموما أن «المشهد الطبيعي البحري جذاب فقط في الماضي أو من على مسـافة، فبسـبب «طبيعته الرملية» يكون الاقتراب منه غير مناسب لاسـتهلاك الطبقات الوسطى». في جلوسستر، حيث المسمكات تمـوت اليوم، يتبع الزوار خطـا أحمر حول الميناء إلى مواقـع حيث كانت هذه المسمكات موجودة. فحيثما يسـتمر صيد السمك، يستمر الخلاف بين القادمين

الجدد والمقيمين كذلك. عندما رغب المستثمرون في ترصيف الشوارع في المرفأ الأسكتلندي الصغير لمنطقة بتنويم، اعترض البقية الباقية من الصيادين على أساس أن حجر الترصيف زلق ويمكن أن يجعل عملهم خطرا. بيد أنه لربما أكبر خطر هو الحنين بحد ذاته. في القرن العشرين، حلت القوالب النمطية الإيجابية محل السلبية بيد أنها تركت سكان القرى يشعرون، كما قال أحد النيوفاوندلانديين، كما لو أنهم «في محمية خاصة»، كأنهم معروضات في متحف عن كونهم بشرا حقيقيين. وبينما حلت السياحة محل صيد السمك كالمصدر الأوحد الأكبر للدخل والتوظيف السُاحليين، فإن العديد من الأشخاص الساحليين قد تبنوا على مضض الهوية المعطاة إليهم. لقد خضعوا للقرارات الرسمية والتي فضلت المنظر على ما هو فعال، مملية عليهم الألوان التي يصبغون بها بيوتهم وكمية المعدات التي يمكن لهم أن يخزنوها في ساحاتهم الجانبية. وفيما سيطرت المراسي على الواجهات البحرية العاملة، أصبح العديد من صيادي سمك ماين متنقلين. وكونهم لم يعودوا قادرين على شراء عقار على الواجهة البحرية، أصبحوا هم غرباء بحد ذاتهم، معرضين للشعور نفسه بالفقد كما الغرباء[32].

بيد أن هذا الشعور بالفقد الذي يختبره المحليون يجب ألا نخلطه بالحنين الذي يأتي به الداخليون إلى الساحل. عادة ما يكون الصيادون أقل تصويرا للماضي على أنه مثالي، أقل رغبة في أن يجمدوه في مكانه. بالنسبة إليهم، الماضي هو حاضر مستمر، شيء يجري البناء فوقه، أو كما يقول أعضاء Heritage Society أو جمعية التراث في بكي، أسكتلندا: «نحن لانزال هنا. دعونا نخبركم كيف كنا نحيا». يصل القادمون الجدد وهم يسعون إلى الحصول على ملجأ مما يعرفون أنه عائق للتطور. هم يلقون نظرة متحيزة تجاه المستقبل، وهو الشيء الذي لا يستطيع الأشخاص الذين يعانون نقصا في العمل في بكي أن يفعلوه، حيث إن تراث الأخيرين هؤلاء ليس سلعة بل شيء يخططون على أساسه لجمع الدروس المختلفة من أجل المستقبل. هذا الشعار: «مستقبلنا مستقر في ماضينا» يعبر عن إصرارهم على عدم ترك قريتهم لأن تصبح متنزها بحريا. «نحن لسنا مهتمين تحديدا بالسياحة»، هم يقولون، «نحن مهتمون بالحفاظ على المجتمع»[33].

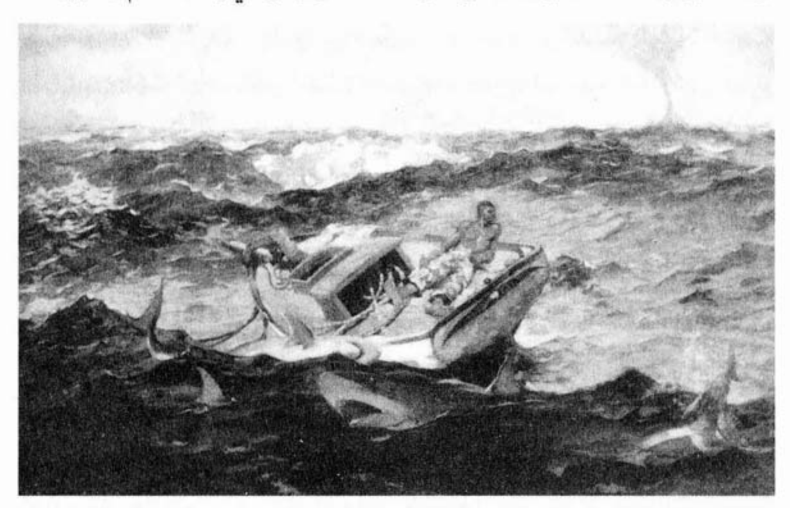
في مرفــأ كلايد، تلك القرية التي تبدو أنها «مثالية كبطاقة تذكارية» والتي تقع على شــبه جزيرة سانت جورج في ماين، وهي مكان مرتبط بثلاثة أجيال من عائلة وايث الفنية، بدا أن المجتمع هناك في طريقه إلى أن يخسر كامل أسطوله. فبشعورهم بأنهــم لربما يكونوا «آخر الصيادين في مرفأ كلايد»، اســتجاب الصيادون الأرضيون على طريقة أهالي بكي. أسســت The Midcoast Fishermen's Cooperative أو جمعية صيادي منتصف الساحل مجموعة Port Clyde Fres Catch أو مجموعة الصيد الطازج لمرفأ كلايد، والتي هي مجموعة تســاند المســمكات والمؤسسة على غرار الزراعة المتبناة مجتمعيا. وبمســاعدة منظمتي وايث وماين، فتحت الجمعية طريقا إلى المستقبل مبنيا على الممارسات الماضية للبيع المباشر للعملاء المحليين[34].

الجنة والجحيم على الساحل

على مدى أغلب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بدا أن السواحل في طريقهــا لطرد المخاوف التي كانت وعلى مدى طويل مرتبطة بها. لقد بدا أن الفردوس ثبت نفســه أخيراعلى الشــاطئ. لقد انتقلت جغرافيــا المدينة المثالية (يوتوبيا) وبشــكل قاطع من الأراضي الداخلية إلى الســاحل، ثم عبر الساحل إلى الجــزر، التي أعلنها جون فاولز على أنهــا «المجتمعات البديلة الأصلية». غير أنه وحتى عندما كانت السواحل تنظف من حطام السفن، فإنها كانت لاتزال مظللة بمجموعة جديدة من التهديدات. لقد قدمت لوحة وينســلو هومر للعام 1899 The Gulf Stream أو «مجرى الخليج» صورة لا تنسى - لبحار أسود منبوذ على قارب بلا صاري ولا دفة محاط ببحر مملوء بسمك القرش - والتي بدت أنها تمثل الحالة الإنسانية في «وجه إله متباعد وطبيعة لا تقاوم»[35].

لم يظهر ســمك القرش بوصفه كائنا مفترســا بقوة حتــى نهاية القرن الثامن عشر بيد أنه أصبح أكثر تهديدا من أي وقت مضى خلال السنوات المائة القادمة. لقد جرى تســجيل ذكرى هجوم ســمك قرش في لوحة العــام 1778 بيد الفنان جون سينغلتون كوبلي، والتي كلفه بها رجل إنجليزي يدعى بروك واتسون الذي فقد ساقه عندما كان صبياً في ميناء هافانا. إن اللوحات الرومانطيقية مثل Raft of the Medusa أو «طوف مدوســا» هي التي أشــهرت هذا الموضوع، بيد أنها

كانــت لوحــة هومر، والتي عرضت لأول مرة في العام 1900 في بوســطن، والتي جذبت الانتباه. كما بين بيتر إيتش. وود، إن العلاقة بين السود وسمك القرش ما كانت لتغيب عــن الأمريكيين والأوروبيين. إن لوحة جي. إم. دبليو. تيرنر Slave Ship (Slaves Throwing Overboard the Dead and Dying, Typhoon Coming on) أو «ســفينة العبيد» (العبيد يلقون من على ظهر السفينة الموتى والمشرفــين على الموت، إعصار قادم) (1840) قد كشــفت عن ممارســات تجار العبيــد من حيــث تخلصهم من الأفارقــة الموتى والمشرفين عــلى الموت في الممر الأوســط(*) على طريق تجار العبيــد في الأطلنطي. يقدر وودز بأن ما يقترب من 800 ألف من الأفارقة ربما أصبحوا «طعما لســمك القــرش»، كما أنه «لربما غير ســمك القرش أنماط تغذيتهم وهجراتهم ليســتغلوا هذا الكسب غير المتوقع». يفسر ذلك هذا التدافع المتوحش لســمك القرش في المياه الاستوائية والذي يبينه هومر. لقد كان صيادو السمك في المناطق المعتدلة يصطادون سمك القرش على مدى مئات الســنين من دون أن يشــهدوا مثل هذا السلوك. بالتأكيد، قبل عرض لوحة هومر كانت الفكرة المنتشرة عن سمك القرش توحي بالاستسلام والجبن[36].



The Gulf Stream أو «مجرى الخليج» لوينسلو هومر، 1899.

الصورة من ويكيبيديا.

(*) الممر الأوسط: هو المرحلة الوسطى من رحلة تجارة العبيد التي تبدأ في أوروبا وتنتهي هناك. [المترجمة].

من هذه النقطة فصاعدا، انتقلت أسطورة آكل البشر إلى ما هو أبعد من المناطق الاستوائية وإلى كل جزء من المحيط، حيث حل سمك القرش محل الحوت كأعظم وحش بحري في العالم. وفيما تراجعت صناعة صيد الحيتان لفترة وجيزة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تقلص التواصل مع الحيتان فيما ارتفعت المصادفات مع سمك القرش وذلك عندما أصبح الاستحمام في البحر عادة شهيرة في كل من أمريكا الشمالية وأوروبا. لأول مرة، كان البشر يغزون محيط سمك القرش، وعليه فقط ظهر نوع جديد من الطعم. وعلى الرغم من عددها القليل، فإنه بدأ التبليغ عن الاعتداءات بشيء من الانتظام. في بداية القرن العشرين تحولت صورة سمك القرش بشكل كبيرمن فريسة طيعة إلى حيوان مفترس متوحش.

إن نظرتنا إلى سمك القرش لا تنحدر إلينا من الثقافات البحرية القديمة، والتي كانت تكره السباحة كما أنها كانت تتعامل مع سمك القرش بالاحترام الذي يقدمه الصيادون عادة لفريستهم، لكن في الواقع من الخوف الذي صنعه مجتمع صناعي مديني والذي فقد إلى حد كبير اتصاله مع البحر. ستحول أحداث الصيف الحار الطويل للعام 1916 العلاقة القرشية - الإنسانية في شمال أمريكا. لقد اجتذبت الحرارة العالية مصحوبة بانتشار وباء شلل الأطفال الآلاف من الناس إلى الشواطئ، وفي خلال أقل من أسبوعين قتل أربعة رجال في المياه عبر ساحل نيوجيرسي. هذه الوفيات أنتجت أول رعب حديث تجاه سمك القرش، والذي هدد صناعة السياحة، كما اجتذب أنظار الرئيس وودرو ويلسون، محافظ نيوجيرسي السابق، حيث نتج عن ذلك أضخم مشروع صيد حيوانات ممول فدراليا في التاريخ. في السنوات اللاحقة، وفيما سعت المصالح الاقتصادية إلى إيداع هذه الحوادث بأكملها طي النسيان، لم يكن لأسطورة «آكل البشر في جيرسي» أن تختفي. لقد عادت هذه الأسطورة بشراسة في العام 1975، وذلك عندما ظهر فيلم Jaws أو «الفك المفترس» على الشاشة، وهي الأسطورة التي رفضت أن تختفي على الرغم من كل الجهود المبذولة لتثقيف العامة حولها[37].

لشعوره بالمسؤولية الشخصية عن القتل المستهتر لسمك القرش الذي تبع ظهور فيلم «سمك القرش»، كتب بيتر بينغلي لاحقا كتبا عدة ليضع الأمور في نصابها. لقد لاحظ ريتشارد ويليس أن «الإنسان يخاف مما يجهل، ومن بين كل الكائنات الضخمة التي يتشارك معها في هذا الكوكب، فإن الإنسان يعرف أقل القليل عن سمك القرش». وفيما جرى دحض أسطورة أكلة البشر بشكل كبير بواسطة الدراسات العلمية الحديثة،

كما أن المذابح قد قلت بعض الشيء، بيد أن ذلك لم يؤثر في الثقافة العامة. فبالنسبة إلى هؤلاء الذين يسعون إلى مواجهة قريبة مع البرية، ليس هناك بالنسبة إليهم حتى الآن ما يمكن أن يحل محل المواجهة مع القرش الأبيض العظيم. فمنذ ستينيات القرن العشرين، أصبحت السباحة مع سمك القرش مغامرة برية اقتصادية ناجحة، وما يسميه أليس «أناس سمك القرش» لايزالون مستمرين في الاستجابة لدعوة البرية في عصر أصبحت فيه الذئاب والدببة محظورة كونها أجناسا محمية[38].

في هذه الأثناء، أصبح ما كان يوما ما وحش البحر الكلاسيكي الكائن المدلل الآن عند الناشطين البيئيين. يأتي ذكر الحيتان فقط أربع مرات في الكتاب المقدس، وليس على أنها مخلوقات من الطبيعة بل أدوات لإرادة الخالق. في العصور الوسطى، ظهرت الحيتان على أنها أعظم من سمك القرش في كتب الحيوانات البحرية. بدأ الإسكندنافيون في صيدها على أسس تجارية في القرن التاسع، غير أن صيادي الحيتان الباسكيين كانوا هم الأوائل الذين طاردوا الحيتان لما هو أبعد من سواحل أوروبا وإلى الشمال الأطلنطي. خلال عصر التوسع العظيم لصيد الحيتان التجاري في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، اكتسب هذا الحيوان أكثر أبعاده خطورة، حيث أدى دور الشرير أمام البحار البطل لذلك الوقت. دخل الخوف إلى وعي أهالي الأرض من خلال عدد ضخم من القصص الرومانتيكية حول صيد الحيتان، التي كتبها سير والتر سكوت، جيمس فينيمور كوبر، وعدد آخر من كتاب أقل شهرة. لم يكن لأي منهم خبرة شخصية مع الحيتان، عدا مع تلك الميتة والمجروفة على السواحل القريبة. لقد اعتمدوا عوضا عن ذلك على قصص صيادي الحيتان، الذين عكسوا شراستهم هم على فرائسهم، حتى إنهم أطلقوا على قطاع الحيتان الرمادية المسالمة عادة والمنتمية إلى باجا كاليفورنيا اسم «السمكة الشيطانية». وبينما اشتدت حدة صيد الحيتان، اشتد معه مقدار العنف بين الإنسان والحيتان. عندما كانت تهاجَم، كانت هذه الحيتان معروفة بقدرتها على كسر وإغراق ليس فقط قوارب صيد الحيتان الصغيرة، بل السفن الكبيرة التي أطلقتها. من بين كل الروائيين البحريين الجدد، فقط كان لهيرمان ميلفيل خبرة حقيقية بالبحر، لكنه أيضا اعتمد على روايات البحارة الآخرين، بمن فيهم هؤلاء الذين كانوا على متن Essex أو «اسيكس»، التي غرقت في مياه الهادي بعد أن ضربها حوت عنبر ضخم في العام 1820. كان ميلفيل يعتمد على الروايات حول حوت موكا ديك سيئ السمعة، وهو حوت أبيض تمت ملاحظته في البداية عبر جزيرة موكا بالقرب من الساحل التشيلي في

العام 1810، وهو المسـؤول عن عدد من الاعتداءات عندما جرت ملاحقته برماح صيد الحيتان على مدى العقدين التاليين[39].



حيتان قاتلة تؤدي استعراضا في Sea World أو عالم البحار، أورلاندو، فلوريدا. الصورة من ويكيبيديا.

غـير أنه، وفي الوقت الذي نشر فيه ميلفيل روايتــه العظيمة في العام 1851، أصبح صيــد الحيتان على وشــك التراجع. إن الثورة البترولية تبعــد فقط عقدا من الزمان، كما أن اصطيــاد الحيتان قد فرغ من رومانســيته. كان لصناعة زيــوت الحيتان كل صفات الرأســمالية التي على الأرض، مستخدمة مصدرا طبيعيا عن طريق قوة عمل بروليتارية في أغلبهــا. لقد حصل كتــاب ميلفيل على نقد مدمر، أحدهم وصف الكاتب بأنه «رجل أخبــل، مجنون مثل الأرنب الراكض(*) يموء، يهذر، يصرخ، مثل مجنون لا يقهر». لم يكن حتى سقوط سوق زيت الحيتان وتلاشي الحقائق الدموية لهذه الصناعة من الذاكرة من الممكــن رؤية Moby Dick أو «موبي ديك» على أنها تلــك التحفة الأدبية الرائعة التي كانتها بحق. لم يحدث ذلك ســوى في عشرينيــات القرن العشرين، ولم يكن حتى صدور نسخة الفيلم من هذه الرواية في خمسينيات القرن العشرين، مصحوبة بالتغيير العالمي لعملية صيد الحيتان بحد ذاتها، أن لاحت هذه الثدييات العملاقة بشكل كبير مجددا في

(*) Mad as a march hare: مثل إنجليزي شــائع، حيث الأرنب هو تلك الشــخصية التي تظهر في قصة «أليس في بلاد العجائب» ولربما كان للمثل تاريخ أبعد اعتقادا من التصرفات الطائشة لأنثى الأرنب في فصل التزاوج. [المترجمة].

الخيال الشعبي. لقد عاد الحوت ليس على أنه ذلك الشيء الضخم من الماضي، ولا على أنه مصدر الرعب في أعالي البحار، بل على أنه نموذج للأجناس المهددة بالانقراض. ومع انتقال صفاتها كقاتلة إلى سمك القرش، تحولت الحيتان إلى نجوم للمتنزهات البحرية مثل «عالم البحار». لقد بدأت عملية مشاهدة الحيتان التجارية خلال سبعينيات القرن العشرين حيث حفرت الطريق في العام 1982 لمنع صيد الحيتان التجاري عالميا. لقد أصبح الآن مقبولا أن تهاجم الحيتان فقط إذا كانت في حالة دفاع عن النفس، عندما تحاول أن تدافع عن نفسها وعن صغارها. في وقتنا الحالي، تعتبر الحيتان «رموزا والتي تمثل كل ما هو غامض، رائع، ومعطاء للحياة في المحيط». لقد أسس البشر لنوع من القرابة الطوطمية(*) مع الثدييات البحرية والتي لم يمدوها لتشمل السمك بحد ذاته. لقد بدا أن وحشية الحيتان ما هي إلا نتاج جهلنا وليست نتاج طبيعتهم، وهو الموضوع الذي بدأنا الآن نراه حقيقيا كذلك بالنسبة إلى سمك القرش[40].

من الأسوار إلى الأطلال

يبدو كأن العالم قد انقلب داخله إلى خارجه، حيث أطرافه تحل محل مراكزه. فما كانت أسوار القارات، خطوطها الدفاعية الأولى، أصبحت الآن أكثر نقاطها ضعفا. في نهايات القرن التاسع عشر، أصبح ممكنا للورد كورزون أن يعلن السواحل «الأكثر عندا، والأقل قابلية للتغيير والأكثر تأثيرا» بين كل الجبهات الطبيعية. بحلول ذلك الوقت كان علم تحصين السواحل قد تطور بشكل تام، فلم يكن ليخطر لأسلاف وينستون تشيرشل أنه سيجري الدفاع عن إنجلترا من شواطئها، غير أن تشيرشل قدم موقفه الخطابي الشهير هناك في العام 1940 لأنه بحلول القرن العشرين كانت السواحل تعتبر الجلد السميك للجسد السياسي، حتى بعد أن جعلتها القوى الجوية عديمة الفائدة كحواجز ضد القصف. لقد بلغت عملية عسكرة السواحل أوجها خلال الحرب العالمية الثانية، عندما أصبحت مشاهد طبيعية معينة - الأجراف البيضاء في دوفر، الحائط الأطلنطي لهتلر، الألسنة البحرية في كاليفورنيا - الأسوار الرمزية لحروب منتصف القرن العشرين[41].

لقد أظهر D-Day أو يوم D أو يوم هبوط نورماندي حماقة هذه الإستراتيجية، بيد أنه سيمر وقت طويل قبل أن يجري التخلي عن فكرة تحصين السواحل. خلال الحرب الباردة بقيت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي مركزتين بشكل غريب على

(*) الطوطم (Totem): لفظ من اللغة الأجيبوية يدل على كائن روحي أو طبيعي له قداسة عند جماعة من الناس، ويؤدي دورا رمزيا في نظامهم الميثولوجي. [المحرر].

دفاعات الخطوط الساحلية. حظر الاتحاد السوفييتي سواحل دوله العميلة الواقعة على البلطيق على السواح، فيما تحولت الألسنة البحرية والمطلة على البوابة الذهبية إلى قاعدة نايكي(*) الصاروخية المنعزلة. على الرغم من ذلك، مع مرور الوقت تلاشت أهمية الدفاعات الساحلية، حتى ضيق الأفق المتباهى به في إنجلترا تقلص كثيرا منذ إتمام قناته الموصلة مع القارة الأوروبية في العام 1944. اليوم، انضمت الملاجئ الأرضية ومنصات إطلاق الصواريخ إلى أبراج ومنارات مارتيلو كمناطق جذب سياحية رئيسية. في عصر القوى الجوية، أصبح حرس السواحل في كل مكان قلقين أكثر بشأن مهربي المخدرات، الإرهابيين، والمهاجرين غير الشرعيين عنهم بشأن التهديد بالغزو المسلح. إن الحصون حول السواحل ما هي سوى أطلال، غير أن هجرها قد ترك إرثا واحدا غير متوقع. كما يشير توم كيليون، كون الأراضي المحمية العسكرية السابقة هي بين الأجزاء القليلة من السواحل في المناطق المدنية «والتي هي غير ملطخة بالكابوس العقيم للتوسع المديني، تبقى هذه الحافة الجميلة هناك حيث الأرض تلتقي بالبحر»[42].



حرس السواحل خلال الحرب العالمية الثانية في إنجلترا. الصورة من مكتبة الكونغرس.

(*) Project Nike: هو مشروع أمريكي لتطوير الصواريخ المضادة للطائرات، وأصبحت كلمة نايكي تشير إلى كل قاعدة تضم هذه النوعية من الصواريخ. [المترجمة].

في خلال عقود قليلة، أصبح المشـــهد الطبيعي الذي كان يعتبر يوما ما ســـورا للحمايـــة الآن الأكثر تهديدا وضعفا بين الســـمات الطبيعية كلها. وفيما كان ذات يوم يعتبر أفضل دفاعاتنا ضد كل أنواع عداواتنا، البشرية والطبيعية، أصبح اليوم الساحل هو الذي يحتاج إلى الدفاع. فقط منذ مائتي سنة مضت، كانت السواحل تنتمي أكثر إلى البحر منها إلى الأرض حيث كان يمكن الاقتراب منها فقط عبر الماء. وبخلاف المرافئ، كانت السواحل مأهولة بشكل متجزئ، عادة فقط حول المنارات والتي بنيت لتقود السفن إلى الموانئ الآمنة ولتحذر للابتعاد عن النتوءات الخطرة. لقـــد أنقذت المنارات حيوات عدة، غير أن هـــذه المنارات هي بحد ذاتها مهددة اليوم. أصبح حطام الســـفن نادرا الآن، بيد أن الســـواحل مغطـــاة ببقايا المنارات والتي ســـقطت مـــن على الأجراف المتعريـــة أو التي هجرت بســـبب الفيضانات الساحلية. اليوم، هذه المنارات التي أنقذت حيوات عدة ذات زمن هي في حاجة إلى إنقاذ. وفيما كانت ســـابقا رمزا للقدرة الإنســـانية عـــلى الوقوف في وجه قوى الطبيعة، تثير المنارات اليوم الأسئلة حول الضعف الإنساني ليس فقط بالنسبة إلى البحارة بل للأرضيين كذلك. في كارولينا الجنوبية، حصلت مؤسســـة تسمى Save the Light أو «لنحمي الضوء» على حق حضانة منارة جزيرة موريس، والتي تقع عبر شاطئ فولي خارج تشارليستون. بنيت هذه المنارة في العام 1876 على مسافة نحو 1600 قدم خلف خط المد. اليوم، بسبب التعرية وتراجع الخط الساحلي في كارولينا، وجدت هذه المنارة الموضوعة حديثا على جزيرة واقعة الآن على المسافة نفسها عبر الساحل التي كانت عليها في داخل الأرض[43].

يعود تاريخ المنارات إلى العالم القديم، غير أنها أصبحت شـــائعة على سواحل أوروبا وأمريكا بحلول القرن التاسع عشر. كان من الصعب الوصول إليها سوى عن طريق القارب، وكان حراســـها يتوقعون زيارات قليلة ســـوى من هؤلاء المجروفين من على السواحل القريبة. لقد قال مهندس المنارات العظيم روبرت ستيفينسون مـــرة «يحتل حارس المنـــارة مكانا منعزلا بين البشر». إن هـــذا العمل يعتبر عمل طبقة متدنية، حيث كان يعتقد أنه يشـــجع نزعات القتل والانتحار. غير أن هذه الصفـــات القوطيـــة(*) بحد ذاتها راقـــت للجيل الأول مـــن الرومانتيكيين، وخلال

(*) Gothic qualities: إشـــارة إلى نـــوع من الأدب المظلم المخيف، يســـمى بالعربيـــة الأدب القوطي، يعتمد على الأماكن المهجورة المظلمة. [المترجمة].

العصر الفيكتوري اجتذبت المنـارات أعدادا متزايدة من الزائرين اليوميين، وهم السـابقون للسـواح المعاصرين، والذين جعلوا من المنارات المتبقية أكثر الأماكن التي تجري زيارتها على أغلب السـواحل. إن الانعزال نفسه الذي قاد الرجال إلى الجنون قد جعل الآن المنارات أماكن هروب مثالية من الوجود الأرضي الرتيب[44].

وفي تغير اسـتثنائي في الحظ، ذاك الذي كان مرشـحا لأن يهجر ويدمر أصبح الآن واحدا من أفضل مناطق الاجتذاب الساحلية. في أوروبا، بقيت المنارات ملكية عامة، ولكن، وتحت مرسـوم أمريكا للحفاظ القومي على المنارات في العام 2000، تشـترى المنـارات المعزولة من الخدمة عادة من أجل الاسـتعمال الخـاص أو أنها تحول إلى أماكن إقامة سـياحية. إن فعل «lighthousing» أو «زيارة المنارات»، والمقصود به زيارة أكبر عدد منها، أصبح الآن رياضة تنافسية، رياضة تقترح أن شيئا ما يحدث في الأعماق، حنين إلى أمان مكان ما في عالم، هو بخلاف ذلك، لا مكاني. ترتبط المجتمعات الساحلية الآن بمناراتها أكثر من ارتباطها بأي مشهد طبيعي أرضي آخر. غير أن كذلك يفعل سـكان الأراضي الداخلية، فيـما أقاليم وقطاعات كاملة قد تبنت المنارات على أنها رموز موحدة. في نيو إنغلاند حلت المنارات محل برج كنيسة القرية في الأهمية الرمزيـة. وبينما يجري ابتلاع أهـل القرى عن طريق الامتـداد المديني، فإن المنارة المعزولة تبرز على أنها رمز للثبات في عالم مقلوب رأسا على عقب[45].

لقـد كان تحديدا عندما لم يصبح للمنارات غرض بحري أن اتخذت هذا الدور الثقافي الجديد. لقد بدا كأن هذه المنارة التي اكتسحب البحر ذات يوم قد أصبحت محوريـة عـلى الأرض، حيث تخدم على أنها مكان سـياحي جاذب وكأداة تحذير لقارات بأكملها. إن الارتباط بالتراث السـاحلي على درجة من القوة اليوم حتى إن أي اقتراحات بتحريك المنشـآت المهددة بعيدا عن البحر يمكن لها أن تثير معارضة عاطفية شديدة. في جزء منه يعود ذلك إلى خوف أصحاب المصالح العقارية من أن أي تراجع عن البحر سوف يقلل من قيمة العقار، غير أن آخرين يرون في التراجع عن البحر علامة على الضعف. إن مثل هذا التحالف أخذ شكله خلال العام 1990، عندمـا أصبحت منارة كيب هاتيراس مهددة بالتعريـة حيث جرى تحديد موعد لنقلها إلى مكان آخر. لم تنقل المنارة سـوى في العام 1999، وذلك لأن العديد من الناس رأوا في التراجع نوعا من الاستسلام للطبيعة الشرسة. لقد قيل إن العديد من الناس كانوا يفكرون في المنارة على أنها «رمز للقوة والثبات وكصرح لقضية أبطال

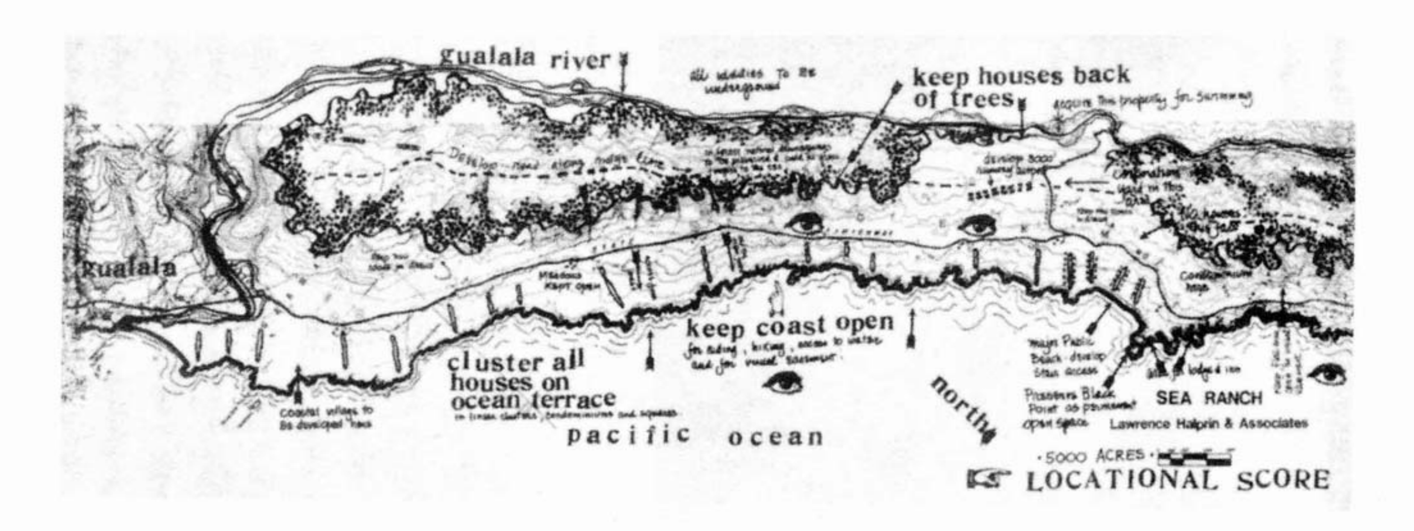
الســواحل، والذيــن... دخلوا في معركة ذكاء مع البحــر»، واعتقدوا أن «الالتفاف، أوالفرار، عن طريق تحريك المنارة سيكون» خيانة[46].



خط تحريك منارة كيب هاتاراس، 1999. الصورة من قطاع نورث كارولينا للطرق السريعة.

خطر في الفردوس

باتت الســواحل التي كانت ذات يوم تقيّم لأغراضها العســكرية، بين أكثر المناطق ســلاما عــلى الأرض في يومنا هذا. هناك نحن ننطلق وننسى كــم يمكن للبحر أن يكون خطــرا. إن جغرافيات المدن الفاضلة (اليوتوبيا)، التــي كانت واقعة في أعماق الأراضي الداخلية إبان القرن التاســع عشر، قد انتقلت بشــكل نهائي إلى الساحل. لقد استقرت جنة عدن على الشــاطئ - ولكن لايزال النــاس يتخيلونها من خلال مصطلحات أرضية تامــة. في الولايات المتحــدة، يقع اثنان من المجتمعات المثالية والتي اكتســبت انتباها خاصا - ســاحل فلوريــدا وSea Ranch «سي رانش» في كاليفورنيا - على الســاحل بيد أنه أنشئ على أسس أرضية تماما. فكلاهما لا يعطي الكثير من الاهتمام لميزات البيئات الانتقالية الخاصة ببيئاتهما الساحلية[47].



منظور المهندس المعماري لورانس هالبرين لمنطقة Sea Ranch، «سي رانش»، من كتابه The Sea Ranch: Diary of an Idea، «سي رانش: مذكرات حول فكرة».

الصورة من الأرشيف الهندسي لجامعة بنسيلفانيا.

من بين الاثنين، يعتبر الساحل الأكثر تقليدية، هو في الواقع مثل الضاحية إلى جانب البحر، لكن مع إزالة كل عيوب الضواحي. إنه مجتمع كثيف البنيان، يرحب بالمشي، ما يخفف من ازدحام السيارات ومن التلوث، غير أنه يقع بعيدا عن البحر على غرار القرى الساحلية القديمة والتي يحاول هذا المجتمع تقليدها. يعد الساحل البحري بفوائد الحياة الساحلية من دون أن يكون ساحليا في أي من صفاته سوى في موقع. سي رانش، من جهة أخرى، هي أقرب إلى المنتجع، لم يكن الغرض منها الإقامة فيها على مدار السنة، غير أنها قريبة بما يكفي من منطقة خليج سان فرانسيسكو لتكون جذابة لعطلة نهاية الأسبوع وللإقامات الممتدة. لا تقدم الرانش خدمة تسوق أو أي خدمات أخرى. يحتل الساحل فقط ثمانية هكتارات من خليج المكسيك، فيما تقع السي رانش على جزء رائع من ساحل مندوتشينو، حيث تمتد على مساحة خمسة آلاف هكتار، وحيث يلتزم كل بيت عليها بقوانين بيئية صارمة للحفاظ على طبيعة الغابات والمراعي. تكمن جاذبيتها في موقعها الممتد على حافة صدع سان أندريس. يصفها صانعوها كالتالي: «إن تجربة الوجود هنا محكومة بتهاوي الأرض باتجاه البحر وكذلك بالنداء المستمر للمحيط... تنجذب العين باستمرار باتجاه الأفق اللامع... إنه الساحل، بشكل رئيسي، الذي يجتذب الناس إلى هنا لمسة البرية المتجسدة بقوة في خط الساحل بحد ذاته»[48].

لم يكن ينتوى للسي رانش أن تكون منتجعا ولا ضاحية «لقد كان الهدف المشاركة في تجربة الخط الساحلي، لا أن يعزل في ملكية خاصة منفصلة»، حتى وإن كانت البيوت ملكيات منفصلة. لقد تعامل رئيس المهندسين، لورنس هالبرين، مع المشروع من منطلق بيئي: «لقد كنت مقتنعا بأنه بإمكاننا أن نتفادى صنع ضاحية أخرى، وفي المقابل نطور مجموعة مجتمعية للأشخاص المتشابهين فكريا، بحبهم للطبيعة ولهذا الموقع تحديدا، والذين بالنسبة إليهم «العيش المسالم على الأرض» هو المبدأ الحاكم». لقد كان عازما ألا يبني على الأجراف فيما أسماه أسلوب «حائط ماليبو». لقد تواصل من خلال تصميمه مع هنود البومو ومع مربي الماشية والذين كانوا موجودين هناك قبله، حيث كانت تصاميمه تتبع تلك التي للمجتمعات الزراعية الأولى في نيوإنغلاند، والتي تخيلها هو (على نحو خاطئ) أنها كانت موزعة حول حديقة عامة. لم تكن هي البرية التي كان هالبرين ومساعدوه

يسعون إليها، بل مكان حيث يمكن للبشر والطبيعة أن يتعايشا. «لقد أصبحت مقتنعا بأن سي رانش من الممكن أن تصبح مكانا حيث الطبيعة البرية والموطن الإنساني يمكن لهما أن يتفاعلا فيما يشبه التعايش التكافلي القوي حيث يمكن للبيئة الانتقالية أن تسمح للناس بأن يصبحوا جزءا من النظام البيئي». في تناقض مع المدن المثالية الأرضية السابقة والتي تأسست على العمل المشترك، الذي كان يجب أن يوحد سكان السي رانش هو المشهد الطبيعي المشترك، أو لأكون أكثر تحديدا، نظرة مشتركة للمشهد الطبيعي، هذا «الأفق اللامع» الذي تحدث عنه هالبرين في مخططه الأصلي. وفيما جرى بذل كل جهد ممكن حتى لا يجري إزعاج الطبيعة في هذا المكان، فإن استثناء واحدا كان مسموحا به هو: قطع الأشجار التي كانت تعيق منظر البحر أمام الأعضاء[49].

مرة أخرى ها نحن نأتي أمام حالة تفضيل للنظر فوق كل الحواس الأخرى. كان أصحاب السي رانش مهتمين أقل الاهتمام بوجود منفذ للبحر. لم يجر بناء أي موانئ أو مراس، حيث كان البحر أبرد من أن يسمح بالسباحة. إن المخططات الأولية لم يكن فيها حق مرور للعامة إلى الساحل بحد ذاته، وهو الشيء الذي خالف القوانين الساحلية لكاليفورنيا وعطل بناء مزيد من العقارات هناك لمدة 8 سنوات وذلك حتى جرى الاتفاق على حقوق العامة. في النهاية، كان هالبرين بحد ذاته محبطا بسبب الدرجة التي انتصرت بها المصالح الخاصة وضمر بها إحساس «المجتمع الترفيهي الخارجي الطبيعي المنحى». إن المشهد البحري المشترك، في غياب أي ارتباط جماعي حقيقي مع البحر بحد ذاته، هو غير قادر على تكوين مجتمع أو شعور قوي بالارتباط بالمكان، حيث إن «المشهد الطبيعي يرى: المكان يختبر ويعرف»، كما يذكرنا الكاتب الإنجليزي آدم نيكولسون[50].

لا شك في أن علاقة أصحاب سي رانش مع ساحلهم ليست فعلا مختلفة عن تلك التي لسكان أي منتجعات ساحلية أخرى ومجتمعات سكنية أخرى والتي تحتل الآن الساحل بطوله حول العالم. إن اللافتة التي صادفتها أنا في زيارتي هناك - لا تدر ظهرك إلى المحيط أبدا - لا تختلف بأي شكل من الأشكال عن الأخرى المنصوبة في أماكن أخرى. بالنسبة إلى العامة الذين ليست لديهم أي تجربة حقيقية مع البحر، المخاطر القادمة من تقاطعات التيارات والأمواج العنيفة حقيقية جدا. فبخلاف

مئات الآلاف الذين قضوا في أعاصير التسونامي، فإن المئات يغرقون كل سنة حتى على السواحل المحروسة بموظفي إنقاذ، فكلما كان الساحل أكثر جاذبية، تعاظمت المخاطر. يجري بشكل منتظم جرف الناس من على الصخور على حافة حديقة أكاديا العامة في ماين. فقط عبر الساحل على جزيرة Great Gott أو غريت غوت، وهو المكان الذي اصطفت فيه لمدة ربع قرن، وفي 23 أغسطس 2009 شهدنا موجة عنيفة تكونت بسبب إعصار بيل مئات الأميال عبر الساحل. لقد وصلت الموجة في عصر يوم صاف وحطمت الكوخين الواقعين على جرف البحر. لم يقتل أي من جيراننا، غير أنه في اللحظات القليلة اللاحقة، وعندما وصلت الموجة نفسها عند أكاديا، حدثت المأساة. كان الآلاف من الناس مجتمعين عند منطقة ثندر هول Thunder Hole الشهيرة لمشاهدة راكبي الأمواج، قد جرف العديد من الناس إلى البحر وغرقت فتاة صغيرة[51].

تدعو نوفا سكوشا نفسها ملعب محيط كندا، بيد أنها لا تمتلك سوى القليل من الشواطئ القابلة للسباحة والعديد من المشاهد المطلة غير الآمنة. عندما يفترض أن يكون جون بيجي الريفي، يجري اعتراض خيالات السياح بطريقة فظة عن طريق لافتة تقول:

إنذار

الإصابة والموت كانا مكافأة للسواح المستهترين هنا

إن المحيط والصخور غداران

استمتع بالبحر من على مسافة[52]

إن الشعوب الساحلية القديمة لم تكن أبدا بحاجة إلى التذكير بمخاطر البحر. وكما رأينا سابقا، فإن سكان جزيرة الأمير إدوارد كانوا حذرين من «ملاحقة الساحل» تحت أي ظروف جوية. لطالما اعتقد صيادو السمك والبحارة بقوى المحيط المدمرة المميتة. في الماضي، كانت الشواطئ مغطاة بحطام السفن، memento mori، والتي منها جرى اختلاق العديد من القصص التحذيرية. تجري هندسة الشواطئ العدنية (من جنة عدن) اليوم، مثل السفن السياحية الراسية عبر الساحل، بحيث تخفي الخطر الحقيقي وتصدر وهم الأمان. غير أن المخاطر القادمة من البحار

تظل مؤكدة، ومع كل تسونامي، إعصار، أو تسرب بترولي، يظهر على السطح الوعي بقواها في إيقاع الفوضى بأقوى الحضارات. اليوم، حطام السفن على السواحل أصبح أمرا نادرا، غير أن كابوسا جديدا يختبئ عبر الساحل. في تسعينيات القرن العشرين، بدأت تقارير في الظهور حول حاويات ضخمة وناقلات نفط عملاقة اختفت ببساطة ومن دون أي أثر. السبب، على ما يبدو، هو ارتفاع نسبة العواصف المحيطية والتي أنتجت أمواجا عنيفة يبلغ حجمها أكثر من مائة قدم ارتفاعا. في العام 1995 ضربت سفينة الملكة إليزابيث الثانية بموجتين يبلغ ارتفاعهما خمسا وتسعين قدما. بالنسبة إلى قبطانها، رونالد وارويك، «بدا كما لو أن السفينة كانت تتجه مباشرة إلى الأجراف البيضاء في دوفر». الآن يواجه البحارة أسـوأ مخاوفهم ليس على حافة البحر بل في مكان لطالما اعتبروه آمنا نسبيا: منتصف المحيط[53].

خاتمة تعلم العيش مع السواحل

أخيرا وجد الإنسان، كذلك،
طريقه عودةً إلى البحر.

راتشيل كارسون، البحر من حولنا[1]

على مدى نصف القرن الماضي كان هناك تدفق في اتجاه الساحل، والذي بسرعته وكثافته ينافس أيا من الهجرات العظيمة في التاريخ البشري. اليوم نصف سكان العالم يعيشون على بعد 120 ميلا من البحر. بحلول العام 2025 يقدر أن تبلغ النسبة 75 في المائة. في الولايات المتحدة 54 في المائة من السكان يعيشون فيما تعرف بأنها دول ساحلية، على بعد 50 ميلا من البحر، ويصل 3600 إنسان إلى الأقاليم الساحلية كل يوم. في كاليفورنيا 80 في المائة من سكان الولاية يعيشون على بعد 30 ميلا من الساحل. إن المناطق المعرفة

«لم يكن هذا التدفق في اتجاه البحر متوقعا»

على أنها ساحلية تشكل 15 في المائة فقط من منطقة أراضي الدولة، والذي يعني أنها ثلاث مرات أعلى كثافة سـكانية عـن الأراضي الداخلية. نحن معتادون على المحيطات وهي تصطدم بالساحل، ولكن الآن ولأول مرة هي موجة بشرية تلك التي تتدحرج في اتجاه البحر[2].

في القرن التاسع عشر، قطع الملايين المحيطات ليسكنوا أراضي جديدة. ولأنها مجهزة بالقنوات وسكك الحديد، قطع الناس المسافة سريعا إلى الأراضي الداخلية، مديرين ظهورهم إلى البحر، تاركين أقل الأثر على السـاحل، وذلك بخلاف مرافئ دخولهم. اليوم، المداخل مثل جزر أليس وأنجيل Ellis and Angel، تعتبر مواقع حج بالنسبة إلى سلالات هؤلاء الذين دخلوا منها. بيد أن هذا التسونامي البشري الجديد الذي يتحرك من المناطق الداخلية إلى السـواحل لا يحتاج إلى جواز سفر أو تأشـيرة دخول. إن معظم الهجرات الجماعية خلال التاريخ كانت غير إرادية، حدثت بسـبب الحاجة أو الحرب، وارتبطت بالقـدر أكثر من ارتباطها بالحرية. غـير أن هذه الهجرة مختلفة، حيث إنها مدفوعة بالرغبة، بقدر ما هي مدفوعة بالحاجة. حتى قريبا استمرت هذه الهجرة بشكل غير ملحوظ، غير أنه لا الهجرة ولا آثارها على الساحل يمكن تجاهلها بعد اليوم[3].

بكل تأكيد، يعود الناس إلى السـاحل لعدد مختلف من الأسـباب. إلى حد بعيـد فإن الأعداد الأكبر تنجذب إلى المدن الضخمة، مثل بانكوك، وشـانغهاي، ولاغـوس. تلك بدأت على أنها مرافئ، غير أنها لم تعد بحرية في أي من صفاتها سـوى موقعها. هناك يوجد عدد من مراكز الإنتاج أقل من مواقع الاسـتهلاك. اختفت مدن البحارة بشكل كبير، حيث تزدحم الآن الواجهات المائية بالأسواق التجارية والمباني السـكنية. توظف صناعة صيد السـمك أعدادا أقل فأقل من النـاس، حيث انتقل الشـحن إلى مرافئ جديدة بعيدة تمامـا عن المدينة بحد ذاتها. يعزى إلى اكتشافات البترول والغاز عبر الساحل شيء من النمو الساحلي، كما يعزى إلى المقرات العسـكرية، بيد أن المدن الواقعة بجانب البحر سـتقدم - على الأرجح - وظائف في سـلك الخدمة العسـكرية عن الوظائف في القطاع الصناعـي. إنها السـياحة، أكبر جهة توظيفية مفردة في العالم، والمسـؤولة عن النمو الكبير للمجتمعـات البحرية الصغيرة. يبدو الوضع كأن العوالم قد قلبت

ظهرا لبطن، حيث حواف الجزر والقارات حلت محل الأراضي الداخلية كمراكز للجاذبية الديموغرافية.

في عصر الأملاك العقارية

لم يكن هذا التدفق في اتجاه البحر متوقعا. لقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تناقصا سكانيا على السواحل وعلى الجزر الساحلية، عندما جرى مكننة صيد السمك والشحن البحري. إن التسونامي البشري الحالي بدأ بقطرات قليلة، وكانت مقدمته مكونة من سكان الأراضي الداخلية الأغنياء والذين وصلوا في البداية كسياح موسميين، ومن ثم بدأوا في اقتناء العقار. لقد رأينا كيف أن هذه الطبقة الراقية قد قضت أغلب نهاية القرن التاسع عشر في تنظيف السواحل من الأشخاص الأدنى، حيث بنوا مقاطعاتهم الخاصة، مبقين الطبقات الاجتماعية المتدنية على بعد منهم. لقد جعلت أخيرا السكة الحديد، ومن بعدها السيارات، السواحل في متناول يد الطبقات الوسطى المدينية، بيد أنه، وحتى أواخر القرن العشرين، كانت منافذ الطبقات العاملة محدودة بسبب النقص في المال ووقت الفراغ.

إن هذا البعد الطبقي لم يمر بسلام؛ ففي العام 1928 قال جي. سبينسر سميث، رئيس مؤسسة حماية السواحل والشواطئ الأمريكية: «كان هناك زمن، فقط منذ سنوات قليلة مضت، عندما كان يمكن لقلة مميزة نسبيا أن تزور ساحل نيبتون القديم». لقد كان سعيدا لأن يعلن أن «النظام القديم قد تغير، على أي حال، واليوم تنتمي واجهات المحيطات إلى الجموع الكبيرة». كان سميث يتكلم عن سواحل نيوجيرسي ونيويورك التي أصبحت مناطق شهيرة بحلول العام 1920، وذلك ليس فقط خلال الأصياف وعطلات نهاية الأسبوع. خلال الحرب العالمية الثانية، عندما رأيت - ولأول مرة - البحر من على رمال مدينة أتلانتك، توقفت الحركة تجاه البحر حين أصبحت الشواطئ خطوط الدفاع الأولى في كل مسرح حرب، ومحظورة على المدنيين. بعض السواحل، مثل ساحل البلطيق، بقيت مأهولة بشكل قليل خلال عصر الحرب الباردة، بيد أن خمسينيات القرن العشرين وستينياته شهدت تسارعا في عجلة التطوير التي تخيلها سميث. لقد

تبنت مؤسسته مصالح المستثمرين الساحليين، وملاك المنتجعات، ومتعهدي عوالم الترفيه التي بدأت في البروز في أمريكا، والذين أصبحوا يقدرون الآن قيمة جذب جموع من الطبقة الاستهلاكية. من وجهة نظر سميث، يشجع الشاطئ ليس فقط الازدهار، ولكن كذلك التوافق الطبقي «لن تستطيع الشيوعية، أو الاشتراكية، أو أي حركة ism(*) أخرى أن تؤمن أبدا موضع قدم لها في هذه الدولة مادامت الجموع البشرية أُعطيت الفرصة للتمتع بهبات الطبيعة العظيمة في الحدود المسموح لهم بها»[4].

سيتم تعيين هذه الحدود بصرامة، مع ذلك. تقليديا، كان الساحل أسفل خط المد الأعلى مفتوحا للعامة. إن الخط الذي كان مرسوما بين المحيط العام والأملاك الخاصة يختلف مكانه وفق الزمان والمكان، فقبل زمن مراقب الأبنية، كان هذا الخط يُحدَّد عن طريق الأعراف وموافقة المجتمع على قدر ما كان يحدد عن طريق القانون. الآن، خلال ما تسميه روث مور زمن العقار، أصبحت الحدود واضحة المعالم، حيث أصبحت العقارات الساحلية سلعة، واستثمارا جذابا جدا، ومكانا يتطلع فيه الشخص إلى ارتفاع ثروته على حساب البيئة[5].

لطالما سعت مؤسسة حماية السواحل والشواطئ الأمريكية The American Shore and Beach Protection Association وبنجاح من أجل هذا النوع من ترميم الشاطئ، غير أنها كانت حريصة على أن تحصر العامة على الرمال. إن مناداتها الشعبية من أجل حق الاستخدام العالمي للشواطئ تخفي حقيقة أن هذه المؤسسة تعارض أي قانون قد يتعدى على حقوق ملاك العقار، من أشخاص وشركات، والذين يشكلون قاعدة أعضائها. تدافع المؤسسة عن حقهم في بناء الحوائط البحرية وحواجز الأمواج التي تسهم بشدة في تعرية الشاطئ والتي تخلق حاجة شديدة إلى تجديد الرمال عليه. من المرضي للمؤسسة تماما أن تجعل دافعي الضرائب يسددون الفاتورة من أجل برامج الحماية والتجديد التي كانت عالية التكلفة وعديمة الفائدة بشكل كبير. كما أنها تعارض باستمرار نوعية التخطيط الذي قد يصل إلى جذور المشكلات الحقيقية للتعرية الساحلية[6].

(*) إشارة إلى كل الكلمات التي تنتهي بهذه الحروف، والتي تعبر عن نظريات فكرية قد تتحول إلى حركات أيديولوجية على أرض الواقع. [المترجمة].

يأتي بنا ذلك إلى صلب موضوع المشكلات الساحلية اليوم، والتي هي تداعيات ليست للأعداد الضخمة للسكان الساحليين بقدر ما هي تداعيات للطريقة التي يعيشـون بها على السـاحل. لقد تناقصت أعداد السـكان السـاحليين القدامى من المزارعين صائدي السـمك والبحارة إلى أقليـة صغيرة. كما أن هذا الجزء من الساحل الذي طالما خدم على أنه واجهة بحرية عاملة قد جرى تحجيمه بالصورة ذاتها. في ماين، على سـبيل المثال، لا يخدم سـوى 25 مـن أصل 5300 ميل من الساحل البحري الأغراض عامة بعد الآن. تحولت البقية إلى أملاك خاصة، الكثير منها إلى عقارات سـكنية نخبوية. إن حماية هذه الأملاك تأخذ أولوية فوق كل الاعتبارات الأخرى ـ قبل كل شيء، فوق الطبيعة الحيوية للسـاحل، وهو المكان الحي الذي تتخذ فيه المخلوقات موطنا لها عليه، بما فيها نحن.

إن الوعي العام بالتغييرات المناخية، وبارتفاع مسـتوى البحر، هو الآن وعي قـوي حتى أنه من الصـادم معرفة أن هذه المواضيع لم تكـن حتى تُناقش قبل ثمانينيات القرن الماضي. إن المعلومات الموثقة حول تاريخ مسـتويات البحر أكثر حداثـة من ذلك التاريخ، ولاتزال جدا غير مكتملة، خاصة بالنسـبة إلى العصور الأقـدم. يمكننـا أن نكـون متأكدين جدا أنه خـلال الفترة التي تسـمى العصر الجليدي الأصغر، 1350 - 1850، كانت مستويات البحر مستقرة نسبيا. ثم بدأت البحـار في الارتفاع حوالي ملليمترين كل سـنة لمدة قرن تقريبـا. الآن ارتفعت هـذه النسـبة إلى 3 ملليمترات لكل سـنة عندما بدأت كتـل الجليد والصفائح الجليديـة في الذوبان، يرفع الاحتباس الحراري من درجات حرارة البحر وكثافته، كما تغيرت أشكال الأحواض المحيطية. الآن أصبح المستقبل عصيا على التنبؤ، كما أن تقديرات ارتفاع مسـتويات البحر، وصولا إلى سـنة 2100، قد تباينت إلى حد كبير. العلماء الدقيقون يعتقدون أن أقل ارتفاع ربما يكون 0.9 متر، وأكثره يكون مترين. تعـد هذه القراءات منخفضة جدا مقارنة بالعديد من التنبؤات المقلقة، غير أنه عندما يكون ارتفاع مستوى البحر مصحوبا بارتفاع في النشاط العاصفي، وتغييرات في كل من الأرض والبحر بسـبب الاحتباس الحراري، سـيصبح الـتأثير عنيفا جدا، خصوصا بالنسبة إلى الـ 100 مليون إنسان الذين يعيشون فقط على ارتفاع متر من مستوى البحر[7].

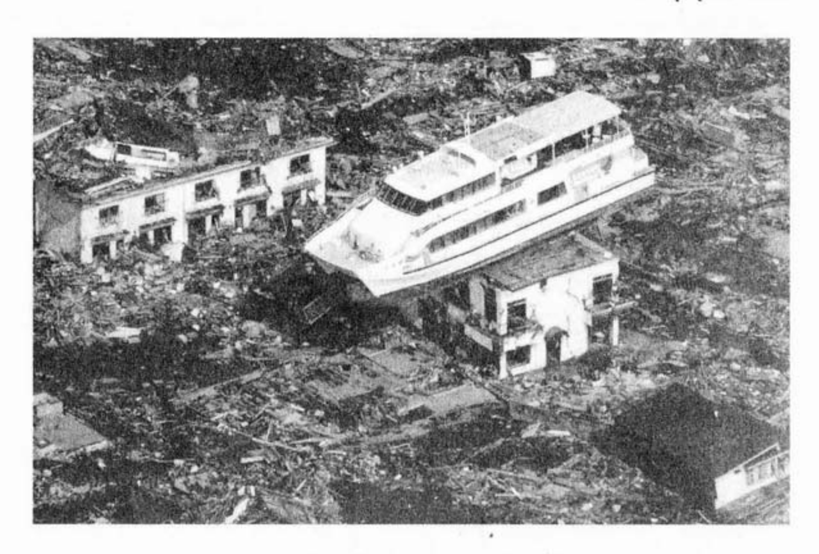


اشتعال عاصفة إبان إعصار كارول، 1969، حين جرفت نادي اليخوت في رود آيلاند.
الصورة من المكتبة المصور لـ NOAA

إن تأثيرات التغير المناخي حقيقية جدا، بيد أن السواحل كانت في محنة قبل الارتفاعات الأخيرة في مستويات البحر بوقت طويل، وذلك بسبب عوامل إنسانية وطبيعية مجتمعة. لقد وصل التنقيب عن النفط إلى الشاطئ قبل أن يتعداه. إن عمليتي التجفيف والردم للأراضي الرطبة كانتا مستمرتين على مدى قرون، حيث شغلت الجزء الأكبر من القرن الماضي تقريبا. اليوم، 70 في المائة من أراضي العالم الرطبة قد اختفت. في الولايات المتحدة، الخسارة أعظم في الواقع: 80 إلى 90 في المائة.

إن تسليح السواحل الذي كان المقصود به حماية السكان الساحليين، قد أنتج شعورا كاذبا بالأمن. في اليابان، على الرغم من أن 65 في المائة من سواحلها

المكشـوفة محمية بالحوائط البحرية، أو مؤمنة بطرق أخرى، فإن شيئا لم يستطع إيقاف التسـونامي العظيم الذي وقع يوم 11 من مارس من العام 2011. في تارو، شـعر الناس الواقفون على قمة حائـط المدينة البحري الضخم بأنهم في أمان، غير أنهـم جُرِفوا جميعا. في اليابان، تعني كلمة تسـونامي «موجة الميناء»، ومن نواح عديدة رفعت هندسة الموانئ الحديثة من السرعة التدميرية لهذا الجيشان الأخير. لطالما اشـتكى الصيادون من أن بناء الحوائط البحريـة حد كثيرا من قدرتهم على رؤية الأمواج القادمة. كذلك، قللت الحوائط البحرية من وعي السكان الساحليين بالبحر عموما. إن وعي العامة بالتاريخ البيئي ضحل في كل الأحوال، إذ إن القليل من قرى صيد السمك اليابانية لاتزال تحتفظ بذكريات لعواصف تسونامية سابقة. غـير أن هـؤلاء الذين فعلوا كان لديهم سـجل أفضل في الإخـلاءات الناجحة عن هؤلاء الذين نسـوا الماضي. هناك سـواحل ضخمة لا بد من تعويضها عما أسـماه بيـتر كان «فقدان الذاكرة البيئي عبر الأجيال»، والتي تمنعنا من معرفة ليس فقط الأسـباب طويلة الأمد للانحدار، ولكن كذلك الطرق التي نستطيع بها التأقلم مع هذه الأسباب[8].



نتائج التسونامي الياباني، 2011، الصورة ليوموري شيمبون،

الصورة مقدمة من Getty Images

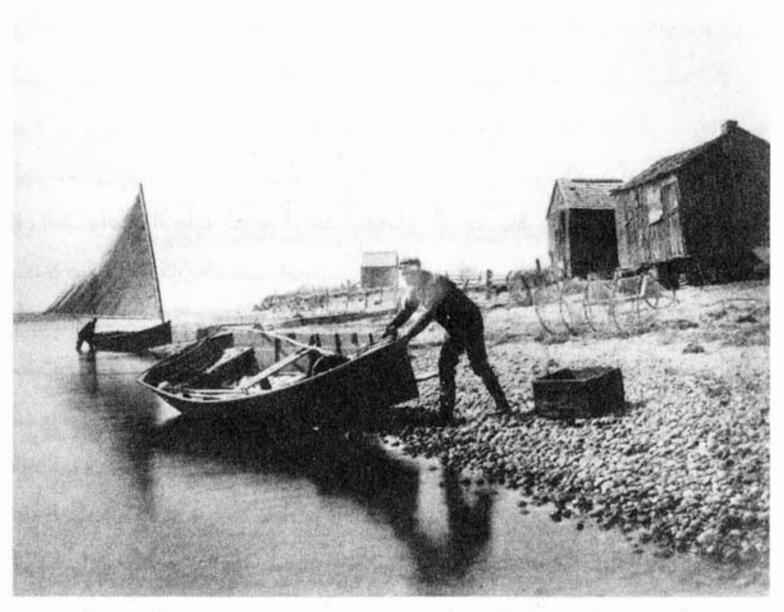
التعلم من الماضي

كل طفل في المدرسـة يعلم اليوم أن مياه البحر آخـذة في الارتفاع، غير أن القليل يعرف أي شيء عن الطرق المتعددة التي تكيف بها جنسنا، غالبا بنجاح، مع الحوادث الأولية للفيضانات. إلى اليوم، هناك نقاشات عامة حول التقليل من التأثيرات الإنسانية في التغـيرات المناخية أكثر بكثـير من تلك التي تدور عن الاعتبـارات الجادة للتكيف معها. بلا شـك، لا بد للاثنتين أن تتحركا يدا بيد، بيد أنه من الضروري أن نأتي بالماضي إلى طاولة الحوار مع الحاضر والمسـتقبل. فخلال المليونين ونصف المليون سنة الأخيرة، كانـت هناك تذبذبات في مسـتوى البحر تصل إلى 500 قدم. فقبـل نهاية آخر عصر جليدي، فقط منذ عشرة آلاف سنة مضت، كانت المحيطات أقل انخفاضا بمعدل 400 قدم عما هي عليه اليوم. وكما رأينا مسـبقا، فإن الفيضانات يمكنها أن تشجع تحركات سـكانية ضخمة، وتسبب تغييرات جذرية في أسـاليب الحياة. في الإقليم الذي نسميه الآن هولندا حدث ذلك مرات عدة في الأعوام 1170، و1362، و1703، و1916، و1953. حول العالم كله هناك قوائم مطولة من الفيضانات ومن المدن التي فُقِدت في البحر[9].

بيـد أن التاريخ لا يزودنا بقائمة الكوارث فقط، ولكـن كذلك بدروس بناءة حول التكيف الإنسـاني. فمنذ الأزمنة البعيدة، عاشت الشعوب الساحلية حياة برمائية فوق الكومات أو مثل عرب الأهوار، على جزر عائمة مصنوعة من القصب. وكما رأينا سابقا، فإن أسلافنا الساحليين، الأمريكيين الأصليين والأوروبيين، أدركوا ضرورة عدم البناء على قرب كبير من الماء. لقد خيم الأوروبيون - كما فعل صيادو السـمك الرحل الأصليون - على الساحل عوضا عن الاستقرار عليه. وحتى عندما بنوا أماكن للمأوى، فقد صنعوها بحيث يمكـن تفكيكها وإزالتها بشـكل سريع. لقد تعلم صيادو السـمك الأوروبيون القادمـون من شرق لونـغ آيلاند، والذين وصلـوا في أواخر القرن السـابع عشر، أين يقيمـون مخيماتهم مـن الأمريكيين الأصليين الذين كانـت تجمعهم بهم علاقة طيبة في البداية. لقـد قام البيض، المعروفون باسـم Bonackers، باصطياد الحيوانات، كما اصطادوا السـمك بطرق مشـابهة لتلك التي كان الهنود يسـتخدمونها. حيث كانت هاتان المجموعتان تتزاوج كل منهما من الأخرى أحيانا. لاحقا، عندما جمعوا بين صيد السـمك والزراعة، بنوا على أراض أكثر ارتفاعا، ولكنهم استمروا إلى وقت متأخر، حتى ثلاثينيات القـرن العشرين، في الاحتفاظ بالأكواخ الجاهزة بالقرب من السـاحل، لقد

كانوا يصطادون السمك من الشاطئ، وذلك عن طريق إطلاق مراكبهم مباشرة في اتجاه الأمواج. يتذكر القدامى أن أكواخ البوناكيريين كانت تُفَكَّك خلال فصل الخريف، حيث كانت تُخزَّن حتى موسم صيد السمك القادم. وتُزال في حال هددتهم العواصف[10].

لطالما كانت السواحل الرملية، كتلك التي في لونغ آيلاند، دائمة الحركة، مترقرقة وحية. إن البوناكريين، مثل بيل ليستر، يدركون تماما طبيعة البيئة التي يسكنونها. «لا شيء سوى خط رملي صغير»، كانت تلك هي الطريقة التي وصف بها ليستر لونغ آيلند. عندما جرت مقابلته خلال سبعينيات القرن العشرين، عبر عن قلقه المسبق بشأن تبعات تطوير الشاطئ: «لايزال هناك كثير من المساحة في الغابات يمكن للناس أن يبنوا عليها. عوضا عن ذلك فقد هبط هؤلاء إلى الساحل واحتلوا رمالنا. نعم، شاطئنا الرملي. الآن وقد تجمعت الرمال قادمة من المحيط على مدى آلاف السنوات. والآن هم يمتلكون منازل كبيرة على طول الشاطئ. يجب ألا تكون هناك منازل حيث جرف البحر الرمال على مدى كل هذه السنوات»[11].



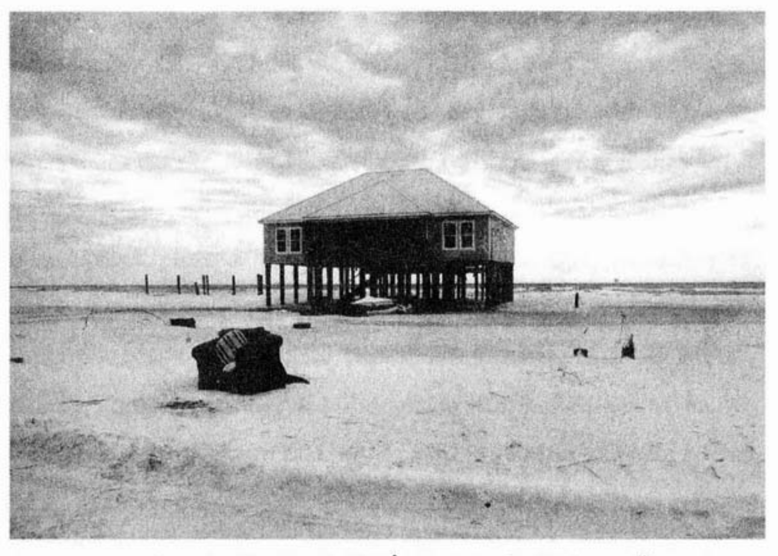
أكواخ صيد السمك على ساحل لونغ آيلاند، 1902، يظهر في الصورة القبطان جاشوا فورنيير.

الصورة لهال بي. فوليرسون. الصورة مقدمة من الجمعية التاريخية لمقاطعة سفلوك.

إن قطعــة الأرض الطويلــة الرملية، في الركــن الجنوبي الغــربي لكيب كود، والمعروفة باسم جزيرة مونوموي، تحكي قصة أخرى عن التكيف، في هذه الحالة قصة تراجع إستراتيجي. في أوقات ما كانت تلك شبه جزيرة، في أوقات أخرى كانت جزيرة واحدة أو جزرا متعددة. لقد كانت المكان الذي يتردد عليه الباحثون عن حطام السفن، وذلك قبل أن تجتذب صيادي السمك في العام 1710. لقد تفادى هؤلاء ميناء ريك لمصلحة منطقة باودر هول، حيث أسســوا قرية صغيرة تدعى وايتواش. في خمســينيات القرن التاسع عشر، عندما كان المدخل إلى باودر هول مسدودا بالرمال المتحركة، كان السكان إما يهجرون منازلهم، وإما كانوا ينقلونها عبر الســفن إلى الأراضي الرئيسية. لاحقا، حول المصطافون المنازل المتبقية إلى ما يخــدم أغراضهم، بيد أنه وبعد أن أصبحت مونوموي ملجأ عاما للحياة البرية في العــام 1970، هُدِمت المنازل المتبقية بعد وفاة أصحابها. اليوم، فقط مركز منارة مونوموي القديم هو المتبقي[12].

لم تكــن مثل هذه التراجعات الإســتراتيجية استســلاما للطبيعة بأي شــكل، ولكنها تكيف منطقي مع ما أســماه الهولنديــون «الذئب المائي». كانت هولندا تبني الجزر الاصطناعية منذ العصور الرومانية، لكنهم كذلك عرفوا قيمة الكثبان بوصفهــا مصدات، حيث كانوا حريصين على ألا يتعدوا عليها. وعليه، عندما قدم الهولنديون إلى أمريكا الشــمالية، في القرن الســابع عشر، فقــد أداروا ظهورهم إلى الشــواطئ الرملية للونغ آيلاند، مفضلين أن يســتقروا بجانب نهر الهدسون بــدلا من ذلك. كان شــعب الموكــن في تايلاند، المعروفون بالنســبة إلى جيرانهم بأنهم «شــعب بحري»، متناغمين بدقة مع علامات التســونامي في العام 2004، حيث تمكنوا من الهرب إلى الأراضي الداخلية في حين غرق 175 ألفا آخرون. على ســواحل بيرو وكولومبيا، تبنى قرى صيد السمك الآن على أساس إمكان تحريكها للخلف في حال تهديد الفيضانات. في ألاســكا، تفكر شعوب الإنيويت في التراجع عن الساحل، والشيء ذاته صحيح بالنسبة إلى أهالي القرى في دلتا النيجر في غرب أفريقيــا. في أكثرجزر العالم ضعفا وانكشــافا، جزر المالديــف، بدأ الناس فعليا في الانتقال إلى الأراضي المرتفعة، كما أن الحكومة تشــتري أراضي في الهند وسريلانكا تحســبا لعملية إعادة اســتيطان ضخمة. في فينيســيا التــي يهاجمها الانخفاض

والارتفاع في مســتويات البحر، حيث تســبب ذلك في جعل ميدان ســانت مارك مغمورا بالمياه على مدى ثلث الســنة، انخفضت نســبة السكان مقدما وبشكل كبير، كما أن هناك بعض الحديث عن إخلاء نهائي للمدينة. في هذه الأثناء يفكر البريطانيــون في الهجر الانتقائي لأجزاء محددة من خطهم الســاحلي، وإن أسرع خصومهم في تسمية ذلك «الخيار الاستسلامي»[13].



آثار التعرية الساحلية، جزيرة دوفين، ألاباما، نوفمبر 2005، الصورة مقدمة من Center for Land Use Interpretation، مركز مفاهيم استخدام الأراضي.

إن فكــرة المنزل القارب قديمة، على الأقل، قدم ســفينة نــوح. فكثيرا ما لجأ النــاس وحيواناتهم إلى البحــر، عندما لم يعد لهم مكان عــلى الأرض. إن عملية اســتعمار الهادي قد استمرت بهذه الطريقة، وهي مستمرة في أجزاء عديدة من آســيا اليوم. على الســاحل الغربي لأمريكا الشمالية، في القرن التاسع عشر، كانت المســاكن المؤقتة تعوم على جذوع أشــجار ضخمة، حيــث قدمت مأوى لآلاف من الحطابين. لقد اســتمرت البيوت العائمة في تقديم سكن رخيص في فانكوفر، ســياتل، بورتلاند، وخليج ســان فرانسيســكو. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أصبحــت تلك منتشرة بين البوهيميين والهيبيين (ســكان الميــاه بوضع اليد). في

أماكن مثل سوساليتو. ولكن بحلول العام 1970 دفعت سمعة هؤلاء، بأنهم ملوثون للمكان وقبيحو الأشكال، بالمدن - بما فيها فانكوفر - إلى إزالتهم من على واجهاتهم المائية. ومع ذلك، فإن مجتمعات بيوت القوارب المرتفعة المستوى والمجهزة بأنظمة المجاري الخاصة بها لم تستمر فقط، ولكنها ازدهرت في أماكن مثل بحيرة يونيون في سياتل ومرسى قرية البحر في فانكوفر. عندما انتقل ستانلي ودافني بيرك إلى قرية البحر في العام 1978، فإنه قدموا أسبابهم المنطقية «نحن جميعا أتينا من الماء، في النهاية، ومن المريح البقاء بقربه»[14].

يعود الناس إلى البحر بأحلام كبيرة وصغيرة. في ميناء نيويورك، بدأت تطفو فكرة وحدات السكن الصحية بيئيا والتي تدعى Waterpod أو الحجرة المائية، فيم جرى إطلاق مشروع البدائل البحرية الفخمة على الساحل الغربي. تقدم مؤسسة البدائل البحرية التي أُسست في العام 2008، من قبل متعهدي وادي السيليكون التحرريين، رؤية لجبهة محيطية لأمم سيادية عائمة فوق الماء، متحررة من قوانين كل من البحر واليابسة، أماكن يمكن فيها تجربة الأفكار الجديدة. وكونها مستوحاة من الحفارات والسفن السياحية الواقعة عبر الساحل والتي ليس بها مرافئ تعود إليها، فإن هذه البدائل البحرية ستعيش في البحر ، على الرغم من ذلك، من دون أن تكون مرتبطة به بأي صورة عدا في الموقع. تعود البدائل البحرية إلى البحر في صورة متحررين معزولين عن العامة كما عن الأراضي الرئيسية. إن هؤلاء ملهمون أكثر عن طريق آين راند(*) منهم عن طريق راتشيل كارسون(**). هم لا يدخلون إلى البحر ذهنيا ولا خياليا، فحلمهم ليس حلما بيئيا ولكنه سياسي. من معظم النواحي يبقى هؤلاء ملاك أراض[15].

تعكير المياه

ليس هناك من سفينة فسيحة بما فيه الكفاية لكي تضم المليارات من البشر الذين قد يجري تهجيرهم بسبب التعرية الساحلية والفيضانات. الذي نحتاج

(*) Ayn Rand (ت. 1982): أديبة ومفكرة أمريكية من أصل روسي، عالجت في كتاباتها فردية الإنسان، وأهمية الإدراك العقلاني للذات، باعتباره طريقا إلى الحياة الأخلاقية. [المحرر].

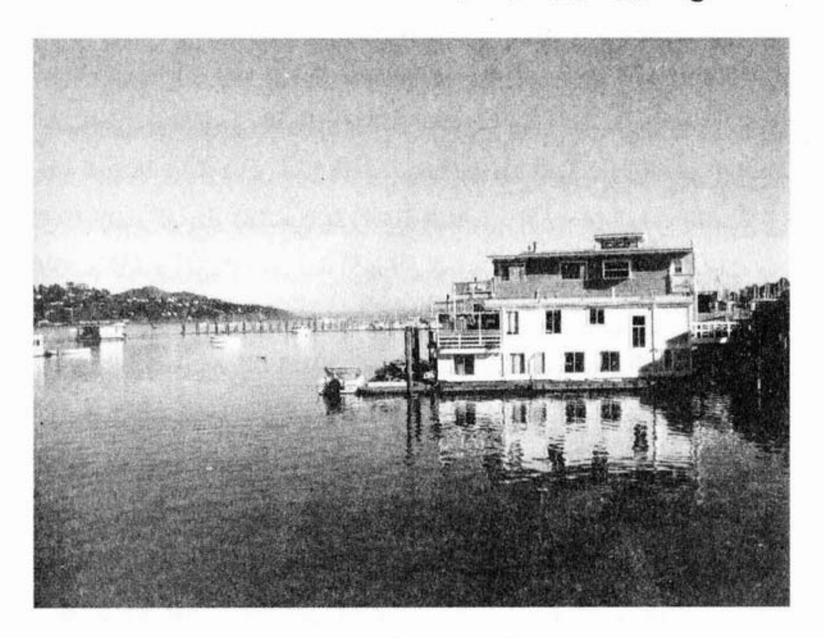
(**) Rachel Carson (ت. 1964): عالمة أحياء بحرية أمريكية، أسهم كتابها «الربيع الصامت» في تحفيز الحركة البيئية العالمية. [المحرر].

إليـه فعليا هو إعادة تفكير جوهرية، ليس فقط بشـأن كيـف نبني نحن على السـواحل ولكن لمـاذا نبني؟ لن نتمكن نحن من هندسـة طريقنا للتخلص من نقـاط ضعفنـا الحالية، بيد أننا نسـتطيع أن نعيد النظـر في العلاقة بين الأرض والبحر، بحيث نتفهم أن السواحل تشكل بيئة انتقالية مميزة تحتاج إلى أسلوب مختلف تماما في الحياة. إن السـواحل متحركة، وعليه يجب علينا نحن أيضا أن نتحرك من أجل البقاء. لقد كان هناك زمن كانت فيه المباني المتعلقة بالأنشـطة البحرية مباشرة هي فقط الواقعة على السـاحل، في حين أن كل المساكن الأخرى كانـت مبنية عميقـا في الأراضي الداخلية. يبدو أن الوقت قـد حان للعودة إلى هـذا المبدأ المعتدل جـدا. إنها اللحظة الصحيحة كذلك لنبـذ فكرة دفاع الخط السـاحلي، إن كان ذلك في شكل الحوائط البحرية، أو حواجز الأمواج، أو تجديد الشـواطئ، حيث يجب القبول بالدلائل العلميـة وبأن الطبيعة يمكنها أن تؤدي هذه الوظيفة نيابة عنا إن نحن فقط سمحنا لها. لقد تحركت ولاية ماين في العام 1982 لإنهاء كل بناء تسليحي على الخط الساحلي. الآن حان الوقت بالنسبة إلى الأقاليم الأخرى، حيث التعريـة أكبر، لأن تحذو حذو ماين، وتوفر المليارات من الدولارات المهدرة[16].

مـن البداية، وضعت الثقافة الغربية البحر في دور الخصم الشرير. الآن بعد أن توقفت السـواحل عن كونها خط دفاعنا الأول ضد البشر الغزاة، نواجه نحن اليـوم مجموعة جديدة من التهديدات - التسـونامي، الأمواج المتوحشـة، المد الأحمـر - والتي يبدو أنهـا تبرر تدخلاتنا العنيفة. إن التنبـؤ بحالة الطقس هو عملية مملـوءة بالرموز الحربية، كما أن مقاومة تعرية الشـواطئ قد أصبحت في كل مـكان المعادل الأخلاقي للحرب. في أعقاب إعصار كاميل، في العام 1969، أخرج المسيسبيون أعلامهم الأمريكية كما لو أنهم كانوا في معركة. ليس الوضع أن الفيضانات، واندلاع العواصف ليسـت تهديدات حقيقية، ولكن الوضع ينحصر، وحتى هذا الوقت، في أن العديد من وسائل الدفاع ضد هذه الظواهر قد أثبتت عدم واقعيتها[17].

لن تزودنا الهندسـة بأي حلول. ليس المطلوب بأقل من عقلية جديدة تماما، نموذج ثقافي جديد، إذا ما كان لنا أن نعيش ببسـاطة على سواحلنا. لزمن طويل

كنـا نفكر في البحر والأرض على أنهما شـيئان مختلفـان، في حين أنهما، تاريخيا، يشـكلان نظاما سـاحليا حيويا واحدا. يجب أن نتوقف عن رسم الخطوط بحزم وقسـوة، وأن نبدأ في ممارسـة ما دعاه إيفياتار زيرو بافـل «الليونة الذهنية». نحن نحتاج إلى أن نذكر أنفسـنا بأن الطبيعة – في حد ذاتها - لا ترسـم خطوطا أو تخلـق فروقا حـادة. لقد حان الوقت لقبول فكـرة التدفق فيما يعني الزمن والمـكان، حيث مـن الواضـح أن كل جهودنا لتثبيت السـواحل، لكي نضعها في خرائط وجداول، هي غير مجدية. الخرائط جيدة في إظهار بعض الأشـياء، لكنها لا تستطيع تصوير التجربة الإنسانية[18].

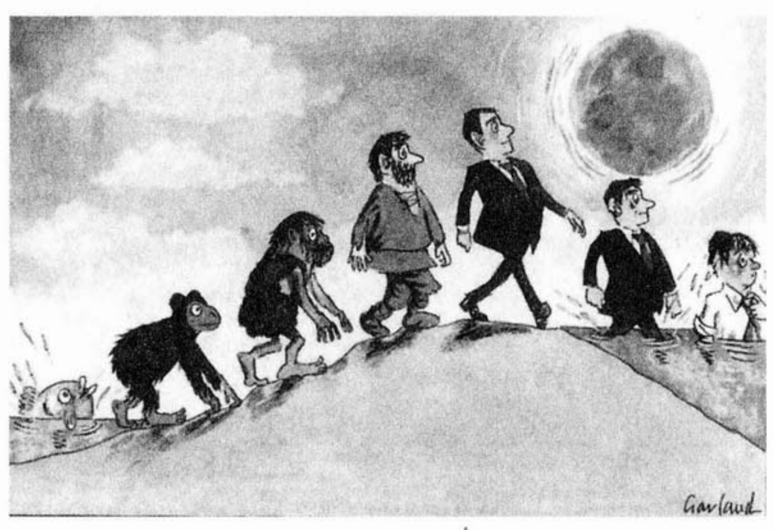


منازل قوارب في سوساليتو، كاليفورنيا، 2004. الصورة مقدمة من ويكيميديا كومونز

يجـب علينا أن نعيـد التفكير، ليس فقـط في علاقـة الأرض بالبحر، ولكن كذلـك تلك التي بين البشرية والطبيعة، بحيـث نتخلى عن الفروق التي تفصلنا عـن المخلوقات الأخرى. يذكرنا والاس كوفمان وأوريـن بيلكي بأنه «ليس هناك مصائب أو كوارث في الطبيعة»، هناك فقط الإجراءات التي هي جزء من أسلوب

الطبيعـة في عمـل التعديلات الخاصة بها. يجـب علينا أن ننتبـه إلى النصيحة المقدمة من فرانسـيس بيكون منذ تقريبا 400 سنة: «لكي تحكم الطبيعة يجب أن تطيعها»[19].

كـما رأينا، هناك مقدار كبير من الخوف وليـس التفهم هو ما يجري تركيزه عـلى البحر ومخلوقاته. نحن نتحدث عن أجناس عدوانية، في حين أننا نحن من خلـق الظروف الملائمة لها لتنمـو في الأماكن التي يود أن يعيش فيها الإنسـان. فمثـل الذئب وأسـد الجبل، يُنظر اليوم إلى أسـماك القرش عـلى أنها غازية، في حـين أن البشر هم الذين يتعـدون على مناطقهم. على بعض السـواحل، جرى إعـلان الطحالب البحرية على أنها عدو، وذلك عن طريق هؤلاء الذين يفضلون شـواطئهم نظيفة وخالية من كل شـوائب، في حين أنه في الحقيقة، وعلى مدى قرنـين من الزمان، كانـت الأرض هي المتعدية على الميـاه؛ مما أدى إلى حدوث تلوث وتعرية ضخمين وغير مسـبوقين. لربما حـان الوقت للدعوة إلى هدنة بين الأرض والماء، بين أنفسنا والطبيعة.



تطور الإنسان The Evolution of Man، رسوم متحركة لنيكولاس غارلاند، 2009.

الصورة مقدمة من الفنان ومجموعة الأعلام البرقية

إن الخطوة الأولى في هذه العملية هي استيعاب أن الأرض والماء ليسا متضادين ولكنهما جزءان لا يفترقان من البيئات الانتقالية المتواصلة، خاصة على طول الساحل. يجب علينا أن نتخلى عن اعتقادنا «أزرق - الماء» التقليدي بأن المحيطات كينونات أولية أبدية، ونبدأ في تبني ما يمكن تسميته الفهم «البني - المياه» للطبيعة المهجنة، الحيوية لعوالمنا الســاحلية المائية. فقط بعد أن عكرنا المياه بعض الشيء نســتطيع الآن أن نبدأ في تمييز الطبيعة الســائلة لما أخطأنا فهمه على أنه أرض صلبة. وبمجرد أن ندرك أن الرياح، الأرض، والمياه كلها جزء من نظام حيوي تعد البشرية جزءا منه، فإننا ســنتفهم بشكل أفضل، ليس فقط كوكبنا الأرضي المائي terraqueous planet، ولكن كذلك أنفسنا.


الهوامش

المقدمة

(1) John A. Murray, introduction to The Seacoast Reader, ed. John A. Murray (New York: Lyons, 1999), xvii.

(2) Kristin M. Crossett et al., Population Trends along the Coastal United States, 1980–2009 (Washington, DC: National Oceanic and Atmospheric Administration, 2004); Don Hinrichsen, Coastal Waters of the World: Trends, Threats, and Strategies (Washington, DC: Island Press, 1998).

(3) John R. Gillis, "Being Coastal," California Coast and Ocean 23, no 1 (2007): 10–15.

(4) Rachel L. Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 15.

(5) Ruth Moore, "The Offshore Islands," in The Tired Apple Tree: Poems and Ballads (Noble- boro, ME: Blackberry Books), 1990.

(6) John Gillis, "Filling the Blue Hole in Environmental History," in The Future of Environmen- tal History: Needs and Opportunities, ed. Kimberly Coulter and Christof Mauch (Munich: Rachel Carson Center for Environment and Society, 2011), 16–18.

(7) للتمييز بين «العيش في» في مقابل «العيش على»، انظر:

Owe Ronstrom, "In or On? Island Words, Island Worlds, II," Island Studies Journal 6, no. 2 (2011): 277–44.

(8) James Hamilton-Paterson, Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Edi- tions, 2009), 23; Rachel L. Carson, The Edge of the Sea (Boston: Houghton Mifflin, 1998), 1.

الفصل الأول

(1) Rebecca Solnit, "Seashell to Ear," in Unraveling the Ripple, ed. Helen Douglas (Edinburgh: Pocketbooks, 2001), n.p.

(2) Eric Leed, The Mind of the Traveler: From Gilgamesh to Global Tourism (New York: Basic Books, 1991), 19; A Dictionary of Creation Myths, ed. David Leeming and Margaret Fleming (New York: Oxford University Press, 1995), 99; Max Oelschlaeger, The Idea of Wilderness: From Prehistory to the Age of Ecology (New Haven, CT: Yale University Press, 1991), 45–46; Christopher Connery, "There Was No

More Sea: The Suppression of the Oceans, from Bible to Cyberspace," Journal of Geographical History 32 (2006): 495–505.

(3) Dictionary of Creation Myths, 93–94, 111.

(4) Hugh Brody, the Other Side of Eden: Hunters, Farmers, and the Shaping of the World (New York: Free Press, 1994), 86, 13–14.

(5) Zygmunt Bauman, Liquid Times: Living in an Age of Uncertainty (Cambridge, UK: Pol-ity, 2007), 98–99; Steve Mentz, At the Bottom of Shakespeare's Ocean (London: Continuum, 2009), 98.

(6) هذه والاقتباسات اللاحقة من:

Robert Alter, Genesis: Translation and Commentary (New York: W. W. Norton), 1996.

(7) Alain Corbin, Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840 (Berkeley: University of California Press, 1994), 2, 5.

(8) Brody, Other Side of Eden, 97.

(9) Ibid., 118–23; also David Christian, Maps of Time: An Introduction to Big History (Berkeley: University of California Press, 2004), 181–91.

(10) Alan Dundes, "The Flood as Male Myth of Creation," in The Flood Myth, ed. A. Dundes (Berkeley: University of California Press, 1988), 167–82: W. H. Auden, The Enchafed Sea, or The Romantic Iconography of the Sea (New York: Random House, 1950), 45.

(11) Samuel Eliot Morison, "The Ancients and the Sea," in his Spring Tides (Boston: Houghton Mifflin, 1965), 45; Auden, Enchafed Sea.

(12) John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave/Macmillan, 2004), chaps 1–5.

(13) Helen M. Rozwadowski, Fathoming the Ocean: The Discovery and Explanation of the Deep Sea (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005), chap. 1; Gisli Palsson, Coastal Economics, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse (Manchester: Manchester University Press, 1991), 97–101.

(14) Gillis, Islands of the Mind, 10–16; Francis Pryor, Stonehenge: A Quest for Life and Death in Bronze Age Britain (London: Harper Perennial, 2008), 13.

(15) Steven Mithin, After the Ice: A Global Human History 20,000–5000 BC (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004), 3; Max Uhle, the Emeryville Shellmound, University of California Archaeology and Ethnology 7, no. 1 (Berkeley: University of California Press, 1907), 31.

(16) David Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers: Ecology and Prehistory," Current Antropology 21, no. 6 (December 1980): 734; Douglas J. Kennett, The Island Chumash: Behavioral Ecology in a Maritime Society (Berkeley: University of California Press, 2005); chap. 8; Jon M. Erlandson, "The Archaeology of Aquatic Adaptations: Paradigms for a New Millennium," Journal of Archaeological Research 9, no. 4 (December 2001): 738.

(17) انظر:

David R. Harris, "The Farther Reaches of Human Time': Retrospect on Carl Sauer as Prehistorian," Geographical Review 92 (2002): 526–44; Carl Sauer, Agricultural Origins and Dispersals (New York: American Geographical Society, 1952), 23–28, 96; Gisli Palsson, "Hunters and Gatherers," in History, Evolution and Social Change, ed. T. Ingold, D. Richer, and J. Woodburne (Oxford: Berg, 1988), 203; Roy Ellen, "Modes of Subsistence: Hunting and Gathering in Agriculture and Pastoralism," in Companion Encylopedia of An- thropology, ed. Tim Ingold '(London: Routledge, 1994), 206; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 727.

(18) Tom Koppel, Lost World: Rewriting Prehistory (New York: Atria Books, 2003), 121; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptions," 287–88, 304–5.

(19) Alister Hardy, "Was Man More Aquatic in the Past," New Scientist 7 (April 1960): 642–45.

(20) عندمـا نشر في العـام 1982، كان كتاب كاتبة العلوم النسـوية إلين مورجان شـديد الرواج بين العامـة، غير أنه تلقى نقدا لاذعا من علماء علم الإنسـان، وذلك لتوسعه في نظرية هاردي.

The Aquatic Ape (New York: Stein and Day, 1982), 21; Richard Ellis, introduction to Aquagenesis: The Origins and Evolution of Life in the Sea (New York: Viking), 2001.

(21) تواصل شخصي مع البروفيسور مايكل ويليامز، المؤرخ لساور أكتوبر،

Sauer, Agricultural Origins and Dispersalsm, October 28, 2008.

(22) Carl O. Sauer, "Seashore—Primitive Home of Man," in Land and Life: A Selection from the Writings of Carl Ortwin Sauer (Berkeley: University of California Press, 1963), 309.

(23) Ibid., 311.

(24) Rachel Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 14–15.

(25) Palsson, Coastal Economics, 64–66; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 294–305.

(26) يمكن تتبع مصير النظرية في:

"Aquatic Ape Hypothesis," http:/en.wikipedia.org/wiki/Aquatic_ape_hypothesis; also Simon Bearder. "Flood Brothers," BBC Wildlife 18, no. 6 (June 2000): 64–68;

الاستثناء هو في عمل فيليب ك. ستينبيرغ

The Social Construction of the Ocean (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2001); Palsson, Coastal Economics, 64–65; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 294–95.

(27) Spencer Wells, the Journey of Man: A Genetic Odyssey (New York: Random House), 2002.

(28) Ian Tattersall, The World from Beginnings to 4000 BCE (New York: Oxford University Press, 2008), chaps 4–5; Wells, Journey of Man, 47.

(29) Richard Forman and Michael Gordon, Landscape Ecology (New York: John Wiley and Sons, 1986), 497: Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 302.

(30) Michael A. Crawford, "A Role for Lips as Determinant of Evolution and Hominid Brain De- velopment," in Polyunsaturated Fatty Acids: Neural Foundation and Mental Health, ed. Ole G. Mouritsen and Michael M. Crawford (Copenhagen: Royal Danish Academy of Sciences and Letters, 2007), 7–32; Rowan Jacobsen, the Living Shore: Rediscovering a Lost World (New York: Bloomsbury, 2009), 117.

(31) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 289, 293, 331.

(32) Simon Winchester, Atlantic: Great Sea Battles, Heroic Discoveries, Titanic Storms, and a Vast Ocean with a Million Stories (New York: HarperCollins, 2010), 56–59.

(33) Curtis W. Marean et al., "Early Human Use of Marine Resources and Pigment in South Af- rica during the Middle Pleistocene," Nature 449 (2007): 905–8. Curtis W. Manean, "The African Evidence for the Origins of Modern Human Behavior," Nobel Lecture, Gustavus Augustus College, 2008, https://gustavus.edu/events/nobelconference/2008/marean-lecture.php.

(34) Robert Walker et al., "Early Human Occupants of the Red Sea Coast of Eritrea during the Last Interglacial," Nature 405 (May 4, 2000): 65–69: Marean, "African Evidence."

(35) Wells, Journey of Man, 99:

تشير الأبحاث الأخيرة حول اكتشافات الأدوات الصخرية المؤرخة إلى 127 ألف سنة مضت في شبه الجزيرة العربية إلى أن بعض كائنات الهوموسابيان لربما قد انطلقوا لمسافة أبعد من منطقة الشرق قبل أن يختفوا من الحياة.

"Findings Hint at Early Exit for Humans from Africa," New York Times, January 28, 2011, A4.

(36) Walker et al., "Early Human Occupants of the Red Sea Coast," 69: Nicolas Wade, Before the Dawn: Recovering the Lost History of Our Ancestors (New York: Penguin, 2009), chap. 5; Wells, Journey of Man, 80.

(37) Wells, Journey of Man, 68–76; Jacobsen, Living World, 108; Koppel, Lost World, xiii–xiv; Jon

M. Erlandson et al., "The Kelp Highway Hypothesis: Marine Ecology, the Coastal Migration Theory, and the Peopling of the Americas," Journal of Island and Coastal Archaeology 2 (2007): 161–74.

(38) Jacobsen, Living World, 113–15.

(39) Robert Van de Noort and Aidan O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology (London: Duckworth, 2006), chaps. 2–3; Brian M. Fagan, Ancient North America: The Archaeology of a Continent (London: Thames and Hudson, 1991), 72–73; Erlandson et al., "Kelp Highway," 170–71.

(40) Jacobsen, Living World, 96–97; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 296–98.

(41) Jacobsen, Living World, 96–97: Palsson, Coastal Economics, 52–53.

(42) William J. Mitsch and James Gosselink, Wetlands, 3rd ed. (New York: John Wiley, 2000), 3; Karin Sanders, Bodies in the Bog and the Archaeological Imagination (Chicago: University of Chicago Press), 2009.

(43) Bryony Coles and John Coles, People of the Wetlands: Bogs, Bodies, and Lake Dwellers (London: Thames and Hudson, 1989), chap. 2; Van de Noort and O'Sullivan, introduction to Rethinking Wetland Archaeology; V. Gaffney, S. Fitch, and D. Smith, Europe's Lost World: The Rediscovery of Doggerland (York, UK: Council for British Archaeology, 2009), 135–38.

(44) Gaffney, Fitch, and Smith, Europe's Lost World, 66; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Ad- aptations," 304.

(45) Grahame Clark, Starr Carr: A Case Study in Bioarchaeology (Reading, MA: Addison Wesley), 1972.

(46) Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 728; Kennett, Island Chumash, 15.

(47) Ibid.

(48) Dorothy B. Vitaliano, Legends of the Earth: Their Geologic Origins (Bloomington: Indiana University Press, 1973), chap. 7; Nancy J. Turner, Iaian J. Davidson-Hunt, and Michael O'Flaherty, "Living on the Edge: Ecological and Cultural Edges as Sources of Diversity for Social-Ecological Resilience," Human Ecology 31, no. 2 (September, 2001): 454–55; Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology, 70–75; Tony Pollard, "Time and Tide: Coastal Environments, Cosmology and Ritual Practice in Early Prehistoric Scotland," in The Early Prehistory of Scotland, ed. Tony Pollard and Alexi Morrison (Edinburgh: Edin- burgh University Press, 1996), 198–210.

(49) Dieter Gerten, "How Water Transcends Religion and Epochs: Hydrolatry in Early European Religion and Christian Syncretism," in A History of Water, ser. 2, vol. 1, ed. Terje Tvedt and Terje Oestigaard (London: I. B. Tauris, 2010), 323–42; Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology, chap. 2; Sanders, Bodies in the Bog.

(50) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 332.

(51) Turner, Davidson-Hunt, and O'Flaherty, "Living on the Edge," 454–55.

(52) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 323–34; Koppel, Lost World, 11, 213, 256; Jacobsen, Living Shore, 107–9; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 453–57, 727.

(53) John Noble Wilford, "On Crete, New Evidence of Very Ancient Mariners," New York Times, February 16, 2010, D1; Christian, Maps of Time, 181.

(54) Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 730.

(55) Mitsch and Gosselink, Wetlands, chaps. 1. 3; Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wet- land Archaeology, 36: Kennett, Island Chumash, chap. 2; Jacobsen, Living Shore, 42–47; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 734; Barry Cunliffe, Europe between the Oceans: Themes and Variations, 9000 BC–AD 1000 (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), 62–70.

(56) Cunliffe, Europe between the Oceans, 71, 272–30.

(57) Christian, Maps of Time, 185–87.

(58) Jacobsen, Living Shore, 98, 110.

(59) Cunliffe, Europe between the Oceans, 71; Palsson, "Hunters and Gatherers," 198–202.

(60) Kennett, Island Chumash, 24, and chap. 5; Ellen, "Modes of Subsistence," 205–6.

(61) Cunliffe, Europe between the Oceans, 89–139; Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology, 76, 99.

(62) Anna Ritchie, "The First Settlers," in The Prehistory of Orkney, ed. Colin Renfrew (Edin- burgh: Edinburgh University Press, 1985), 52; Pollard, "Time and Tide," 203–6.

(63) V. Gordon Childe, Skara Brae: A Pictish Village in Orkney (London: Kegan Paul, French, Trubner, 1931), 2; D. V. Clarke and Niall Sarples, "Settlement of Subsistence in the Third Millenium BC," in The Prehistory of Orkney, ed. Colin Renfrew (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1985), 81, 184.

(64) David Clarke and Patrick Maguire, Skara Brae: Northern Europe's Best Preserved Neolithic Village (Edinburgh: Historic Scotland, 2000), 27–29.

(65) Robert Tignor et al., Worlds Together, Worlds Apart: A History of the World (New York:W. W. Norton, 2008), 1:20; Jacobsen, Living Shore, 128.

الفصل الثاني

(1) Plato, Phaedo, trans. David Gallop (Oxford: Clarendon, 1975), 108c.

(2) Fernand Braudel, the Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II (New York: Harper and Row, 1972), 1:103.

(3) Rachel L. Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 3.

(4) Jonathan Raban, Coasting: A Private Voyage (New York: Penguin, 1988), 25.

(5) Felipe Fernandez-Armesto, Civilizations: Culture, Ambition, and the Transformation of Nature (New York: Free Press, 2001), chap. 7; Peregrine Horden and Nicholas Prucess, "The Mediterranean and 'the New Thalassocracy,'" American Historical Review 111, no. 3 (June 2006): 722–40.

يمكن الاطلاع كذلك على المعلومات عن الإمبراطورية البحرية في «ويكيبيديا»:

http://en.wikipedia.org/wiki/

(6) Fernandez-Armesto, Civilizations, 412.

(7) Michael Pearson, the Indian Ocean (London: Routledge, 2003), 3.

(8) Robert Walker et al., "Early Human Occupation of the Red Sea Coast of Eritrea dur-ing the Last Interglacial," Nature 405 (May 4, 2000): 65–69; Ian Tattersall, The World from Beginnings to 4000 BCE (New York: Oxford University Press, 2008), 56, 67, 91; Rainer Buschmann, Oceans in World History (Boston: McGraw-Hill, 2007), 12–14.

(9) Pearson, Indian Ocean, 50–51.

(10) Ibid., 47; K. N. Chauduri, Trade and Civilization in the Indian Ocean: An Economic History from Islam to 1750 (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 14–15; Michael Pearson, "Emulating the Mudskipper [Periophthalmus kroelreuteri]: Toward an Amphibious History," paper delivered at the meetings of the American Historical Association, San Diego, January 10, 2010, ms. 11–12.

(11) Pearson, Indian Ocean, 60.

(12) Ibid, 62.

(13) Nola Cooke and Lia Tana, eds., Water Frontier: Commerce and the Chinese in the Lower Mekong Region, 1750–1880 (London: Rowman and Littlefield, 2004), 1–17.

(14) Buschmann, Oceans in World History, 76–77.

(15) Nicholas Wade, Before the Dawn: Recovering the Lost History of Our Ancestors (New York: Penguin, 2006), 74–75.

(16) Patrick D. Nunn, Vanished Islands and Hidden Continents of the Pacific (Honolulu: University of Hawaii Press, 2009), v.

(17) Walter Grainge White, the Sea Gypsies of Malaya (Philadelphia: Lippincott, 1922), 58–60; Wade, Before the Dawn, 74–75.

(18) Astrid Lindenlauf, "The Sea as a Place of No Return in Ancient Greece," World Archaeol- ogy 35, no. 3 (2003): 421; Barry Cunliffe, Europe between the Oceans: Themes and Varations, 8000 BC–AD 1000 (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), 61.

(19) David Abulafia, introduction to The Great Sea: A Human History of the Mediterranean (Oxford: Oxford University Press, 2011); Peregrine Horden and Nicholas Purcell, The Cor- rupting Sea: A Study of Mediterranean History (Oxford: Blackwell, 2000), 133; Lindenlauf, "Sea as a Place of No Return," 417.

(20) H. C. Darby, "The Medieval Sea-State," Scottish Geographical Magazine 48, no. 3 (May 16, 1932): 136, 146.

(21) Fernandez-Armesto, Civilizations, 384; Pedrag Matvejevic, Mediterranean: A Cultural Landscape (Berkeley: University of California Press, 1990), 7, 10–11; Jonathan Raban, Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings (New York: Vintage, 1999), 95, 106.

(22) Horden and Purcell, Corrupting Sea, 11, 133; Tim Ingold, Lines: A Brief History (London: Routledge, 2007), 76–9, 152; John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 61–64.

(23) Ingold, Lines, 76–79, 152.

(24) Margaret Deacon, Scientists and the Sea, 1650–1900: A Study in Marine Science (London: Academic Press, 1971), 11.

(25) Braudel, the Mediterranean and the Mediterranean World, 161.

(26) Ibid., 109–15.

(27) Cunliffe, Europe between the Oceans, 89–99; 270–76; Horden and Purcell, Corrupting Sea, 134.

(28) Herodotus, quoted in Wolfgang Rudolf, Harbor and Town: A Maritime Cultural History (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), 9;

أدين بهذه الفكرة إلى مايكل بيرسون.

(29) Quoted from Plato's Laws, 4, cited in Steven Mentz, "Toward a Blue Cultural Studies: The Sea, Maritime Culture, and Early Modern English Literature," Literature Compass 6, no. 5 (2009): 998; Lindenlauf, "Sea as a Place of No Return," 416-33; Wallace Kaufman and Orrin H. Pilkey, the Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline (Durham, NC: Duke University Press, 1983), 152; Rudolf, Harbor and Town, 23-26.

(30) Robert D. Foulke, "Odysseus's Oar: Archetype of Voyaging," in Maritime History as World History, ed. Daniel Finamore (Gainesville: University Press of Florida, 2004), 184; Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World, 104; Alain Corbin, The Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750-1840 (Berkeley: University of Cali- fornia Press, 1994), 12.

(31) Denis Cosgrove, "Island Passages," in Bridging Islands: The Impact of Fixed Links. ed. G. Baldacchino (Charlottetown, PEI, Canada: Acorn, 2007), 17-19: on the notion of "inside- out" geography, see Horden and Purcell, Corrupting Sea, 133.

(32) Braudel, the Mediterranean and the Mediterranean World, 115-26: on varieties of Mediterranean peninsulas, see Matvejevic, Mediterranean, 20-21.

(33) انظر:

archipelago في Oxford English Dictionary.

(34) Gillis, Islands of the Mind, chaps. 3, 5.

(35) Ibid., 9, and chaps. 3, 5; Horden and Purcell, Corrupting Sea, 134; Cosgrove, "Island Pas- sages," 20-21.

(36) Braudel, the Mediterranean and the Mediterranean World, 160-61; Cunliffe, Europe between the Oceans, 3-5.

(37) Horden and Purcell, Corrupting Sea, 11.

(38) Cunliffe, Europe between the Oceans, chaps 3-5.

(39) Christopher Connery, "There Was No More Sea: The Suppression of the Ocean, from Bible to Cyberspace," Journal of Geographical History

32 (2006): 499–506; quote from Hesiod from Samuel Eliot Morison, The European Discovery of America: The Northern Voyages, A.D. 500–1600 (New York: Oxford University Press, 1992), 4.

(40) Matvejevic, Mediterranean, 17; Cunliffe, Europe between the Oceans, 258–64; Francis Pryor, Seahenge: A Quest for Life and Death in Bronze Age Britain (London: Harper Perennial, 2001), 140, 214; Cunliffe, Facing the Ocean, 10.

(41) Alan Villiers, The Western Ocean: The Story of the North Atlantic (London: Museum Press, 1957), 13; Cunliffe, Europe between the Oceans, 31, 38; Michal Mollet de Jourdon, Europe and the Sea (Oxford: Blackwell, 1993), 4; V. Gaffney, S. Fitch, and D. Smith, Europe's Lost World: The Rediscovery of Doggerland (York, UK: Council for British Archaeology, 2009).

(42) David Kirby and Merja-Liisa Hinkanen, The Baltic and the North Sea (London: Routledge, 2000), 28–30; Cunliffe, Facing the Ocean, 31, 48; Cunliffe, Europe between the Oceans, 72–80.

(43) Cunliffe, Europe between the Oceans, 138–39; Cunliffe, Facing the Ocean, 17, 136–38: Pryor, Seahenge, 68–69.

(44) Cunliffe, Facing the Ocean, 29–31, 138.

(45) Kirby and Hinkanen, the Baltic and the North Sea, 23.

(46) Cunliffe, Facing the Ocean, 34–35; Jonathan M. Wooding, Communications and Com- merce along Western Sealanes (Oxford: Tempvs Repartivm, 1996): Nils Stora, "Landscape, Territory, Autonomy, and Regional Identity: The Aland Islands in Cultural Perspective," in Nordic Landscapes: Region and Belonging on the Northern edge of Europe, ed. Michael Jones and Kenneth Olwig (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2008), 446; Darby, "Medieval Sea-State," 139.

(47) Darby, "Medieval Sea-State," 148–49; Lauren Burton, A Search for Sovereignty: Law and Geography in European Empires, 1400–1900 (Cambridge: Cambridge University Press, 2010), chaps 1, 3.

(48) Cunliffe, Europe between the Oceans 56; Gillis, Islands of the Mind, 47–51.

(49) Christian Buchet, The Eternal Sea (New York: Abrams, 2006), 9: Cunliffe, Facing the Ocean, 9.

(50) Lindenlauf, "Sea as a Place of No Return," 421; Karin Sanders, Bodies in the Bog and the Archaeological Imagination (Chicago: University of Chicago Press, 2009): Robert van de Noorte, "An Ancient Seascape: The Social Context of Seafaring in the Early Bronze Age," World Archaeology 35, no. 3 (2003): 404–15; Gillis, Islands of the Mind, 40: Paul Rainbird, "Islands of Time: Toward a Critique of Island Archaeology," Journal of Mediterranean Archaeology 12, no. 2 (1999): 216–34: Matvejevic, Mediterranean, 17.

(51) Matvejevic, Mediterranean, 17; Cunliffe, Facing the Ocean, 30–32; David Thomson, The People of the Sea: A Journey in Search of the Seal Legend (London: Barrie and Rockliffe, 1965); also "Selkie," http://en.wikipedia.org/wiki/Selkie.

(52) Dorothy Dinnerstein, The Mermaid and the Minotaur: Sexual Arrangements and Human Malaise (New York: Harper and Row, 1976), 2; Christer Westerdahl, "Seal on Land, Elk at Sea: The Ritual Landscape at the Seaboard," International Journal of Nautical Archaeology 34, no. 1 (2005): 2–23.

(53) Richard Ellis, Monsters of the Sea (New York: Alfred A. Knopf, 1995), 375; Yi-Fu Tuan, Landscapes of Fear (New York: Pantheon, 1979), 10; Corbin, Lure of the Sea, chap. 1.

(54) Ellis, Monsters of the Sea, 77–107, 372–76; Harriet Ritvo, The Platypus and the Mermaid and Other Figments of Classifying Imagination (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997), 89, 183.

(55) Colin Renfrew, Prehistory: The Making of the Human Mind (New York: Modern Library, 2009), 120–33; Paul Rainbird, The Archaeology of Islands (Cambridge: Cambridge Univer- sity Press, 2007), 12–15; Curtis Marean et al., "Early Human Use of Marine Resources and Pigment in South Africa during the Middle Pleistocene," Nature 449 (October 18, 2007): 905–8; Cunliffe, Facing the Ocean, 31, 362; Gillis, Islands of the Mind, 28.

(56) Charles Westin, "The Region and Its Landscapes," in The Baltic Sea Region: Cultures, Poli- tics, Societies, ed. Eitold Maciejewski (Uppsala, Sweden: Baltic University Press, 2002), 137–34; Zbigniew Kobylinski, "Ships, Society, Symbols, and Archaeologists,"in The Ship: A Symbol of Prehisoric and Medieval Scandinavia, ed. Ole Crumlin-Pederson and Birgitte Murch Thye (Copenhagen: National Museum, 1995),

9–18; Chris Ballard et al., "The Ship as Symbol in the Prehistory of Scandinavia and Southeast Asia," World Archaeology 35, no. 3 (2003): 385–403; Gunilla Larsson, Ship and Society: Maritime Ideology in Late Iron Age Sweden (Uppsala, Sweden: Department of Archaeology and Ancient History, 2007), 382.

(57) Larsson, Ship and Society, 254–57, 296–98.

(58) Dan Carlsson, "Harbors and Farms on Gotland," in Europeans or Not: Local Level Srategies on the Baltic Rim, ed. Nils Blankrist and Sven-Olaf Lindquist (Visby, Sweden: Centre for Baltic Studies, 1998), 115–21; in Vikings: The North Atlantic Saga, ed. William Fitzhugh and Elizabeth Ward (Washington, DC: Smithsonian, 2000), chap. 2.

(59) Kirsten Hastrup, "Icelandic Topography and Sense of Identity," in Nordic Landscapes: Re- gion and Belonging on the Northern Edge of Europe, ed. Michael Jones and Kenneth Olwig (Minneapolis: Minnesota University Press, 2008), 55; Simon Winchester, Atlantic: Great Sea Battles, Heroic Discoveries, Titanic Storms, and a Vast Ocean of a Million Stories (New York: HarperCollins, 2010), 79.

(60) مقتبسة في Magnus Magnusson and Hermann Pälsson، مقدمة لكتاب:

The Vinland Sagas: The Norse Discovery of America (London: Penguin, 1965), 15.

(61) Hastrup, "Icelandic Topography and Sense of Identity," 59.

(62) Ibid.; on this process, see James Hamilton-Paterson, The Great Deep: The Sea and Its Thresh- olds (New York: Random House, 1992), 67.

الفصل الثالث

(1) T.S. Eliot, "The Dry Salvages," The Four Quartets (New York: Harcourt, Brace and Jovano- vich, 1943), 36.

(2) The concept of "rimland" is Felipe Fernandez-Armesto's. See his Civilizations: Culture, Am- bition, and the Transformation of Nature (New York: Free Press, 2001), 309–15.

(3) Robert J. Hoeksema, Designed for Dry Feet: Flood Protection and Land Restoration in the Netherlands (Reston, VA: American Society of Civil Engineers, 2006), chap. 1; Basil B. Cracknell, Outrageous Waves: Global Warming and Coastal Change in Britain through Two

Thousand Years (Chichester, UK: Phillimore, 2005), preface; David Kirby and Meja-Liisa Hinkkanen, The Baltic and the North Sea (New York: Routledge, 2000), 24; Hubert Lamb, Historic Storms of the North Sea, British Isles, and Northwest Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), 17.

(4) V. Gordon Childe, Ancient dwellings at Skara Brae (Edinburgh: Her Majesty's Stationery Office, 1950), 6–7; Lamb, Historic Storms, 19–20; Kirby and Hinkanen, The Baltic and the North Sea, 25.

(5) Hans Meyer, City and Port: Urban Planning as a Cultural Venture in London, Barcelona, New York, and Rotterdam (Rotterdam: International Books, 1999).

(6) Kirby and Hinkanen, The Baltic and the North Sea, 24: Hoeksema, Designed for Dry Feet, 10–11.

(7) من توصيف للعام 1610 مقتبس في H. C. Darby, The Draining of the Fens (Cambridge: Cambridge University Press, 1956)، أنظر كذلك كتاب:

Robert Van de Noort and Aidan O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology (London: Duckworth, 2006), 77–78.

(8) Darby, Draining of the Fens, 56, 90.

(9) Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology, 78; Young in 1799, quoted in Darby, Draining of the Fens, 154; Patrick Sutherland and Adam Nicolson, Wetland: Life in the Somerset Levels (London: Michael Joseph, 1986), 7–8. In the Fenlands, the Isle of Ely

تقدم مثال آخر للشيء ذاته.

(10) Sutherland and Nicolson, Wetland, 23; Wolfgang Rudolph, Harbor and Town: A Maritime Culural History (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), 12–14.

(11) Barry Cunliffe, Facing the Ocean: The Atlantic and Its Peoples, 8000 BC–AD 1500 (New York: Oxford University Press, 2001), 553.

(12) John Dyson, Business in Great Waters: The Story of British Fishermen (London: Angus and Robertson, 1978), 35–41; Bonnie McCay, "The Culture of Commoners: Historical Observa- tion on Old and New World Fisheries," in The Question of the Commons: The Culture and Ecology of Communal Resources, ed. B. McCay and James Acheson (Tucson: University of Arizona Press, 1987), 196–201.

(13) Cunliffe, Facing the Ocean, 543; John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 27-28: Kirby and Hinkanen, The Baltic and the North Sea, 59.

(14) Orvar Loefgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in some Northern Atlantic Regions," in Modernization and Marine Fisheries Policy, ed. John Maolo and Michael Orband (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 154; Liv Schei and Gunnie Moberg, The Orkney Story (London: n.p., 1985), 147; Harold Fox, The Evolution of the Fishing Village (Oxford: Leopard's Head Press, 2001), chaps 2-3.

(15) Fox, Evolution of the Fishing Village, 35.

(16) Ibid.; Loefgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling," 155-76; M. A. Herubel, Peches maritimes (Paris, 1911), quoted in Harold A. Innis, The Cod Fisheries: The History of an International Economy, rev. ed. (Toronto: University of Toronto Press, 1978), 494.

(17) Steve Higgonson and Tony Wailey, Edgy Cities (Liverpool: Northern Lights, 2006), 68; Paul Thompson, Tony Wailey, and Trevor Lummis, Living the Fishing (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 12-13.

(18) Gisli Palsson, Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Dis- course (Manchester: Manchester University Press, 1991), 29-31; Kirby and Hinkanen, The Baltic and the North Sea, 186-87; John R. Gillis, Youth and History: Tradition and Change in European Age Relations, 1770-Present (New York: Academic Press, 1974), chap. 1.

(19) Thompson, Wailey, and Lummis, Living the Fishing, 4-14; W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communities and Marine Ecology in the Northwest Atlantic, 1500-1800," American Historical Review 113, no. 1 (February 2008): 46.

(20) Richard C. Hoffmann, "Economic Development and Aquatic Ecosystems in Medieval Eu- rope," American Historical Review 101, no. 3 (June 1996): 633; on evidence of recreational fishing, see Richard Hoffmann, Fisher's Craft and Lettered Art: Tracts on Fishing from the End of the Middle Ages (Toronto: University of Toronto Press, 1997); quote from Callum Roberts, The Unnatural History of the Sea (Washington, DC: Island, 2007), 159.

(21) Roberts, Unnatural History of the Sea, 636–42.

(22) Mark Kurlansky, Cod: A Biography of the Fish That Changed the World (New York: Walker, 1997), 24.

(23) Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 26–29.

(24) Roberts, Unnatural History of the Sea, chap. 2; quotation from ibid, 33.

(25) Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 26.

(26) Innis, Cod Fisheries, chaps. 3–6; Gerald M. Sider, Culture and Class in Anthropology and History: A New Foundland Illustration (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), 14–15.

(27) Lewes Roberts, Merchants Mappe of Commerce (London, 1638), quoted in Peter Pope, Fish into Wine: The Newfoundland Plantation in the Seventeenth Century (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2004), 234.

(28) Elizabeth Mancke, "Spaces of Power in the Early Modern Northeast," in New England and the Maritime Provinces, ed. Stephen J. Hornsby and John G. Reid (Montreal: McGill-Queens University Press, 2005), 32–33; D. H. Meinig, The Shaping of America (New Haven, CT: Yale University Press, 1986), 1:81.

(29) An Account of the Island of Prince Edward by a Late Resident of that Colony (London: James Aspeare, 1819), 14; Rosemary E. Ommer, From Outpost to Outport: A Structural Analysis of the Jersey-Gaspe Cod Fishery, 1767–1886 (Montreal: McGill-Queen's University Press, 1991), chap. 2.

(30) Roberts, Merchants Mappe of Commerce, 83–87; Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 32–35.

(31) Roberts, Merchants Mappe of Commerce, 99–113, 159.

(32) Elizabeth Mancke, "Early Modern Expansion and the Politicization of Oceanic Space," Geographical Review 89 (April 1998): 225–34.

(33) Lauren Benton, A Search for Sovereignty: Law and Geography in European Empires, 1400– 1900 (Cambridge: Cambridge University Press, 2010), chaps. 1–4; quote from James E. Vance, Capturing the Horizon: The Historical Geography of Transportation (New York: Harper and Row, 1986), 102.

(34) G. Malcolm Lewis, "Native North Americans' Cosmological and Geographical Awareness: Their Representations and Influence on

Early European Exploration and Geographical Knowledge," in North American Explorations, ed. John L. Allen (Lincoln: University of Nebraska Press, 1997), 1:81–82; Harold Prins, "Children of Gluskap: Wabanaki Indians on the Eve of European Invasion," in American Beginnings: Exploration, Culture, and Cartography in the Land of Norumbega, ed. Emerson W. Baker et al. (Lincoln: University of Nebraska Press, 1994), 75.

(35) John Stilgoe, "Archipelago Landscape," in Visions of America: Landscape as Metaphor in the Late Twentieth Century (New York: Harry M. Abrams, 1994), 74; Wilcomb E. Washburn, "The Intellectual Assumptions and Consequences of the Geographical Exploration of the Pacific," in the Pacific Basin, ed. H. Frits (New York: American Geographical Society, 1967), 327–28.

(36) Meinig, Shaping of America, 1:58; Benton, Search for Sovereignty, 46–50.

(37) Washburn, "Intellectual Assumptions and Consequences"; Douglas H. McManis, European Impressions of the New England Coast, 1497–1620, Research Paper 139 (Chicago: University of Chicago Department of Geography, 1972), 37–38; James Gibson, "The Exploration of the Pacific Coast," in North American Exploration, ed. John L. Allen (Lincoln: University of Nebraska Press, 1997), 2:328–96; James D. Drake, The Nation's Nature: How Continental Pre- sumptions Gave Rise to the United States of America (Charlottesville: University of Virginia Press, 2011).

(38) Stephen J. Pyne, How the Canyon Became Grand: A Short History (New York: Viking, 1998), 5; Pedrag Matvejevic, Mediterranean: A Cultural Landscape (Berkeley: University of Cali- fornia Press, 1990), 16; John F. Roberts, The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World (Berkeley: University of California Press, 2005), 7.

(39) Gillis, Islands of the Mind, 87–92; Donna Merwick, The Shame and the Sorrow: Dutch- American Encounters in New Netherlands (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006), 53, 28, 53, 88–89, 93.

(40) Dan G. Kelley, Edge of a Continent: The Pacific Coast from Alaska to Baja (Palo Alto, CA: American West, 1971), 272.

(41) Meinig, Shaping of America, 62, 65, 88.

(42) Ibid., 65.

(43) فكرة نقل المواشي البحرية تعود إلى

Rosemary Ommer's. Rosmary E. Ommer, "Rosie's Cove: Settlement Morphology, History, Economy, and Culture in a Newfoundland Outport," in Fishing Places, Fishing People: Tradition and Issues in Canadian Small-Scale Fisher- ies, ed. Dianne Newall and R. Ommer (Toronto: University of Toronto Press, 1994), 23; Pope, Fish into Wine, 251; Mancke, "Spaces of Power," 35.

(44) Innis, Cod Fisheries, chaps. 1–4; Sider, Culture and Class in Anthropology and History, chap. 2; Joseba Zulaika, Terranova: The Ethos and Luck of Deep-Sea Fishermen (Philadelphia: Insti- tute for the Study of Human Issues, 1981), 34.

(45) Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 32–33; Mancke, "Spaces of Power," 36–37.

(46) William Cronon, Changes in the Land: Indians, Colonists, and the Ecology of New England (New York: Hill and Wang, 1983), 37, 39, 51, 53.

(47) Ibid., 37; Charles C. Mann, 1491: New Revelations of the Americas before Columbus (New York: Alfred A. Knopf, 2005), chap. 2.

(48) Robert Swan, Coast, the Sea, Canadian Art (Stratford, ON: Gallery, 1978); John Stilgoe, Alongshore (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), ix; Benjamin Labaree et al., America and the Sea: A Maritime History (Mystic, CT: Mystic Seaport Museum, 1998), 4.

(49) Walter Prescott Webb, The Great Frontier (Austin: University of Texas Press, 1975), 2, 7–21; for a comprehensive survey of extractive frontiers,

من أجل مسح شامل للحدود المقتطفة، انظر:

John F. Richards, The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World (Berkeley: University of Cali- fornia Press), 2005.

(50) Cronon, Changes in the Land, chaps. 1, 3.

(51) John Smith, A Description of New-England, by Captain John Smith, in The Complete Works of Captain John Smith, 1550–1631, ed. Philip L. Barbour (Chapel Hill: University of North Carolina Press,

1986), 1:331, 333, 335, 347; Roberts, Unending Frontier, 33; Cronon, Changes in the Land, 22; Jonathan Raban, Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings (New York: Vintage, 1999), 62–63.

(52) Roberts, Unending Frontier, 33; Cronon, Changes in the Land, 22; Raban, Passage to Juneau, 62–36.

(53) حـول الطـرق المتعددة التي تغيرت من خلالها البيئـة الأمريكية قبل وصول الأوروبيين بزمن طويل، انظر Mann, 1491، عندما قتلت الأوبئة المنقولة عن طريق الأوروبيين 95 في المائة من الشعب الأمريكي الهندي، ما أدى إلى حدوث عمليـة إعادة تحريج ضخمة، حلت فترة باردة خلال ذلك الوقت كانت تعرف باسم العصر الجليدي الأصغر.

Lecture by Richard Nevle, Geography Department, University of California at Berkeley, February 16, 2011; Rowan Jacobsen, The Living Shore: Rediscovering a Lost World (New York: Bloomsbury, 2009), 3–12.

(54) M. J. Bowden, "The Invention of American Tradition," Journal of Historical Geography 18, no. 1 (1992): 3–12; Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 36; W. Jeffrey Bolster, "Opportunities in Marine Environmental History," Environmental History 11 (July 2006): 567–97; Geoff Bailey et al., "Historical Ecology of the North Sea Basin," in Human Impacts on Ancient Marine Ecosystems, ed. Torben Rich and Jon Erlandson (Berkeley: University of California Press, 2008), 215–42; J. B. C. Jackson, "What Was Natural in the Coastal Oceans," Proceedings of the National Academy of Sciences 98 (2001): 5411–18; J. B. C. Jackson et al., "Historical Overfishing and Recent Collapse in Coastal Ecosystems," Science 243 (2001): 629–39; Michael Pauly and Jay MacLean, In a Pefect Ocean: The State of Fisheries and Ecosystems in the North Atlantic Ocean (Washington, DC: Island, 2003), 15–16.

(55) Joseph E. Taylor, Making Salmon: An Environmental History of the Northwest Fisheries Crisis (Seattle: University of Washington Press, 1999), chap. 1. On Icelanders' view that fish deter- mined the fate of humans, see Gisli Palsson, Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse (Manchester: Manchester University Press, 1991), 129, 162.

(56) Arthur F. McEvoy, The Fisherman's Problem: Ecology and Law in the California Fisheries, 1850–1980 (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), chap. 2.

(57) Ommer, "Rosie's Cove," 116; Hugo Grotius, Mare Librum (1608), quoted in Philip Steinberg, The Social Construction of the Ocean (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 92; Mancke, "Spaces of Power," 32–49.

(58) Cronon, Changes in the Land, 38, 53; on Maine Indians, see Philip P. Conkling, Islands in Time: A Natural and Cultural History of the Islands of the Gulf of Maine, 2nd ed. (Camden, ME: Down East Books, 1999), chap. 1; Bunny McBride and Harold E. L. Prins, Indians in Eden: Wabanakis and Rusticators on Maine's Mount Desert Islands, 1840s–1920s (Rockland, ME: Down East Books, 2009), 1–5.

(59) Gerald C. Pocious, A Place to Belong: Community, Order, and Everyday Space in Newfoundland (Athens: University of Georgia Press, 1991), 200; Robert Mellin, House Launching, Slide Hauling, Potato Trenching, and other Tales from a Newfoundland Fishing Village (New York: Princeton Architectural, 2003); Robert Finch, The Primal Place (Woodstock, VT: Countryman, 1983), 100.

(60) Samuel Eliot Morison, The Maritime History of Massachusetts, 1783–1860 (Boston: Houghton Mifflin, 1921), 11; Daniel Vickers with Vince Walsh, Young Men and the Sea: Yankee Sea- farers in the Days of Sail (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 11; Joseph Reynolds, Peter Gott, the Cape Ann Fisherman (Boston: Jewett, 1956), 128; W. H. Bunting, Portrait of a Port: Boston, 1852–1914 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), 2–4.

(61) David Vickers, Farmers and Fishermen: Two Centuries of Work in Essex County, Massachu- setts, 1630–1850 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1994), 52–103; Reynolds, Peter Gott, 81; Bunting, Portrait of a Port, 6–7; Vickers and Walsh, Young Men and the Sea, 1–4.

(62) Vickers, Farmers and Fishermen, 108–41, 252.

(63) Alexis de Tocqueville, Democracy in America (New York: Alfred A. Knopf, 1945), 1:429.

(64) Susan Parman, Scottish Crofters: A Historical Ethnography of a Celtic Village (Fort Worth, TX: Holt, Reinhart and Winston, 1990), 73; Pocious, Place to Belong, 79; Mellin, House Launching, 110; Robert Finch, The Iambics of Newfoundland: Notes from an Unknown Shore (Berkeley, CA: Counterpoint, 2007), 59.

(65) Finch, Iambics of Newfoundland, 258; Eliot, "Dry Salvages," 36.

(66) Matvejevic, Mediterranean, 16; George Putz, The Maine Coast (Secaucus, NJ: Chartwell Books, 1985), 25.

الفصل الرابع

(1) Beryl Markham, West with the Night (San Francisco: North Point, 1983), 245.

(2) انظر مقدمة:

See Paul Carter, to The Road to Botany Bay: An Exploration of Landscape and History (New York: Alfred A. Knopf, 1981).

للبوسطنيين في 1800، كان «الساحل» هو الساحل الشرقي، حيث ركزوا عملياتهم التجارية.

Samuel Eliot Morison, the Maritime History of Massachusetts, 1783–1860 (Boston: Houghton Mifflin, 1961), 53; Paul Carter, "Dark with Excess of Light," in Mappings, ed. Denis Cosgrove (London: Reaktion Books, 1999), 125–47.

(3) حدث سواحل نوفا سكوشا للعام 1863، مقتبس من:

Ian McKay, "Among the Fisherfolk: J. F. B. Livesay and the Invention of Peggy's Cove," Journal of Canadian Studies / Revue d'etudes canadiens 27, nos. 1–2 (Spring 1988), 29–31; Alain Corbin, The Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840 (Berkeley: University of California Press, 1994), chap. 1; John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Cre- ated the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 10–12; Shauna McCabe, Lit- toral Documents (Charlottestown, PEI: Confederation Centre Art Gallery, n.d.), 12.

(4) Harold F. Wilson, The Jersey Shore: A Social and Economic History of the Counties of Atlan- tic, Cape May, Monmouth and Ocean (New York: Lewis Historical Publishing, 1953), chaps. 2–3.

(5) Karl F. Nordstrom et al., Living on the New Jersey Shore (Durham, NC: Duke University Press, 1986), 4; Christopher Camuto, Time and Tide in Acadia: Seasons on Mount Desert Island (New York: W. W. Norton, 2009), 1; Henry David Thoreau, The Maine Woods (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1972), 82; Donald W. Meinig, The

Shaping of America: Atlantic America, 1492–1800 (New Haven, CT: Yale University Press, 1986), 57–65; James E. Vance, Capturing the Horizon: The Historical Geography of Transportation (New York: Harper and Row, 1986), 110; James Drake, The Nation's Nature: How Continental Presump- tions Gave Rise to the United States of America (Charlottesville: University of Virginia Press, 2011).

(6) Vance, Capturing the Horizon, 102; David Hackett Fischer, Champlain's Dream (New York: Simon and Schuster, 2008), 105–226; Meinig, Shaping of America, 62.

(7) Martin W. Lewis and Karen E. Wigen, The Myth of Continents: A Critique of Metageography (Berkeley: University of California Press, 1997), 24–28.

حول موضوع الأراضي النائية، انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Hinterland.

(8) Camuto, Time and Tide in Acadia, 108; Carter, "Dark with Excess of Light," 125–47; Mark Monmonier, Coastlines: How Mapmakers Frame the World and Chart Environmental Change (Chicago: University of Chicago Press, 2008), chap. 11.

(9) Paul Shepard, Man in the Landscape: A Historic View of the Esthetics of Nature (New York: Alfred A. Knopf, 1967), 43; James Hamilton-Paterson, Seven Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Editions, 2009), 23, 59–60; Martin Lewis, "Dividing the Ocean Sea," Geographical Review 89 (1999): 199–200.

(10) Horace P. Beck, the Folklore of Maine (Philadelphia: Lippincott, 1957), chap. 1.

(11) Roger Stein, Seascape and the American Imagination (New York: Clarkson N. Potter, 1975), 4–8, 16; John Wilmerding, A History of American Marine Painting (Boston: Little, Brown, 1968), chaps. 1–8; David Tatham, "Winslow Homer and the Sea," in Winslow Homer in the 1890s: Prout's Neck Observed (New York: Hudson Hills, 1990), 81; John R. Gillis, "Artists on the Edge," paper delivered at "Art, Islands, and Islomania," Small Islands Cultures Research Initiative Conference, Guernsey, June 2010.

(12) Carter, "Dark with Excess of Light," 147.

(13) Nathaniel Philbrick, Mayflower: A Story of Courage, Community, and War (New York: Penguin, 2006), chap. 5.

(14) Alice Garner, A Shifting Shore: Locals, Outsiders, and the Transformation of a French Fish- ing Town, 1823-2000 (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005), 48-49; Carter, "Dark with Excess of Light," 125-47; Monmonier, Coastlines, chap. 11; McCabe, Littoral Documents, 18; JeanDidier Urbain, At the Beach (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 65.

(15) Tim Ingold, Lines: A Brief History (London: Routledge, 2007), 152; William H. Bunting, Portrait of a Port: Boston, 1852-1914 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), xvii.

(16) Martin Jay, "Scopic Regimes of Modernity," in Vision and Visuality, ed. Hal Foster (Seattle: Bay, 1988), 3-28.

(17) Allan Sekula, Fish Story (Dusseldorf, Germany: Richter Verlag, 1995), 53-54; Paul Theroux, "The True Size of Cape Cod," in Fresh Air Fiend (Boston: Houghton Mifflin, 2000), 148.

(18) John R. Stilgoe, Shallow Water Dictionary: A Grounding in Estuary English (New York: Princeton Architectural, 2004), 54, 56.

(19) John Brickerhoff Jackson, Discovering the Vernacular Landscape (New Haven, CT: Yale University Press, 1984), 14; Michael Pearson, "Littoral Society: The Concept and the Prob- lem," Journal of World History 17, no. 4 (December 2006): 356; David Kirby and Merja-Liisa Hinkamen, The Baltic and the North Sea (London: Routledge, 2000), 59.

(20) Raymond Lewis, Sea Coast Fortifications of the United States (Washington, DC: Smithsonian Press, 1970); Christopher Somerville, Coast: A Celebration of Britain's Coastal Heritage (London: BBC Books, 2005), 10; http//en.wikipedia.org/wiki/Martello_tower.

(21) Margaret Cohen, "Modernity and the Waterfront: The Case of Hausmann's Paris," in Urban Imaginations: Locating the Modern City, ed. Alexis Cinvar and Thomas Bender (Minneapo- lis: University of Minnesota Press, 2007), 68-69; Dirk Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts in Seaport Cities—Causes and Trends between Divergence and Convergence," in Port Cities as Areas of Transition: Ethnographic Perspectives, ed. Waltraud Kokot et al. (New Brunswick, NJ: Transaction Books, 2008), 25-46.

(22) Kirby and Hinkamen, The Baltic and the North Sea, 76–81; see map of dog hole ports at Whaling Station Museum, Point Lobos State Reserve, Carmel, CA.

(23) Kirby and Hinkamen, The Baltic and the North Sea, 82, 151; Fischer, Champlain's Dream, 112.

(24) Warren Goeschenstein, Historic American Towns along the Atlantic Coast (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1999), 11–12; remark by R. G. F. Candage, master mariner, 1881, quoted in Bunting, Portrait of a Port, 56.

(25) John Robert McNeill, Atlantic Empires of France and Spain: Louisbourg and Havana, 1700– 1763 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1983), 17.

(26) Donna Merwick, The Shame and the Sorrow: Dutch-Amerindian Encounters in New Netherlands (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006), chaps. 1–3, Bunting, Portrait of a Port, 2.

(27) Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29; Hans Meyer, City and Port (Rotterdam: International Books, 1999), 21; Vance, Capturing the Horizon, 102.

(28) Michael Reidy, Tides of History: Ocean Science and Her Majesty's Navy (Chicago: University of Chicago Press, 2008), 60–74.

باليابانية، isu تعني ميناء، nami تعني موجة، انظر «تسونامي» في ويكيبيديا، بدأ استعمال المصطلح بالإنجليزية في بدايات القرن العشرين ليصبح أخيرا مادة للبحث العلمي، انظر «تسونامي» في:

English Oxford Dictionary.

(29) Quoted in Gillis, Islands of the Mind, 125.

(30) Daniel Vickers with Vince Walsh, Young Men and the Sea: Yankee Seafarers in the Age of Sail (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 2–4, 28, 248–51.

(31) Bunting, Portrait of a Port, 5; Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29; Cohen, "Modernity and the Waterfront," 63, 67.

(32) Phillip Lopate, Waterfront: A Walk around Manhattan (New York: Random House, 2004), 15, 61; Meyer, City and Port, 33; Vickers and Walsh, Young Men and the Sea, 210; Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29, 43; Bunting, Portrait of a Port, 46, 451;

Wolfgang Rudolf, Harbor and Town: A Maritime Cultural History (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), chap. 2; Isaac Land, War, Nationalism, and the British Sailor, 1750–1850 (New York: Palgrave Macmillan, 2009), chaps. 1–4.

(33) Mark Kurlansky, The Big Oyster: History on the Half Shell (New York: Ballantine Books, 2006), xvii.

(34) Cohen, "Modernity and the Waterfront," 65; Herman Melville, Moby-Dick (New York: Barnes and Noble Books, 1993), 2.

(35) Melville, Moby-Dick, 3, 4; T. S. Eliot, "The Dry Salvages," in the Four Quartets (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1943), 36.

(36) June Nadal-Klein, Fishing the Heritage: Modernity and Loss along the Scottish Coast (Oxford: Berg, 2003), 8; Vickers and Walsh, Young Men and the Sea, 28.

(37) Paul Thompson, Tony Waily, and Trevor Lummis, Living the Fishing (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 9–13; Orvar Loefgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in Some North Atlantic Regions," in Modernization and Marine Fisheries Policies, ed. John Maiolo and Michael Orbach (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 151–55.

(38) Lena Lencek and Gideon Bosker, the Beach: The History of Paradise on Earth (New York: Penguin, 1999), 82.

(39) Harold Fox, The Evolution of the Fishing Village (Oxford: Leopold's Head, 2001), chap. 4; James Coull, "The Development of Fishing Communities with Special Reference to Scotland," in Managing Britain's Marine and Coastal Environments: Towards a Sustainable Future, ed. Horace D. Smith and Jonathan S. Potts (London: Routledge, 2005); Samuel Eliot Morison, The Maritime History of Massachusetts, 1783–1860 (Boston: Houghton-Mifflin, 1931), 11–12.

(40) Morrison, Maritime History; Jean-Didier Urbain, At the Beach (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 49–51.

(41) Thompson, Waily, and Lummis, Living the Fishing, 8–15; Daniel Vickers, Farmers and Fishermen (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1994), 130–32; Vickers and Walsh, Young Men and

the Sea, 250; Thompson, Waily, and Lummis, 8–9; Sarah Orne Jewett, The Country of the Pointed Firs and Other Fiction (New York: Oxford University Press, 1996), 20–21; Rudolf, Harbor and Town, 113–40.

(42) Corbin, Lure of the Sea, 211–27.

(43) Land, War, Nationalism, and the British Sailor, 161–64.

(44) Ibid, 158; John R. Stilgoe, Alongshore (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), 310–18.

(45) المادة المكتوبة حول مناظر الطبيعة المتخيلة موجزة في:

John Urry, Sociology beyond Societies: Mobilities for the Twenty-First Century (London: Routledge, 2000), 137–38; Stilgoe, Alongshore, 319–33; Ian McKay, The Quest for the Folk: Antimodernism and Cultural Selection in Twentieth Century Nova Scotia (Montreal: McGill and Queen's University Press, 1994), chap. 4; Dona Brown, Inventing New England: Regional Tourism and the Nineteenth Century (Washington, DC: Smithsonian Press, 1995), 120–21; James Overton, Making a World of Difference: Essays on Tourism, Culture, and Development in Newfoundland (St. Johns, NL: Institute for Social and Economic Research, 1996), 111–15.

(46) Earle Shettleworth and W. H. Bunting, An Eye on the Coast: The Maritime and Monhegan Island Photographs by Eric Hudson (Gardiner, ME: Tilbury House, 1998), 94; Robert Swan, Coasts, the Sea, Canadian Art (Stratford, ON: Gallery, 1978), unpaginated; Garner, Shifting Shore, 94; Brown, Inventing New England, 120–33.

(47) Garner, Shifting Shore, 94, chap. 10.

حول استيلاء البيض على الهويات الأمريكية الأصلية في أمريكا القرن التاسع عشر، انظر:

Philip DeLoria, Playing Indian (New Haven, CT: Yale University Press), 1998.

(48) McKay, Quest for the Folk, 28; Douglas Pope, DeGarthe: His Life, Marine Art, and Scupture (Hartsport, NS: Lancelot), 1989.

(49) McKay, Quest for the Folk, 39–41.

(50) Nadal-Klein, Fishing the Heritage, 171; Jan Goss, "Disquiet on the Waterfront: Reflection on Nostalgia and Utopia in Urban Archetypes of Festival Marketplaces," Urban Geography 17 (1966): 238.

(51) McKay, "Among the Fisherfolk," 29; Urbain, At the Beach, 37; George H. Lewis, "The Maine That Never Was: The Construction of Popular Myth in Regional Culture," Journal of Ameri- can Culture 16, no. 2 (Summer 1997): 95; McKay, Quest for the Folk, 250.

(52) Rachel Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 19; Reidy, Tides of History, 75-89.

(53) Lord Curzon of Kedleston, Frontiers: The Romanes Lecture of 1907 (Oxford: Clarendon, 1907), 13.

(54) Alexis de Tocqueville, Democracy in America (New York: Alfred A. Knopf, 1945), 421-34; Denis Cosgrove, "Worlds of Meaning: Cultural Geography and the Imagination," in Rereading Cultural Geography, ed. Kenneth Foote et al. (Austin: University of Texas Press, 1994), 390-91; also Eric Leed, The Mind of the Traveler: From Gilgamesh to Global Tourism (New York: Basic Books, 1991), 19; Drake, Nation's Nature; John Seelye, Memory's Nation: The Place of Plymouth Rock (Chapel Hill: University of North Carolina Press), 1998.

(55) John Whitehead, "Hawai'i: The First and Last Far West," Western Historical Quarterly 23, no. 2 (May 1992): 153-77; Jonathan Raban, Coasting: A Private Voyage (London: Penguin Books, 1987), 300-301.

(56) Adrian Room, Dictionary of Places Names in the British Isles (London: Bloomsbury, 1988), 206, 216-17.

أود أن أشكر جراي بريغن لسماحه لي بقراءة مقاله غير المنشور:

"Sacred Force: Ishi Meets the End of the Trail."

(57) Gillis, Islands of the Mind, 13-14, 56; W. H. Hudson, The Land's End: A Naturalist's Impression of West Cornwall (London: J. M. Dent and Son, 1923), 52.

(58) Voyage Round Great Britain, undertaken in the summer of the Year 1813 and commending from Land's-End, Cornwall by Richard Ayton and views by William Daniell (London: Long- man, Hurst, Rees, Orme and Brown, 1814), iv-2.

(59) Hudson, Land's End, iii, 52; Fred Gray, Designing the Seaside: Architecture, Society and Nature (London: Reaktion Books, 2006), chap. 1.

(60) Hudson, Land's End, 45.

(61) Ibid, 299.

(62) Ibid., 302; David Lowenthal, "Living with and Looking at Landscape," Landscape Research 32, no. 5 (October 2007): 643; Loren Baritz, "The Idea of the West," American Historical Re- view 66, no. 2 (April 1961): 637–40; Nathaniel Philbrick, foreword to American Sea Writing: A Literary Anthology, ed. Peter Neill (New York: Library of America, 2000), xv.

(63) مقتبس من:

John McKinney, A Walk along Land's End: Discovering California's Unknown Coast (New York: HarperCollins, 1995), VI; see http://en.wikipedia.org/wiki/Navies_of_landlocked_countries.

(64) Paul Theroux, the Kingdom by the Sea: A Journey around Great Britain (Boston: Houghton- Mifflin, 1985), 5.

(65) John Cheever, The Wapshot Chronicle (New York: Harper and Brothers, 1954), 188–89; McKinney, Walk along Land's End, 172; on beach glass, see Cornelia Dean, Against the Tide: The Battle for America's Beaches (New York: Columbia University Press, 1999), 238–39.

الفصل الخامس

(1) Jonathan Raban, Oxford Book of the Sea (Oxford: Oxford University Press, 1992), 3.

(2) Helen M. Rozwadowski, Fathoming the Ocean: The Discovery and Exploration of the Deep Sea (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005), 4; James Hamilton-Paterson, Seven Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Editions, 2009), 210.

(3) W. H. Auden, the Enchafed Flood, or the Romantic Iconography of the Sea (London: Faber and Faber, 1951), 19.

(4) Donald Wharton, "The Colonial Period," in America and the Sea: A Literary History, ed. Haskell Springer (Athens: University of Georgia Press, 1995), 32–38; Nathaniel Philbrick, The Mayflower: A Story of Community, Courage, and War (New York: Viking, 2006).

(5) Steve Mentz, At the Bottom of Shakespeare's Sea (London: Continuum, 2009); Raban, Oxford Book of the Sea, 4–7; Margaret Cohen, The Novel and the Sea (Princeton, NJ: Princeton University Press), 2010.

(6) Carl Schmitt, Land und Meer: Eine weltgeschichtliche Betrachtung (Leipzig: Reklam, 1942), 66.

كلمة hinterland مشــتقة مــن الألمانية، وقد اســتخدمت بالإنجليزية لأول مرة في العام 1888 كمرادفــة لمعنى back country أو الريف الخلفي، انظر مقال ويكيبيديــا حــول الأراضي النائيــة /http://en.wikipeida.org/wiki Hinterland.

إن مفهــوم كلمــة heartland أو الأرض الداخليــة يعــود إلى العــام 1904، عندمــا نشر هالفورد جــي. ماكيندر كتابــه The Scope and Methods of Geography and the Geographical Pivot of History والــذي أعيــدت طباعته عن طريق London's Royal Geographical Society في العام 1951.

(7) Cohen, The Novel and the Sea, 109–19; Hans Blumenberg, Shipwreck with Spectator: Paradigm of a Metaphor for Existence (Cambridge, MA: MIT Press, 1997), 8; Margaret Cohen, "The Chronotopes of the Sea," in The Novel, ed. Franco Moretti (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2006), 1.2:658.

(8) Raban, Oxford Book of the Sea, 27.

(9) Rozwadowski, Fathoming the Ocean, 17; Hamilton-Paterson, Seven Tenths, 146.

(10) مقتبس عن:

William Cronon, foreword to Majorie Hope Nicolson, Mountain Gloom and Mountain Glory: The Development of the Aesthetics of the Infinite (Seattle: University of Washington Press, 1997), xviii; Lena Lencek and Gideon Bosker, The Beach: The History of Paradise on Earth (New York: Penguin Books, 1998), 54–56; Jules Verne, Twenty Thousand Leagues under the Sea (New York: Signet, 2001), 12.

(11) Jonathan Raban, Coasting: A Private Voyage (New York: Penguin, 1987), 8; Raban, Oxford Book of the Sea, 9–10;

لمزيد من البحث:

Philip Steinberg, The Social Construction of the Ocean (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 118–21; Cohen, The Novel and the Sea, chap. 4.

(12) من أجل أمثلة من بداية العصر الحديث، انظر:

John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), chap. 3.

حول العصر الحديث، انظر:

Raban, Oxford Book of the Sea, 28–29.

(13) Cynthia F. Behrman, Victorian Myths of the Sea (Athens: Ohio University Press, 1977), 12–21; Raban, Oxford Book of the Sea, 3.

(14) Behrman, Victorian Myths of the Sea, 13–14, 21–22; Raban, Oxford Book of the Sea, 20–22; Philip Plisson, The Eternal Sea (New York: Abrams, 2006).

(15) Verne, Twenty Thousand Leagues under the Sea, 12.

(16) Haskell Springer, America and the Sea: A Literary History (Athens: University of Georgia Press, 1995), 17–21.

(17) Robert Louis Stevenson, from "The English Admirals," 1881, in Raban, Oxford Book of the Sea, 285; Blumenberg, Shipwreck with Spectator, 8; Roger Marsters, "Fathoming the Ocean's Perils: Romantic Conceptions of the Sea and British Admiralty Hydrology, 1829–1853,".

جرى تقديم الورقة في the Age of Sail conference, Vancouver, 7–10- 2010

(18) Quoted in Christiana Payne, "Seaside Visitors: Idlers, Thinkers and Patriots in Mid-19th Century Britain," in Water, Leisure and Culture: European Historical Perspectives, ed. Su- san C. Anderson and Bruce H. Tabb (Oxford: Berg, 2002), 103; Behrman, Victorian Myths of the Sea, chaps. 3–5; Peter Unwin, The Narrow Sea: Barrier, Bridge, and the Gateway to the World—The History of the English Channel (London: Headline Books, 2003); Springer, America and the Sea, 26.

(19) Quoted in Payne, "Seaside Visitors," 99; Behrman, Victorian Myths of the Sea, 21; Thomas Cole, the Journey of Life: A Cultural History of Aging in America (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), 118–27.

(20) Auden, Enchafed Flood, 23; Steinberg, Social Construction of the Ocean, 191–92; Alain Corbin, the Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840 (Berkeley: University of California Press, 1994), 171; Payne, "Seaside Visitors," 90–93; John

R. Gillis, "Birth of the Virtual Child: Origins of Our Contradictory Images of Children," in Childhood and Its Discontents: The First Seamus Heaney Lectures, ed. Joseph Dunne and James Kelly (Dublin: Liffey, 2002), 31–50.

(21) Helen Rozwadowski, "Ocean: Fusing the History of Science and Technology with Environmental History," in Blackwell's Companion to American Environmental History, ed. Douglas Cazaux Sackman (Oxford: Wiley-Blackwell, 2010), 447; Mircea Eliade, Patterns of Compar- ative Religion (New York: Meridian, 1963), 431-34.

(22) Hugh Clark, "Frontier Discourse and China's Maritime Frontier: China's Frontiers and the Encounter with the Sea through Early Imperial History," Journal of World History 20, no. 1 (March 2009): 20-21; Rozwadowski, Fathoming the Ocean, 7.

(23) W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communities and Marine Ecology in the Northeast Atlantic, 1500-1800," American Historical Review 113, no. 1 (February 2008): 19-47.

(24) Steinberg, Social Construction of the Ocean, 202.

(25) Bunny McBride and Harold E. L. Prins, Indians in Eden: Wabanakis and Rusticators on Maine's Mount Desert Island, 1840s-1920s (Rockland, ME: Down East Books, 2009), 84.

(26) Henry David Thoreau, Cape Cod (Mineola, NY: Dover Books, 2004), 133.

(27) Ibid., 2-3, 112.

(28) Blumenberg, Shipwreck with Spectator, 67; Robert Foulke, The Sea Voyage Narrative (New York: Twayne, 1997), 12; Washington Irving, "The Voyage," in American Sea Writing: A Literary Anthology, ed. Peter Neill (New York: Library of America, 2000), 61.

(29) Raban, Oxford Book of the Sea, 15: Jonathan Raban, Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings (New York: Vintage, 1999), 103-4; quotation from William Cronon, Changes in the Land (New York: Hill and Wang, 1983), 4.

(30) Steinberg, Social Construction of the Ocean, 191.

(31) William Cronon, "The Trouble with Wilderness, or Getting Back to the Wrong Nature," in Uncommon Ground, ed. William Cronon (New York: W. W. Norton, 1995), 79.

لا يذكر كرونان البحر بشـــكل مباشر، غير أن مناقشته للبرية تنطبق على البحر كذلك. Cape Cod, 133

(32) Thoreau, "Paradise (to Be) Regained," in The Works of Thoreau, ed. Henry Seidel Canby (Boston: Houghton Mifflin, 1937), 779; see Hugh

Egan, "Cooper and His Contemporaries," in America and the Sea: A Literary History, ed. Springer, 76–77; Whitman quoted in Na- thaniel Philbrick, American Sea Writing, xvi.

(33) "Chasing the shore" is a phrase used on Prince Edward Island. See David Weale, Chasing the Shore: Little Stories about Spirit and Landscape (Charlottestown, PEI: Tangle Lane, 2007), 9; Dickinson's "Exultation is the going," found in Raban, Oxford Book of the Sea, 256–57.

(34) Wells in Oxford Book of the Sea, 179–80, 217.

(35) Karl F. Nordstrom, Living with the New Jersey Shore (Durham, NC: Duke University Press, 1986), xi.

(36) حول الأراضي الرطبة أو المستنقعات، انظر:

Rod Giblett, Postmodern Wetlands: Culture, History, Ecology (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1996).

من أجل نظرة عامة، انظر:

Godfrey Baldacchino, "Replacing Materiality: A Western Anthropology of Sand," Annals of Tourism Research 37, no. 3 (2010): 763–78.

(37) Michael Taussig, "The Beach (A Fantasy)," Critical Inquiry 26, no. 2 (Winter 2000): 256.

(38) Orvar Loefgren, On Holiday: A History of Vacationing (Berkeley: University of California Press, 1999), 113.

(39) Susan C. Anderson, "Cultural Ideas of Water and Swimming in Modern Europe," in A History of Water, series 2, ed. Terji Tvedt and Terji Oestigaard (London: I. B. Tauris, 2010), 1:250–54; Jean-Didier Urbain, At the Beach (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 78–94; Harold F. Wilson, The Jersey Shore: A Social and Economic History of the Counties of Atlantic, Cape May, Monmouth and Ocean (New York: Lewis Historical Publish- ing, 1953), chap. 15.

(40) Wilson, Jersey Shore, 431; Anderson, "Cultural Ideas of Water and Swimming," 258–62.

(41) Payne, "Seaside Visitors," 96; Rozwadowski, Fathoming the Ocean, 104–7; John R. Stilgoe, introduction to W. H. Bunting, The Camera's Coast: Historic Images of Ship and Shore in New England (Boston:

Historic New England, 2006), 11; Bernd Brunner, The Ocean at Home: An Illustrated History of the Aquarium (New York: Princeton Architectural Press, 2003); Edmund Gosse, quoted in Paul Theroux, Kingdom by the Sea: A Journey around Great Britain (Boston: Houghton Mifflin, 1983), 351.

(42) Fred Gray, Designing the Seaside: Architecture, Society and Nature (London: Reaktion Books, 2006), 135, 201, 225; Wilson, Jersey Shore, 536; Urbain, At the Beach, 30–31; Charles E. Funnell, By the Beautiful Sea: The Rise and High Times of the Great American Resort Atlantic City (New York: Alfred A. Knopf, 1975), 11–12.

(43) Alice Garner, A Shifting Shore: Locals, Outsiders, and the Transformation of a French Fishing Town (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005), 174.

(44) Urbain, At the Beach, 37, 85; Gray, Designing the Seaside, 132; Garner, Shifting Shore, vii.

(45) Urbain, At the Beach, 59–60.

(46) حول دور الخلاء، انظر:

Gillis, Islands of the Mind, chap. 2.

(47) انظر كلمة Beach في Oxford English Dictionary; Urbain, At the Beach, chap. 9.

(48) Marc Auge, Non-places: Introduction of an Anthropology of Supermodernity, trans. John Howe (London: Verso, 1995); Lofgren, On Holiday, 237.

(49) Lofgren, On Holiday, 212, 227; Theroux, Kingdom by the Sea, 166; John Walton, the British Seaside: Holidays and Resorts in the Twentieth Century (Manchester: Manchester University Press, 2000), 36–49; Wilson, Jersey Shore, 1011.

(50) Corbin, Lure of the Sea, VI; Taussig, "Beach," 270; Gillis, "Birth of the Virtual Child."

(51) Urbain, At the Beach, 139; John R. Gillis, A World of Their Own Making: Myth, Ritual, and the Quest for Family Values (New York: Basic Books, 1996), 104–8; Gillis, Islands of the Mind, 156–65; Payne, "Seaside Visitors," 91–93.

(52) Robert B. Edgerton, Alone Together: Social Order on an Urban Beach (Berkeley: University of California Press, 1979), 169.

حول العلاقة بين الرياضة العنيفة والساحل، انظر:

John Brinkerhoff Jackson, "Places for Fun and Games," in Landscape in Sight, ed. Helen Horwitz (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), 1–18.

(53) حول ظاهرة التصوير الساحلي، انظر:

John R. Stilgoe, introduction to W. H. Bun- ting, The Camera's Coast: Historic Images of Ship and Shore in New England (Boston: His- toric New England, 2006), 7–9; Cornelia Dean, Against the Tide: The Battle for America's Beaches (New York: Columbia University Press, 1999), 3; Jan de Graaf, preface to Europe: Coast Wise, ed. Jan de Graaf and D'Laine Camp (Rotterdam: 010 Publishers, 1997); Edger- ton, Alone Together, 6.

(54) Orvar Loefgren and Billy Eng, The Secret World of Doing Nothing (Berkeley: University of California Press, 2010), 31–33; David E. Sopher, Observations on Strand Habitats and Cultures of South Asia (Berkeley: Center for South Asian Studies, 1959), 24.

(55) Gillis, Islands of the Mind, 146; Payne, "Seaside Visitors," 92.

(56) Loefgren, On Holiday, 123; Kate Flint, The Victorians and the Visual Imagination (Cam- bridge: Cambridge University Press, 2000), 285–86; Yi-Fu Tuan, Topophilia: A Study of Environmental Perception, Attitudes, and Values (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1974), 115; Edward Casey. "Borders and Boundaries: Edging into the Environment," in MerlouPonty and Environmental Philosophy: Dwelling on the Landscapes of Thought, ed. Suzanne Cataldi and William Hemrick (Albany: State University of New York Press, 2007), 69; Vincent Crapanzono, Imaginative Horizons: An Essay in Literary-Philosophical Anthropol- ogy (Chicago: University of Chicago Press, 2004), 14.

(57) Theroux, Kingdom by the Sea, 188.

(58) W. G. Sebald, the Rings of Saturn (New York: New Directions, 1998), 52.

(59) Herman Melville, Moby-Dick (New York: Barnes and Noble / New Directions, 1998), 52: Mathew Arnold, "Dover Beach," 1867, in

Oxford Book of the Sea, ed. Raban, 275–76; Loefgren and Eng, Secret World of Doing Nothing, 36.

(60) Roger F. Stein, Seascape and the American Imagination (New York: Clarkson N. Potter, 1975), 16; Steinberg, Social Construction of the Ocean, 171; Taussig, "Beach," 258.

(61) Loefgren, On Holiday, 116.

(62) John R. Stilgoe, Alongshore (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), 407; Urbain, At the Beach, 137.

(63) Quoted in Theroux, Kingdom by the Sea, 351.

(64) Quoted in ibid; Loefgren, On Holiday, 236; Margaret Drabble quoted in Coastline: Britain's Theatrical Heritage (London: Kingfisher Books, 1987), 37.

الفصل السادس

(1) Felipe Fernandez-Armesto, Civilizations: Culture, Ambition, and the Transformation of Nature (New York: Free Press, 2001), 408.

(2) John A. Murray, introduction to The Seacoast Reader, ed. Murray (New York: Lyons, 1999), xvii; Jan de Graff with D'Laime Camp, eds., Europe: Coast Wise (Rotterdam: 010, 1997), 93–94.

(3) Mollat du Jourdan, Europe and the Sea (Oxford: Blackwell, 1993), chap. 1; Fernandez- Armesto, Civilizations, 462–63.

(4) Orrin H. Pilkey and Rob Young, The Rising Sea (Washington, DC: Island, 2009), 171; Mike Davis, Ecology of Fear: Los Angeles and the Imagination of Disaster (New York: Metropolitan Books, 1998), chaps 1–3.

(5) "Impact of 'Jaws' Has Anglers and Bathers on Lookout," New York Times, July 11, 1975, 20, J. A. Robinson and A. Barnett, "Jaws Neurosis," letter, New England Journal of Medicine 293, no. 22 (November 27, 1975): 1154–55.

(6) Horace D. Smith and Jonathan S. Potts, "People of the Sea," in Managing Britain's Marine and Coastal Environments: Toward a Sustainable Future, ed. Smith and Potts (London: Routledge, 2005), 7; s.v. "continental," in OED; Daniel Vickers with Vincent Walsh, Young Men and the Sea: Yankee Seafarers in the Age of Sail (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 248–49.

(7) David Helvarg, Blue Frontier: Saving America's Living Seas (New York: W. H. Freeman, 2001), chaps 1, 4.

(8) Nicholas Crane, quoted by Neil Oliver, foreword to Coast: A Celebration of Britain's Coastal Heritage by Christopher Somerville (London: BBC Books, 2005), 6.

(9) أوليفر، تقديم لـ Coast.

(10) أفضل مناقشة لمفهوم Lost في الثقافات الحديثة مقدم من:

Sumathi Ramaswamy, The Lost Land of Lemuria: Fabulous Geographies, Catastrophic Histories (Berkeley: Univer- sity of California Press), 2004.

(11) حول مفهوم النسج أو Looming، انظر:

John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 143.

(12) Alan Sekula, Fish Story (Düsseldorf: Richler Verlag, 1999), 134.

(13) Sekula, Fish Story, 49; Fernandez-Armesto, Civilizations, 463.

(14) David Kirby and Merja-Liisa Hinkanen, the Baltic and North Seas (London: Routledge, 2000), 149.

(15) Mark Kurlansky, the Last Fish Tale (New York: Ballantine Books, 2008), 136; Callum Roberts, the Unnatural History of the Sea (Washington, DC: Island, 2007), 203–4.

(16) Gisli Palsson, Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse (Manchester: Manchester University Press, 1991), 64–65, 110: Paul Thompson, Tony Wailey, and Trevor Lummis, Living the Fishing (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 20–30; Orvar Loefgren, "From Peasant Fishery to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in Some North Atlantic Regions," in Modernization and Marine Fishing Policy, ed. John Mailo and Michael Orbach (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 158–59.

(17) Kirby and Hinkanen, Baltic and North Seas, 246; Vickers and Walsh, Young Men and the Sea, 210; for 1823 quotation, see Roberts, Unnatural History of the Sea, 163; Joseph E. Taylor III, Making Salmon: An Environmental History of the Northwest Fisheries Crisis (Seattle: University of Washington Press, 1999) chap. 1; Arthur F.

McEvoy, The Fisherman's Problem: Ecology and Law in the California Fisheries, 1850–1980 (Cambridge: Cambridge University Press, 1980); Roberts, Unnatural History of the Sea, chap. 20; John F. Richards, The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World (Berkeley: University of California Press, 2005), 568.

(18) Loefgren, "From Peasant Fishery to Industrial Trawling," 151–53; M. Estelle Smith, introduc- tion to Those Who Live from the Sea: A Study of Maritime Anthropology (St. Paul, MN: West, 1977), 1–22; W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communi- ties and Marine Ecology in the Northeast Atlantic, 1500–1800," American Historical Review 113, no. 1 (February 2008): 47; Kurlansky, Last Fish Tale, 246.

(19) Gisela Jaaks, ed., Der Traum von der Stadt am Meer: Hafenstadte aus aller Welt (Ham- burg: Hamburg Museum, 2003); Steve Higginson and Tony Wailey, Edgy Cities (Liver- pool: Northern Lights, 2006); Phillip Lopate, Waterfront: A Walk around Manhattan (New York: Anchor Books, 2005), 15; Margaret Cohen, "Modernity on the Waterfront: The Case of Hausmann's Paris," in Urban Imaginaries: Locating the Modern City, ed. Alev Cinar and Thomas Bender (Minneapolis: Minnesota University Press, 2007), 55–75; W. H. Bunting, Portrait of a Port: Boston, 1852–1914 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), xvii, Mark Kurlansky, The Big Oyster: History on the Halfshell (New York: Ballantine Books, 2006); Jan de Graaf and D'Laine Camp, eds., Europe: Coast Wise; An Anthology of Reflections on Architecture and Tourism (Rotterdam: 010 Publishers, 1997), 114–25; Tormod Kleindal, "Men's Response to Changes in the Coastal Zone of Norway," in Coastal Zone: Men's Response to Change, ed. Kenneth Ruddle et al. (London: Harwood, 1988), 185.

(20) Peter Hall, "Waterfronts: A New Urban Frontier," Aquapolis 1, no. 1 (1991): 6; Alex Roland, W. Jeffrey Bolster, and Alexander Keysaar, The Way of the Ship: America's Maritime History Reenvisioned, 1600–2000 (New York: John Wiley, 2007), pt. 5; on Europe, see Kirby and Hinkanen, Baltic and North Seas, 255–59.

(21) Sekula, Fish Story, 50, 54, 116; Hall, "Waterfronts," 5–8; Lopate, Waterfront, 227–30; Wolfgang Rudolf, Harbor and Town: A Maritime Cultural History (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), chap. 2; Kirby and Hinkanen, Baltic and North Seas, 261.

(22) Lopate, Waterfront, 227; Hans Meyer, City and Port: Urban Planning as a Cultural Venture in London, Barcelona, and Rotterdam (Rotterdam: International Books, 1999), chap. 1.

(23). Hall, "Waterfronts," 6–11.

(24) Lopate, Waterfront, 286; Josef W. Konvitz, Cities and the Sea: Port City Planning in Early Modern Europe (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978) 186; Meyer, City and Port, 189.

(25) Ann L. Buttenwieser, Manhattan Water-Bound: Manhattan's Waterfront from the Seventeenth Century to the Present, 2nd ed. (Syracuse: Syracuse University Press, 1999), 207–8; Meyer, City and Port, 25; Kurlansky, Big Oyster, xvi; on Europe, see de Graaf and Camp, Europe: Coast Wise, 14.

(26) Lopate, Waterfront, 232.

(27) Somerville, Coast, 7; Walter Kaufman and Orrin H. Pilkey, The Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline (Durham, NC: Duke University Press, 1988), 270; James Hamilton-Paterson, Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Editions), 2009 chap. 2; Alex Kerr, Dogs and Demons: The Fall of Modern Japan (London: Penguin, 2001), 18–19.

(28) Paul Carter, "Dark with Excess of Light," in Mappings, ed. Denis Cosgrove (London: Reaktion Books, 1999), 147; Adam Nicolson, On Foot: Guided Walks in England, France, and the United States (New York: Crown, 1998), 121, 78–79; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, chaps. 5, 7.

(29) Andrew Rise, "A Stake in the Sand," New York Times Magazine, March 21, 2010, 79; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, 35; Samuel Eliot Morison, the Maritime History of Massachusetts, 1783–1860, 4th ed. (Boston: Houghton Mifflin, 1961), 3.

(30) John Walton, The British Seaside: Holidays and Resorts in the Twentieth Century (Manches- ter: Manchester University Press, 200), 69; Harold F. Wilson, The Jersey Shore (New York: Lewis Historical Publishing, 1953), 2:1010; Warren Beamscher, Historic American Towns along the Atlantic Coast (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1999), 67; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, chaps 7-10.

(31) John C. Sawhill, introduction to The Seacoast Reader, ed. John A. Murray (New York: Lyons, 1999), xi; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, 183-84; Frances Ruley Karttunen, "A History of Road and Ways in Nantucket County," unpublished manuscript, 2008; Rise, "Stake in the Sand," 66.

(32) Jan Goss, "Disquiet on the Waterfront: Reflection on Nostalgia and Utopia in Urban Arche- types of Festival Marketplaces," Urban Geography 17 (1996): 238; June Nadel-Klein, Fishing for Heritage: Modernity and Loss along the Scottish Coast (Oxford: Berg, 2003), 184, 188, 206-10.

(33) Nadel-Klein, Fishing for Heritage, 206, 210.

(34) Joshua Moore, "The Last Port," http://www.domeast.com/node/13322.

(35) John Fowles, Islands (Boston: Little, Brown, 1978), 17; Gillis, Islands of the Mind, 81; Peter H. Wood, Weathering the Storm: Winslow Homer's "Gulf Stream" (Athens: University of Georgia Press, 2004), 16-17.

(36) Wood, Weathering the Storm, 72-81.

(37) Richard G. Fernicola, Twelve Days of Terror: A Definitive Investigation of the 1916 New Jersey Shark Attacks (Guildford, CT: Lyons, 2002).

(38) Richard Ellis, the Book of Sharks (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1975), 172; an ac- count of its origins is found in Peter Matthiessen's Blue Meridian: The Search for the Great White Shark (New York: Random House, 1971).

(39) Richard Ellis, Men and Whales (New York: Alfred A. Knopf, 1991), 457-60; Helen Rozwadowski, Fathoming the Ocean: The Discovery and Exploration of the Deep Sea (Cambridge, MA: Harrvard University Press, 2005), 26.

(40) Ellis, Men and Whales, 250, 462.

(41) Hamilton-Paterson, Seven-Tenths, 109.

(42) Gillis, Islands of the Mind, 145; Tom Killion, Fortress Marin (n.p., n.d.).

(43) Gered Lennon et al., Living with the South Carolina Coast (Durham, NC: Duke University Press, 1996), 4.

(44) Patrick Beaver, A History of Lighthouses (London: Peter Davis, 1971), 136; Lennon et al., Living with the South Carolina Coast, 8.

(45) Kevin Blake, "Lighthouse Symbolism in the American Landscape," Focus on Geography 50, no. 1 (Summer 2007): 14.

(46) Hugh Morton, "Cost, Risk Too Great," News and Observer (Raleigh, NC), February 15, 1998, reprinted at http://ncsu.edu/coast/chl/article2.html; Pilkey and Young, Rising Sea, 174–75, Blake, "Lighthouse Symbolism," 4.

(47) كتابـان للكاتب يي - فون توان يبحثان طبيعة الخوف والرغبة بالنسـبة إلى سمات سطح الأرض المختلفة، انظر:

Landscapes of Fear (New York: Pantheon, 1979) and Topophilia: A Study of Environmental Perceptions, Attitudes, and Values (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1974).

(48) Richard Sexton, Parallel Utopias: The Quest for Community, with essays by Ray Olden-burg and William Turnbull (San Francisco: Chronicle Books, 1995); Donlon Lydon and Jim Alinder, The Sea Ranch (New York: Princeton Architectural, 2004), 13–14.

(49) Lydon and Alinder, Sea Ranch, 287–89; Lawrence Halprin, the Sea Ranch: Diary of an Idea (Berkeley, CA: Spacemaker, 2002), 17, 25.

(50) Halprin, Sea Ranch, 41; Lyndon and Alinder, Sea Ranch, 13; Adam Nicolson, Sissinghurst: An Unfinished History (London: Harper, 2009), 319.

(51) Susan Casey, the Wave: In Pursuit of the Rogues, Freaks, and Giants of the Ocean (New York: Doubleday), 2010.

(52) Robert Swan, Coasts, the Sea, and Canadian Art (Stratford, ON: Gallery, n.d.), no pagination.

(53) David Weale, Chasing the Shore: Little Stories about Spirit and Landscape (Charlottetown, PEI: Tangle Lane, 2007), 9–12; Casey, Wave, 112–13.

الخاتمة

(1) Rachel Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 15.

(2) حول الاختلافات في تعريف المنطقة الساحلية، انظر:

"How Many People Live in Coastal Areas," Journal of Coastal Research 23, no. 5 (September 2007): iii–vi; Don Hinrichsen, "Coasts in Crisis," US Geological Survey, 2008, http://pubs.usgs.gov/circ/c1075/intro.html; also Andrew Goldie, The Human Impact on the Natural Environment, 6th ed. (Oxford: Blackwell, 2005), 243; Christian Buchel, The Eternal Sea (New York: Abrams, 2006), 329; Gary Griggs and Laurent Savoy, Living with the California Coast (Durham, NC: Duke University Press, 1985), 1; American Shore and Beach Preservation Association, "Fact Sheet: Restoring America's Beaches: Myth and Reality," fact sheet, n.d., http://www.asbpa.org/publications/fact_sheets/pubs_fs_myth_reality.htm.

(3) Edward Wenk, the Politics of the Sea (Seattle: University of Washington Press, 1972), 170.

(4) محضر اجتماع لاتحاد محمية الســاحل والشــاطئ الأمريكي Coney Island, NY, 1928, 6.

(5) Robert Thompson, "Cultural Models and Shoreline Social Conflict," Coastal Management35 (2007): 227.

(6) Orrin H. Pilkey and Rob Young, The Rising Sea (Washington, DC: Island, 2009), 162–63.

(7) Michael S. Kearney, "Late Holocene Sea Level Variations," in Sea Level Rise: History and Consequences, ed. Bruce C. Douglas, Michael S. Kearney, and Stephen P. Leatherman (San Diego: Academic Press, 2001), 13–38; W. Tad Pfeffer et al., "Kinesmatic Constraints on Glacier Contributions to 21st Century Sea Level Rise," Science 321 (2008): 1340–43.

(8) Kazuyuki Kolke, "The Countermeasures against Coastal Hazards in Japan," Geojournal 38, no. 3 (1996): 301–12; Stephen Leatherman, "Social and Economic Costs of Sea Level Rise," in Sea Level Rise, ed. Douglas, Kearney, and Leatherman, 182–83; Norimitsu Onishi, "A Japanese Town's 'Great Wall' Provided a False Sense of Security," New York Times, April 2, 2011, A4–5; Norimitsu Onishi, "Seawalls Offered Little Protection against Tsunami's Crushing Waves," New York Times, March 14, 2011, A8; Peter Kahn, The Human Relationship with Nature: Development and Culture (Cambridge, MA: MIT Press, 1999), 7.

(9) Pilkey and Young, Rising Sea, xi; Robert J. Hoeksema, Designed for Dry Feet: Flood Protection and Land Reclamation in the Netherlands

(Reston, VA: American Society of Civil Engi- neers, 2006), chaps. 1, 7; Simon Winchester, Atlantic (New York: HarperCollins, 2010), 415; Karl F. Nordstrom et al., Living with the New Jersey Shore (Durham, NC: Duke University Press, 1986), 4–5.

(10) Nordstrom et al., Living with the New Jersey Shore, 4-5; Peter Matthiessen, Men's Lives (New York: Vintage, 1988), 3–63; Bay Men Collection, tape 1052, Folk Life Archives, Library of Congress, Washington, DC.

(11) Nordstrom et al., Living with the New Jersey Shore, xi; Bay Men Collection, interview with Rich Rofihe, Case Files, Folk Life Archives, Library of Congress.

(12) William Sargent, Just Seconds from the Ocean: Coastal Living in the Wake of Katrina (Hanover, NH: University Press of New England, 2007), 1–6.

(13) Wallace Kaufman and Orrin H. Pilkey Jr., The Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline (Durham, NC: Duke University Press, 1983), xiii, 3, 21, 160–63, 176.

(14) Robert Kronenberg, Houses in Motion: The Genesis, History, and Development of the Portable Building, 2nd ed. (Chichester, UK: John Wiley and Sons, 2002), 24–25; Nobuhiro Suzuki, "Floating Houses in Seattle," Aquapolis 1 (1996): 36-41; David Wolf, "The Houseboats of Sausalito: From Arks to Anarchy and Recent Re-gentrification," Aquapolis 1 (1996):28-35Ted Laturnus, Floating Homes: A Houseboat Handbook (Vancouver, BC: Harbour, 1986), 17.

(15) Steven Kurutz, "A Fluid Definition of Self-Sufficiency," New York Times, June 4, 2008, D4; on Seasteading, see http://en.wikipedia.org/wiki/seasteading; Eamonn Fingleton, "Sea- steading: The Great Escape," Prospect 169 (2010).

(16) Griggs and Savoy, Living with the California Coast, 372; Joseph Kelley et al., Living on the Coast of Maine (Durham, NC: Duke University Press, 1989), 12; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, 289.

(17) Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, 113–14.

(18) Eviatar Zerubavel, the Fine Line: Making Distinctions in Everyday Life (New York: Free Press, 1991), 115–22.

(19) الاقتباس من هينريكسون لـ "Coasts in Crisis".

المؤلف في سطور

جون آر. غيليس

- يُدرِّس في جامعة روتجرز Rutgers University، ويقيم معظم أيام السنة في بيركلي، في كاليفورنيا.
- دَرَّس في عدد من الجامعات المرموقة مثل برينستون وستانفورد، كما أنه وضع زائر في عدد من المؤسسات الأكاديمية المهمة مثل أكسفورد.
- لـه عدد كبير من المؤلفات، كان أولها بعنـوان Prussian Bureaucracy in Crisis, 1840-1860: Origins of an Administrative Ethos، والذي صدر في العام 1971.

المترجمة في سطور

د. ابتهال عبدالعزيز الخطيب

- من مواليد الكويت العام 1972.
- حصلت على بكالوريوس الأدب الإنجليزي من جامعة الكويت في العام 1996، وماجستير الأدب الإنجليزي من جامعة إنديانا في بنسلفانيا في العام 1998، ودكتوراه الأدب الإنجليزي من جامعة بول ستيت في إنديانا العام 2003.
- لها أبحاث منشورة حول المسرح الحديث والمعاصر، ولها عدد من الترجمات مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته. وفي حالة الترجمة ترسل نسخة

مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة والمترجمة ـ من نسختين مطبوعتين.

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرامكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص ب 372	+202 25782700-25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص ب 13683 - زنقه سجلماسه - بلفدير - ص ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس - ص ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	----	+973 17 617733	----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذيبة - سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	----	+964 700776512 +964 780662019	----
نيويورك	Media Marketing	Long Island City. NY 11101 - 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	----	+218 217297779	----

تنويـــه

للاطـلاع علـى قائمـة كتـب السلسـلة انظـر عدد ديسـمبر (كانـون الأول) مـن كل سـنة، حيـث توجد قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة في السلسلة منذ يناير 1978.

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	15 د . ك
للمؤسسات	25 د . ك

دول الخليج

للأفراد	17 د . ك
للمؤسسات	30 د . ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقدا أو بشيك باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 1196/ 1195/ 1194/ 1193/1153/ 1152

قسيمة اشتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

البيان	سلسلة عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		جريدة الفنون	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسات داخل الكويت	25		12		12		20		12	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		8	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24			36
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12			24
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		48
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		36
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		36
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		24

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

هذا الكتاب...

كان البشر، حتى من قبل التاريخ المسجل، يحتشدون دوما بالقرب من الماء. غير أنه ومع استمرار تدفق الأعداد السكانية المتزايدة حول العالم في اتجاه السواحل، بدرجة غير مسبوقة، ومع ارتفاع منسوب المياه المستمر بسبب التغيرات المناخية، بدأت علاقتنا بالبحار تأخذ أبعادا جديدة وكارثية الاحتمال. إن آخر جيل من سكان السواحل يعيش جاهلا بشكل كبير بتاريخ من سبقوه، وبالبيئة الطبيعية، وبالحاجة إلى العيش باستقرار على سواحل العالم. لقد نسيت البشرية كيفية التعايش مع المحيطات.

يستعيد جون آر. غيليس، مؤلف هذا الكتاب، وهو توثيق فطن لأكثر من 100 ألف سنة للحضارات الساحلية، التجربةَ الساحلية منذ أصولها الأولى بين البشر الذين عاشوا على امتداد الساحل الأفريقي، وصولا إلى صخب وروعة المدن الضخمة والمنتجعات البحرية اليوم. يأخذ غيليس القارئ منطلقا من الموقع الساحلي المحتمل إلى جنة عدن، مرورا بالجماعات التي تكونت على الشواطئ، والخلجان، والجداول النهرية، منذ بداية المجتمع الإنساني، وصولا إلى الدور الحاسم الذي أدته السواحل خلال عصر الاكتشافات والإمبراطوريات. إن توثيق التحركات الجماعية لشعوب بأكملها في اتجاه السواحل، خلال نصف القرن الأخير، يستدرج قصة الحياة الساحلية إلى الحاضر.

خلال هذه الرحلة، يتناول غيليس موضوع تغير علاقة البشرية مع البحر، وذلك من منطلق بيئي، مستعرضا تاريخ صنع، وإعادة صنع، مناظر الطبيعة الساحلية - بناء الموانئ، واستنزاف الأراضي الرطبة، وبداية الحيوانات البحرية وانقراضها، واختراع فكرة الشاطئ، وذلك بينما يزودنا بإدراك عالمي لعلاقتنا بالماء.

إن «الساحل البشري»، من حيث كونه كتابا تثقيفيا وشخصيا جدا، هو في الواقع أكثر من مجرد تاريخ، إنه قصة نطاق لطالما كان ذا أهمية مركزية من حيث أمزجة، وخطط، ووجود هؤلاء الذين يعيشون ويحلمون عند أطراف اليابسة.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 465- 8
رقم الإيداع (2015/893)